

العلاقة

بين البلاغية والنقدية
حتى نهاية القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتورة نوال محمد الزرقان سلطان

فصلكم

الأستاذ الدكتور

عبد القادر حسين

رئيس قسم البلاغية والنقدية
كلية الدراسات ادمية كويتية والبحرية
جامعة الكويت - الكويت

الأستاذ الدكتور

مازن عبد القادر المبارك

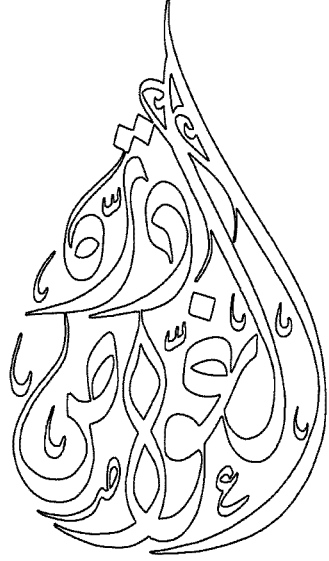
رئيس قسم البلاغية العربية
كلية الدراسات ادمية كويتية والبحرية
جامعة الكويت - الكويت



دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع

خارجة من بيروت - وعطلة مستبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



العنوان : العلاقة بين البلاغة والنقد
حتى نهاية القرن الرابع الهجري
تأليف : الدكتورة نوال عبد الرزاق سلطان
تقديم : الدكتور مازن المبارك
والدكتور عبد القادر حسين
عدد الصفحات : ٥٣٣ صفحة
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة
التحويل من Word إلى Abjad والإخراج عليه :
زياد ديب السروجي

حُفُوقُ الطَّبَعِ مَحْفُوظَةٌ

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير
والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها
من الحقوق إلا بإذن خطي من



دَارُ الْبَشَائِرِ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

دمشق - شارع ٢٩ أيار - جادة كرجية حداد

هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩

ص.ب ٤٩٢٦ سورية - فاكس ٢٣١٦١٩٦

الموقع : www.daralbashaer.com

البريد الإلكتروني : info@daralbashaer.com

الكتب والدراسات التي تصدرها
الدار لا تعني بالضرورة تبني الأفكار
الواردة فيها ؛ وهي تُعبّر عن آراء
واجتهادات أصحابها .

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨ م

مكتبة
الدكتور نور الدين غواص

العلاقة

بين البلاغة والنقد

حتى نهاية القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور نوال عبد الرزاق سلطان

قدّم له

الأستاذ الدكتور

عبد القادر حسين

رئيس قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - القاهرة

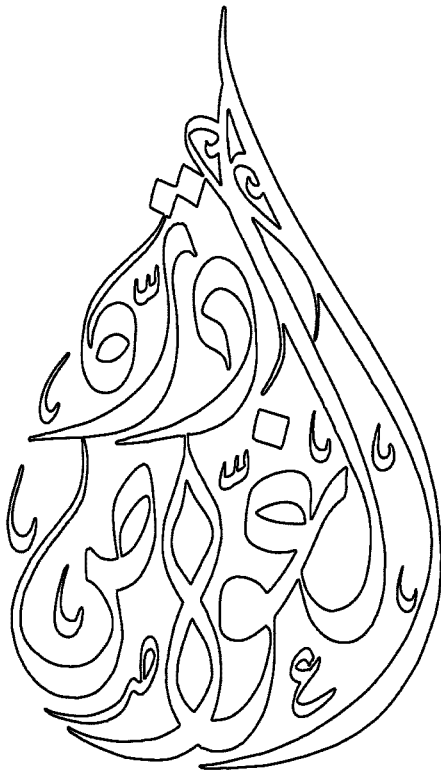
الأستاذ الدكتور

مازن عبد القادر المبارك

رئيس قسم اللغة العربية
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي - الإمارات العربية المتحدة

دار البشائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إليك ربي . . .

إليك ثمرة ما أعطيت ووهبت . . .

وإلى لغتي العربية المقدسة أقول :

أتقبلين يا لغتنا الجميلة التي اختارك بديع السموات والأرض وعاء لآخر الرسائل

وأكملها هديتي هذه ؟

أم أنك تعتبين على أبنائك أن قصروا في حقك ، وفرطوا في حمايتك عتبَ الواجد

الواقق ؟

ها أنذا أقدم جهد المقل إلى مقامك الرفيع ، ومنزلتك التي بلغك الله إياها ،

وحسبك فخراً - وأستميحك العذر لما كان منا تجاه جواهرك النفيسة ، وأساليبك

الرفيعة - وأستطلع شمسك تسطع في ليل ترامت في أجوائه النجوم . . .

كما أقدم هذه الرسالة عربون وفاء ، ورمز إجلال وإكبار لكل الذين أدلوا دلاءهم

في محيط لغتنا العربية ، وغرفوا منه ما جلى أوجه الجمال ، وأطلع أصدافاً تفتقت عن

أبهى لآلئ المعاني ، وأروع ترانيم المباني .

وإلى كل غيور على لغة القرآن الكريم ، يحرسها بما أوتي من إخلاص . . .

وإلى كل واقف على مجالي جمالها ، ومظاهر روائعها . . .

وإلى سلفنا الصالح ، حيث أنفق من فكره ووقته يميظ اللثام عن وجوه البيان

الحسان من لغتنا ، فكانت مكتبة عامرة ، وجهوداً مشكورة .

وإلى علمائنا المعاصرين الذين صبروا وصابروا في ميادين الذب عن حياض اللغة

وإثبات صلاحيتها لاستيعاب العصر بكل عطاءاته . . .

أقدم هذا الجهد المتواضع .

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور مازن المبارك

رئيس قسم اللغة العربية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد، فقد قرأت كتاب « العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري » الذي وضعته الدكتورة نوال عبد الرزاق سلطان وسررت بموضوعه فلقد كانت لي عناية سابقة بموضوعه حين وضعت كتابي « الموجز في تاريخ البلاغة » وقلت إن البلاغة العربية كانت كلمة رائجة على لسان ابن الصحرء وإن النقد كان حكماً على الكلمة البليغة أطلقه سامع متذوق .

إن تلك الأحكام التي أطلقها أصحابها المتذوقون من خطباء وشعراء هي النواة الأولى التي نمت وربت وآتت أكلها فيما بعد في كتب اللغة والأدب والنقد والبلاغة وشروح الشعر، حيث عاشت البلاغة ملازمة للنقد، وحيث نما النقد مستعيناً بما عرفوه من مقاييس الفصاحة وفنون البلاغة .

لقد كانت البلاغة عندهم في أول النشأة بنت الفطرة التي تهديهم إلى الجميل من القول، والموجز من التعبير، والمعجب من الصورة، دون أن يكون لذلك عندهم علم نظري يؤولون إليه ويستهدون به . وكانت أكثر أحكامهم نقدية بلاغية، وكانت البلاغة عنصراً من عناصر النقد مما جعل النقد والبلاغة متلازمين بل ممتزجين في آثارهم وكتبهم سواء أغلبت عليها اللغة أم النقد أم البلاغة، وكان لموضوع الإعجاز القرآني أثره البعيد في الاتساع والنضج . وقد ظهر كل ذلك في كتب الجاحظ، والمبرد، والإمام ثعلب، والآمدي، والقاضي الجرجاني، وابن رشيق، والخفاجي . ولعل أوضح ما يظهر اتكاء النقد على البلاغة ما قاله أبو هلال العسكري وهو « إن البلاغة

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

تجوّد اللغة حتى يستطيع صاحبها أن يميّز جيّد الكلام من رديئه « وهل النقد إلا تمييز جيّد الكلام من رديئه؟! »

وظلت عناصر النقد والبلاغة متصلة في تراثنا إلى أن أصبح كل منهما علماً نظرياً له فروع ومصطلحاته واتجاهه النظري وتعريفه وحدوده وكتبه المستقلة . . . ثم زادت الهوة بينهما في العصور المتأخرة .

وكتاب « العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري » الذي نالت به السيدة نوال عبد الرزاق سلطان درجة الدكتوراه من كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر ، إنما يؤرخ لتلك القرون الأربعة الأولى من حياة البلاغة والنقد ، وقد أعدته بإشراف الأستاذ الدكتور عبد القادر حسين رئيس قسم البلاغة والنقد في الكلية المذكورة ، وهو أستاذ جليل زادت كتبه على العشرين كتاباً في البلاغة وأصولها وعلومها وفي بلاغة القرآن وإعجازه وتحليل الكثير من نصوصه .

وأما المؤلفة فقد عرفت يوم نالت درجة الماجستير من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق في موضوع « النداء في القرآن الكريم » ثم عرفت مدرّسة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمشق ، وكانت من خيرة المدرّسين والمدرّسات علماً وسلوكاً وغيره على العربية . وقد تميز بحثها الذي تنشره اليوم بتناوله عدداً من الأدباء تتبعت موضوعها عندهم وذلك باستعراضها آثارهم واحداً واحداً إذ بدأت بالجاحظ ، فابن قتيبة ، فالمبرد ، فثعلب ، فابن المعتز ، ثم ابن طباطبا ، والصولي ، وقدامة ، والأمدي ، والقاضي الجرجاني ، وختمت بأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ . ولخصت ما وصل إليه بحثها من نتائج فجزاها الله خيراً وأثابها عن العلم وأهله أحسن الثواب .

والحمد لله رب العالمين

مازن المبارك

مقدمة بقلم المشرف على الرسالة

أ . د . عبد القادر حسين

البلاغة والنقد علمان متلازمان منذ القرون الأولى في العصر الجاهلي ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالناقد يستشهد بالأساليب البلاغية ، والمشتغل بعلوم البلاغة يستعين بالآراء التي توصل الناقد البصير ، فكلاهما يصبّ في ماعون الآخر دون أن يشعر القارئ بالفرقة بينهما ؛ لأن هدف كل منهما الوصول إلى العبارة السليمة البليغة ، ووسيلة التعرف إليها ؛ ولكن بعض الأدباء كان يغلب عليهم الطابع البلاغي دون أن تتوغل مؤلفاتهم في القضايا النقدية ، فكان اهتمامهم بإنشاء عبارة فصيحة بليغة ، وبيان ما فيها من جمال ؛ بسبب نظمها وما يتفاعل مع هذا الجمال من مجازات أو كنايات أو محسنات . وبعضهم صبّ جل اهتمامه بنقد العبارة ، وما آل إليه النص أو انحرف عنه من أسباب جعلته رائقاً جميلاً أو كزاً قبيحاً ، ويبين للكاتب معالم الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ، فالمنبع واحد ، والهدف واحد ، يسيران جنباً إلى جنب في خط متوازٍ ، يجاور أحدهما الآخر - البلاغة والنقد - حتى يصلا في النهاية إلى قيمة واحدة هي إبراز الجمال أو القبح .

وتبدو هذه المعالم واضحة شديدة الوضوح في القرون الأربعة الأولى من الهجرة ، بما ترخر به مؤلفات النقاد والبلاغيين من إبداع وجمال وتذوق ، نرى هذا الإبداع والحكم الصائب السديد فيما تركوه لنا من كتب خالدة صمدت دهوراً أمام عواتي الرياح وعواصف الدهور ، والآراء الوافدة التي تحاول أن تطمر جواهرنا وآراءنا ، وتطمس معالمنا ومشاعرنا ، التي كشفت عنها ذخائر تراثنا مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والبديع لابن المعتز ، والموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ، والصناعتين للعسكري . هؤلاء الأعلام الذين اهتموا إلى مواطن الجمال ، واستنبطوا منها أسس النقد ، كانوا موضع دراسة الباحثة الدؤوب د/ نوال عبد الرزاق سلطان التي أفنت شبابها وزهرة عمرها في بيان هذه العلاقة الوثيقة بين البلاغة والنقد ، وتحديد معالمها .

أ . د . عبد القادر حسين

القاهرة في ٢٤ / ٤ / ٢٠٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، نحمده ونستعينه ونسترشده سبل السلام ، ونضم شهادتنا إلى شهادته وشهادة ملائكته بقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١) . والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ، إمام البلغاء ، وقدوة الفصحاء ، وسيد الأنبياء عليهم صلوات ربي وسلامه أجمعين .

وبعد ، فإن الصلة بين البلاغة والنقد إلى نهاية القرن الرابع صلة واشجة ، والعلاقة قوية بينهما ، [وهذا هو البحث الذي أقدمه رسالة] . وهو من الموضوعات الهامة التي لم يتعرض لها الباحثون تعرضاً دقيقاً ، ولم يفردوا لها من مؤلفاتهم تصانيف خاصة ، فحاولت في هذا البحث أن أكشف عن مدى العلاقة بين البلاغة والنقد في هذه الحقبة الخصيبة المعطاء من تاريخ أمتنا المجيد ، وذلك لثقتي بمعين العربية بكل عطاءاته على مدّ العصور وإن اختلفت درجة الإرواء . . . وللإسهام في تعميق دراستنا للسان العربية المبين ، والسعي لإثراء المكتبة العربية ، وركن الدراسات البلاغية والنقدية ، والرغبة في الكشف عن الجهود البلاغية والنقدية إلى نهاية القرن الرابع الهجري .

ويمكن أن نتساءل عن صلة البلاغة بالنقد في القرون الأولى من تاريخ البلاغة ، وعن سبب اقتصارنا على القرون الأولى للهجرة .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

إن الذي حدا بي إلى هذا الموضوع وجعلني أخصه بالدراسة والتحليل هو يقيني بأن البلاغة والنقد صنوان متلازمان التحما أشد الالتحام وإن اختلفا في مدلول كل منهما ، فالبلاغة تعني مجموعة الخصائص التي تتوافر في القول الجيد ، والنقد يشير إلى وسائل التعرف إلى القول الجيد أو القبيح . والنقد - كما يقولون - علم وصفي يضع بين يدي الناقد الخبرة والوسائل التي يستطيع بها أن يميز الحسن من غيره ، فكان لزاماً علي أن أبين مدى العلاقة بينهما اتصالاً وانفصالاً ، إذ إن النقد نما وترعرع تحت ظل البلاغة . وكان بعض الأدباء والنقاد يغلب على مؤلفاتهم الأمور البلاغية ، وبعضهم الآخر كانت بصمات النقد واضحة المعالم عندهم ، فقد كانت العلوم في القرون الأولى ممتازة . واستمر هذا الامتزاج في كتب التفسير والإعجاز والعربية ، وأكبر شاهد على ذلك (الكتاب) لسبويه . ومن هنا كانت الصعوبات ، فهي لا تقف عند حدود إدراك العلاقة بين علم البلاغة وعلم النقد ، بل تمتد إلى الحقبة الزمنية المحددة بالقرون الأربعة الأولى من الهجرة ، ونظراً إلى كون النقد لم يظهر التأليف فيه إلا في القرن الثالث ، تم تحديد مجال البحث بالحقبة المذكورة .

وكانت الثقافة العربية بفروعها ممتازة أشد الامتزاج ، وكان من العسير - في معظم الأحيان - أن نفرق بين البلاغة والنقد ، إذ كانا توأمين متلاحمين ، بل كانا وجهين لعملة واحدة . وكانت البلاغة مقياساً في الحكم ، وكذلك النقاد الذين سوف نقدم آراءهم فيما بعد ، كانوا بلاغيين وأدباء متذوقين ، ولم يكونوا مجرد نقاد منظرين لم يمارسوا الإبداع ، بل تشهد آثارهم وتنطق بعلو كعبهم في هذه المجالات كما سنرى - مثلاً - في كتاب (البيان والتبيين) و(البدیع) و(الكامل) و(الموازنة) و(الوساطة) و(الصناعتين) .

وهؤلاء «البلغاء» من قدامى أدبائنا ، وهم الذين كانوا يمثلون طبقة النقاد إذ ذاك . . . وقفوا أمام نصوص الأدب الرفيع بنثره وشعره ، وتهدّوا إلى مواطن

الروعة فيه ، واستنبطوا منها مقاييس النقد ، فكان نقدهم ابن أدبهم ، ولم يكن نقداً مجلوباً . . . وهذا النقد أطلق عليه ابن الأثير اسم (علم الأدب) ، وهو علمٌ شامل عندهم لكل ما يتصل بأساليب التعبير وطرق البيان من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، وهذا ما جعل البلاغة والنقد عندهم موضوعين ممتزجين متداخلين^(١) ، «فالمصنف الواحد لا يعالج علماً محددًا ، وإنما موسوعة كاملة تشمل ألوان الثقافة العربية كلها من أدب ولغة وبلاغة وتفسير ونحو وتصريف ، فتعطي صورة كاملة لفن القول ودقة التعبير ، لأن الفصل بين العلوم لم يكن المرمى الذي يهدف إليه العلماء في تلك الحقبة الزمنية المضيئة . وكان من العسير أن نجد بلاغياً أو ناقداً متفرداً ، وإنما هي آراء منثورة في كتب النحو والتفسير واللغة فنحو وصرف بجانب بلاغة بجانب كلام في إعجاز القرآن بجانب آراء لغوية ونقدية^(٢)» . وكان لزاماً علي أن أعرض لهذا بوضوح ، ما أمكن ، بعد عودتي إلى عشرات المؤلفات في النحو واللغة والبلاغة والنقد والتفسير والأدب لألقي الأضواء على نقاط الالتقاء والافتراق - إن وجدت في هذه المؤلفات - بين البلاغة والنقد . وكثيراً ما كنت أرجع إلى المؤلفات المتنوعة التي تركتها لنا شخصيات البحث ، بالإضافة إلى مراجعة الكثير من الرسائل العلمية لأنتهي إلى نتائج مفيدة ، متوخية إصابة المرمى وتحديد الغاية .

وقد جعلت هذا البحث في مقدمة وباين وخاتمة .

الباب الأول منهما بعنوان : العلاقة بين البلاغة والنقد في القرن الثالث الهجري ، وجعلته في خمسة فصول ، تناولت في كل واحد منها علماً من أعلام البلاغة والنقد ممن عاش في القرن الهجري الثالث كما يأتي :

- (١) يراجع : البلاغة والنقد بين الاتصال والانفصال ، أ. د. مازن المبارك، ص : ١١٤ - ١١٥ -
مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي - ١٦٤ - س ١٩٩٨ .
(٢) يراجع : مقدمة كتاب أثر النحاة في البحث البلاغي ، أ. د. عبد القادر حسين، ص : ٥ .

الفصل الأول يدرس بالعلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

والفصل الثاني للكلام عن العلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).

والفصل الثالث لبحث العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ).

والفصل الرابع لدراسة العلاقة بين البلاغة والنقد عند الإمام ثعلب (ت ٢٩١هـ).
والفصل الخامس خاص بالعلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ).

وأما الباب الثاني ، فقد عنوانته : العلاقة بين البلاغة والنقد في القرن الرابع الهجري ، وجعلته في سبعة فصول كما يأتي :

الفصل الأول يعالج العلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ).

والفصل الثاني يعتني بالعلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ).

والفصل الثالث يبحث العلاقة بين البلاغة والنقد عند قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ).

والفصل الرابع يدرس العلاقة بين البلاغة والنقد عند الحسن بن بشر الأمدي (ت ٣٧٠هـ).

والفصل الخامس يختص بالعلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي عبيد الله المرزباني (ت ٣٨٤هـ).

والفصل السادس يعتني بالعلاقة بين البلاغة والنقد عند القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ).

والفصل السابع يدرس بالعلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ).

وكنت أقسم كل فصل إلى ثلاثة مباحث ، أدرس في الأول منها باختصار شخصية المترجم له ، وسيرته الذاتية ، ونشأته العلمية ، ومكانته ، وأبرز طلابه وشيوخه ، ثم مؤلفاته المطبوعة ، وأشهر كتبه المخطوطة والتي هي في حكم المفقود . ثم أدرس في المبحث الثاني أهم الفنون البلاغية التي تناولها ، وفي المبحث الثالث أهم القضايا النقدية التي درسها ، فكانت أبرز القضايا النقدية عند معظمهم : قضية اللفظ والمعنى ، وقضية القدم والحداثة ، وقضية الطبع والصنعة ، وقضية السرقات الأدبية .

وذيلت البحث بخاتمة لخصت فيها أهم ما جاء في البحث من آراء .

ثم أتبع ذلك بفهارس للمصادر والمراجع التي عدت إليها في البحث ، مشيرة أحياناً إلى اعتمادي على أكثر من طبعة .

ثم أنهيت عملي بفهرسة للموضوعات . وقد دفعت الكتاب إلى المطبعة من غير تغيير لأنه يدل على المرحلة الدراسية المنجزة في حينها . والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، ويتقبله ، وأن ينفع به . وما كان فيه من عمل متكامل فبفضل الله وجوده ، وما كان به من نقص فهو عائد إلي ، فأستغفر الله العلي القدير ، وأسأله الرشدي العلم والعمل .

ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر والامتنان والاعتراف بالجميل لأستاذي المشرف أ . د . عبد القادر حسين الذي مهد لي الطريق ، وعبّد لي السبيل ، فاستنرت بتوجيهاته السديدة التي أكرمني بها ، وما ضنّ عليّ بشيء منها ، وتابع البحث بال العناية والرعاية إلى أن أصبح مكتملاً ، واستفدت من كتابه الذي كان لي نبراساً لأضاء لي الطريق .

ولا أنسى فضل أستاذي الكبير ، المربي الفاضل أ . د . مازن عبد القادر

المبارك ، رئيس قسم اللغة العربية ، الذي شملني بعطفه وحسن توجيهه ،
وشجعني على المضي لإتمام الرسالة بعد أن خبا بريق الأمل ، وكَلَّتْ الهمم ،
فجددت العزم ، واستعنت بالله العليّ القدير ، وأنجزتها بفضل الله ومَنّه
وجوده .

كما أقدم جزيل الشكر والعرفان بالجميل للسيد جمعة الماجد المفضل
أطال الله عمره ، الذي وفر للباحثين مناهل العلم في المركز الذي أنشأه (مركز
جمعة الماجد للثقافة والتراث) مما أعانني على استكمال البحث ، وكذا
للقائمين على هذا المركز .

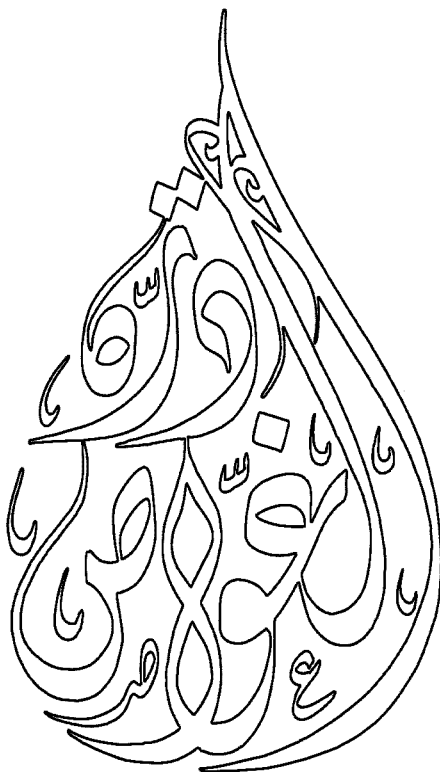
كما أسدي وافر الشكر والامتنان لكل الذين أناروا لي دروب العلم ، ولكل
من مدّ لي يد العون حتى رأَت هذه الرسالة النور .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

العلاقة بين البلاغة والنقد

في القرن الثالث الهجري

- . الفصل الأول : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي عثمان الجاحظ .
- . الفصل الثاني : العلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن قتيبة الدينوري .
- . الفصل الثالث : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي العباس المبرد .
- . الفصل الرابع : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي العباس ثعلب .
- . الفصل الخامس : العلاقة بين البلاغة والنقد عند عبد الله بن المعتز .



تمهيد

كان النقد في العصر الجاهلي وليد الذوق الأدبي الخالص ، إذ إن طبيعة الحياة الجاهلية تفرض نفسها ، وكانت كتب الأدب والنقد تحدثنا كيف كانوا يطلقون على النقد اسم الحكم ، فيقولون : «احكم لفلان على فلان» . . . وما خيمة الأدم التي كانت تضرب للناطقة في سوق عكاظ ببعيدة عن ذاكرتنا ومخيلتنا . . . وكيف أن الشعراء كانوا يحتكمون إليه ، وأنه قضى للخنساء على حسان ، وغير ذلك من الأحكام التي كان بعضها معللاً ، وأكثرها بلا تعليل ، «أما الفكر وما ينبعث عنه من التحليل والاستنباط ، فذلك شيء غير موجود عندهم ، ويبعد كل البعد عن الروح الجاهلية وعن طبيعة العصر الجاهلي»^(١) .

ثم جاء الإسلام ، فنما كل من النقد والبلاغة في ظلال المؤلفات القرآنية ، فالكلام عن أسلوب القرآن الكريم المتفرد والمتميز عن أساليب العرب ، هو نقد بحد ذاته لأنه يميز جيد الكلام من رديئه ، ولأن النقد هو ذكر المحاسن والمساوىء ، فهو مدح وقدهح .

ووجدنا أن أبرز المؤلفات في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث اتجهت إلى القرآن الكريم ، حيث ألف أصحابها في معانيه ومجازه وغريبه وإعجازه .

ووجدنا أن العلماء في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث قد جعلوا القرآن الكريم محور دراساتهم ، فألفوا في معانيه ومجازه وغريبه وإعجازه ، ككتاب (معاني القرآن) للفراء (ت ٢٠٧هـ) ، حيث ذكر بعض الأمور البلاغية ، وكذلك (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) ، فقد ذكر

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص : ١٨ .

بعض الفنون البلاغية ، وهو في معرض تفسير القرآن الكريم وذكر معانيه وغريبه ودراسة أساليبه في التعبير بغية تلمس بعض أسرار إعجازه .

فكيف كان حال الأدب وفنونه في القرن الثالث ؟ وما مدى العلاقة بين البلاغة والنقد في هذه الحقبة ، إذ لم تكن هناك حدود فاصلة بينهما ؟

في الفصول القادمة ، سنحاول بإذن الله - تعالى - إلقاء الضوء على ما قدمه أبرز علماء الأدب والنقد بما أغنوا به الفكر العربي والمكتبة العربية مما دفع عجلة البلاغة والنقد إلى الأمام في القرون التالية ، وهم :

- * أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) .
- * ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) .
- * أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ) .
- * أبو العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ) .
- * عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) .

الفصل الأول

البلاغة والنقد عند الجاحظ

(ت ٢٥٥هـ)

- المبحث الأول : التعريف بالجاحظ .
- المبحث الثاني : البلاغة عند الجاحظ .
- المبحث الثالث : النقد عند الجاحظ .

مكتبة
الدكتور زوران الوهبي



المبحث الأول : التعريف بالجاحظ^(١) :

* نسبه ومكانته العلمية :

هو عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ. كنانى، قيل : صليبية، وقيل : مولى. من كبار أئمة الأدب، ورئيس الفرقة المعتزلية التي سميت الجاحظية، نسبة إليه.

ولد بالبصرة، ونشأ فيها، ثم انتقل إلى بغداد فأقام بها مدة.

قال عنه الخطيب البغدادي : « الجاحظ المصنف، الحسن الكلام، البديع

التصانيف»^(٢). وقد كان محباً للعلم، حريصاً عليه، قال فيه المبرد : « ما رأيت

(١) ترجمته في : مروج الذهب ٤/١٠٨ - ١٠٩، والفهرست، ص : ٢٠٨ - ٢١٢، وتاريخ بغداد ١٢/٢١٢ - ٢٢٠، ونزهة الألباء، ص : ١٤٨ - ١٥١، وأمالى السيد المرتضى ١/١٩٤ - ١٩٩، والمنتظم ١٢/٩٣ - ٩٦ (وفيات سنة ٢٥٥ هـ)، ومعجم الأدباء ٤/٤٧٢ - ٤٩٨ (دار الكتب العلمية)، ونور القيس من المقتبس، ص : ٢٣٠ - ٢٣١، ووفيات الأعيان ٣/٤٧٠ - ٤٧٥، وميزان الاعتدال ٣/٢٤٧، وسير أعلام النبلاء ١١/٥٢٦ - ٥٣٠، والعبر ١/٤٥٦، وتاريخ الإسلام، ص : ٢٢٢ (وفيات سنة ٢٥١ - ٢٦٠ هـ)، والبداية والنهاية ١١/١٩ - ٢٠، وطبقات المعتزلة، ص : ٦٧ - ٧٠، ولسان الميزان ٤/٣٥٥ - ٣٥٧، وبغية الوعاة ٢/٢٢٨، وكشف الظنون ١/٢٦٣، ٦٩٦، وشذرات الذهب ٢/١٢١ - ١٢٢ (دار المسيرة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩)، وهديّة العارفين ١/٨٠٢ - ٨٠٣، وأمرء البيان ٢/٣١١ - ٤٨٧، وتاريخ بروكلمان ٣/١١١، وراجع العدد الخاص بالجاحظ في مجلة المورد العراقية - م ٧ - ع ٤ - ١٩٧٩، وما لم ينشر من تراث الجاحظ، أ. د. حاتم صالح الضامن، ومكتبة الجاحظ، أ. عبد السلام هارون، ودراسات كثيرة عن الجاحظ، منها : الجاحظ : حياته وآثاره، د. طه الحاجري، والجاحظ عمرو بن بحر، د. ودیعة طه النجم، والجاحظ معلم العقل والأدب، شفيق جبيري، والجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بللا - ترجمة : د. إبراهيم الكيلاني، وأبو عثمان الجاحظ، د. عبد المنعم خفاجي.

(٢) تاريخ بغداد ١٢/٢١٢ - ٢٢٠.

أحرص على العلم من ثلاثة : الجاحظ، وإسماعيل القاضي، والفتح بن خاقان»^(١).

وقال الأنباري : « كان الجاحظ عالماً بالأدب، فصيحاً، بليغاً، مصنفاً في فنون العلوم، وكان من أئمة المعتزلة »^(٢). وقال عنه ياقوت : « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة خاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره، واستغنى عن الوصف »^(٣). وقال ابن العميد : « ثلاثة علوم، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبي حنيفة لأنه دون وخذل ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ »^(٤). ويروى عن أحدهم قوله : لم أر قط، ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر. وقال المرزباني : « كان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا. وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصره الدين، وفي حكاية مذهب المخالفين، وفي الآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجدل والهزل. وقد تداولها الناس وقرؤوها وعرفوا فضلها. وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه، علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها »^(٥).

(١) الفهرست، ص : ٢٠٨.

(٢) نزهة الألباء، ص : ١٤٨ - ١٥١.

(٣) معجم الأدباء ٤/ ٤٧٣.

(٤) المرجع ذاته ٤/ ٤٩١.

(٥) المرجع ذاته ٤/ ٤٧٤ - ٤٧٥.

لكن، نرى للعلماء رأياً فيه بسبب اعتزاله^(١)، وفي ذلك قال ابن حزم :
«كان أحد المُجَانِ الضَّلَالِ، غلب عليه الهزل، ومع ذلك، ما رأينا في كتبه تعمد
كذبة يوردها مثبِتاً لها، وإن كان كثير الإيراد لكذب غيره»^(٢).

وفي أواخر عمره، أصيب بالفالج، حكى عن ذلك المبرد قال : دخلت
على الجاحظ في أواخر عمره وهو عليل، فقلت : كيف أنت؟ فقال : كيف
يكون من نصفه مفلوج، ولو نُشِرَ بالمنشير ما حس به، ونصفه الآخر منقرس،
لو طار الذباب بقربه لآلمه، والآفة في جميع هذا أني قد جزت التسعين^(٣).

* من شيوخه :

أخذ الجاحظ العلم عن شيوخ أجلاء، أمثال : أبو عبيدة معمر بن المثنى
(ت ٢١٠هـ)، والأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، وأبو زيد الأنصاري
(ت ٢١٥هـ)، والأصمعي (ت ٢١٦هـ)، وأخذ علم الكلام ومذهب الاعتزال
عن أبي إسحاق النظام (ت ٢٣١هـ).

* من طلابه :

رحل الجاحظ إلى بغداد، وتصدر للتعليم والمنارة، وأخذ عنه طلاب
العلم واللغة والأدب والبيان، منهم : أبو العيناء محمد بن القاسم
(ت ٢٨٣هـ)، وأبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، ويموت بن مزرع
(ت ٣٠٤هـ)، وأبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠هـ).

* من مؤلفاته :

ترك لنا الجاحظ أكثر من ستين وثلاثمائة مؤلفٍ في ألوان شتى من العلوم

(١) يراجع : لسان الميزان ٤/٤٠٩.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٧٥. ويراجع الملل والنحل للشهرستاني ١/٧٥.

(٣) تاريخ بغداد ١٢/٢١٩.

والمعارف^(١)، قال المسعودي عن سعة علمه : «... ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه»^(٢). وسرد ابن النديم له مئة ونيفاً وسبعين كتاباً^(٣). وأدق بحث في أسماء كتب الجاحظ ورسائله والمؤلفات المنسوبة إليه - فيما أحسب - ما قام به المستشرق الفرنسي أ. شارل بيلا الذي حقق بكل عناية تسميات هذه الرسائل والكتب، وبين ما فيها من اضطراب أو اختلاط في التسميات، مبيناً الأماكن التي ورد فيها ذكرها فيها، وأفرد ذلك في بحث مستقل، فبلغ مجموع هذه الآثار عنده ثلاثة وتسعين ومئة عنوان^(٤) لكن كثيراً منها ضاع مع الزمن، ومنها ما يزال مخطوطاً، ومنها ما طبع^(٥).

من أهم كتبه :

١ - البخلاء^(٦).

٢ - البرصان والعرجان والعميان والحوالان^(٧).

٣ - البيان والتبيين، وهو أشهر كتبه وأسيرها، وأكثرها تداولاً وأعظمها نفعاً وفائدة. يقول أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين عند الكلام عن كتب

(١) رأى أكثرها سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) في مشهد أبي حنيفة النعمان، عن مقدمة محقق الحيوان ٥/١.

(٢) مروج الذهب ٤/١٣٥.

(٣) الفهرست، ص: ٢٠٩-٢١٢.

(٤) الجاحظ (عمرو بن بحر)، د. ودیعة النجم، ص: ٧٢.

(٥) يراجع: الأعلام ٥/٧٤، وكتيب: ما لم ينشر من تراث الجاحظ، أ. د. حاتم صالح الضامن، ومكتبة الجاحظ، عبد السلام هارون، والجاحظ: حياته وآثاره، د. طه الحاجري.

(٦) حقق أكثر من مرة، منها: تحقيق: د. طه الحاجري - دار المعارف - مصر - ط ٤ - ١٩٧١، وتحقيق: د. يسري عبد الغني البشري - مكتبة ابن سينا - ط ١ - القاهرة - ١٩٨٩.

(٧) حققه د. محمد مرسي الخولي - دار الاعتصام - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٢، ومؤسسة الرسالة - ط ٢ - ١٩٨١. وحققه عبد السلام هارون، وطبعه ببغداد.

البلاغة : «... وكان أكبرها وأشهرها : كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وهو - لعمرى - كثير الفوائد، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير»^(١). ويغلب الظن لدى بعض الدارسين، ومنهم د. الحاجري بأن الجاحظ وضعه أثناء تأليفه كتاب الحيوان، لكن فرغ من تأليف الحيوان قبل إتمامه، مستدلاً بقوله : «... وسنرى من الآراء النقدية في كتاب الحيوان ما يضاهاى كتاب البيان والتبيين في هذا الصدد. وقد أراد الجاحظ أن يقدم أحسن النماذج البلاغية بين يدي الدارس والمتعلم الذي يطلب الثقافة العربية بجميع مقوماتها»^(٢)، إلا أن كتابه هذا، كباقي كتبه، يفتقر إلى التنظيم^(٣). وتعتذر له د. وديعة بقولها : «... ويبدو أنه راغب في أن ينظم مادته، ولكن لسبب ما لم يكن في وسعه أن يفعل ذلك»^(٤)، ولكنها لم تقدم أي تعليل لذلك كما يبدو من كلامها، خلافاً للأستاذ عبد السلام هارون^(٥).

(١) البيان والتبيين (مقدمة المحقق) ٥/١. وقد طبع بتحقيق أ. عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - مصر - ١٩٤٨، وحقق د. الشاهد البوشيخي في عنوان الكتاب، فتبين له أنه (البيان والتبيين) وليس (التبيين)، يراجع : مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين، ص : ٢٧-٤٦.

(٢) الجاحظ عمرو بن بحر، ص : ٩٤.

(٣) البيان والتبيين ٢٠٦/١، حيث اعتذر عن غياب التنظيم.

(٤) الجاحظ عمرو بن بحر، ص : ٩٣.

(٥) المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي : عبد السلام المسدي، ص : ١٤٦ - حوليات الجامعة التونسية - ع ١٣ - ١٩٧٦.

٤ - الحيوان، يقول عنه محققه أ. عبد السلام هارون : «وكتاب الحيوان ينطق بين يديك بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعاً، ولكل مملكة من ممالكه، ولكل جنس من أجناسه، وهو فضل للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتب في الحيوان، وإن أعوزه بعض الترتيب والتهذيب، فهو شأن كل كتابة جديدة في أمر متشعب الأطراف، ممدود النواحي»^(١). ويقول عنه ابن خلكان : «ومن أحسن تصانيفه وأمتعها : كتاب الحيوان، فقد جمع كل غريبة»^(٢). ونظراً لما عرف به أسلوب الجاحظ من استطراد، ففي (الحيوان) استطرادات أدبية ونحوية وبلاغية لا علاقة لها بالحيوان. وقد أثنى الجرجاني في (أسرار البلاغة) على مقدمته، لأنه تجنب فيها كل تجنيس وصنعة، وأثر الربط الفكري، وهو أمر كما يقول بروكلمان «نفتقده حقاً في كتبه الأخرى»^(٣).

إلى غير ذلك من الكتب. وقد نسب له خطأ كتاب المحاسن والأضداد^(٤).

ومن كتبه التي في حكم المفقود، كتاب نظم القرآن، ذكره في كتاب الحيوان^(٥)، كما ذكره ابن أبي الإصبع^(٦).

كما ترك لنا كثيراً من الرسائل، منها : رسائله في المعاد والمعاش، وكتمان السر، وحفظ اللسان، والجد والهزل، والحسد والعداوة^(٧)، ورسالة

(١) الحيوان (مقدمة المحقق) ١/١٨. مكتبة البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٣.

(٢) وفيات الأعيان ٣/٤٧٠ وما بعدها.

(٣) تاريخ بروكلمان ٣/١١١.

(٤) حقيقه : عاصم عيتاني - دار إحياء العلوم - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦.

(٥) الحيوان ٣/٨٦. ويراجع ما كتبه د. طه الحاجري عنه في كتابه : الجاحظ : حياته وآثاره.

(٦) تحرير التعبير، ص : ٨٩.

(٧) الأعلام ٥/٧٤. وقد حققها الأستاذ عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١ -

١٩٨٤. وكان المستشرق بول كراوس قد نشرها في القاهرة سنة ١٩٤٣، وعرض بعضها عبد القادر المغربي في مجلة المجمع - دمشق - ع ٢١، و٢٢، و٢٣، و٢٤ - ١٩٤٨.

التربيع والتدوير، ورسالة صناعة الكلام، نشرت بهامش (الكامل) للمبرد^(١) ورسالة في البلاغة والإيجاز^(٢)، ستعرض إلى ذكرها في حينه.

هذه بعض مؤلفاته، وهي - حقاً - تقنع العقل، وتمتع العاطفة. وقد قال عنها ابن العميد: «كتب الجاحظ تملأ العقل أولاً، والأدب ثانياً»^(٣). وقال المسعودي: «وكتب الجاحظ - على انحرافه المشهور - تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، وورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ... وله كتب حسان، منها: كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغزير الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبلغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، وكتاب الحيوان... وسائر كتبه في نهاية الكمال»^(٤).

* وفاته :

توفي الجاحظ في شهر محرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة وقد نيف على التسعين سنة^(٥)، إذ سقطت عليه بعض كتبه.

- (١) طبعة مصر - ١٩٢٣، ومجلة المورد العراقية - ع ٤ - المجلد ٧ - ١٩٧٨ : « فصول مختارة من كتب الجاحظ » اختارها عبيد الله بن حسان، وحققها د. حاتم الضامن، ود. يحيى الجبوري، ود. نوري حمودي القيسي، ونشرت في العدد المخصص للجاحظ.
- (٢) حققها د. حاتم الضامن - مجلة البلاغ - العراق - ع ٩ - ١٩٧٨. وهي من ضمن رسائل الجاحظ التي حققها أ. عبد السلام هارون ٤/١٥١ - ١٥٢.
- (٣) وفيات الأعيان ٣/٤٧٣، حيث نقل ابن خلكان قول ابن العميد.
- (٤) مروج الذهب ٤/١٠٩.
- (٥) وفيات الأعيان ٢/٤٧٥، وتاريخ بغداد ١٢/٢١٩، ومعجم الأدباء ٤/٤٩٨.

المبحث الثاني : البلاغة عند الجاحظ :

خُصصت كتب للتعريف بالجاحظ وآثاره وإن كانت الدراسات الكثيرة التي قامت حوله لم تفرد صفحاتها لجهوده البلاغية، مع أن معظم من درسوه في القديم والحديث يعدونه بحق مؤسس البلاغة العربية، مما يحدو بنا لدراسة بلاغته وصلتها بالنقد.

تناول الجاحظ موضوعات البلاغة، مع أنه لم يحدد المصطلحات بدقة أو المسميات، فبعض الفنون كان لها أكثر من مسمى، وكان القدماء يطلقون الأسماء المختلفة على فن واحد، فلم يضعوا معالم محددة، لكن بعض النقاد يعتبر الجاحظ رائد الدراسات البلاغية^(١)، وإن ظهرت بعض المصطلحات قبله على لسان أبي عبيدة أو الأصمعي أو أبي عبيد (ت ٢٢٤هـ).

ومن هذه الفنون البلاغية التي ذكرها : «الحذف، والإيجاز، والإطناب، والتشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، وحسن الابتداء، وحسن التقسيم، والازدواج، والاقْتباس، والتضمين، والسجع. وهذه المصطلحات البلاغية جاءت مبثورة في كتب من جاء بعده كابن قتيبة وغيره... ولكن، نلاحظ أن معظم النماذج التي أتى بها الجاحظ لدعم مصطلح ما، جاءت أساساً من النثر، وربما كان سبب عزوف الباحثين عن اقتباسها في مؤلفاتهم التي جاءت لتعامل مع الشعر على نحو خاص»^(٢).

وقد عرف الجاحظ البلاغة عند الأمم المختلفة من فرس وهنود ويونان ورومان... فقال : «... قيل للفارسي : ما البلاغة؟ قال : معرفة الفصل من

(١) المصطلح البلاغي وتطوره، د. أحمد طاهر حسنين، ص : ٣٠٨.

(٢) المرجع ذاته.

الوصل . وقيل لليوناني : ما البلاغة؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندي : ما البلاغة؟ قال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة»^(١).

ونقل تعريف العتابي الذي قال : «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة، فهو بليغ...»^(٢). وفسر قول العتابي بقوله : «... فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواءً، وكله بياناً. وكيف يكون ذلك كله بياناً؟! ولولا طول مخالطة السامع للعجم، وسماعه للفساد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلي، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم . فنحن قد نفهم بحممة الفرس كثيراً من حاجاته، ونفهم بصغاء السنور كثيراً من إرادته... وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء»^(٣).

كما أورد تعريف ابن المقفع لها، قال : «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها

(١) البيان والتبيين ١/ ٨٨.

(٢) المصدر ذاته ١/ ١١٣ . ويراجع مصطلح البلاغة في : مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب

البيان والتبيين، د. الشاهد البوشيخي، ص : ٨٨ وما بعدها.

(٣) المصدر ذاته ١/ ١٦٢ .

والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة»^(١).

وعندما سئل عمرو بن عبيد عن البلاغة، أجاب السائل: «تخير اللفظ في حسن الإفهام»^(٢).

ونقل عن بعضهم قوله: «لا يكون الكلام يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»^(٣).

وقرر الجاحظ في النهاية أنه «متى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه، وكان لذلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لفقاً»^(٤)، وخرج عن سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قميناً بحسن الموقع، وحقيقاً بانتفاع المستمع»^(٥).

فالبلاغة تتمثل عنده في اختيار اللفظ الكريم للمعنى الشريف، وفي ذلك قال: «ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه، متخيراً في جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حبيب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول». لذلك، نراه يذم التكلف، ويعدّ الكلام كدرًا إذا كان متكلفاً. قال في ذلك:

«... وقد ذمت العرب التكلف، واستهجنّت الغريب ليس في البلاغة فقط، بل في كل شيء»^(٦). وفي هذا ما يدل على وجود التداخل بين البلاغة والفصاحة عند الجاحظ. وقد ذهب أستاذنا المبارك إلى أن هذا الاتصال الشديد بين معنى البلاغة اللغوي والاصطلاحي هو الذي جعل القدماء يستعملون البلاغة

(١) المصدر ذاته ١١٥/١ - ١١٦.

(٢) المصدر ذاته ١١٤/١.

(٣) البيان والتبيين ١١٥/١.

(٤) اللفق: أحد لفتي الملاءة، ولفق الثوب يلفقه: ضم شقه إلى أخرى فخطهما. واللفاق: ثوبان يلفق أحدهما بالآخر. القاموس (مادة: لفق). والمراد: مساواة اللفظ لمعناه، وملاءمته له.

(٥) البيان والتبيين ٧/٢ - ٨.

(٦) المصدر ذاته ١٣/١، ٣٧٧، ١٨/٢.

والفصاحة بمعنى واحد^(١). وقد أكثر الجاحظ من ذكر الفصاحة والإفصاح والبلاغة^(٢).

وأما في مجال مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن أبرز ما يلفت في حديث الجاحظ، كلامه على الربط بين الكلام ومقتضى الحال، فقد اهتم اهتماماً بالغاً بذلك، وله تعليقات نفيسة في هذا الباب، كما في قوله: «إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب»^(٣)، وقال في مكان آخر من كتابه (البخلاء): «... وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً، أو كلاماً غير معرب، ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه من حده، إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه...»^(٤). وفي مكان آخر قال: «... وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو في مخاطبة العوام أو الجار... وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، أو ألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل»^(٥). وفي إشارته إلى الإيجاز والإطناب وموافقة ذلك مقتضى الحال قال: «... ورأيت الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام. فأصوب العمل اتباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة»^(٦).

(١) الموجز في تاريخ البلاغة، أ.د. مازن المبارك، ص: ١٩ - ٢٠.

(٢) البيان والتبيين، حيث ذكر الفصاحة في ١/١٥، ١٨، ١٩، ١٦٢، ٢٧٨... والإفصاح في ١/٧-٨، ٣٤، ٣٦، ١١٧، ٧/٢...

(٣) الحيوان ١/٢٨٢.

(٤) البخلاء ١/٧٨ - ضبط: أحمد العوامري وعلي الجارم - دار الكتب العلمية - ١٩٨٣.

(٥) الحيوان ٣/٣٦٨.

(٦) المصدر ذاته ١/٩٤.

وعندما تعرّض للبلاغة والإيجاز، قال: «... وربما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز. ولكل مذهب وجه عند العاقل، ولكل مكان مقال، ولكل كلام جواب»^(١).

ويقول في موضع آخر: «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال، وإن كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله وداخل في باب المزاح والطيب، واستعملنا فيه الإعراض انقلب على جهته، وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها ويأخذ بأكظامها»^(٢).

ونجد الجاحظ يأخذ على الكميت بن زيد مأخذ في مديحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال في شعره أنه «يعدّ شعراً ساقطاً لعدم مطابقته للمقام والمقال والغرض الذي قيل فيه هذا الشعر»^(٣).

وكان البيان عنده بمعنى الوضوح وعدم الغموض، ويأتي كذلك بمعنى البلاغة، قال في ذلك: «... وعلى قدر وضوح المعاني، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجح. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله - عز وجل - يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم»^(٤).

(١) البلاغة والإيجاز، ص: ٢٤.

(٢) الحيوان ٣/٣٩، وذكره أيضاً في ١/٢٨٢. وأكظامها: جمع كظم - بالتحريك - وهو مخرج النفس. القاموس (مادة: كظم).

(٣) المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص: ٢١٣.

(٤) البيان والتبيين ١/٧٥. ويراجع مصطلح البيان عند الجاحظ في كتاب: مصطلحات نقدية =

وتوسع الجاحظ في حديثه عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما، لكنه لم يقصد بالإيجاز قلة الألفاظ وكثرة المعاني، وإنما قصد إصابة عين المعنى بالكلام الموجز، فقالوا: «فلان يفل المحز ويفصل المفصل». وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق فجعلوه مثلاً للمصيب الموجز^(١)، واستشهد بقول معاوية رضي الله عنه لصُحار العبدي: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطىء، وتقول فلا تخطيء. فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطىء ولا تخطيء؟!^(٢). ومما قالوا في الإيجاز وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة: «أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ورب قليل يغني عن الكثير، بل رب كلمة تغني عن خطبة»^(٣).

وقد أفرد الجاحظ باباً في كتاب (نظم القرآن) الذي فقد وذكره في كتاب (الحيوان) لفضل الإيجاز والحذف جاء عنه: «... ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف والفرق بين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبه لك في باب الإيجاز وترك الفضول»^(٤)، وأكد هذا المعنى في مكان آخر، قال فيه: «... وإنما الألفاظ على قدر المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها. والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل ما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة. ولو جهد جميع أهل البلاغة أن

= وبلاغية في كتاب البيان والتبيين، ص: ١١٢ وما بعدها.

(١) البيان والتبيين ١/١٠٧.

(٢) المصدر ذاته ١/٩٦، والحيوان ١/٩٠ - ٩١.

(٣) المصدر ذاته ١/٨٣، ٧/٢.

(٤) الحيوان ٣/٧٦، ويراجع: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٧٦، ٩٣.

يخبروا من دونهم على هذه المعاني بكلام وجيز يغني عن التفسير باللسان والإشارة باليد والرأس لما قدروا عليه^(١). وأتى بقول أبي دواد بن حريز الإيادي في معرض مدح الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي والإشارة :
يرمون بالخُطْبِ الطوالِ، وتارة وحيّ الملاحظِ خيفةَ الرقباءِ
وعلق عليه بقوله : «فمدح - كما ترى - الإطالة في موضعها، والحذف في موضعه»^(٢).

كما أفرد باباً بعنوان : «الإطناب والإيجاز» قال فيه : «ليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند منتهى البغية»^(٣)، وأورد تعاريف مجموعة من العلماء للإيجاز، وما ذكره لكثير منها إلا لأهميته في نظره.

وخص بالإيجاز رسالة مفردة سماها (البلاغة والإيجاز) التي لم يبق منها - حسب علمنا - سوى أسطر قليلة ضمنها عبيد الله بن حسان فصوله المختارة من كتب ورسائل أبي عثمان^(٤)، قال في مقدمتها : «درجت الأرض من العرب والعجم على إيثار الإيجاز، وحمد الاختصار، وذم الإكثار والتطويل والتكرار وكل ما فضل على المقدار... والبلاغة إصابة المعنى، والقصد إلى الحجة مع الإيجاز»^(٥).

كما أفرد باباً في (البيان والتبيين) بعنوان : «باب من القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز من ملتقطات كلام الناس»، واستشهد بقول العرب : (من التوقي ترك الإفراط في التوقي)، وقولهم : «إذا لم يكن ما تريد، فأرد

(١) المصدر ذاته ٨/٦.

(٢) البيان والتبيين ١/١٥٥.

(٣) الحيوان ٧/٦.

(٤) الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص : ٢٣٥.

(٥) رسالة في البلاغة والإيجاز، ص : ٢٣ - ٢٤، حققها : أ. د. حاتم الضامن - مجلة البلاغ - ع٩ - ١٩٧٩، وذكرها أ. عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ كما أسلفنا.

ما يكون»، و«أعجب من العجب ترك التعجب من العجب»^(١).

ولكنه في مدحه للإيجاز وإشادته به، يفرق بين الخطب والرسائل، لأن «الإطناب بالخطب أليق، والإيجاز بالرسائل أنسب وأصلح»^(٢)، لأن الخطابة تستدعي الترادف واختيار العبارات المؤثرة حتى يقنع السامعين، أما الرسائل فإنما تحتاج إلى ما يؤدي المعنى المراد^(٣). فميز بين الخطب التي فيها الإطالة والبسط، والرسائل التي يناسبها الاختصار. ودعم الجاحظ رأيه السابق بالأمثلة والشواهد الكثيرة.

ونجده يشيد بالفقهاء والخطباء والمحدثين الذين امتازوا عن غيرهم بالبلاغة والإيجاز، منهم جعفر بن يحيى، فقد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والفخامة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغني جعفر عن الإشارة كما استغني عن الإعادة^(٤). ويروى عنه في وصية لكتابه: «إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا»^(٥). وأيد الجاحظ كلامه بأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليرز فضيلة الإيجاز وأن الله تعالى خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالضُّبَا، وأعطيت جوامع الكلم»^(٦)، وقوله: «من لم يقبل من متنصل عذراً صادقاً كان أو كاذباً، لم يرد

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠.

(٢) المصدر ذاته ١/١٥٥.

(٣) المصدر ذاته ١/١٧٥.

(٤) المصدر ذاته ١/١٠٥-١٠٦.

(٥) المصدر ذاته ١/١١٥. والتوقيع هو ما يوقع في الكتاب بعد الفراغ منه، وهو ما يقال له الحاشية الآن. وقد تعارف الناس على أن التوقيعات بمثابة قرارات التعيين التي يصدرها الخليفة أو الوزير. تراجع مقدمة كتاب: الإجازات والتوقيعات المخطوطة في العلوم العقلية والنقلية، د. أحمد رمضان.

(٦) لم أفق على هذا الحديث بهذا السياق، ولعله وهم من الجاحظ أو غيره ممن نقله عنه، إذ =

علي الحوض»^(١). ولما وصف الجاحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال :
 «... كان طويل الصمت، دائم السكت، متكلم»^(٢) بجوامع الكلم، لا فضل
 ولا تقصير. وكان يبغض الثرثارين المتشدقين»^(٣)، فترى الجاحظ يولي إيجاز
 القصر اهتمامه ويسميه إيجازاً فقط، بينما إيجاز الحذف يذكره بقوله : «باب
 من الحديث الحسن الموجز»^(٤).

وذكر أنواعاً للحذف، منها : حذف المبتدأ، وحذف الخبر، وحذف
 الجملة أو الجمل.

فمن حذف المبتدأ، قوله :

أَنْسُ غَرَائِرُ مَا هَمَمَنْ بَرِيَّةَ كُظْبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُ هُنَّ حَرَامٌ
 أَي : هن أوانس.

ومن أمثلة حذف الخبر، قوله صلى الله عليه وسلم للمهاجرين عندما
 قالوا : «يا رسول الله ، إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا ونصروا وفعّلوا
 وفعّلوا...» قال النبي صلى الله عليه وسلم : «أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا :

= أدخل حديثين في حديث، أحدهما : « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » يروى عن ابن
 عباس - مرفوعاً - أخرجه البخاري في صحيحه ١/٣٥٠ ح ٩٨٨، ٣/١١٧٢ ح ٣٠٣٣،
 ٣/١٢١٩ ح ٣١٦٥، ٤/١٥٠٧ ح ٣٨٧٩، ومسلم في صحيحه ٢/٦١٧ ح ٩٠٠، والحاكم
 ٢/٤٩٤ ح ٣٦٩٩، وغيرهم. وثانيهما بلفظ : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت
 جوامع الكلم، ونصرت بالرعب... »، أخرجه مسلم في صحيحه ١/٣٧١ - ٣٧٢ ح ٥٢٣،
 وأحمد في مسنده ٢/٢٥٠ ح ٧٣٩٧، ٢/٣١٤ ح ٨١٣٥، ٢/٤١١ ح ٩٣٢٦، ٢/٤٤٢ ح
 ٩٧٠٣، ٢/٥٠١ ح ١٠٥٢٤، والترمذي في سننه ٤/١٢٣ ح ١٥٥٣، وغيرهم.
 (١) أورده الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة، وقال فيه : كأنه موضوع
 . ٢٥١/٥.

(٢) [متكلم] وردت بالرفع في رسالة البلاغة والإيجاز، ص : ٢٣.

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧١.

(٤) المصدر ذاته ١/٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٣.

نعم. قال : فإن ذلك^(١)، ليس في الحديث غير هذا. يريد : إن ذلك شكر ومكافأة.

كما تعرض الجاحظ لحذف أحد ركني الجملة، أو حذف جملة أو أكثر، واستشهد بقول عمر - رضي الله عنه - عندما قرأ كتاب أبي عبيدة في أمر الطاعون واسترجع، قال له المسلمون : مات أبو عبيدة؟ قال : لا، وكان قد. وقول النابغة^(٢) :

أزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنْ رَكَابِنَا لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ
وقد اكتفى الجاحظ بحديثه عن الحذف، لأن أبرز حذف يكون في المسند والمسند إليه. لكننا نراه يسهب في الحديث عن إيجاز القصر، وربما يكون مردّ حديثه المسهب عنه إلى أن الإيجاز بالحذف شيء يخص علماء النحو لا البلاغة، في حين أن الإيجاز بالقصر وسيلة تعبيرية قصدها الإيحاء وفتح مجال التخيل وتأويل المعاني المسكوت عنها، لا الكلمات المحذوفة. وقد ذكر في كتابه (الحيوان) في باب إيجاز القرآن أنه ألف كتاباً جمع فيه آياً من القرآن ليميز القارئ بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول، يقول الجاحظ : «فإذا رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبتك لك في باب الإيجاز وترك الفضول»^(٣). وأورد لها أمثلة، منها قوله تعالى في وصف خمر أهل الجنة : ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾^(٤). وهاتان الكلمتان قد جمعنا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله - عز وجل - حين ذكر فاكهة أهل الجنة : ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾^(٥)، فجمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني.

(١) لم أقف عليه في كتب الحديث.

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) الحيوان ٣/ ٨٦.

(٤) سورة الواقعة، الآية : ١٩.

(٥) سورة الواقعة، الآية : ٣٣.

وبهذا، تظهر مكانة الإيجاز عند الجاحظ، حيث يعدّه حجر الزاوية في بحثه، إذ ركز عليه بطريقة لم يفعل مثلها مع مصطلح آخر، ولا غرو، فالبلاغة : الإيجاز.

وكما مدح الإيجاز، أثنى على الكلام الموزون، وكان يقصد به المساواة، ويسميه إصابة المقدار، وهو ما تساوى لفظه مع معناه. يقول عن العرب : «... ويزكرون الكلام الموزون ويمدحون به ويفضلون إصابة المقادير، ويذمون الخروج من التعديل»^(١). ونبه الجاحظ إلى أهميته وما يحترز منه في هذا الباب، فقال في ذلك : «... وحذره التكلف واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقب، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ولا فاضلاً عليه»^(٢). فهو بهذا، يدعو إلى أسلوب وسط بين الإطناب والإيجاز وإن لم يحدد المصطلح البلاغي للمساواة كما جاء عند البلاغيين بعده. واستشهد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللهم اسقنا سقياً نافعاً»^(٣)، لأن المطر ربما جاء في الكثرة مجاوزاً مقدار الحاجة. وكذا بحديثه صلى الله عليه وسلم : «اللهم حوالينا ولا علينا»^(٤)،

(١) البيان والتبيين ١/٢٢٧.

(٢) كتاب المعلمين في رياضة الصبي وتعليمه، ص : ١٥٣-١٥٤، مجلة المورد - ع ٤-١٩٧٨.

(٣) الظاهر أن الجاحظ يتصرف في إيراد الأحاديث، أو أنه ينقل عن من يفعل ذلك، وقد روى هذا

الحديث بغير لفظ «اسقنا» الشافعي في الأم ١/٢٥٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/٣٦٢ ح

٦٢٦١. وبلفظ «اسقنا سقياً وادعة بالغة...» عبد الرزاق في مصنفه ٣/٩٣ ح ٤٩١٣،

وبلفظ «واسعة وادعة نافعة...» الطبراني في المعجم الأوسط ٨/٢٤٨ ح ٨٥٣٩. وبلفظ

«اسقنا غيثاً مغيثاً...» عبد الرزاق في مصنفه ٣/٩٠ ح ٤٩٠٨، ٣/٩١ ح ٤٩٠٩، وابن أبي

شيبه في مصنفه ٦/٢٨ ح ٢٩٢٢٥، ٦/٣٢٤ ح ٣١٧٧١، وأبو داود في سننه ١/٣٠٣ ح

١١٦٩، وابن ماجه في سننه ١/٤٠٤ ح ١٢٦٩، وح ١٢٧٠، والطبراني في المعجم الأوسط

٧/٢٩ ح ٦٧٥٤.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه ١/٣١٥ ح ٨٩١، ١/٣٤٣ ح ٩٦٧، ١/٣٤٤ ح =

وقول طرفة :

فسقى ديارك - غير مفسدها - صوب الربيع وديممة تهمي
فقد طلب الغيث على قدر الحاجة، وهو في قول طرفة «غير مفسدها» ،
لأن الفضل صار^(١).

وهذا الذي سماه إصابة المقدار أو الكلام الموزون أو المساواة، سماه البلاغيون بعد الاحتراس، وأدخلوه في بحث الإطناب. وفي صدر كتابه في المعلمين في رياضة الصبي وتعليمه قال : «... وحذره التكليف واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقب، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ولا فاضلاً عليه»^(٢). وهو بذلك، يدعو إلى أسلوب وسط بين الإطناب والإيجاز وإن لم يحدد المصطلح البلاغي للمساواة كما جاء عند البلاغيين بعده. وقد تعقبه الدكتور إدريس بللميح عند كلامه عن مصطلح المساواة عند الجاحظ بأن «فهمه على أساس أنه درجة بين الاختصار المركز الشديد، والتطويل المقيد، لكنه لم يذكر له تعريفاً واضحاً، كما أنه لم يسق له أمثلة أو نماذج يمكن أن نستغني بها عن التعريف النظري المجرد»^(٣)، لكننا نقول : إنه سماه إصابة المقدار في موضع، والكلام الموزون في موضع آخر مما يدل على أن الجاحظ قد نضجت هذه الفنون البلاغية في ذهنه، لكن لم يضع لها المسميات والاصطلاحات كما سنجد عند من جاء بعده.

وكما ذكر الإيجاز والمساواة ، تكلم عن الإطناب وأفاض في حديثه عنه .

= ٩٦٨ ، ٣٤٦/١ ح ٩٧٤ ، ٣٤٩/١ ح ٩٨٦ ، ٢٢٦١/٥ ح ٥٧٤٢ ، ٢٣٣٥/٥ ح ٥٩٨٢ ،
ومسلم في صحيحه ٦١٤/٢ ح ٨٩٧ .

(١) يراجع تفصيل ذلك كله بالأمثلة في البيان والتبيين ٢٢٨/١ وما بعدها.

(٢) كتابه في المعلمين، ص : ١٥٣ - ١٥٤ - مجلة المورد - ع ٤٤ - ١٩٧٨ .

(٣) الرؤية البيانية، ص : ٢٤٩ .

وهو التعبير بالألفاظ الكثيرة عن المعاني القليلة . فالعرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من واجبات الضيافة ، ومن تمام الإكرام . وساق أمثلة لذلك ، منه قول الشاعر :

لحافي لحافُ الضيفِ والبيتُ بيتهُ ولم يلهني عنه غزالٌ مقنَّعُ
أحدثه إن الحديثَ من القرى وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ
لكن الجاحظ يقرر أن الإطناب ليس الإطالة والهدر ، وذلك في قوله :

« . . . وإنهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة والتعبير والبلاغة والتخلص والرشاقة ، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهدر والتكلف والإسهاب والإكثار لما في ذلك من التزويد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة في الغلو ، وكانوا يكرهون الفضول من البلاغة »^(١) . وقد مر معنا أنه يمدح الخطيب المطول عند الإطالة ، والموجز عند الوجازة ، واستشهد لذلك بخطب الرسول صلى الله عليه وسلم الطوال في المواسم المشهورة ، كخطبة الحج ، لكنه « لم يطل التماساً للطول ، ولا رغبة في القدرة على الكثير ، ولكن المعاني إذا كثرت ، والوجوه إذا تعددت ، كثر عدد اللفظ وإن حذف فضوله بغاية الحذف »^(٢) .

ولكل من الإطناب والإيجاز موقع هو به أليق ، لأجل هذا نجد الجاحظ ينص على أن « ربما كان الإيجاز محموداً والإكثار مذموماً ، وربما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز ، ولكل مذهبٌ ووجهٌ عند العاقل »^(٣) ، ويقرر أن « الإيجاز أسهل مراماً ، وأيسر مطلباً من الإطناب . ومن قدر على الكثير كان على القليل أقدر . والتقليل للتخفيف ، والتطويل للتعريف ، والتكرار للتوكيد ، والإكثار

(١) البيان والتبيين ١/ ١٩١ ، ومصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين ، ص : ١٧٧ ، فقد درس الإطناب انطلاقاً من مصطلح الإسهاب .

(٢) المصدر ذاته ٤/ ٢٨ .

(٣) البلاغة والإيجاز ، ص : ٢٤ - مجلة البلاغ العراقية - ع ٩ - ١٩٧٩ .

للتشديد»^(١) . وهو بذلك ، يريد أن يقول أن من قدر على الكثير من شروط استكمال البلاغة في الكلام أن يطوّل ، كان على استكمال شروطها في الإيجاز أقدر .

وقد أشار الجاحظ إلى أنواع الإطناب ، كالتكرار أو الترداد ، وعنى به ما تكرر من أجزاء الكلام أو القصة . وقد نبه إلى ما كان منه معيباً ، وذكر عن الزهري قوله : « إعادة الحديث أشد من نقل الصخر »^(٢) . وسمة التكرار من عيوب الإطناب إن لم تكرر لأغراض بلاغية ، لأن السامع يسأم الترداد^(٣) .

وأورد بعض المواضع التي يجوز فيها التكرار ، خاصة في القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي القصص والوعظ والإرشاد . وهذا الترداد ليس له حد ينتهي إليه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص^(٤) . ويختلف حكمه حسب الموضوع والمناسبة ، فإذا استعمل في مكانه المناسب ، حسن الكلام ، وإلا خرج عن دائرة المطابقة والكلام البليغ . وهو بذلك ، يراعي أحوال المخاطب والمخاطب - أي : المتلقي - « لأن غاية المتكلم انتفاع المستمع »^(٥) . وعرض للإطناب المذموم الذي يجاوز الحد فقال : « . . . وأما المذموم من المقال ، فما دعا إلى الملل ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الإكثار ، وخرج من مجرى العادة . وكل شيء أفرط في طبعه وتجاوز مقدار وسعه عاد إلى ضد طباعه ، فيتحول البارد حاراً ، ويصير النافع ضاراً »^(٦) .

(١) البيان والتبيين ، ص : ٢٤ .

(٢) المصدر ذاته ١ / ١٠٤ .

(٣) البلاغة والإيجاز ، ص : ٢٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ١٠٥ .

(٥) رسالة في نفي التشبيه - ضمن رسائل الجاحظ ١ - / ٢٨٩ .

(٦) رسالته في البلاغة والإيجاز ، ص : ٢٤ .

ومن خروج الكلام خلاف مقتضى الظاهر : اللغز في الجواب ، وقد اهتم به الجاحظ ، وأفرد له باباً سماه « اللغز في الجواب »^(١) . أما السكاكي والقزويني ومن تلاهما ، فإنهم يسمونه الأسلوب الحكيم . وقد عرّفه القزويني بقوله : « هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له »^(٢) .

وقد توسع الجاحظ في هذا الباب ، وضرب أمثلة لهذا النوع ، منها قولهم : « كان الحطيئة يرعى غنماً وفي يده عصا ، فمر به رجل فقال : يا راعي الغنم ، ما عندك ؟ قال : عجاء^(٣) من سلم - يعني عصاه - قال : إني ضيف ، فقال الحطيئة : للضيفان أعددتها »^(٤) .

يتبين مما سبق أن الجاحظ فهم هذا النوع البلاغي ، وساق له أمثلة بشكل عام موسع أكثر مما نعرف عن أسلوب الحكيم ، « مما جعلنا نقرر أن هذا النوع عنده أعم من تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، أو السائل بغير ما يطلب ، تنبيهاً لهما على الأولى بالقصد »^(٥) .

وقد أتى الجاحظ ببعض الأمثلة على اللغز في الجواب ، ولكنه لم يذكر هذا المثال في بابه ، ولم ينظمه في سلكه ، وإنما ذكره في مكان آخر من كتابه (البيان والتبيين) .

(١) المصدر ذاته ١/١٤٧ .

(٢) الإيضاح ، تحقيق : أ. د. عبد القادر حسين ، ص : ١٠٧ - مصر - ط ١ - ١٩٩٦ .

(٣) العجاء : الكثيرة العجر . والعُجْرَة : العقدة في الخشبة ونحوها . اللسان (مادة : عجر) . ، أي : العقد . والسَّلْم - بالتحريك - شجر من العضاة ، وورقها القَرْظ الذي يدبغ به الأديم ، وواحدتها : سِلَامة . والصمة : شجرة ذات شوك .

(٤) البيان والتبيين ١/١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) المقاييس البلاغية ، ص : ٢٤٣ .

ومن هذا القبيل أيضاً : القلب . وقد تحدث الجاحظ عن هذا الفن البلاغي ، وأشار إليه في أكثر من موضع ، ولكنه - كعادته - لم يعرفه بوضع مصطلح له ، ولم يفرد له باباً ، وإنما ذكره في « باب من الخطب القصار من خطب السلف ، ومواعظ النساك ، وتأديب من تأديب العلماء » ، وأتى بأمثلة كثيرة له ، منها قول سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله لطويس المغني : أينا أسنّ؟ أنا أم أنت يا طاووس؟ قال : بأبي أنت وأمي ، لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب ، فعلق الجاحظ على ذلك بقوله : « فانظر إلى حذقه ومعرفته بمخارج الكلام كيف لم يقل : زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك ! وهكذا كان وجه الكلام ، فقلب المعنى »^(١) . وبهذه الإشارة إلى القلب ، نجد الجاحظ قد فتح باباً ، ورسم طريقاً لهذا الفن البلاغي لمن جاء بعده ، فأخذ العلماء ودرسوه ، وضربوا له الأمثلة ، وأصبح فناً بلاغياً قائماً بذاته .

ولعل من أهم فنون علم المعاني التي تعرض لها الجاحظ : الفصل والوصل . وقد ذكره في الباب الذي أورد فيه القلب « باب تأديب من تأديب العلماء » . فالجاحظ يشير إلى أدب الكلمة ، ويسوق شاهداً من كلام مسلمة لنصيب ، يقول فيه : « إن مسلمة بن عبد الملك قال لنصيب الشاعر : ويحك يا أبا الحجناء ! أما تحسن الهجاء؟! قال : أما تراني أحسن مكان (عافاك الله) : (لا عافاك الله)؟! »^(٢) .

وقد ذكر الجاحظ الفصل والوصل عندما عرف البلاغة عند الفرس ، قال : « سئل الفارسي : ما البلاغة؟ قال : معرفة الفصل من الوصل »^(٣) ، ولكنه لم يفرد باباً له ، وإنما أتى به عرضاً ، وساق قول أبي بكر رضي الله عنه للرجل

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤ ، والحيوان ٤/ ٥٨ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٨٨ .

الذي سأله : أتبيع الثوب ؟ قال : لا ، عافاك الله . فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد علّمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله «^(١) .

وبهذا ، يتبين لنا أن الجاحظ أبرز هذا الفن البلاغي وإن كان لم يسمه أو يضع له تعريفاً مفصلاً ، وإنما نوه به وأبرز أهميته في الكلام البليغ المعبر .

وعن علم البيان ، تحدث الجاحظ عن فنونه في كتبه ورسائله ، إلا أن حديثه عنها كان أغزر مادةً في كتابيه (البيان) و (الحيوان) ، وإن كان هذا الفن بفروعه وتشعباته لم يتضح عنده من حيث المصطلحات الواضحة التام ، إلا أنه كان شاملاً لكل فنون البيان من تشبيه واستعارة وكناية .

وقد تكلم عن التشبيه وأفرد له باباً بعنوان « باب من الشعر فيه تشبيه الشيء بالشيء » ، وهو التشبيه المفرد - وهو كثير عنده - فعرض لتشبيه الإنسان بأشياء من الطبيعة الصامتة أو المتحركة ، وتشبيه الحيوان بالحيوان أو بالجماد .

كما ذكر طرفي التشبيه ، ووجه التشبيه - أي : أركانه - ، وأنواع التشبيه ، كالتشبيه المنتزع من متعدد - أي : التشبيه التمثيلي - والتشبيه الضمني وإن لم يكن يطلق عليها من المسميات ما انتهت إليه في العصور المتأخرة . وفي ذلك قال : « . . . وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس والغيث والبحر وبالأسد والسيف وبالحية والنجم »^(٢) ، بل كانوا يشبهون الإنس بالجن . والعرب تشبه الإنسان بالجن . ومثل لذلك بقول الشاعر^(٣) :

إنس إذا أمنوا ، جن إذا فزعوا مرزؤون ، بهاليل إذا حشدوا
وهم لا يشبهون الإنس بالجن فقط ، بل يشبهون الأعمال الخارقة بأنها من صنعهم .

(١) المصدر ذاته ٢٠٧/١ .

(٢) الحيوان ٢١١/١ .

(٣) المصدر ذاته ١٨٠/٦ .

وكانوا يشبهون الحيوان بالحيوان ، والحيوان بالجماد ، وبالعكس . وقد أورد الجاحظ أمثلة فيها تشبيهات الشعراء ، يعلق عليها أحياناً ، ويغفل عن ذلك أحياناً كثيرة . منها وصف علقمة بن عبدة ناقته وشبهها بالظليم^(١) . وشبه الشعراء المرأة أو أجزاء منها ببعض أشكال الحيوانات والجمادات ، كما في وصفهم ذوائبها ، فإذا بلغوا الغاية شبهوها بالأساود . وشبهوا مشيتها بمشي القطاة في تأودها في القرمطة والذل^(٢) . وشبهوا بنانها وأطرافها بالعمم والأساريع إذا كانت مطرفة ، ومثل له بقول المرقش^(٣) :

النشر مسك ، والوجوه دنا نير ، وأطراف الأكف عنم
وللجاحظ موقف طريف من التشبيهات المتعلقة بالمرأة ومظاهر جمالها ، إذ إنها في رأيه أحسن من كل ما يمكن أن تقع عليه عين الإنسان في الطبيعة والحيوان أو ما يذكره الشاعر في مختلف أوصافه لها ، لكنهم ماثلوا بينها وبين أجمل ما لاحظوه في الوجود من حولهم . وفي هذا ، قال : « . . . وقد علم الشاعر ، وعرف الواصف أن الجارية فائقة الحسن ، أحسن من الطيبة ، وأحسن من البقرة ، وأحسن من كل شيء تشبه به ، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون . ويقول بعضهم : كأنها الشمس ، وكأنها القمر . والشمس وإن كانت بهية ، فإنما هي شيء واحد ، وفي وجه الجارية الحسناء وخلقتها ضروب من الحسن الغريب ، والتركيب العجيب . ومن يشك أن عين المرأة الحسنة أحسن من عين البقرة؟! وأن جيدها أحسن من جيد الطيبة؟! والأمر متفاوت ، ولكنهم لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر بلاغتهم وفطنتهم »^(٤) .

(١) المصدر ذاته ٤/٣٥٥ .

(٢) الحيوان ٥/٢١٧ ، ٥٧٦ .

(٣) المصدر ذاته ٦/٣٦١ .

(٤) الرؤية البيانية عند الجاحظ ، ص : ١٦٣ - ١٦٤ . والنص مأخوذ من كتابه في النساء- تحقيق : =

وتعرض الجاحظ في تضاعيف كتبه لأركان التشبيه من مشبه ومشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه .

فبالنسبة لأداة التشبيه ، ذكرها عندما ورد الكلام عن تشبيه البرق بنبض العروق واحتساء الطير ، فمثل لـ (مثل) بقول الشاعر^(١) :

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقتني وكل حجازي له البرق شائق
سرى مثل نبض العرق والليل دونه وأعلام أبلى كلها والأسالق
ومثل لـ (الكاف) بقول أحدهم^(٢) :

أرقت لبرق آخر الليل يلمع سرى دائباً حيناً يهب ويهجع
سرى كاحتساء الطير والليل ضارب بأرواقه والصبح قد كاد يسطع
وقد كان هم الجاحظ في تشبيهه البرق بسرعه وانقضائه بنبض العروق
واحتساء الطير ، إبراز سرعته وانقضائه ، وهو وجه الشبه .

وأحياناً يكون ذكره لوجه الشبه واضحاً في مثل تعليقه : « . . . فقد شبه عظام المرأة بالخيزران ، وذلك في لينها وتمايلها ، وشبه الرجل بالقناة ، وكذلك الفرس ، وذلك في الشدة والصلابة » . قال الشاعر^(٣) :

متى ما يجيء يوماً إلى المال وارثي يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر
يجد فرساً مثل القناة وصارماً حساماً إذا ما هز لم يرض بالهَبْر

= د . نوري حمودي القيسي - مقال في مجلة المورد العراقية (العدد المخصص للجاحظ) - ع ٤ - ١٩٧٨ .

(١) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٨ . وأبلى - بالضم والقصر - : جبال بين مكة والمدينة ، فيها بئر معونة . القاموس (مادة: أبل) . والأسالق : جمع : سَلَقَ - بالتحريك - وهو جبل عال بالموصل وناحية باليمامة والصفصف الأملس الطيب الطين . القاموس (مادة: سَلَقَ) .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٨ . وأوراقه : ستوره . اللسان (مادة: روق) .

(٣) البيان والتبيين ٣/ ٥٩ .

وأحياناً يحذف وجه الشبه . وقد بين ذلك عند ذكر بيت للنابغة الذبياني قال فيه :

فألفت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون
قال الجاحظ : « وليس لهذا الكلام وجه ، لأن الناس إنما يضربون المثل بشيء نادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم ... »^(١) .

وأورد أنواعاً من التشبيه المتعدد ، مثل ما في بيت لامرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
وعلق عليه بأنهم قالوا : « لم ير في التشبيه كقول امرئ القيس حين شبه شئيين بشئيين في حالتين مختلفتين في بيت واحد »^(٢) .

وعرض للتشبيه المجمل ، وهو التشبيه الذي يحتاج إلى تأويل وإمعان الفكر^(٣) ، « وهو ما لم يصرح فيه بذكر وجه الشبه »^(٤) . قول أبي الشيص :

وصاحب كان لي وكنت له أشفق من والد على ولد
« فوجه الشبه - كما ترى - غامض لطيف يحتاج إلى فضل نظر ، إذ قصد الشاعر أن اختلاطه بصديقه وتعلق كل منهما بالآخر كان وثيقاً ، كنحو تعلق الأب بابنه »^(٥) .

وفي معرض كلامه عن طرفي التشبيه^(٦) - المشبه والمشبه به - نجده أولى

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .

(٢) المصدر ذاته ٣/٥٣ .

(٣) أسرار البلاغة للجرجاني ، ص : ٩٣ .

(٤) الإيضاح ، ص : ٢٨٧ ، تحقيق : أ. د. عبد القادر حسين .

(٥) الرؤية البيانية عند الجاحظ ، ص : ١٧٠ .

(٦) يراجع : معاني القرآن للفراء ، فقد فضل في ذكر طرفي التشبيه قبل الجاحظ ٢/٣٠٣ .

اهتمامه بذلك ، وبين أن طرفيه يكونان أحياناً حسيين ، وتارة أحدهما يكون حسيّاً وثانيهما معنوياً ، وفي حال أخرى يلقي الأضواء على المشبه ويذكر أنواع المشبه به ، وأحياناً نجده يسلط الضوء على المشبه به فشبّه الدرع بلمعانها واستدارتها بعيون الجراد ، وكذلك حباب الشراب بأحداقها ، وإذا راق الشراب فبلعابها^(١) .

وبين أيضاً أنه كما يشبه الشيء الواحد بأشياء كثيرة ، كذلك الأشياء الكثيرة تشبه بشيء واحد من حيث وجه الشبه ، فيدخل في التشبيه المتعدد . فالغصن - مثلاً - يشبه به في النضارة وكثرة الإبراق^(٢) ، كما في قول الشاعر :

رأين تغيري وأردن لـدنا كغصن البان ذي الفنن الوريق
وأحياناً يشبهون به في مقدار نضارته وتعريه من أوراقه ، كقول أبي العتاهية :

عريت من الشباب وكنت غضاً كما يعرى من الورق القضيبُ
وأحياناً يشبهون به في اللين والتثني ، كما في قول الشاعر :

ولئن عمرت لقد عمرت كأنني غصن تثنيه الرياح رطيبُ

وتارة يشبهون ما هو غير مشاهد بما هو في التوهم . ورد على من اعترض على تفسير قوله تعالى : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾^(٣) ، جاء في قوله :

« . . . وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ، ولا صَوَّرَ رُؤُوسَهَا لنا صادقٌ بيده ، ففي

إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في

مكانيين ، أحدهما أن يقولوا : (لهو أقبح من الشيطان) ، والوجه الآخر أن

يسمى الجميل شيطاناً على جهة التطير له والكتاب إنما أنزل على هؤلاء الذين

(١) الحيوان ٥٥٨/٥ - ٥٥٩ . ويراجع ذلك أيضاً في الرؤية البيانية ، ص : ١٧٤ وما بعدها .

(٢) البيان والتبيين ٨٢/٣ ، ويراجع : المقاييس البلاغية ، ص : ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٣) سورة الصافات ، الآية : ٦٥ .

قد ثبت في طبائعهم غاية التثبيت»^(١) .

وكذلك كان يجعل المشبه به مكان المشبه ، وهو ما سماه المتأخرون التشبيه المقلوب ، فيشبه عصي الطلح بالأرجل ، والأصل الأرجل المعوجة كأنها عصي الطلح ، وساق قول بشر بن أبي خازم في وصف قوم^(٢) :
إذا غدوا وعصي الطلح أرجلهم كما تنصب وسط البيعة الصلْبُ
وإنما يعني أنهم كانوا عرجاناً ، فأرجلهم كعصي الطلح ، وعصي الطلح معوجة .

و نرى أن من أهم مقاصد التشبيه عند الجاحظ الإيجاز في عرض المعاني ، فنجده يعرض لنا الأبيات الموجزة في التشبيه ليثبت أنه يؤدي إلى الإيجاز ، ويقول : « . . . وأبيات تضاف إلى الإيجاز وحذف الفضول ، قال بعضهم يصف كلاباً في حال شدها وعدوها ، وفي سرعة رفع قوائمها ووضعها فقال^(٣) :

كأنما ترفع ما لم يوضع
وقال بعضهم في وصف فرس يشبهه بلمع البرق لسرعته^(٤) :

جاء كلمع البرق جاش ناظره يسبح أولاه ويطفو آخره
فما يمس الأرض منه حافره

و عرض لرأي خلف الأحمر في شعر امرئ القيس يصفه بالإيجاز ، قال خلف : « لم أر أجمع من بيت لامرئ القيس ، وهو قوله^(٥) :

(١) الحيوان ٦/٢١٢ وما بعدها . ويراجع ما كتبه الفراء في معاني القرآن حول هذه الآية ٢/٣٨٧ .

(٢) البيان والتبيين ٣/٧٥ .

(٣) الحيوان ٢/٣٥ ، ٣/٧٢ ، والبيان والتبيين ١/١٥٠ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥١ .

(٥) الحيوان ٣/٥٢ - ٥٣ . وأيتلاه : كشاه ، وهو ما بين آخر الضلوع إلى الورك . والإرخاء =

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
وكانت هذه الملاحظات البلاغية التي ذكرها الجاحظ سبباً جعل بعض الباحثين
يعتقدون أن الجاحظ ومعاصريه قد فهموا الصلة بين المشبه والمشبّه به فهماً
صحيحاً، وأنهم أخذوا يخضعون الأدب للمعايير النقدية في حرية وصرامة^(١).

وأما المجاز ، فقد تناوله البلاغيون قبل الجاحظ منذ مطلع القرن الثالث
الهجري ، وأول كتاب وضع في ذلك هو (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن
المثنى (ت ٢١٠ هـ) ، إلا أنه لم يستعمل الكلمة بمعناها الاصطلاحي المقابل
للحقيقة ، وإنما قصد بها مجرد تفسير الكلمة بمثل معناها ، مما يدل على أن
فكرة المجاز لم تكن قد اتضحت في ذهنه تماماً كما نجدها عند المتأخرين^(٢) .
ولكنه كان يستخدم لفظ المجاز كثيراً في تفسيره لآي الذكر الحكيم . وفي
ذلك قال : « ومن مجاز ما حذف وفيه مضمّر : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾^(٣) ، فهذا محذوف فيه ضمير ، مجازه : وسئل أهل
القرية ، ومن في العير^(٤) . وعندما تناول الالتفات ، ذكره على أنه مجاز ،
فقال : « ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت
مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ
بِهِمْ ﴾^(٥) . ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد ، قال : ﴿ ثُمَّ

= جري ليس بالشديد . والسرحان: الذئب . والتقريب: أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً .
والتفل: ولد الثعلب . شرح المعلقات العشر للتبريزي، ص: ٦٨ - تحقيق: د. قباوة .

(١) يراجع: الموجز في تاريخ البلاغة، ص: ٥٨، وأثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٨٠ -
٩٠ .

(٢) يراجع - مثلاً - القرآن والصورة البيانية، أ. د. عبد القادر حسين، ص: ١٤٥ وما بعدها .

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٢ .

(٤) مجاز القرآن ١/٨ .

(٥) سورة يونس، الآية: ٢٢ .

ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ . وفي أثناء شروحه اللغوية ، ساق الكثير من الآيات القرآنية وأساليب التعبير فيها ، فكتاب (مجاز القرآن) وضع أصلاً لمحاولة تحديد طرق القول الجائزة في كلام العرب .

أما الفراء (ت ٢٠٧ هـ) - معاصره - فقد تناول المجاز في كتابه (معاني القرآن) في أسلوبيين : الأول : أورد فيه أمثلة للمجاز من دون ذكر لفظ المجاز ، كقوله في معنى قوله تعالى : ﴿ فَمَا رِيحَتْ بِجَنَرِثُهُمْ ﴾ (٣) : كيف تريح تجارتهم وإنما يريح الرجل التاجر؟! (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ (٥) ، وإنما العزيمة للرجال (٦) ، ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ (٧) ، إنما أراد حب العجل . ومثل هذا مما تحذفه العرب كثير . . . وساق أمثلة كثيرة للمجاز من دون تسميته ، من ذلك قول الشاعر الشماخ (٨) :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
أي بالقوة والقدرة . أما الأسلوب الثاني الذي ذكره الفراء للمجاز ، فهو قوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (٩) . المكر ليس لليل ولا للنهار ، إنما المعنى : بل مكرم بالليل والنهار . وقد يجوز أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار ويكونا كالفاعلين . . . وهو في المعنى للآدميين . . .

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٣٣ - ٣٤ .

(٢) إعجاز القرآن ١/ ١١ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦ .

(٤) معاني القرآن ١/ ١٤ .

(٥) سورة محمد، الآية: ٢١ .

(٦) معاني القرآن ١/ ١٤ .

(٧) سورة البقرة، الآية: ٩٣ .

(٨) هو الشماخ بن ضرار المري . وعرابة : هو عرابة بن أوس بن قيطي الأنصاري ، وقد لقي الشماخ فأكرمه فمدحه الشماخ ، وسيأتي ذكره .

(٩) سورة سبأ، الآية: ٣٣ .

فهذا مما يعرف معناه فتتسع به العرب»^(١) . وأحياناً ، يشير الفراء إلى المجاز بقوله : وأجازته العرب ، وهذا جائز^(٢) .

وفي هذا الصدد ، قال د . بلمليح : « يقف الفراء من المجاز موقفين : الموقف الأول يتميز بأن الفراء يذكر مجازات متعددة يجب أن نسلكها في إطار تأويله وشرحه لمعنى النص القرآني . والثاني : إشارته إلى المجاز بلفظ آخر أو بصيغة مشتقة منه^(٣) .

وأما الجاحظ ، فقد تناوله بشيء من التفصيل ، وكان مدركاً معناه ، وهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له في الأصل اللغوي ، وخصه في كتابه (الحيوان) بأبواب ، منها بابان في المجاز والتشبيه في الأكل^(٤) ، والثالث في مجال الذوق^(٥) . والأكل له معنيان ، أحدهما حقيقي ، وثانيهما مجازي ، وكذلك الذوق ، يأتي بمعنى التذوق من حيث الحقيقة ، أما المجاز ، فهو في قول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده : ذق ! وكيف ذقته؟! وكيف وجدت طعمه؟! وقال عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾^(٦) . وتحدث عن المجاز نظرياً وتطبيقياً ، لكن اعتبره اتساعاً في اللغة ، وجرأة عليها ، وقال : « يقول الرجل : فلان يرى السيف ، وفلان يرى رأي أبي حنيفة ، وقد رأيت عقله حسناً^(٧) ، وأورد أمثلة كثيرة لاتساع العرب في الكلام ثقة منهم

(١) معاني القرآن ٢/٣٦٣ .

(٢) للمزيد ، يراجع : معاني القرآن ١/١٤ - ١٥ ، ٩٩ ، ٤١٦ ، ٦٣/٢ ، ٢٧٨ ، ٣٦٣ ، ٣٨٧ - ٣٨٨ ، ٩/٣ ، ٥٧ ، ١١٨ .

(٣) الرؤية البيانية عند الجاحظ ، ص : ٢٠٦ .

(٤) الحيوان ٥/٢٣ ، ٢٥ .

(٥) المصدر ذاته ٥/٢٨ .

(٦) سورة الدخان ، الآية : ٤٩ .

(٧) للتوسع في المسألة ، يراجع : الحيوان ١/٣٣٠ ، ٣٣٢ - ٣٣٩ ، ٢/٢٨٠ ، ٤/٣٩٤ .

أنهم يفهمون مراميه^(١) . وفي ذلك قال : « وللعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم »^(٢) ، أي بفهم السامعين عن المتكلمين . وتحدث عن علاقته وإن لم يسمها بمصطلحاتها ، كما في قوله : « . . . وأما قوله عز وجل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ ﴾^(٣) ، فالعسل ليس شراباً ، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذاً ، فسماه كما ترى شراباً ، إذ كان يجيء منه الشراب . وقد جاء في كلام العرب : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط . ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها؟! فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها . ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً . وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت^(٤) .

ويكشف الجاحظ عن سر استعمال المجاز عند العرب ، فيذكر بعض الأسباب الاجتماعية والخلقية التي تدفع بالإنسان إلى العدول عن اللفظ الصريح إلى المجاز . ونسمعه مرة ينقل لنا موقف الفقهاء من قضية المجاز ، يقول : « سمع الحسن رجلاً يقول : طلع سهيل وبرد الليل ، فكره ذلك ، قال : إن سهيلاً لم يأت بحر ولا يبرد قط . ولهذا الكلام مجاز ومذهب . ومثله ما كرهه مالك بن أنس أن يقال الصيغ المجازية التي قد يشم منها إسناد الفعل إلى الجمادات »^(٥) . لكن الجاحظ كان معتدلاً ، فهو ينقل لنا رفضهم ويطلب منهم الدليل والتعليل ، يقول : وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الرواية

(١) المصدر ذاته ٢٠٠/٧ .

(٢) للتوسع في بحث المجاز، يراجع: الحيوان ٢٠٠/٧ .

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٩ .

(٤) الحيوان ٣٤١/١ .

(٥) النقد المنهجي في الحضارة العربية، ص: ١٢٠ .

لا نعرف وجوهها - فرأي أصحابنا - لا يكرهونها . ولا نستطيع الرد عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك أكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤونة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصرنا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة^(١) . وأمثلة المجاز كثيرة ، والناظر في كتاب (الحيوان) يجد للجاحظ وقفات موفقة ، ولفقات ذكية تدل على إدراكه لحقيقة المجاز . ويعتبر أول من تناول هذا الموضوع تناولاً بلاغياً ، حيث مهّد السبيل لمن أتى بعده في تناولهم للحقيقة والمجاز^(٢) ، وتأثر - كما سنرى - ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بما قاله أبو عبيدة والجاحظ .

وقد تعرض لفن الاستعارة من زاويتين : الأولى : المعنى اللغوي لها ، وهو بمعنى الإعارة . والثانية : المعنى الاصطلاحي ، وهو أخذ كلمة أو لفظة من المجال الذي استعملت فيه حسب الوضع اللغوي إلى مجال آخر يبتعد قليلاً أو كثيراً عن أصل الوضع ، فتستعمل الكلمة أو اللفظة لتدل على معنى جديد ، كما في مثل « الخطف » ، فإن أصله الأخذ في سرعة ، ثم استعير لكل سريع كما قال الجاحظ^(٣) ، وكما في « البلق » ، وأصله في الخيل ، وفي ذلك قال الجاحظ : « والعرب تستعير ذلك وتضعه في مواضع كثيرة . قال الشاعر - وهو يريد بياض الصبح المخال بسواد في بقية الليل^(٤) :

حبسناهم حتى أضاء لنا من الصبح مشهود الشواكل أبلق
فالشاعر قد استعار لفظة « أبلق » من مجالها اللغوي الذي تستعمل فيه على

(١) الحيوان ١/٣٣٩ .

(٢) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٥٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٦٦ .

(٤) البرصان والعرجان ، ص : ٢٧ . والشواكل : جمع شاكلة : الناصية والطريقة . اللسان (مادة :

شكل) . وأشكل ، وهو ما فيه حمرة وبياض مختلط . وأبلق : من البلق ، وهو سواد وبياض . اللسان (مادة : بلق) .

أصلها ، وهو أن يخالط لونَ الفرسِ الأبيضِ سوادً ، إلى مجال آخر هو الصبح المخالط ببقية الظلمة^(١) .

من هنا ، يتبين أن الجاحظ أدرك الفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للاستعارة بناءً على شرحه اللغوي لبعض الأبيات ، فقد عرف الاستعارة تعريفاً أخذه البلاغيون عنه فيما بعد عند إيراده قول الراجز :

يا دار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاهها
أخر بها عمران من بناها وكرمساها على مغناها
وظفت سحابة تغشاها تبكي على عراضها عيناها

قال الجاحظ : « وظفت : يعني : ظلت ، تبكي على عراضها عيناها : عيناها ههنا للسحاب . وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه »^(٢) . وقد جعل بعض البلاغيين الاستعارة هنا تصريحية تبعية ، إذ أجروها في القرينة ، وهي قوله : « تبكي » .

وساق أمثلة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوال العرب ، وهي استعارات تمثيلية ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « مات حتف أنفه »^(٣) ، وقوله : « الآن حمي الوطيس »^(٤) ، وقولهم : « فلان واسع

(١) الرؤية البيانية، ص: ٢١٢.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٥٢ - ١٥٣ ، والحيوان ٦/ ١٩٣ .

(٣) هو جزء من حديث يروى عن عبد الله بن عتيك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٣٦ ح ١٦٤٦١ ، والحاكم في مستدركه ٢/ ٩٧ ح ٢٤٤٥ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال فيه : رواه أحمد والطبراني ، وفيه محمد بن إسحاق ، مدلس ، وبقية رجال أحمد ثقات ٥/ ٢٧٧ .

(٤) هو جزء من حديث ، أخرجه البزار في مسنده ٤/ ١٢٨ - ١٢٩ ح ١٣٠١ ، وأبو يعلى في مسنده ٦/ ٢٨٩ ح ٣٦٠٦ ، وأبو عوانة في مسنده ٤/ ٢٧٩ ح ٦٧٥٤ ، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٢٩٨ ح ٧١٩١ .

السرب وخلي السرب ، أي : المسالك والمذاهب ، وإنما هو مثل مضروب للصدر والقلب . وعن الأصمعي : فلان واسع السرب - مكسور- أي : واسع الصدر ، بطيء الغضب»^(١) .

و أورد كثيراً من الاستعارات ، منها قوله تعالى : ﴿ هَذَا نُرُومٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(٢) ، وقال في ذلك : « والعذاب لا يكون نزلاً . ولكن ، لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم ، سمي به »^(٣) ، لكنه لم يذكر الفروق الدقيقة التي حددتها وميزت بينها مصطلحات البلاغيين التي وضعت فيما بعد ، وإنما كان يكتفي بالإشارة ، وأحياناً بالعبارة عن الاستعارة المشار إليها . ويتبين من عرضه الأمثلة أنه أدرك الفرق بين الاستعارة والمجاز ، فالمجاز عنده استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، أما الاستعارة ، فهي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه .

وتعدّ جهود الجاحظ في مجال المجاز والاستعارة حجر الأساس للبلاغيين الذين جاؤوا بعده كابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، وأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، والإمام أحمد بن يحيى (ثعلب) (ت ٢٩١ هـ) ، وعبد الله بن المعتمر (ت ٢٩٦ هـ) .

وقد ذهب الدكتور بلمليح إلى أن ابن المعتمر تأثر بالجاحظ مباشرة عندما أخذ الاستعارة عنه ، « ... إذ جعلها أول باب من أبواب مؤلفه المذكور : البديع »^(٤) ، لكنه - في رأينا - أخذها عن سبقه كابن قتيبة^(٥) . وقد تعرض لها أستاذه : المبرد و ثعلب ، فهناك قنطرة اجتازتها الاستعارة حتى وصلت في

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٧٩ . ويراجع المقاييس البلاغية عند الجاحظ ، ص : ٢٧٧ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية : ٥٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٥٣ ، والحيوان ٤/ ٢٧٣ . وتراجع أمثلة أخرى في البيان ٢٢٨ - ٢٢٩ ،

٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٨/٢ ، ٨٣/٣ . . . والحيوان ٦/ ٦٦ ، ١٩٣ . . .

(٤) الرؤية البيانية ، ص : ٢١٨ .

(٥) يراجع تعريف الاستعارة في : تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٠٢ - ١٠٧ .

نهاية القرن الثالث إلى ابن المعتز . وسأبين ذلك في الفصول المقبلة إن شاء الله عندما أتناول الاستعارة عند كل من المبرد و ثعلب .

وتعرض الجاحظ لفن الكناية ، والعرب تعدل عن الألفاظ الصريحة إلى الكناية عنها ، « فيعبر المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وعن الفاحش بالظاهر »^(١) ، وبين سبب ذلك في مكان آخر ، قال : « . . . وقد يستعمل الناس الكناية ، وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهروا المعنى بألين لفظ ، إما تنزهاً وإما تفضلاً . . . حتى سمي بعضهم البخيل مقتصدًا ومصلاً ، وسمى عامل الخراج المعتدي بحق السلطان مستقصياً »^(٢) .

ويشير الجاحظ إلى أن الكناية أبلغ أحياناً من التصريح في قوله : « . . . ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها »^(٣) ، وهذا محل اتفاق بين البلاغيين^(٤) ، لكنه ينص على أن الإفصاح والكشف يؤثران في العقول أكثر من الكناية ، وليس كل موضع وجدت فيه الكناية تكون أبلغ من الإفصاح ، « بل رب كناية تربي على إفصاح »^(٥) . وهو بذلك ، يشير إلى مراعاة الكلام لمقتضى حال المخاطب أو المتكلم ، فأحياناً تكون الكناية أبلغ ، وأحياناً يكون الإفصاح أبلغ ، وكلٌّ محمود في موقعه وسياقه .

وقد أولى الكناية اهتماماً ملحوظاً ، فذكر أقسامها الثلاثة : الكناية عن الصفة ، والموصوف ، والنسبة .

(١) تحرير التحبير، ص: ١٤٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٦٣ ، ومجلة المورد - العدد المخصص بالجاحظ ، ص: ٢٤٨ - ٤٤ - ١٩٧٨ .

(٣) المصدر ذاته ١/٨٨ .

(٤) دلائل الإعجاز، ص: ٥٦ .

(٥) البيان والتبيين ٧/٢ .

فأما الكناية عن الصفة ، ففي مثل قول الأسيدي :

عصا الشمل من أسدٍ أراها قد انصدعت كما انصدع الزجاجُ
فعصا الشمل كناية عن الجمع والالتئام .

وفي قولهم : « شق عصا المسلمين » كناية عن التفرق والاختلاف ،
و« ضعف العصا » كناية عن الرأفة والرحمة ، و« صلب العصا » كناية عن
الجلادة والصبر ، « وإلقاء العصا » كناية عن عدم الترحال والأوبة
والاستقرار ، كقول الشاعر^(١) :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر
وقد أورد أمثلة لذلك لا لهدف بلاغي بقدر ما كان مشغولاً بالرد على
الشعوبية ودحض مزاعمهم ، فكانت هذه اللفظات منه بين حين وآخر مزجاة في
أسلوب استطرادي يحاول أن يقطف من كل بستان أجمل زهرة ، ويمتع قارئه
ويقنعه في آن واحد .

وأما الكناية عن الموصوف ، فقد أشار إلى كثير من الأمثلة من دون تسمية
المصطلح ، كما في إيراده قول الهذلي :

أعامرُ لا ألوكُ إلا مهنداً وجلدُ أبي عجلٍ وثيقُ القبائلِ
« ويعني بأبي عجل : الثور .

ويكني برأس العصا عن صغير الرأس ، فالعرب تسمي كل صغير الرأس :
رأس العصا^(٢) ، وكلها كنايات عن الموصوف .

وأما الكناية عن النسبة - أي : نسبة الصفة إلى الموصوف - فقد أبرزها في

(١) المصدر ذاته ٣/٣٩ - ٤٠ ، وللمزيد من التفصيل يراجع : ١/٢٦٣ ، ٣/٤٤ ، ٥٢ ، ٥٦ ،

٨٣ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، والبرصان والعرجان ، ص : ٢١ ، ٦٦ .

(٢) البيان والتبيين ٣/٧٨ .

تعليقه على قول الشاعر :

إذا اخضرت نعال بني غرابٍ بَعَوْا ووجدتهم أشرى لئاما
وبين أنه لم يُرد صفة النعل ، وإنما أراد أنهم إذا اخضرت الأرض وأخصبوا
طغوا وبغوا^(١) .

ولنا أن نساءل : هل الجاحظ هو أول من ذكر الكناية وعرفها ووعاها
وضرب الأمثلة على أقسامها ؟ أو أن هناك من تكلم عنها قبله ؟

إن الباحث يجد لها ذكراً عند الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في (معاني
القرآن)^(٢) ، وعند أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) في (مجاز القرآن)^(٣) ، وإن كان
كل يعرفها بأسلوبه الخاص .

ومن الملاحظ أن حديث الجاحظ عن الصور البيانية في كتاب (الحيوان)
يفوق ما ذكره في (البيان) ، وذلك لأن كتاب (الحيوان) أسبق في التأليف .

وأما فن البديع ، فلعل الجاحظ أول من استعمل مصطلح البديع ، ولم
يقصد به فن البديع بمحسناته اللفظية والمعنوية ، وإنما كان يطلق البديع على
المثل ، كما في قوله : « . . . فالراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن
البديع ، ولم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة »^(٤) . وكما
في تعليقه على أبيات الأشهب بن رُمَيْلة :

إن الألى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
هم ساعدُ الدهر الذي يُتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد
« قوله : (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة :

(١) المصدر ذاته ١٠٦/٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء ١٥/١ ، ويراجع : أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص : ٥٣١ .

(٣) مجاز القرآن ١٢/٢ ، ١٥ . . .

(٤) البيان والتبيين ١٥/١ .

البديع»^(١) .

لكن قصب السبق في تسمية البديع كان لعبد الله بن المعتز - كما سنرى في الفصل السادس -

وقد تناول الجاحظ كثيراً من فنون البديع ، وإن كان لا يطلق المصطلحات والتسميات التي آلت إليها هذه الفنون عند المتأخرين . ومن هذه الفنون : حسن التقسيم ، والمبالغة والإغراق ، والهزل الذي يراد به الجد ، والسجع والازدواج ، والاقْتباس والتلميح ، وحسن الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء .

فأما حسن التقسيم ، فقد عدّه البلاغيون من المحسنات المعنوية ، عرفه السكاكي بقوله : « أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ، ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك »^(٢) ، وعرفه القزويني بأنه « ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين »^(٣) . وذكره الجاحظ عند سوقه خبر قدوم قتيبة بن مسلم خراسان ، إذ علق على قوله للقوم : « . . . من كان في يده شيء من مال عبد الله بن خازم فلينبذه ، وإن كان في فيه فليلفظه ، وإن كان في صدره فلينفثه ، « فعجب الناس من حسن ما قسم وفصل »^(٤) .

وأما الهزل الذي يراد به الجد ، فلعلنا نستطيع القول إن الجاحظ أول من استعمل هذا الاصطلاح حينما تعرض للحديث عن إبراهيم بن هانئ ، لكنه لم يفصل فيه^(٥) . وقد أخذه البلاغيون من بعده ، مثل ابن المعتز^(٦) ومن جاء بعده من علماء البلاغة .

(١) المصدر ذاته ٤/ ٥٥ - ٥٦ .

(٢) مفتاح العلوم ، ص : ٤٢٥ .

(٣) الإيضاح ، ص : ٤٠٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ١٠٨ .

(٥) المصدر ذاته ١/ ٩٣ - ٩٤ .

(٦) البديع ، ص : ٦٣ .

وأما المبالغة ، فقد تكلم عنها ، وكان يسميها الإفراط في الصفة ، كما في تعليقه على وصف خلف الأحمر سرعة ثور :

وكانما جهدت أليتهُ ألا تمس الأرض أربعه
قال الجاحظ : « فأفرط المولدون في صفة السرعة ، وليس ذلك بأجود »^(١) .

وأما الإغراق ، فإننا نجده يقول في رسالة لصديقه : « يا أخي - أرشدك الله - إنك أغرقت في مدح الظهر من الجهة التي كان ينبغي لك أن تؤخرها »^(٢) .

ومن المحسنات اللفظية التي تناولها الجاحظ : السجع . وقد أفرد له بابين في (البيان والتبيين)^(٣) ، وساق قول الشعبي : « قال عيسى بن مريم : البر ثلاثة : المنطق والنظر والصمت ، فمن كان منطق في غير ذكر فقد لغا ، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها »^(٤) ، كما تمثل بقول أيوب بن القرية ، وكان دُعي للكلام واحتبس القول عليه ، فقال : قد طال السهر ، وسقط القمر ، واشتد المطر ، فما ينتظر « فأجابه فتى من عبد القيس : « قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق ، فلينطق من نطق »^(٥) .

نتبين من هذه الأمثلة التي أتى بها الجاحظ وضوح هذا المصطلح في ذهنه . وأتى بأمثلة لأنواع السجع وفروعه كما استقر لدى المتأخرين ، فقال :

(١) الحيوان ٢/٣٥ . وجهد ، كمنَع : جدَّ . وجهد دابته : بلغ جهدها . القاموس (مادة : جهد) .

والإلية : اليمين . القاموس (مادة : ألي) . وأربعة : قوائمه الأربع .

(٢) رسالة في تفضيل البطن على الظهر ، ص : ١٨٥ - تح . شارل بيلا - حوليات الجامعة التونسية - ع ١٣ - ١٩٧٦ . وهي أيضاً ضمن رسائل الجاحظ - تح . عبد السلام هارون .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٤) المصدر ذاته ١/٢٩٧ .

(٥) المصدر ذاته ١/٢٩٨ .

« لا تغتر بمناصحة الأمير إذا غشك الوزير »^(١) ، ونقل وصف أعرابي رجلاً قال : « إن رفدك لنجيج ، وإن خيرك لسريح ، وإن منعك لمُريح »^(٢) . كما ذكر بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثبت فيها الفواصل والسجع ، وأكد أن الرسول الكريم لم يحرم السجع عينه ، وإنما نهى عن سجع الكهان . وفي ذلك قال : « إن كهان العرب الذي كان أكثر الجاهليين يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رثياً من الجن . . . كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »^(٣) . وأكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم استمع القصائد والأرجاز ، وفي ذلك يقول عن بعضهم : « وجدنا الشعر في القصيد والرجز قد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم فاستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحابه قد قالوا الشعر ، قليلاً كان ذلك أم كثيراً ، واستصنعوا واستشددوا . فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل؟! »^(٤) . لذلك ، نراه يفرد باباً للمزدوج من الكلام^(٥) ، ومثل له بقول النبي صلى الله عليه وسلم في معاوية : « اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب »^(٦) ، وقول رجل من بني أسد : « مات لشيخ منا ابن ، فاشتد جزعه عليه ، فقام إليه شيخ منا ، فقال : اصبر أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » . فقال مجيباً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته . والله ، لئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد » . وذكر عن الأصمعي عن ابن أقيصر : « خير

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٨٧ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٩٨ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٤) المصدر ذاته ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٥) الازدواج ٢/ ١١٦ - ١١٧ .

(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٤٣٩ ح ١٠٦٦ ، وفي مسند الشاميين ١/ ١٩٠ ح ٣٣٣ ، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٢٧٢ - ٢٧٤ .

الخيال الذي إذا استدبرته جنا ، وإذا استقبلته ألقى ، وإذا استعرضته استوى ، وإذا مشى ردى ، وإذا ردى دحا . وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه لسمع شعر جرير والفرزدق ، فقال : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر . فقال : الذي يغرف من بحر أشعرهما »^(١) .

ومما يتبع علم البديع : السرقات الشعرية . وقد تعرض الجاحظ لها ، وكان من الموضوعات البلاغية التي تناولها القزويني في كتابه البلاغي المشهور (الإيضاح) ، ثم غدت موضوعاً بارزاً من موضوعات كتب النقد ، وسنورد موقف الجاحظ من السرقات عند الحديث عن نقده .

ومما له تعلق بالسرقات الشعرية : الاقتباس من القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أشار الجاحظ إلى جمال الخطب وحسنها إذا اقتبس الخطيب عندما يخطب في المحافل والجمع شيئاً من آي الذكر الحكيم ، واستشهد بها في خطبته فقال : « . . . كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع »^(٢) ، وبذلك يكون قد وجّه الأنظار إلى أهمية هذا الفن البلاغي الذي عرف بالاقتباس .

وأما التلميح^(٣) ، فقد أشار إلى هذا النوع البلاغي ، وهو الإشارة إلى آيات القرآن الكريم أو إلى بعض أبيات الشعر أو إلى بعض أمثال العرب ، كما في مثل قول بعضهم :

كرهتُ وكان الخيرُ فيما كرهتُهُ وأحبيتُ أمراً كان فيه شباً^(٤) القتل
قال في ذلك الجاحظ : « هو مثل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ

(١) البيان والتبيين ٢/ ١١٦ - ١١٧ ، ٢٧٣ . وجناً الخيل : أكب . القاموس (مادة : جنأ) .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

(٣) التلميح هو أن يشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره . الإيضاح ، ص : ٤٧٩ .

(٤) الشبا : شباة كل شيء : حد طرفه ، وحد كل شيء شباته . اللسان (مادة : شبا) .

تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴿١﴾ ، وكان يقال :
(خذ مقتصد العراق ، ومجتهد الحجاز) « (٢) .

كما أشار إلى حسن الابتداء ، وأولاه عنايته لأهميته في البلاغة وتأثيره في نفوس المستمعين ، وذكره في تعليقه على تفسير ابن المقفع للبلاغة عندما قال : « وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته » ، قال الجاحظ : « كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معنك ، ولا يشير إلى مغزك ، وإلى العمود الذي إليه قصدت ، والغرض الذي إليه نزلت » (٣) . وقد ذكر البلاغيون بعد الجاحظ حسن الابتداء ، وسموه : براعة الاستهلال .

وبهذا ، يبدو لنا جلياً أن الجاحظ فهم هذه الفنون رغم أنها جاءت متناثرة لا تنتظم في سلك ، لكن تدل دلالة واضحة على فهمه وتذوقه ورسمه خطوطاً عريضة ترسم خطاها من جاء بعده . ومهد الطريق أمام علماء البلاغة فيما بعد لوضع المصطلحات ، « لأن الجاحظ - على كثرة ما كتب في البلاغة - لم يكن يعنى بوضع المصطلحات أو صياغة التعريفات والحدود ، وإنما كان أديباً بليغاً بطبعه وعقله وذوقه ، فكان يقف أمام النصوص لشرحها أو يعلق عليها أو يدل على ما فيها من مواطن الجمال أو حسن البيان ، مستعيناً على ذلك بشواهد كثيرة يمدده بها محفوظ وافر من القرآن الكريم وكلام العرب » (٤) ، لكن د . داود سلوم ذهب إلى أنه حاول التفصيل في دقائق الأسلوب البلاغي ، ووضع

(١) سورة البقرة، الآية : ٢١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٦٠ وما بعدها . وتراجع أمثلة أخرى في البيان والتبيين ٢/ ١٨٢ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ١١٦ .

(٤) الموجز في تاريخ البلاغة لأستاذنا د . المبارك ، ص : ٥٨ - ٥٩ .

بعض المصطلحات لما يسمى الآن بالاستعارة والكناية والمجاز ، وتقريب ذلك منا بضرب الأمثلة لكشف أسرار الجمال الأدبي في النص لغرض استخدام الشعراء والكتاب لها ، أو تفسير أساليب العرب في ضوء ذلك^(١) .

المبحث الثالث : النقد عند الجاحظ :

يتسم الجاحظ بسعة الثقافة ، وغنى موروثه اللغوي ، وعظم خبرته ، ورجاحة تفكيره ، فقد استطاع أن يحشد لنا أكبر قدر ممكن من الشواهد في كتبه خاصة (البيان والتبيين) و(الحيوان) ورسائله ، وقد قرر ذلك كثير من القدماء والمحدثين ، فهذا أبو هلال العسكري يصف (البيان والتبيين) بأنه أكبر كتب البلاغة وأشهرها ، وأنه كثير الفوائد ، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ولغته المستحسنة^(٢) .

ويقرر د . إحسان عباس أن الجاحظ وضع أصول نظريات لم يمنحها ما تستحقه من شرح وتفسير وتمثيل ظلت مغلقة على الذين جاءوا بعده ، فلم يتقدموا بها شوطاً ، أو تناولوا بعضها وانتزعوه من ملابساته الواقعية فأخطأوا تأويله والانتفاع به^(٣) .

ومن أهم القضايا النقدية التي تعرض لها الجاحظ قضية اللفظ والمعنى التي شغلت بال الكثيرين من النقاد قبله ، بعضهم كان ممن يؤثر المعنى وحده ، وبعضهم الآخر كان يؤثر اللفظ ، ووقف آخرون موقفاً معتدلاً فاعتبروا القيمة

(١) النقد المنهجي عند الجاحظ ، ص : ١١٩ .

(٢) دراسات في نقد الأدب ، ص : ١٨٠ .

(٣) تاريخ النقد الأدبي ، ص : ٩٦ . ويراجع في هذا الباب ما يؤكد هذا القول : ما جاء في المصطلح البلاغي وتطوره ، ص : ٣٠٥ - ٣٣٦ ، والجاحظ والنقد الأدبي ، ص : ٩ .

الأدبية للأثر الفني باللفظ والمعنى معاً ، وبعضهم كان يرى أهمية الألفاظ من جهة دلالتها على معناها في نظم الكلام جملة - ولعل هذا الرأي هو أهم الآراء وأرجحها -^(١) . ولسنا بصدد تأريخ لهذه القضية ، ولكن ، نريد الكشف عن موقف الجاحظ منها .

ولو استعرضنا ما كتب في صحيفة بشر بن المعتمر التي عرضها الجاحظ في (البيان والتبيين) ، لرأينا أنه يؤكد شرف اللفظ والمعنى ، قال بشر : « إن من أراد معنى كريماً ، فليتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يسانا عما يهجنهما ويفسدهما ، فكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت »^(٢) .

ويبين لنا الجاحظ أثر المعاني والألفاظ الشريفة بقوله : « . . . وإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة . ومتى كانت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت عن قائلها على هذه الصفة ، أصحابها الله من التوفيق ، ومنحها من التأيد ما لم يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابة ، ولا تذهل عن فهمها معه عقول الجهلة »^(٣) .

وقرر أن المعاني مشتركة بين الناس ، وإنما العبرة للصياغة . وعندما نقد أبا عمرو الشيباني في استحسان معنى بيتين من الشعر ، هما :

(١) فن البلاغة، ص : ٥٤ ، والمقاييس البلاغية، ص : ٢٢٤ ، والنقد الأدبي الحديث، ص : ٢٥٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٦ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٨٣ .

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكن ذا أفضح من ذاك لذل السؤال
قال : « . . . وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في
الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإن الشأن
إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة
الطبع ، وجودة السبك ، فإن الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من
التصوير»^(١) .

ويقرر الجاحظ أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني
مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة
معدودة ، ومحصلة محدودة^(٢) .

وفي تعليقه على الشيباني ، نراه يشيد باللفظ ، فالأدب عبارة جميلة تتمثل
في اختيار اللفظ ، وجودة النظم ، والشاعر الحق هو من يجعل الشعر صناعة
ولوناً من التصوير ، وإن كان الجاحظ لا يُغفل قيمة المعنى أيضاً ، لأن الصياغة
لا تكون بالألفاظ وحدها ، وإنما بالألفاظ وما تحمله من معنى . وكأنما أحس
في عمق أن المعاني وحدها لا تكوّن الكلامَ البليغَ ، « فالمرجمون ينقلون
معاني دقيقة لفلاسفة اليونان وغيرهم ، ومع ذلك لا يمكن أن يتصف ما نقلوه
بالبلاغة»^(٣) .

ويرى د . إحسان عباس أن الجاحظ أكد نظريته في الشكل ، وتساءل عن
أسباب اتجاهه هذا النحو ، مع أنه لم يكن من الشكليين في التطبيق ، وأورد

(١) الحيوان ٣/١٣١-١٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/٧٦ .

(٣) البلاغة : تطور وتاريخ ، ص : ٥٢ ، وتاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ٧٣ وما بعدها ،
والتفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٣٨ .

جملة منها ، مثل أنه لم يتابع أستاذه النظام في القول بالصُّرْفَة تفسيراً للإعجاز ، وإنما وجد أن الإعجاز لا يفسر إلا عن طريق النظم . ومنها أن عصر الجاحظ كان يشهد بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء . ومنها طبيعة الجاحظ نفسه ، إذ كان رجلاً خصب القريحة ، لا يعيبه الموضوع ، ولا يثقل عليه المحتوى أياً كان لونه . ولذا ، فإنه كان يحس أن المعنى موجودٌ في كل مكان ، وما على الأديب إلا أن يتناوله ويصوغه صياغة متفردة ، وما كان يتصور أن نظريته التي لم تكن تمثل خطراً عليه ستصبح في أيدي رجال البيان خطراً على المقاييس النقدية والبلاغية ، لأنها ستجعل العناية بالشكل شغلهم الشاغل^(١) ، وذكر تأثر من جاء بعده ، كالعسكري ، بهذه النظرية^(٢) . من جهة ثانية ، نراه ينتقد الجاحظ لأنه وقف موقفين متناقضين من نظريته في الشكل ، « أحدهما يؤيدها ، والثاني ينقضها . فأما الأول ، فهو إصراره على أن الشعر لا يُترجم ، ومتى حُوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذبح حسنه ، وسقط موضع التعجب^(٣) . واستعصاؤه على الترجمة إنما هو سر من أسرار الشكل . وأما الثاني ، فهو قوله : إذ هناك معاني لا يمكن أن تسرق ، كوصف عنترة للذباب ، فإنه وصفه فأجاد صفته ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم . فقوله (إنه لا يسرق) دليل على أن السر في المعنى قبل اللفظ . ولكن الجاحظ لم ينتبه لهذا التناقض^(٤) .

(١) تاريخ النقد الأدبي ، ص : ٩٩ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ٥٨ - ٥٩ .

(٣) الحيوان ١ / ٧٥ .

(٤) المصدر ذاته ٣ / ٣١١ - ٣١٢ ، وتاريخ النقد الأدبي ، ص : ١٠٠ ، ويراجع : تطور المصطلح البلاغي ، ص : ٣١٠ . ويقابل بما جاء عند الأستاذ شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص : ٢١٢ ، إذ نحا إلى أن الجاحظ ما ذهب إلى استحسان الألفاظ إلا لأنها هي التي تبرز المعاني وتثبتها في الأذهان ، وإعطاء المعاني حقوقها من الألفاظ بحسب مقاديرها .

وكرر الجاحظ قضية اللفظ والمعنى في مواضع كثيرة من كتبه أشار فيها إلى أنه « متى شاكل - أبقاك الله - ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وقفاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع وانفعال المستمع . . . ومن أعاره الله من معونته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حنت إليه المعاني ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كدّ التكلف »^(١) . وبهذا ، يظهر أن أكبر همه اختيار اللفظ الشريف ، واجتناب اللفظ الهجين . وكان يدعو الكتاب قبل أن يشرعوا في كتاباتهم أن يتصوروا المعنى ، ثم يتصوروا اللفظ على قدره ، ويرى أن « شرّ البلغاء من هياً رسم المعنى قبل أن يهيب المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر المعنى إليه جراً . . . حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه عن الإفصاح عنه إلا به »^(٢) . وهو بذلك يؤكد على تناسب اللفظ مع المعنى ، أما « إذا كان الشعر مستكرهاً ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات . . . وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة . وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »^(٣) . . . وحتى تراها متفقة ملساً ، ولينة المعاطف سهلة ، فإذا رأيته مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتستكده ، ورأيت

(١) البيان والتبيين ٧/٢ - ٨ .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل ١/٢٨ . وتراجع رسالته في مدح التجار وذم السلطان ، ضمن رسائل الجاحظ ٤/٢٥٣ - ٢٥٨ . ويراجع ذات المعنى المتعلق بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني في الحيوان ١/٢٨٢ ، ٣/٣٩ .

(٣) في المصون ، ص : ٦ : (كما يجري فرس الزهان).

غيرها سهلة لينة رطبة متواتية ، سلسلة في النظام ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد ، لم يخف على من كان من أهله «^(١) . ومثل للشعر المتلائم الألفاظ ، المتألف الأجزاء بأبيات لأبي حية النميري ، قال^(٢) :

رمتني وسترُ اللهُ بيني وبينها عشيّةَ آرامِ الكناسِ رَمِيمُ
ألا ربَّ يومٍ لو رمتني رميتها ولكنَّ عهدي بالنضالِ قديمُ
ويبدو أن هذه الأبيات قد استحسنتها كثير من العلماء والبلاغيين ، فقد أوردها أكثر من واحد ، منهم المبرد - كما سيمر معنا - .

ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر إن كانت مجموعة من بيت شعر لم يستطع המשند إنشادها إلا ببعض الاستكراه ، مثل لها الجاحظ بجملة من الأمثلة ، منها :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفِرٍ وليس قَرَبَ قَبْرِ حَرَبٍ قَبْرُ
وعلق على ذلك بقوله : « . . . ولما رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتبع ولا يتلجج ، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذا كان من أشعار الجن ، صدقوا بذلك »^(٣) .

ورغم عناية الجاحظ بقضية اللفظ والمعنى ، لكنه لم يفرد لها باباً ، مما دعا أحدهم إلى القول بأنه تكلم في ذلك كلاماً مفضلاً جاء في مواضعه من كتابه (البيان والتبيين) ، ولم يعقد له أبواباً ، ولم يفصل فيه الفصول ، ولا وضع له المصطلح كما حدث بعد ذلك في القرن الرابع عند قدامة بن جعفر والرماني

(١) البيان والتبيين ١/٦٦ - ٦٧ .

(٢) الحيوان ٣/٤٩ ، والبيان والتبيين ١/٦٨ ، وروي في الشطر الأول : (فلو كنت أستطيع الرماء رميتها) ، المصون ، ص : ٧ .

(٣) البيان والتبيين ١/٦٥ .

وأبي هلال العسكري والحاتمي ومن تبعهم بعد في القرون التالية^(١). ولعل في هذا الحكم نسيان العصر الذي عاش فيه الجاحظ من جهة، وأسلوبه من جهة ثانية، فقد عرف بالاستطراد وعدم حصر الموضوع الواحد في المكان الواحد، أعني أنه حكم أسقطه صاحبه على الجاحظ في ضوء ما عرف من مناهج التأليف بعد عصره بقرن أو أكثر. ولعل خلاصة ما يعبر عن رأيه في الصفات المطلوبة للألفاظ والمعاني وانسجامها، ما ذكره هو نفسه حين قال: «وأنا أقول: إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع، ولا آتق، ولا ألد في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء»^(٢).

ومن القضايا التي تعرض لها أيضاً قضية السرقات، وأفرد لها باباً بعنوان: «أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض»، قال فيه: «... ولا يعلم في الأرض شاعر متقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف، أو في بديع مخترع، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأول»^(٣).

وأورد وصف عنترة للذباب الذي مرّ ذكره - والعرب تسمي الذباب الأقرح - قال الشاعر:

ولأنت أطيّش حين تغدو سادراً حذر الطعان من القدوح الأقرح

(١) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص: ٧٥.

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٥.

(٣) الحيوان ٣/٣١١.

قال إنه يعني الذباب ، لأنه أقرح ، ولأنه أبداً يحك بإحدى ذراعيه على الأخرى ، كأنه يقدح بعودي مرخ وغفار أو عرجون أو غير ذلك مما يقدح به .
ويقر بأن عنترة تفرد بهذا المعنى ، ولم يستطع أحد أن يسرقه منه ، بل يقول :
« فقد غلب عليه عنترة ، ولو أن امرأ القيس عرض في هذا المعنى لافتضح »^(١) .

والسرقات على أنواع ، فقد يسرق اللفظ ، وقد يسرق المعنى ، وقد يسرق اللفظ والمعنى دون أي تغيير ، أو بتغيير طفيف . وفي هذا الموضوع ، قال الجاحظ في الباب الذي ذكر فيه العصا^(٢) في قول يزيد بن مفرغ :

العَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحَرُّ تَكْفِيهِ الْمَلَامَهُ
قال إنه أخذه من الصلتان الفهمي ، حيث قال :

العَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحَرُّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَهُ
وقال مالك بن الريب :

العَبْدُ يَقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحَرُّ يَكْفِيهِ الْوَعِيدُ
وقال بشار بن برد :

الْحَرُّ يُلْحَى ، وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَليْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ
وكل هذه الأبيات تدور حول المعنى ذاته وألفاظها ، فكان تفسيرها طفيفاً بقدر ما تستدعيه القافية . وقد تكون السرقة خفية ، فلا يدركها إلا الحاذق في هذا الفن . وهذا دليل على الثقافة الموسوعية التي اتسم بها الجاحظ ، وكثرة

(١) المصدر ذاته ٣/ ٣١٠ وما بعدها ، و٣/ ١٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٣٧ ، والحيوان ٥/ ٦٢ . والصلتان : النسيط ، وهو اسم لأربعة شعراء ، يراجع : المؤلف والمختلف للآمدي ، ص : ١٤٥ . وقد حقق أ. عبد السلام هارون في ذلك ، يراجع : الحيوان ٥/ ٦٢ بالهامش .

محفوظه للشعر العربي .

وله آراء في مصدر الشعر . والقارىء يتلمس اعتقاد الجاحظ أن الشعر حظ يقسمه الله بين الناس ، وغريزة يغرزها فيهم . ويبدو أن الذي لفت نظر الجاحظ إلى هذا الأمر ، ما ذهب إليه ابن سلام الجمحي حين ربط غزارة الشعر وكثرته ببعض الأمور ، كما رأينا في الفصل السابق ، فيدحض الجاحظ مقولته بقوله : « . . . وثقيف أهل دار ، ناهيك بها خصباً وطيباً . وهم ، وإن كان شعرهم أقل ، فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب ، وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز »^(١) .

ويرى أن حظ القبيلة من الشعر قد يتغير بتغير العصر ، فيقول : « . . . وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف ، يجرون مجاري ملوك اليمن ومجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولهم في الإسلام شعراء مفلقون »^(٢) .

وكانت له آراء في الشعر من حيث أوليته ، قال في ذلك : « . . . وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلhel بن ربيعة . . . »^(٣) ، واستدل على حدائته بأبيات لامرئ القيس ، وعقب عليها بقوله : « . . . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »^(٤) .

وهذه الدعوى التي ذهب إليها الجاحظ ينقضها التحري في المسألة ،

(١) الحيوان ٤/٣٨٠-٣٨١ .

(٢) المصدر ذاته ٤/٣٨١ .

(٣) المصدر ذاته ١/٣٧ .

(٤) المصدر ذاته ٦/٨٩ .

فامرؤ القيس ليس أول من نهج سبيل الشعر ومهد الطريق إليه ، وربما يكون أول من حفظت أشعاره ، أو من أوائل الشعراء الذين تناهت إلينا أشعارهم ، يؤكد ذلك قول زهير وعنترة من أنه جاء قبلهم شعراء جالوا في الشعر كل مجال^(١) ، لكننا لا نعرف عن أخبارهم شيئاً ، ونص ابن فارس على أن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل ، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير . ثم إن الجاحظ نفسه ينص على أننا لا نحيط بأوائل كلامهم على أي مقادير كانوا يضعونها ، ومن أي شيء اشتقوها ، وكيف كان السبب^(٢) .

وله أحكام نقدية دقيقة في توليد الشعر ، فنراه يرد جملة من الأشعار بسبب كونها مصنوعة مختلفة كما هو الشأن بالنسبة لبيت الأفوه الأودي :

كشهاب القذف يرمىكم به فارسٌ في كفه للحرب نارٌ
علق الجاحظ عليه بقوله : « ... وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي ، فلعمري إنه لجاهلي ، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة . وبعد ، فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم ، وهو جاهلي ، ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون ؟! فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة »^(٣) .

(١) أما كعب بن زهير ، فقال :

ما أزاننا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

ديوان كعب ، ص : ١٥٤

وأما عنترة بن شداد ، فقال :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم

شرح المعلقات العشر ، ص : ٢٠٨ .

(٢) يراجع : الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص : ٢٠٩-٢١١ .

(٣) الحيوان ٦/٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

و إلى جانب إيراد الجاحظ أحكاماً نقدية في حق الشعراء القدامى ، نجده يذكر آراءه في الشعراء المعاصرين له ، فنجده يقول في حق العكوك^(١) : « كان أحسن خلق الله إنشاداً ، ما رأيت مثله بدوياً ولا حضرياً »^(٢) ، فدل ذلك على أنه إنما يعتبر جودة الشعر بغض النظر عن كون صاحبه من القدامى أو المحدثين .

وعلى الرغم من محبة الجاحظ وإيثاره لأساليب العرب الفصحاء وطبعمهم القوي وعدم تكلفهم ، فإنه لم يؤثر المحافظة على القديم بكل أشكاله وصوره ، بل هو ابن عصره ، العصر الذي التقت فيه الثقافات ، وامتزجت الأفكار ، وكانت الثقافة العربية بمثابة نهر كبير صبت فيه روافد يونانية وفارسية وهندية ، فلم يغلق عينيه عما يجري حوله من هذه الأفكار والتغيرات . وقد ظهر تأثير هذه الحضارة في شعر الكثيرين من معاصريه ومن قبلهم الذين سموا بالشعراء المحدثين ، أمثال بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري . . . فنسمعه يدافع عن شعرهم ومذهبهم ، ويعرض لقضية الطبع الشعري عند هؤلاء المولدين ، فيجعل بشار بن برد شيخ المطبوعين من المولدين ، وفي ذلك قال : « . . . والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي ، والسيد الحميري ، وأبو العتاهية ، وابن أبي عيينة . وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل ، وسلمماً الخاسر ، وخلف بن خليفة ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشاراً أطبعهم كلهم »^(٣) .

(١) أبو الحسن علي بن جبلة بن مسلم الخراساني . كان من الموالي . ولد أعمى ، وكان أسود أبرص . توفي كهلاً سنة ٢١٣ هـ . وشعره سائر . يراجع : الشعر والشعراء ، ص : ٥٩٥ - ٥٩٨ (دار إحياء العلوم - ط ٣ - ١٩٨٦) ، وطبقات ابن المعتز ، ص : ١٧٠ - ١٨٥ ، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٥٠ - ٣٥٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٢ - ١٩٤ .

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٣٥٠ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٥٠ .

ونجده مرة ينافح عن بشار بأنه ما ينبغي له أن يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر ، « لأن حماداً في الحضيض ، وبشاراً مع العيوق ، وليس في الأرض مولد وقروي يعدّ شعره في المحدث إلا وبشاراً أشعر منه »^(١) .

و نراه يؤيد مذهب بشار وأضرابه من المولدين ، وينكر مسلك بعض رواة الشعر من أهل زمانه ممن يتعصبون للقديم ولا يلقون بالاً لأشعار المولدين أياً كان حظها من الجودة ، ويرجع سبب ذلك إلى جهل هؤلاء بجوهر الشعر . ومذهب الجاحظ أن جودة الشعر لا ترتبط بجيل دون جيل ، ولا بزمان دون زمان ، والناقد البصير من يلم بأسباب الإجادة الشعرية دون النظر إلى الشعراء وإلى زمانهم^(٢) ، وفي هذا الصدد قال : « . . . ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس ، ولا أفصح لهجة مع مجانية الاستكراه . وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ، ويستسقطون من رواها . ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي ، ولو كان ذا بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان »^(٣) .

والجاحظ ، بهذا ، يرى أن الحكم بجودة الشعر لا يقوم على الزمان أو العرق ، وإنما يقوم على الجودة الفنية في صياغته وإن كان يرى أن العرب ، بما لديهم من طبع ومملكة ، أقدر على ذلك من غيرهم من المولدين . وقد مر معنا أنه كان يعجب لتشبيه بشار ، مع أنه مولد ، ويحكم له على عمرو بن كلثوم في هذا التشبيه^(٤) :

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(١) الحيوان ٥/٤ ، والبيان والتبيين ٥١/١ .

(٢) يراجع : التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٤٢ .

(٣) الحيوان ٣/١٣٠ .

(٤) المصدر ذاته ٣/١٢٧ . والرواية المشهورة : (فوق رؤوسنا) . يراجع : الوساطة ، ص :

٢٣٧ ، والحماسة الشجرية ، ص : ٢٣٤ .

وقال عمرو بن كلثوم :

تبني سنا بكهم من فوق رؤسهم سقفاً كواكبه البيض المبائر
ونراه أيضاً يعلي من شأن أبي نواس ، وهو من المولدين ، ويقدمه على
المهلهل وهو من شعراء الجاهلية ، قال فيه : « . . . ولا يعرف شاعر بعد بشار
أشعر من أبي نواس » ، وعلق على قول المهلهل :

أودى الخيار من المعاشر كلهم واستب بعدك يا كليب المجلس
وتنازعوا في كل أمر عزيمة لو قد تكون شهدتهم لم ينسوا
إن أبيات أبي نواس ، على أنه مولد شاطر ، أشعر من شعر مهلهل في
إطراق الناس في مجلس كليب ، وهو قوله^(١) :

على خبز إسماعيل واقية البخل وقد حلّ في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلا كليب بن وائل ليالي يحمي عزه منبت البقل
وإذ هو لا يستب خصمان عنده ولا القول مرفوع بجد ولا هزل
وقال مرة في علمه وشعره على سبيل التزكية ، مع الإقرار أن البدو أشعر :
« . . . وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب لأنه كان عالماً راويةً . هذا ، مع
جودة الطبع ، وجودة السبك ، والحدق بالصنعة . وإن تأملت شعره فضلته إلا
أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو نرى أن أهل البدو أبداً أشعر ، وأن المولدين
لا يقاربونهم في شيء . فإن اعترض هذا الذي عليك ، فإنك لا تبصر الحق من
الباطل ما دمت مغلوباً »^(٢) .

وبهذا ، يبدو أن الجاحظ لا يفضل أشعار المولدين ، وإنما يماشي عصره
في استحسان الشعر المولد ، وإن كان يقر بحقيقة ، وهي أن العرب أجود شعراً
من المولدة ، « والقضية التي لا أحتشم منها ، ولا أهاب الخصومة فيها ، أن

(١) الحيوان ٣/ ١٢٩ .

(٢) المصدر ذاته ٢/ ٢٧ . ويراجع : الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص : ٢١٦ .

عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة ، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه «(١)» .

ونجده يعي تغير الذوق الجمالي لدى أدياء عصره ، ويرجع ذلك لأمرين :
١ - العصر ، فإن لأهل كل زمان مثلهم الشعري الأعلى ، يوضحه الجاحظ عندما يصور لنا نوع الشعر الذي كانت تؤثره جماعة المسجدين والمربدين :
« . . . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتداء في طلب الشعر ، أو فتياي متغزل » (٢) .

٢ - تخصص الناقد وطبيعة ما يهتم به . وقد نبه إلى ذلك عندما قال :
« . . . وقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو ابن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشد ، ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ، ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفون على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمّرتها وفتحت للسان باب البلاغة ،

(١) الحيوان ٣/١٣٠ . ويراجع ما كتبه د. داود سلوم في النقد المنهجي في الحضارة العربية وأثر

الجاحظ فيه من خلال كتابه (رحلة في الفكر والتراث) ، ص : ١٠٣ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٢٣ .

وأشرت إلى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواية الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حدّاق الشعراء أظهر»^(١) .

لأجل هذا ، ذهب الجاحظ إلى استهجان آراء اللغويين المغالين ، لأنهم لا يحكمون على الشعر بما فيه من جمال الصنعة ، واستواء الأسلوب ، ولكنهم يحكمون عليه من نواحٍ مختلفة بعيدة عن حقيقته الفنية ، مثل اللغة أو ما يحمله من خبر أو شاهد نحوي أو لغوي أو ما أشبه ذلك .

و من جهة أخرى ، نجده يصرح بمخالفته لبعض أحكام أبي عبيدة في المفاضلة بين الشعر الذي كان يرويه ، إلا أنه لا يبين سبب ذلك ، كما في تفضيل أبي عبيدة قصيدة في الغيث على قصيدة عبيد بن الأبرص أو أوس بن حجر ، قال معلقاً على ذلك : « وأنا أتعجب من هذا الحكم ! »^(٢) . وإذا كان لم يبين سبب موقفه ، لكنه من الجلي أنه اعتمد على جمال الصورة الشعرية ، وما فيها من ابتكار ، وأما أبو عبيدة ، فإنه أخباري يبحث عن الخبر الدقيق ، والشعر المعبر عن الواقع^(٣) ، فكان رأي الجاحظ أولى بالاعتبار .

ومن معايير تفضيله للألفاظ كونها غير متوحشة ولا وحشية أو ساقطة سوقية^(٤) ، واشترط في الكاتب « أن يكون رقيق حواشي اللسان ، عذب ينابيع البيان ، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم العامة بكلام الخاصة ، والخاصة بكلام العامة »^(٥) .

وهذا الموضوع يقودنا إلى الكلام عن الطبع والتكلف ، وأن الجاحظ كان ممن يؤثر الطبع على التكلف كما هو واضح في قوله : « . . . فقد ذمت العرب

(١) البيان والتبيين ٢٤/٤ .

(٢) الحيوان ١٣١/٦ - ١٣٢ .

(٣) الجاحظ والنقد الأدبي ، ص : ٢٢ .

(٤) البيان والتبيين ٣٧/١ .

(٥) يراجع : معجم الأدباء ٤/٤٨٢ .

التكلف ، واستهجت استعمال الغريب»^(١) ، فهو يرى أن الألفاظ المأنوسة البعيدة عن التكلف أقرب إلى طبيعة الأديب والإنسان عامة . وعرض لنماذج من أقوال الرسول الكريم ، إمام الأنبياء ، وسيد البلغاء ليبين بلاغة كلامه ، وابتعاده عن التكلف^(٢) ، كما في^(٣) « المرء كثير بإخوانه » ، و« لاخير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له »^(٤) ، وفي ذم التشدق والتفيهق قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة : الثرثارون المتشدقون المتفيهقون »^(٥) . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيب التشدق ، « واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشُيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ما جمع له مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبرز الخطب الطوال بالكلم القصار ، ثم لم يسمع الناس

(١) البيان والتبيين ١/١٣ ، ٣٧٧ ، ١٩/٢ .

(٢) المصدر ذاته ١٩/٢ .

(٣) المصدر ذاته ٢١/٢ .

(٤) هذا الحديث والذي سبقه واحد ، أخرجه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ، وقضى بوضعه ، وضعه سليمان بن عمرو على إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ٣/ ٢٤٨ غير أن المنقول : « بأخيه » ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال في نقد الرجال في ترجمة سليمان بن عمرو أبو داود النخعي ، ونقل حكم العلماء عليه بالوضع ، مثل أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وقتيبة وإسحاق ٣/ ٣٠٥ - ٣٠٨ تر ٣٤٩٧ ، وذكره العجلوني في كشف الخفاء ، وقال فيه : « ليس بحديث » ٢/ ٤١٤ ح ٢٧٩١ .

(٥) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٩٤ ح ١٧٧٧٨ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٢١٠ ح ٢٥٣٢٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/ ١٤٤ ح ٢٠١٥٣ ، وصححه ابن حبان ١٢/ ٣٦٨ ح ٥٥٥٧ .

بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ»^(١) . وقد سقنا هذا النص لنثبت مدى قناعة الجاحظ بالموضوع ، وقوة تفسيره في إظهار البون الشاسع بين الطبع والتكلف .

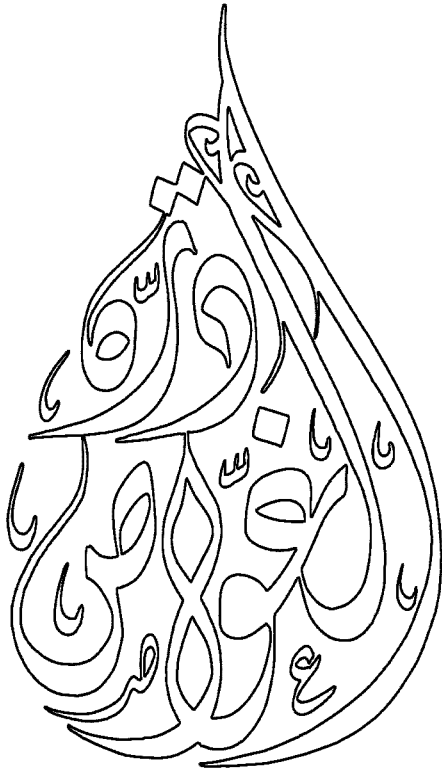
ومراعاة لهذا النوع من الجمال الفني ، نجد من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريئاً ، وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ، ويجعل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات ليصير قائلها شاعراً مقلقاً^(٢) ، واستشهد الجاحظ بأمثلة مشهورة في الشعر العربي القديم يشهد بعضها لأصحاب الحوليات أو المنقحين أو عبيد الشعر ، ويشهد بعضها الآخر لأصحاب الطبع الذين ينظمون الشعر بديهة من دون تنقيح .

ويبقى الجاحظ من أوائل الكتاب في العربية ممن عني بتناول البلاغة والبيان في جميع صورهما ، ويبقى الأنموذج الأمثل للناقد العربي الذي تفهم روح الشاعر ، وعزل الحكم عن الأخلاقية ، وتقديس القديم والعصبية القومية ، فوصل إلى مستوى المقاييس النقدية المعاصرة . « ومهما كانت ردود الفعل لأفكاره النقدية في جيله ، فقد ترك أثراً عميقاً في النقاد العرب الذين جاءوا بعده ، ووسم النقد العربي في القرن الثالث بميسمه الخاص ، ويكفيه هذا فخراً»^(٣) .

(١) البيان والتبيين ١٧/٢ .

(٢) المصدر ذاته ٩/٢ .

(٣) رحلة في الفكر والتراث، ص : ١٠٧ .



مكتبة الدكتور د. د. الواسع

الفصل الثاني

البلاغة والنقد عند عبد الله بن

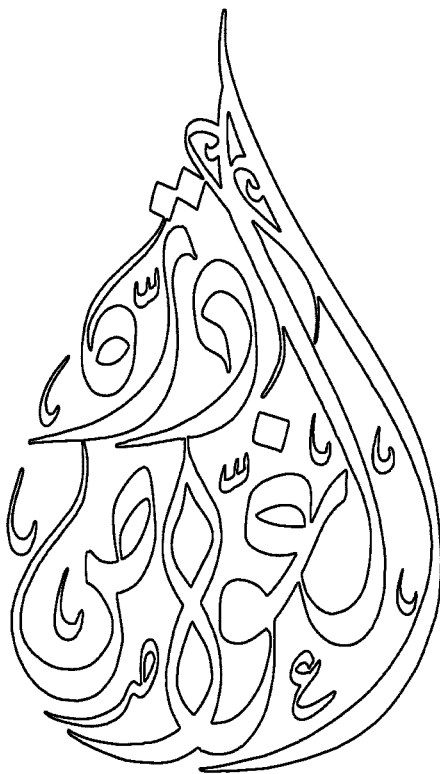
مسلم بن قتيبة الدينوري

(٢٠٠هـ - ٢٧٦هـ)

المبحث الأول : التعريف بابن قتيبة .

المبحث الثاني : البلاغة عند ابن قتيبة .

المبحث الثالث : النقد عند ابن قتيبة .



المبحث الأول : التعريف بابن قتيبة^(١) :

* نسبه وولادته ومكانته :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين في الكوفة ، وقيل في بغداد . تولى قضاء الدينور فنسب إليها ، وسكن بغداد وحدث بها . كان فاضلاً ثقة ، قال عنه ابن النديم : « كان عالماً باللغة ،

(١) ترجمته في مراتب النحويين ، ص : ٨٤ - ٨٥ ، وتهذيب اللغة ٣٠/١ - ٣١ ، وطبقات النحويين واللغويين ، ص : ١٨٣ ، والفهرست ، ص : ٨٥ - ٨٦ ، وتاريخ العلماء النحويين ، ص : ٢٠٩ - ٢١٠ ، وتاريخ بغداد ١٠/١٧٠ - ١٧١ ، والأنساب ٤/٤٥٢ ، مادة قُتَيْبٍ ، ونزهة الألباء ، ص : ١٥٩ - ١٦٠ ، والمنتظم ١٢/٢٧٦ - ٢٧٧ ، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٨١ ، مادة قُتَيْبٍ ، والكمال في التاريخ ٦/٣٥٩ ، ووفيات الأعيان ٣/٤٢ - ٤٤ ، وميزان الاعتدال ٣/٣٥٧ ، وتذكرة الحفاظ ٢/٦٣٣ ، والعبر ٢/٦٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٦ - ٣٠٢ . ومراة الجنان ٢/١٩١ - ١٩٢ ، والبداية والنهاية ١١/٦١ ، دار الكتب العلمية ، ص : ١١٦ ، ولسان الميزان ٣/٤٣٩ - ٤٤١ ، والنجوم الزاهرة ٣/٧٥ - ٧٦ ، وبغية الوعاة ٢/٦٢ ، وطبقات المفسرين ١/٢٥١ - ٢٥٢ . وهديّة العارفين ١/٤٤١ ، وشذرات الذهب ٢/١٦٩ - ١٧٠ - بيروت - ١٩٧٩ م ، وتاريخ بروكلمان ١/٢٢١ - ٢٣٠ ط ٥ - دار المعارف ، والأعلام ٤/١٣٧ ، ومعجم المؤلفين ٦/١٥٠ - ١٥٢ ، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مج . ٢٦ - نيسان ، وابن قتيبة ، للدكتور إسحاق الحسيني - ترجمة : الدكتور هاشم ياغي - وابن قتيبة : العالم الأديب للدكتور عبد الحميد سند الجندي ، وابن قتيبة والشعبية ، للدكتور عبد الله الجبوري ، ونشر الجبوري أيضاً دراسة في جزئين استقصى فيها كتب ابن قتيبة المخطوط منها والمطبوع استقصاءً نادراً بعنوان : دراسة في كتب ابن قتيبة ، وابن قتيبة ، للدكتور محمد زغلول سلام ، وابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ، للدكتور محمد رمضان الجربي ، وابن قتيبة اللغوي للدكتور عبد الجليل عودة التميمي ، ومقدمات محققي كتبه ، أهمها : مقدمة أحمد صقر لكتاب : تأويل مشكل القرآن ، ومقدمة كتاب الميسر والقذاح لمحَب الدين الخطيب ، ومقدمة المعارف لثروة عكاشة ، ومقدمة عيون الأخبار للأستاذ أحمد زكي العدوي .

والنحو ، وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر ، والفقه ، كثير التصنيف»^(١) .
وقال عنه ابن حجر عن مسلمة بن القاسم : «كان لغويًا ، كثير التأليف ، عالماً
بالتصنيف ، صدوقاً ، من أهل السنة» ونقل عن نبطويه قوله فيه : «ما أعلم
حكى شيئاً في اللغة إلا صدق فيه»^(٢) . وقال السيوطي : «كان رأساً في العربية
واللغة والأخبار وأيام الناس»^(٣) . وكان لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة . وقد
هاجم الجاحظ مدافعاً عن أهل السنة في كتابه : (تأويل مختلف الحديث) .
وقال ابن كثير : «كان أحد العلماء والأدباء والحفاظ الأذكياء ، وكان ثقة
نبيلًا ، وكان أهل العلم يتهمون من لم يكن في منزله شيء من تصانيفه»^(٤) .

* من شيوخه :

أخذ عن كبار علماء عصره ، فحدث عن محمد بن زياد (ابن الأعرابي
ت ٢٣١هـ) ، وحرملة بن يحيى التجيبي (ت ٢٣٤هـ) ، وإسحاق بن راهويه
(ت ٢٣٨هـ) ، وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزياتي (ت ٢٤٩هـ) ، وأبي
الخطاب زياد بن يحيى الحساني البصري (ت ٢٥٤هـ) ، وأبي حاتم السجستاني
(ت ٢٥٥هـ) ، وأبي الفضل العباس بن الفرج الرياشي (ت ٢٥٧هـ) .

* من تلاميذه^(٥) :

حدث عنه كوكبة من العلماء ، منهم : ابنه القاضي أحمد (ت ٣٢٢هـ) ،
وعبيد الله بن عبد الرحمن السكري (ت ٣٢٣هـ) ، وعبد الله بن درستويه
(ت ٣٤٧هـ) ، وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ ، وعبيد الله بن أحمد بن
بكير التميمي .

(١) الفهرست ، ص : ٨٥ - ٨٦ .

(٢) لسان الميزان ٣/ ٤٤٠ .

(٣) بغية الوعاة ٢/ ٦٢ .

(٤) البداية والنهاية ١١/ ٦١ .

(٥) المزهر ٢/ ٤٠٩ .

* مؤلفاته^(١) :

ترك ابن قتيبة لنا كثيراً من المؤلفات في علوم القرآن والحديث واللغة ، والنحو ، والأدب ، والبلاغة ، والنقد ، والمعارف العامة ، بعضها مطبوع ، وبعضها الآخر ما يزال مخطوطاً .

ومن آثاره المطبوعة :

١ - أدب الكاتب . وقد ذكره معظم من ترجم له ، وعليه شروح وتعليقات . ومن أبرز شروحه : شرح أبي محمد بن السيد البطليوسي المسمى : (الافتضاب في شرح أدب الكاتب)^(٢) . يقول عنه ابن خلكان : «كان أكثر أهل العلم يقولون : (أدب الكاتب) خطبة بلا كتاب ، و(إصلاح المنطق) كتاب بلا خطبة . وفيه نوع تعصب عليه ، فإن (أدب الكاتب) قد حوى على كل شيء ، وهو مفنن ، وما أظنهم حملهم على هذا القول إلا أن خطبته طويلة ، والإصلاح فيه قصير الخطبة»^(٣) . وذكر ذلك الياضي في مرآة الجنان ، وقد وهم عندما ترجم لابن قتيبة فقال : «واسم كتابه المذكور : (الافتضاب في شرح أدب الكاتب)»^(٤) . وهو في الحقيقة عنوان شرح (أدب الكاتب) . و(أدب الكاتب) «كتاب تعليمي لا يدخل في ميدان النقد بالصورة التي نعرفها الآن وعرفه بها العرب من قبل ، وكتابه (الشعر والشعراء) أدخل في هذا الموضوع

(١) يراجع : رفع الإصر عن قضاة مصر ، لابن حجر ١/٧٣ .

(٢) شرح الزجاجي مقدمة أدب الكاتب ، وكانت المقدمة تسمى رسالة ، وعني فيه باللغة والنحو والصرف (انظر : الإيضاح في علل النحو للزجاجي ، ص : ٥ ، والزجاجي ، حياته وآثاره ، أ.د. المبارك ، ص : ٣٢ . وانظر : الشروح والدراسات حول أدب الكاتب في مقدمة تحقيق الكتاب ، أ.د. محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة - ط ٢ - بيروت - ١٩٧٨ م .

(٣) وفيات الأعيان ٣/٤٣ .

(٤) مرآة الجنان ٢/١٩٢ .

من هذا الكتاب»^(١).

٢ - الأشربة وذكر اختلاف الناس بها^(٢).

٣ - إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث^(٣).

٤ - تأويل مختلف الحديث^(٤).

٥ - تأويل مشكل القرآن^(٥).

٦ - تعبير الرؤيا^(٦).

٧ - تفسير غريب القرآن^(٧).

وجاء الإمام محمد بن أحمد بن مطرف الكناني (ت ٤٥٤هـ) ، فجمع الكتابين (مشكل القرآن وغريبه) في كتاب واحد ، وسماه : (كتاب القرطين)^(٨).

٧ - الشعر والشعراء^(٩).

(١) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ٤٠١ .

(٢) حققه الأستاذ محمد كرد علي - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٥١ ، وممدوح حسن محمد ، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ط١ - ١٩٩٥ ، وياسين محمد السواس ، دار الفكر - ١٩٩٨ م .

(٣) حققه د . عبد الله الجبوري ، دار الغرب الإسلامي - ط١ - بيروت - ١٩٨٣ .

(٤) صححه : أ . محمد زهري النجار - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ط١ - ١٩٦٦ ، وراجعته وشرحه سعيد محمد اللحام ، ونشره في مكتبة الهلال - بيروت - ط١ - ١٩٨٩ م ، وحققه د . محمد نافع المصطفى - مؤسسة الرسالة - ط١ - ٢٠٠٤ .

(٥) حققه السيد أحمد صقر - البابي الحلبي - القاهرة - ط١ - ١٩٥٤ . وله تحقيق آخر : لعمر محمد سعيد - الأهرام - ط١ - القاهرة - ١٩٨٩ م .

(٦) حققه إبراهيم صالح ، دار البشائر ، دمشق .

(٧) حققه : السيد أحمد صقر - البابي الحلبي - القاهرة - ط١ - ١٩٥٨ م .

(٨) حققه ونشره في جزئين : محمد أمين الخانجي - القاهرة - ط١ - ١٩٣٦ م .

(٩) حققه أ . أحمد محمد شاكر ، وطبعة مرتين ، أولاهما في البابي الحلبي ، والثانية في دار المعارف .

- ٨ - عيون الأخبار^(١) .
 - ٩ - غريب الحديث^(٢) .
 - ١٠ - فضل العرب والتنبيه على علومها^(٣) .
 - ١١ - المعارف^(٤) .
 - ١٢ - المعاني الكبير في أبيات المعاني^(٥) . وقد صرح ابنه^(٦) من بعده بأن له واحداً وعشرين كتاباً ، لكن الحقيقة تؤكد أن له أكثر من ذلك ، فالمطبوع الآن يبلغ هذا الحد تقريباً . وذكر ابن النديم أن له اثنين وثلاثين كتاباً^(٧) . وقد ذكر صاحب (التحديت بمناقب أهل الحديث) أن له زهاء ثلاثمائة مصنف ، ونقل عن النووي أن له نحو ستين مصنفاً . ولعل هذه الكثرة عائدة إلى أن بعض القدامى يعدون الرسائل أو الأبواب الكبيرة من الآثار كتباً مستقلة . وقد انتقده بعض العلماء لإقدامه على كثرة التأليف في فنون مختلفة ، منهم أبو الطيب
-
- (١) حققه الدكتور : أحمد زكي العدوي - دار الكتب المصرية - ١٩٢٥ م ، وصورته دار الكتاب العربي - بيروت .
 - (٢) حققه الدكتور عبد الله الجبوري ، وزارة الأوقاف العراقية - بغداد - ط١ - ١٩٧٧ م .
 - (٣) تحقيق الدكتور : وليد محمود خالص - الجامعة الأردنية - كلية الآداب - قسم اللغة العربية - ط١ - ١٩٩٨ م ، والمجمع الثقافي - أبوظبي - الإمارات .
 - (٤) حققه الدكتور : ثروة عكاشة - دار المعارف - القاهرة - ط١ - ١٩٦٩ م .
 - (٥) حققه : عبد الرحمن يحيى اليماني - بحيدر آباد الدكن - ط١ - ١٩٤٩ م . ويراجع ما كتبه عنه الأستاذ شفيق جبيري في مجلة المجمع - ١ نيسان ١٩٥١ ، ص : ٢٨٣ - ٢٨٥ .
 - (٦) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة . كان والده قد حفظه كتبه في اللوح ، وعدتها أحد وعشرون مصنفاً . ولي قضاء مصر سنة ٣٢١ هـ ، وتوفي فيها سنة ٣٢٢ هـ .
 - يراجع : معجم الأدباء ١/ ٣٩٤ - ٣٩٥ (دار الكتب العلمية) ، والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ١/ ١٦١ .
 - (٧) راجع مقدمة المعاني الكبير .

اللغوي^(١). لكن ، رد عليه الإمام الذهبي في (ميزان الاعتدال) ، وعدها من المجازفات القبيحة والبيغي^(٢).

وقد نشر الدكتور عبد الله الجبوري دراسة في جزئين ، تناول فيها كتب ابن قتيبة المخطوط منها والمطبوع بعنوان : (دراسة في كتب ابن قتيبة)^(٣).

ومما يهمننا في دراستنا ، أن نتوقف عند كتبه التي تناولت بعض الأمور البلاغية والنقدية التي لها صلة بموضوع بحثنا ، ككتاب (تأويل مشكل القرآن) ، و(تأويل مختلف الحديث) ، و(تفسير غريب القرآن) ، و(أدب الكاتب) ، و(الشعر والشعراء) ، حيث نستشف بعض آرائه البلاغية والنقدية .

* وفاته :

وتوفي فجأة سنة ست وسبعين ومائتين .

المبحث الثاني : البلاغة عند ابن قتيبة :

تناول ابن قتيبة في كتبه خاصة في (تأويل مشكل القرآن) أنواعاً بلاغية عدة ، كالحذف ، والاختصار ، والتكرار ، والتقديم والتأخير ، والقلب ، والاستفهام ، وخروجه عن معناه الأصلي الذي وضع له ، والفصل والوصل ، والتشبيه والتمثيل ، والمجاز ، والاستعارة ، والكناية والتعريض ، والتوجيه ، والمشاكلة ، والفواصل القرآنية .

وقد أهمل كثير من الباحثين أثر ابن قتيبة في الدرس البلاغي ، لكنه بحق شارك في دفع عجلة البلاغة إلى الأمام ، وكان حلقة وصل بين الجاحظ وبين

(١) يراجع رأي أبي الطيب في مراتب النحويين ، ص : ٨٥ .

(٢) يراجع : مقدمة تأويل مشكل القرآن ، ص : ٤٩ - ٥٠ .

(٣) مقدمة تحقيق كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها ، الدكتور : وليد محمود خالص ، نقلا عن مجلة كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية - بغداد - ١٩٧٧ م .

من جاء بعده ، كابن المعتز مروراً بالمبرد و ثعلب . ويبقى ابن قتيبة متميزاً عن الجاحظ بما عرف عنه من التبويب ، وحصر المادة البلاغية ، لا كما عرف عن الجاحظ من طبيعة الاستطراد ، والانتقال من موضوع إلى آخر ، مما يشتت ذهن القارئ ، ويبدد المادة البلاغية الواحدة . «وهو فضل كبير لابن قتيبة كانت البلاغة نفسها في ميسر الحاجة إليه ، خاصة في تلك الفترة المتقدمة ، حيث كانت مفرقة هنا وهناك لا ينظمها عقد ، ولا يجمعها شمل ، وقد توفر لها ابن قتيبة فوافها حقها من التنظيم والتبويب ، كما حددها المتأخرون وحصروها في كتبهم»^(١) .

ونلاحظ أن ابن قتيبة أورد الموضوعات البلاغية متعاقبة من دون تفريق بين ما يخص بها علم المعاني أو البيان أو البديع على النحو الذي عرف فيما بعد من المؤلفات البلاغية . ونحن نورد ما أورده ، ولكن على طريقة جمع الموضوعات على وفق ما تنتمي إليه من الفنون البلاغية .

ففي تعريفه للبلاغة يقتضي أثر الجاحظ ، وينقل عنه معظم أقواله^(٢) ، وربما كانت هذه الأقوال والآثار المتداولة في معظم الكتب في زمنه . لذلك ، نراه ينقل قول الأصمعي : «البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر»^(٣) . كما يحكي لنا قول صحار العبدي لمعاوية رضي الله عنه ، وقولهم : (فلان يجيد الحز ويصيب المفصل) ، وربما قالوا : (يفل الحز) . وذكر قول عمرو بن عبيد عندما سئل عن البلاغة فقال للسائل : فكأنك إنما تريد تخيير اللفظ في حسن إفهام ، قال : نعم . قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله من عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على السامعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ، أ.د. عبد القادر حسين ، ص : ١٨٠ ، وابن قتيبة ، د .

إسحاق الحسيني ، ص : ٧٠ .

(٢) عيون الأخبار ٢/ ١٧٠ .

(٣) يراجع المصدر ذاته ٢/ ١٧٤ .

المريدين بالألفاظ المستحسنة في الأذان المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة من الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب^(١) . فابن قتيبة يذكر ما ينبغي أن يكون مؤثراً يستأثر بالأذان والأذهان والقلوب ، ولكنه لم ينس مراعاة أحوال المخاطبين . لذلك ، أفرد باباً بعنوان : (مراعاة الكلام لمقتضى الحال) . وقد اهتم ابن قتيبة بهذا الجانب ، وكان يبين أن ميزة العربي مراعاته للحال ، قال : «باب ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز» يقول فيه : « . . . فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما أشبه ذلك ، لم يأت به من واد واحد ، بل يفتن فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرر تارة إرادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ، ويشير إلى الشيء ويكني عن الشيء . وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل وكثرة الحشد وجلالة المقام^(٢) .

ولم يكن ابن قتيبة أول من فطن لهذا الجانب البلاغي ، فقد ذكره الجاحظ قبله ، فقال : « . . . فيوجز الخطيب إذا تطلب منه المقام ذلك ، ويطنب إن تطلب الإطناب . . . واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول يريد الإيجاز» . ويقول ابن قتيبة : «ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال ، لجرده الله تعالى في القرآن ، ولم يفعل الله ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للإفهام . وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب ، أو حمالة بدم ، أو صلح بين العشائر أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا

(١) المصدر ذاته ١٧١/٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٢ - ١٣ .

لمن كتب إلى عامة كتاباً في فتح أو استصلاح أن يوجز»^(١).

لذلك ، نراه يلح على هذه الفكرة في ثنايا أقواله وتوصياته وتضاعيف كتبه ، فمن وصاته للكاتب قوله : «ونستحب له أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام ، فإني رأيت الكتاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيه»^(٢).

من هنا ، نجده يدعو الكتاب إلى نبذ التعقيد ، والتكلف ، ووحشي الكلام ، ويدعوهم إلى السهولة والبساطة في كتاباتهم فيقول : «... ويستحب له - أي الكاتب - أن يدع من كلامه التعجير والتعقيب ، كقول عيسى بن عمر - ويوسف بن عمر بن هُبيرة يضربه بالسياط - : «والله إن كانت إلا أئتاباً في أسفاط قبضها عشاروك». فهذا وأشباهه كان يستثقل والأدب غض ، والزمان زمان ، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة ، ويتنافسون في العلم ، ويرونه تلؤ المقدار في درك ما يطلبون ، وبلوغ ما يأملون ، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال»^(٣).

وكان يدعو الشعراء والكتاب إلى التسهيل والتيسير ، وترك مستثقل الإعراب في كتاباتهم وتعبيرهم ، فيقول : «كذلك يستحب له - إن استطاع - أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الإعراب ليسلم من اللحن وقباحة التعجير»^(٤). ونسمعه يدعو - أحياناً - إلى ترك الإعراب ، «لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها»^(٥) ، فنراه يوافق أستاذه

(١) أدب الكاتب ، ص : ١٩ - ٢٠ .

(٢) أدب الكاتب ، ص : ١٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٦ ، والشعر والشعراء ، ص : ١ - ٩٠ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٧ .

(٥) عيون الأخبار ، مقدمة المؤلف ، ص : م .

الجاحظ في رأيه من أن النادرة يجب أن تورّد بلفظ قائلها ولو كانت ملحونة - كما مر معنا في بحث الجاحظ - . ويدعو الشعراء المحدثين إلى عدم اتباع المتقدمين ، ويقول : «... وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال حوشي الكلام الذي لم يكثر ككثير من أبنية سيبويه ، واستعمال اللغة القليلة في العرب كإبدالهم الجيم من الياء...»^(١) . فنراه يخاطب الشاعر ليميل إلى السهولة والسلاسة ، فيقول : «وفيما ذكرت منه ما ذلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي ، وأسهل الألفاظ ، وأبعدها عن التعقيد والاستكراه ، وأقربها من أفهام العوام ، وكذلك أختار للخطيب إذا خطب ، والكاتب إذا كتب ، فإنه يقال : أسير الشعر ، والكلام المطمع ، يراد الذي يُطمع في مثله من سمعه ، وهو مكان النجم من يد المتناول»^(٢) .

ونراه يستدل على مراعاة الكلام لمقتضى أحوال المخاطبين والمتكلمين على حد سواء بما قاله أحد علماء الهند : «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخيراً للفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوّك بكلام السوقة ، ويكون في قوله فضلٌ للتصرف في كل طبقة... قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ ، أي : يخاطب كلاً بما يفهم وبما يناسبه ويوجز في كلامه ، ويختار ألفاظه ولكن يدعو إلى عدم تنقيحها كل التنقيح ، وتصنيفتها كل التصنيفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عليماً»^(٣) .

وذكر ابن قتيبة موضوع التقديم والتأخير^(٤) ، بعد ذكره للقلب اللغوي

(١) الشعر والشعراء ١/١٠١ .

(٢) المصدر ذاته ١/١٠٣ .

(٣) عيون الأخبار ٢/١٧٣ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٠٦ - ٢٠٩ .

والبلاغي ، فقال : «ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التأخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم ، ومن المقدم والمؤخر قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (١) . . . ﴿فِيَمَا﴾ (٢) ، وقوله : ﴿فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقٍ﴾ (٣) ، أي : بشرناها بإسحاق فضحكت . وقول ذي الرمة يصف الدار :

فأضحت مبادئها قفاراً رسوماً كأن لم سوى أهل من الوحش تؤهل
أراد : كأن لم تؤهل سوى أهل من الوحش . وقول الله عز وجل : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ (٤) ، أي : ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى ، لكان لزاماً . ولكن ابن قتيبة ، في الأمثلة التي ذكرها ، لم يذكر النكتة البلاغية أو الأثر البلاغي للتقديم والتأخير ، والحق أنه لم يصف في هذا البحث شيئاً جديداً ، وإنما اقتفى أثر العلماء قبله ، فقد ذكر ذلك سيبويه ، وتبعه أبو عبيدة في (مجاز القرآن) (٥) .

وذكر ابن قتيبة أمثلة للتقديم والتأخير خلال عرضه للمقلوب ، فقد ذكر القلب واستشهد ببعض الأمثلة التي استشهد بها الجاحظ قبله ، فعول عليها . «والقلب عند ابن قتيبة أعم منه عند سيبويه وأبي عبيدة والفراء ، لأنه تناول فيه ما يتصل باللغة ، وما يتصل بالتصريف ، ثم ما يدخل في البلاغة ، وجمعها في سلك واحد تحت باب المقلوب» (٥) ، فيذكر سيبويه في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعوله بقوله : «ضرب عبد الله زيدا ، فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل ، جرى اللفظ كما جرى في الأول . وذلك قوله : ضرب زيدا

(١) سورة الكهف ، الآية : ١ - ٢ .

(٢) سورة هود ، الآية : ٧١ .

(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٩ .

(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ١٩٠ .

(٥) المرجع ذاته ، ص : ١٨٩ .

عبدُ الله ، لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ . فمن ثم ، كان حد اللفظ أن يكون مقدماً ، وهو عربي جيد كثير ، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بيانه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم»^(١) .

أما التقديم والتأخير عند أبي عبيدة ، فيذكره بقوله : «ومن مجاز المقدم والمؤخر قوله تعالى : ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾^(٢) ، أراد : ربت واهتزت» ، وقال : «لم يكديراها ، أي : لم يرها ولم يكدي»^(٣) .

ومن الأمثلة التي استشهد بها ابن قتيبة للتقديم والتأخير قول الله عز وجل : ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِيمَانًا﴾^(٤) ، أي : اجعل المتقين لنا إماماً في الخير . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾^(٥) ، أي : وإن حبه للخير لشديد . وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُحْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾^(٦) ، أي : رسله وعده ، لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل ، فتقول : أخلفت الوعد ، وأخلفت الرسل . وكذلك قوله سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧) ، أي : فإني عدو لهم ، لأن كل من عاديته عاداك^(٨) . ومنه قوله تعالى : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(٩) ، أي : بل على الإنسان من نفسه بصيرة ، يريد شهادة جوارحه عليه لأنها منه ، فأقامه مقامها .

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٣٤ .

(٢) هذا الجزء من الآية ورد في سورة الحج ، الآية : ٥ ، وسورة فصلت ، الآية : ٣٩ .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٢ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية : ٧٤ .

(٥) سورة العاديات ، الآية : ٨ .

(٦) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٧ .

(٧) سورة الشعراء ، الآية : ٧٧ .

(٨) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٩٣ .

(٩) سورة القيامة ، الآية : ١٤ .

وقد جمع ابن قتيبة كثيراً من الشواهد على القلب^(١) ، واستشهد ببعض أقوال الشعراء ، كقول أحدهم :

ترى الثور مدخل الظل رأسه وسائره بادٍ إلى الشمس أجمعُ
أراد : مدخل رأسه الظل ، فقلب ، لأن الظل التبس برأسه فصار كل واحد منهما داخلاً في صاحبه ، والعرب تقول : اعرض الناقة على الحوض : تريد اعرض الحوض على الناقة ، لأنك إذا أوردتها الحوض اعترضت بكل واحد صاحبه . وقول الأخطل :

على العيارات هذاجون قد بلغت نجران أو بلغت سواتهم هَجْرُ
وكان الوجه أن يقول : سواتهم - بالرفع - نجران وهَجْرَ فقلب ، لأن ما بلغته فقد بلغك^(٢) .

ثم ذكر نوعاً من المقلوب فقال : «ومن المقلوب ما قلب على الغلط . . . وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾^(٣) ، إلى مثل هذا في القلب ، ويقول : وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام ، والمعنى للمنعوق به ، وهو الغنم . وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل لو لم يجد له مذهباً ، لأن الشعراء قلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقفافية ، أو لاستقامة وزن البيت ، والله تعالى لا يغلط ولا يضطر ، وإنما أراد : ومثل الذين كفروا ومثلنا في وعظهم كمثل الناقع بما لا يسمع ، فاقصر على قوله : (ومثل الذين كفروا) ، وحذف (ومثلنا) ، لأن الكلام يدل عليه . ومثل هذا كثير في الاختصار^(٤) .

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٩٤ - ١٩٥ ، ٣٠٣ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٠٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٣ - ٧ .

فجعل علة القلب هو الاختصار ، وأكد ذلك بما ذهب إليه الفراء في تفسير هذه الآية ، حيث قال : «أراد : ومثل واعظ الذين كفروا ، فحذف ، كما قال : ﴿ وَسَلِّ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾^(١) ، أي : أهلها . فالحذف والاختصار والإيجاز مما تعرض له ابن قتيبة ، فنراه يفرد باباً في (تأويل مشكل القرآن بعنوان) : (باب الحذف والاختصار) .

وقد توسع في إيجاز الحذف ، أما إيجاز القصر ، فلم يفرد له باباً خاصاً ، وإنما ذكره في أول كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، وهذا ما سبق أن أشرنا إليه من أن المصطلحات البلاغية والتفريعات لم تكن محددة في عصره ، بل هو من أوائل من فطن إلى بعض الفنون البلاغية .

ونراه يشيد بالقرآن العظيم الذي جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، «وذلك معنى قول رسول الله ﷺ : (أوتيت جوامع الكلم)^(٢) . فإن شئت أن تعرف ذلك ، فتدبر قوله تعالى إذ ذكر الأرض فقال : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾^(٣) ، كيف دلّ بشيئين على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام ، من العشب والشجر والحب والتمر والعصف واللباس والنار والملح ، لأن النار من العيدان ، والملح من الماء . وينبتك أنه أراد ذلك ، قوله : ﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾^(٤) . وساق مثلاً آخر فقال : «وفكر في قوله تعالى حين ذكر جنات الأرض فقال : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفَّضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾^(٥) ،

(١) سورة يوسف ، آية : ٨٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، والحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب قول النبي ﷺ : «نصرت بالرعب . . . » ٣/١٠٨٧ ح ٢٨١٥ ، وفي كتاب التعبير ، باب المفاتيح في اليد ٦/٢٥٧٣ ح ٦٦١١ ، ومسلم في صحيحه - واللفظ له - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/٣٧١ - ٣٧٢ ح ٥٢٣ ، وكتاب الأشربة ٣/١٥٨٦ ح ١٧٣٣ .

(٣) سورة النازعات ، الآية : ٣١ .

(٤) سورة النازعات ، الآية : ٣٣ .

(٥) سورة الرعد ، الآية : ٤ .

كيف دل على نفسه ولطفه ووجدانيته وهدى للحجة على من ضل عنه ، لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة ، لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم ، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد ، وسقي بماء واحد ، ولكنه صنع اللطيف الخبير . وساق مثلاً ثالثاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾^(١) ، يريد أنها تجمع وتسير ، فهي لكثرتها كأنها جامدة واقفة في رأي العين ، وهي تسير سير السحاب . والمثال الرابع الذي تناوله معظم العلماء ، هو قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٢) ، يريد أن سافك الدم إذا أُفيد منه ارتدع من كان يهيم بالقتل ، فكان في القصاص له حياة وهو قتل ، وأخذ الشاعر فقال :

أبلغ أبا مالكٍ عني مُغلغلةً وفي العتابِ حياةٌ بينَ أقوامِ
يريد أنهم إذا عاتبوا أصلح ما بينهم العتاب ، فكفوا عن القتل فكان في ذلك حياة . وأخذ المتمثلون فقالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وقالوا : القتل أنفى للقتل .

وقد تأثر به المبرد ، وساق المثال ذاته . وقابل بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقول العرب : «القتل أنفى للقتل»^(٣) . وسنعرض له في الفصل الآتي .

وهذه الأمثلة سقناها على إيجاز القصر . وأما إيجاز الحذف ، فقد جاء في بابه أمثلة تدل على أنواعه^(٤) ، من ذلك :

(١) سورة النمل ، الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٩ .

(٣) البلاغة للمبرد ، ص : ٩٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢١٠ وما بعدها .

١ - أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَسْرِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾^(١) ، أي : حبه . و ﴿ الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَتٍ ﴾^(٢) ، أي : وقت الحج .

٢ - أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، وتضمير للآخر فعله ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾^(٣) ، أي : وادعوا شركاءكم .

٣ - أن تأتي بالكلام مبيناً على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً للعلم المخاطب به ، كقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾^(٤) . أراد : لكان هذا القرآن ، فحذف^(٥) .
وقول أبي ذؤيب :

عصيتُ إليها القلب إنني لأمره سميع ، فما أدري أرشد طلابها
أراد : أرشد هو أم غي ، فحذف .

٤ - حذف الكلمة والكلمتين ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾^(٦) ، والمعنى : يقولون : ربنا تقبل منا .

٥ - حذف جواب القسم إن دل عليه دليل ، وفي ذلك قال : «ومن الاختصار القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل على الجواب ، كقوله : ﴿ ق وَالْقُرْءَانَ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ

(١) سورة البقرة ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

(٣) سورة يونس ، الآية : ٧١ .

(٤) سورة الرعد ، الآية : ٣١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢١٤ ، ٣٠٥ .

(٦) سورة البقرة ، الآية : ١٢٧ .

عَجِبُ * أَدَا مِتْنَا ﴿١﴾ ، نبعث؟! ، ثم قالوا : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿٢﴾ ، أي : لا يكون!

٦ - حذف (لا) من الكلام والمعنى إثباتها ، كقوله تعالى : ﴿تَأَلَّه تَفَتَّؤُا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ﴾ ﴿٣﴾ ، أي : لا تزال . وقرر أنها تحذف مع اليمين كثيراً ، مثل : ﴿يَبِيْنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوْا﴾ ﴿٤﴾ ، أي : من أن تضلوا .

٧ - حذف الجار والمجرور . ويقول ابن قتيبة عنه : «حذف الصفات ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ﴿٥﴾ ، أي : كالوا لهم ، أو وزنوا لهم .

٨ - حذف الثناء الحسن لعلم المخاطب بالمراد . من ذلك قوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٦﴾ ، أي : أبقينا له ذكراً حسناً في الآخرين ، كأنه قال : تركنا عليه ثناء حسناً ، فحذف الثناء الحسن لعلم المخاطب بما أراد .

ونلاحظ أن ابن قتيبة أكثر من أمثلة الحذف ليؤكد مذهب العرب في كلامهم الذي يعتمد على الاختصار والحذف إرادة التخفيف والإيجاز ، ولكنه من مذاهبهم أيضاً التكرار بغية التوكيد والإفهام . من هنا ، نراه يفرد باباً في كتابه (تأويل مشكل القرآن) يذكر فيه تكرار الكلام والزيادة فيه - وهو ما أدخله البلاغيون في بحث الإطناب - وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، وعلى مذاهب العرب ، «ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون ، وخروجه من شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره

(١) سورة ق ، الآية : ٢ .

(٢) سورة ق ، الآية : ٣ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٨٥ .

(٤) سورة النساء ، الآية : ١٧٦ .

(٥) سورة المطففين ، الآية : ٣ .

(٦) سورة الصافات ، الآية : ٧٨ ، وتكررت في ١٠٨ و ١٢٩ .

في المقام على فن واحد»^(١).

وقد زعم الطاعنون أن التكرار والزيادة ضرب من الفضول ، فهو من قبيل العبث والحشو المخل بالفصاحة . لذلك ، انبرى لهم ابن قتيبة فيند مزاعمهم ، ويدحض آراءهم الزائفة ويؤكد لهم أن التكرار جاء لأغراض كثيرة في القرآن الكريم ، منه :

١ - تكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجزىء عن بعض من أجل التوكيد والتقرير . وضرب مثلاً عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾^(٢) ، فقال : «ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد على السبب الذي نزلت فيه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، لأنهم راودوه على أن يعبد ما يعبدون ليعبدوا ما يعبد ، وأبدأوا في ذلك وأعادوا ، فأراد الله عز وجل حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم ، فأبدأ وأعاد في الجواب»^(٣) . كما يعطيهم ابن قتيبة تفسيراً مقنعاً لتكرار ﴿ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾^(٤) ، فإنه عدد في هذه السورة نعماءً ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، ليفهمهم النعم ويقررهم بها»^(٥) . كما ضرب لهم مثلاً في بعض الصفات التي تأتي «وأرادوا توكيدها واستوحشوا من إعادتها ثانية ، لأنها كلمة واحدة ، فغيروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى ، وهذا ما يسمونه : «الاتباع» ، كقولهم : عطشان عطشان ، كرهوا أن يقولوا : عطشان عطشان ، فأبدلوا من العين نوناً»^(٦) .

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٣٥ .

(٢) سورة الكافرون ، الآية : ١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٣٧ .

(٤) تكررت في عدة آيات من سورة الرحمن .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٩ .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٧ .

٢ - تكرار المعنى بلفظين مختلفين من أجل إشباعه ، وهو ما نص عليه في قوله : «... فلا إشباع المعنى والاتساع في الألفاظ ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾^(١) ، والنخل والرمان من الفاكهة ، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها لفضلهما ، وحسن موقعهما»^(٢) .

٣ - تكرار القصص للوعظ والتنبيه وتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، وبذلك فسر ابن قتيبة ما جاء من تكرار لها في القرآن الكريم بقوله : «... ومن حكمة التكرار أن وفود العرب ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام ، كما كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مثناة مكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، فأراد الله تعالى بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع ، ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير»^(٣) .

وأما الزيادة ، فإنها على سبيل التوكيد ولأغراض بلاغية ، وتكون بالكلمات والحروف .

* فأما ما يخص الكلمات ، فقد مثل ابن قتيبة لذلك بقوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾^(٤) ، لأن الرجل قد يقول بالمجاز : كلمت فلاناً ، وإنما كان ذلك كتاباً أو إشارة على لسان غيره ، فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم ، وقوله : ﴿ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾^(٥) ، لأن الرجل قد

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٦٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٤١ - ٢٥٥ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٤ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٧ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٧٩ .

يكتب بالمجاز ، وغيره الكاتب عنه^(١) . ويزاد الاسم والوجه كقوله تعالى : ﴿ نَبْرَكَ أَتَمُّ رَيْكَ ﴾^(٢) ، أي : تبارك ربك .

* وأما الزيادة بالحروف ، كالنفي والتنبيه والإباء في الكلام والجحد ، فإنها على أنواع ، منها :

١ - زيادة (لا) ، والمعنى طرحها ، يقول ابن قتيبة أنه قد تزداد (لا) في الكلام ، والمعنى طرحها لإبءاء في الكلام أو جحد ، كقول الله عز وجل : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾^(٣) ، أي : ما منعك أن تسجد؟! فزاد في الكلام (لا) ، لأنه لم يسجد .

٢ - زيادة (ألا) تزداد في الكلام للتنبيه ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾^(٤) .

٣ - زيادة (الباء) في الكلام والمعنى إبقاؤها .

٤ - إثبات (الكاف) في الكلام ، وهي زائدة ، كما تقول في الكلام : «كلمني بلسان كمثل السنان ، ولها بنان كمثل العنم»^(٥) .

إلى غير ذلك من الحروف ، ولكل واحد منها دلالة ، مثل : (اللام) و(من) و(على) و(عن) و(إن) و(أن) و(إذ) و(ما) و(واو النسق)^(٦) . . .

وقد أفرد ابن قتيبة باباً تحدث فيه عن مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، وذكر فيه الأساليب الإنشائية الطلبية وغير الطلبية من دعاء واستفهام وأمر ، ولم يقتصر

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٤١ .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٢ .

(٤) سورة هود ، الآية : ٨ .

(٥) تأويل مختلف الحديث ، ص : ٢١٨ .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ٢١٨ .

في هذا الباب على ما عرف عند البلاغيين ، وإنما جعله عاما واسعا شمل ما قاله البلاغيون بالإضافة إلى الالتفات والعلاقات المجازية .

ومن الأساليب الإنشائية ، كما ذكر ابن قتيبة :

١ - الدعاء . وفيه قال : «الدعاء على جهة الذم ، لا يراد به الوقوع ، كقول الله عز وجل : ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴾^(١) . وقد يراد بهذا التعجب من إصابة الرجل في منطقته أو في شعره أو في رميته ، فيقال : قاتله الله ، ما أحسن ما قال ! والله دره ، ما أحسن ما احتج به ! »^(٢) .

٢ - الاستفهام الذي يخرج إلى التقرير أو التعجب أو التوبيخ . يقول ابن قتيبة : «ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام ، وهو تقرير ، كقوله سبحانه : ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٣) ، ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تعجب ، كقوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(٤) ، كأنه قال : عم يتساءلون يا محمد؟ ثم قال : عن النبأ العظيم يتساءلون .

ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام ، وهو توبيخ ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾^(٥) ^(٦) .

٣ - الأمر . وذكر ابن قتيبة أنه قد يخرج عن معناه الظاهر إلى أسلوب التهديد ، أو التأديب ، أو الإباحة ، أو الأمر الذي هو فرض ، كقوله تعالى :

(١) سورة عبس ، الآية : ١٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ١١٦ .

(٤) سورة النبأ ، الآيتان : ١ - ٢ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية : ١٦٥ .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ٢٧٩ - ٢٨٠ .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١). ومثال التهديد ، قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(٢). وأما التأديب ، فقوله تعالى : ﴿وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ﴾^(٣). والإباحة قوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

ومن الأمور البلاغية التي ذكرها ابن قتيبة في باب مخالفة الظاهر :

١ - الالتفات. يقول : «ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب ، كقوله عز وجل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَبَّيَّةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾^(٥) ، وقول الشاعر النابغة :

يا دار مئة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
٢ - خطاب الغائب للشاهد ، كقول الهذلي :

يا ويح نفسي كان جدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر^(٦)

٣ - خطاب الرجل بشيء ثم جعل الخطاب لغيره ، كقوله : ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ، الخطاب للنبي ﷺ. ثم قال للكفار : ﴿فَاعَلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، يدل ذلك على ذلك قوله : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٧).

٤ - الجزاء عن الفعل بمثل لفظه ، والمعنيان مختلفان ، نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٨) ، أي : يجازيهم جزاء الاستهزاء^(٩).

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢.

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٠.

(٣) سورة النساء ، الآية : ٣٤.

(٤) سورة الجمعة ، الآية : ١٠. تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٨٠ - ٢٨١.

(٥) سورة يونس ، الآية : ٢٢.

(٦) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٧) سورة هود ، الآية : ١٤.

(٨) سورة البقرة ، الآيتان : ١٤ - ١٥.

(٩) المصدر ذاته ، ص : ٢٧٧.

٥ - جمع يراد به واحد واثنان ، وواحد يراد به جمع ، ومنه أن تصف الجمع صفة الواحد ، أو تصف الواحد بالجمع^(١) .

٦ - اجتماع شيئين ولأحدهما فعل ، فتجعل الفعل لهما .

٧ - اجتماع شيئين فتجعل الفعل لأحدهما ، أو تنسبه إلى أحدهما وهو لهما .

٨ - أمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين ، فتقول : «افعل» .

٩ - اتصال الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد ، وهو قولان ، نحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾^(٢) .

ومن العلاقات المجازية التي ذكرها ابن قتيبة جاعلاً إياها من مخالفة ظاهر اللفظ معناه^(٣) :

١ - مجيء المفعول به على لفظ الفاعل ، كقوله تعالى : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾^(٤) ، أي : لا معصوم من أمره . و﴿ عِشَّةٌ رَاضِيَةٌ ﴾^(٥) ، أي : مرضية .

٢ - مجيء الفاعل على وزن المفعول ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾^(٦) ، أي : آتياً .

(١) معاني القرآن ١/٤٢٧ .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٣٤ . ويراجع ما ذكرت من صور أتى بها ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٨٢ - ٢٩٤ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٩٦ - ٢٩٨ .

(٤) سورة هود ، الآية : ٤٣ .

(٥) سورة الحاقة ، الآية : ٢١ .

(٦) سورة مريم ، الآية : ٦١ .

٣ - مجيء فعليل بمعنى مُفْعِل ، نحو قوله : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) ، أي : مبدعها . وكذلك : (عذاب أليم) ، أي : مؤلم^(٢) .

ومن فنون البيان التي ذكرها ابن قتيبة : فن التشبيه ، لكنه لم يفرد له باباً خاصاً في كتابه (المشكل) . ونحن لا نريد أن نعرض للتشبيه من زاوية «العقيدة» ، وكيف أن ابن قتيبة اتهم بالكرامية ونفى الشبه عنه ، لكن يرجح أستاذنا د . عبد القادر حسين «أن ابن قتيبة لم يعقد للتشبيه باباً في (المشكل) على عمد منه ، وقصد إلى ذلك قصداً ، لأن التشبيه لخطورته وخاصة إذا أراد أن يعالج فيه قضية تشبيه الذات العلية بالحوادث لا يكفيه باب ، وإنما أفرد له كتاباً خاصاً بعنوان : (اختلاف اللفظ والمعنى والرد على الجهمية والمشبهة) . وبذلك ، لم يكن ابن قتيبة غافلاً عن أفراد باب التشبيه كما ادعى بعض الباحثين ، بل أعطاه مزيداً من العناية والاهتمام ، وإن كان التشبيه في هذا الكتاب أقرب إلى العقيدة منه إلى البلاغة^(٣) . وقد ذكر ابن قتيبة التشبيه في كتابيه (المشكل) و(الشعر والشعراء) ، وذكر أنواعه من حيث الجودة والرداءة ، وأبرز أقسامه وإن كان الغرض الذي يرمي إليه النقد ، لكن المضمون كان بلاغياً ، ومن العسير أن نفصل بين البلاغة والنقد في هذا المضمون ، وإن كان من باب التيسير أن ندرس البلاغة عنده على حدة ، والنقد كذلك .

وقد كان ابن قتيبة ينفي التشبيه بمعنى التجسيم ، ولكنه يوجه النصوص إلى التشبيه والتمثيل ، وذلك في مثل الحديث الشريف : (الحجر الأسود يمين الله في أرضه يصفاح بها من شاء من خلقه)^(٤) . قال ابن قتيبة : «ونحن نقول : إن

(١) جاءت في سورة البقرة ، الآية : ١١٧ ، وسورة الأنعام ، الآية : ١٠١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٩٦ - ٢٩٨ .

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه موقوفاً على ابن عباس ٣٩/٥ ح ٨٩١٩ ، وح ٨٩٢٠ ، وأورده ابن =

هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله أن الملك كان إذا صافح رجلاً ، قَبَلَ الرجل يده ، فكأن الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك تستلم وتلثم^(١) .

ومنه قوله ﷺ : (أجد نفسَ ربكم من قِبَلِ اليمن)^(٢) ، يريد : أجد الفَرْجَ يأتي من قِبَلِ اليمن ، فأتاه الله من جهة الأنصار . وكذلك قوله : «لا تسبوا الريح ، فإنها من نفس الرحمن»^(٣) ، يريد أن الله ينفس بها ويفرّج بها ، وقد فرّج الله بها عنه ليلة الأحزاب^(٤) .

ونجد ابن قتيبة يكثر من التشبيه في كتابه (المعاني الكبير)^(٥) بكل أنواعه ، وذلك عندما كان يعرض للخيل وغيره من الموضوعات ، فعندما عرض للخيل قال : ويشبهونها بالعصا والدلو والماء والسيل والظبي والطيور والرشا والسهم والصقر والنعامة والخدروف ، فيقول : قال أبو ذؤاد في تشبيه الخيل بالنعامة :

= حجر في المطالب العالية من طريق موقوف على ابن عباس وقال : هذا موقوف صحيح
٤٣٢/٦ ح ١٢٢٣ . ومن رواية عبد الله بن عمرو - مرفوعاً - أخرجه الحاكم في مستدركه
وقال : وقد روي لهذا الحديث شاهد مفسر ، غير أنه ليس على شرط الشيخين ، فإنهما لم
يحتجا بأبي هارون عمارة بن جوين العبدي ١/٦٢٧ ح ١٦٨١ ، وابن خزيمة في صحيحه
٤/٢٢١ ح ٢٧٣٧ ، والطبراني في المعجم الأوسط ١/١٧٧ ح ٥٦٣ بسند فيه مقال ، لوجود
عبد الله ابن المؤمل فيه ، وثقه ابن حبان وقال : يخطيء ، وفيه كلام ، وبقية رجاله رجال
الصحيح ، يراجع : مجمع الزوائد ٣/٢٤٢ .

- (١) تأويل مختلف الحديث ، ص : ٢١٥ .
- (٢) أوله : (ألا إن الإيمان يمان ، والحكمة يمانية ، وأجد نفس . . .) . أخرجه أحمد في مسنده ٢/٥٤١ ح ١٠٩٩١ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير شبيب ، وهو ثقة ١٠/٥٦ .
- (٣) أخرجه بهذا اللفظ موقوفاً على أبي بن كعب : الحاكم في مستدركه ، وقال فيه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ٢/٢٩٨ ح ٣٠٧٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ٦/٢٣٢ ح ١٠٧٧١ ، وح ١٠٧٧٢ .
- (٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٥٨٢ .
- (٥) المعاني الكبير ١/٤٠ - ٥٢ .

يمشي كمشي نعامة تبعت أخرى إذا هي راعها خطبٌ
 وقد ذكر أنواع المشبه به عند العرب. والبيئة العربية مليئة بالصور ، غنية
 بمعطياتها. وقد نزل القرآن الكريم وهو غني بالتشبيهات المنتزعة من بيئتهم ،
 فيفسر قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدْرُونَ ﴾ (٣٣) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ
 كَهَاتَا ﴿٣٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٣٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِمْخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٣٧﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
 لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلْحُكْتِ شُعْبٍ ﴿٤٠﴾ لَا ظَلِيلٍ
 وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٤١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٤٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٤٣﴾ ، فمن قرأه
 بتسكين الصاد أراد القصرَ من قصور مياه الأعراب ، ومن قرأه (القصر) شَبَّهه
 بأعناق النخل ، ويقال بأصوله إذا قطع. ووقع تشبيه الشرر بالقصر في
 مقاديره ، ثم شبهه في لونه بالجماليات الصفر ، وهي السود ، والعرب تسمي
 السود من الإبل صفرًا ، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون أشبه شيء
 بالإبل السود لما يشوبها في الصفرة»^(٢). وكذلك عرض للتشبيه في قوله
 تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ ﴾^(٣) ، فقال :
 «أي : كالسراب يحسبه العطشان من البعد ماءً يرويه ، حتى إذا جاءه - أي :
 مات - لم يجد عمله شيئاً ، لأن الله عز وجل قد أبطله بالكفر ومحقه»^(٤).

ونراه يذكر الإصابة في التشبيه ويجعلها سبباً لاختيار الشعر ، فيقول :
 «... وليس كل شعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه يختار
 على جهات وأسباب ، منها الإصابة في التشبيه ، كقول القائل في القمر :

بدأن بنا وابن الليالي كأنه حسامٌ جلت عنه القيون صقيل

(١) سورة المرسلات ، الآية : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٩ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٣٢٩ .

فما زلتُ أفني كل يوم شبابه إلى أن أتتك العيس وهو ضئيل
فقد جعل الإصابة في التشبيه مقياساً من مقياس النقد عنده ، وأساساً
لاختيار الشعر .

كذلك ذكر جودة التشبيه في حكمه على بيت امرئ القيس المشهور :
كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي
فقال : « . . . فقد شبه شيئين بشيئين في بيت واحد ، وأحسن التشبيه »^(١) ،
لكن لم يذكره باسمه الاصطلاحي .

وساق أمثلة على التشبيه الحسن والجيد ، فقال في بيت امرئ القيس في
وصف الفرس :

له أبطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
«وقد تبعه الناس في هذا الوصف فأخذوه ، ولم يجتمع لهم ما اجتمع له
في بيت واحد»^(٢) .

وكان يستحسن بعض تشبيهات الشعراء ، فيقول مدلياً بحكمه إن أعظم
شاعرين استخدموا التشبيه بطريقة جيدة هما : ذو الرمة ، والنمر بن تَوَلَّب . وفي
ذلك قال : «من جيد التشبيه قول النمر بن تَوَلَّب في إعراض المرأة»^(٣) :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنت بحاجب
حتى إن أبا نواس أخذه منه ، قال ابن قتيبة : «أخذه المحدث فقال :

يا قمرأً للنصف من شهره أبدى ضياء لثمانٍ بَقِينُ
وقال : «ذو الرمة أحسن الناس تشبيهاً ، وإنما وضعه عندهم أنه لا يجيد

(١) الشعر والشعراء ١/ ١٣٤ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ١٣٤ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٣١٠ .

المدح ولا الهجاء»^(١).

وساق لنا المرزباني سبب وضع النقاد شعر ذي الرمة فقال : « قيل للبطين : أكان ذو الرمة شاعراً مقدماً؟ فقال البطين : أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان : مدح رافع ، أو هجاء واضح ، أو تشبيه مصيب ، أو فخر سابق . وهذا كله مجموع في جرير والأخطل والفرزدق ، فأما ذو الرمة ، فما أحسن قط أن يمدح ، ولا أحسن أن يفخر ، يقع في هذا كله دوننا ، وإنما يحسن التشبيه ، فهو ربع شاعر»^(٢).

واستحسن ابن قتيبة تشبيه العباس بن الأحنف ، فقال : «ومن بديع تشبيهه قوله في المرأة إذا مشت»^(٣) :

كأنها حين تمشي في وصفائها تخطو على البيض أو خضر القوارير
وكان يدعي أن عنتره «قد سبق غيره في تشبيه الذباب ، ولم يناع فيه ، وهو من أحسن التشبيه»^(٤). لكن ، نرى الجاحظ قبله قد تناول هذه الصورة بالدرس والتحليل ، فقد ذكرها فاستحسنها»^(٥).

ولكن ابن قتيبة لم يكتف بالتشبيهات الجيدة التي استحسنها ، بل ذكر التشبيهات المعيبة أيضاً ، وكان أحياناً يفسر لنا موطن الخلل أو العيب فيها ، وأحياناً كثيرة يغفل ذلك ، منها قوله في امرئ القيس : «... ويعاب عليه قوله :

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

(١) المصدر ذاته ١/ ٥٣٤ .

(٢) الموشح ، ص : ١٧٢ .

(٣) الشعر والشعراء ٢/ ٨٢٩ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٢٥٣ .

(٥) يراجع الجاحظ في هذا البحث ، ص : ٢٤ - ٢٥ .

ولكن هذا لا يعدّه ابن قتيبة عيباً ، وفي ذلك يقول : « . . . ولا أرى ذلك عيباً ، ولا المثل المضروب له شكلاً ، لأنه لم يرد بقوله (حبك قاتلي) القتل بعينه ، وإنما أراد به أنه قد برّح بي ، فكأنه قد قتلني . وهذا - كما يقول القائل - : قتلتي المرأة بدلها وبعينها ، وقتلني فلان بكلامه . فأراد : أغرك في أن حبك قد برّح بي ، وأنه مهما تأمري قلبك به من هجري والسلو عني يطعك ، أي : فلا تغتري بهذا»^(١) .

وقد انتقد بعضهم ابن قتيبة لاستعماله التشبيه والتمثيل على أنهما مترادفان ، لأن التشبيه التمثيلي عند البلاغيين غير التشبيه العادي ، فنقد غير صحيح ، لأن ابن قتيبة يستعمل التمثيل بمعناه اللغوي ، لأن مثل الشيء : شبهه ، ولم يقصد ما ذهبوا إليه من إرادة التشبيه التمثيلي ، لأن المصطلح لم يكن معروفاً في عصره^(٢) .

وتناول ابن قتيبة موضوع المجاز ، وردّ على الطاعنين في القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أنه كذب ، وأورد له أمثلة كثيرة ، كقوله تعالى عن الجدار : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾^(٤) ، لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تُسأل^(٥) . وفي ذلك قال : «وهذا من أشنع جهالاتهم وأدل على سوء نظرهم ، وقلة إفهامهم . ولو كان المجاز كذباً ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسداً ، لأننا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر . فهو يرد على من

(١) المصدر ذاته ١/ ١٣٥ .

(٢) يراجع : ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ، ص : ٦٢ .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ٧٧ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٨٢ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٣٣ .

أنكر المجاز ، ويفسر قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾^(١) ، وإنما يعزم عليه .
وقوله : ﴿ فَمَا رَجَعَتِ يُجْرَتُهُمْ ﴾^(٢) ، وإنما يربح فيها . ﴿ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدْمِرُ
كَذِبٌ ﴾^(٣) ، وإنما كذب به^(٤) .

وقال : «ذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد المعاني ، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز ، كقول القائل : قال الحائط فمال . وقال بعضهم في قول الملائكة : ﴿ أَسْجُدُوا لِلْآدَمِ ﴾^(٥) : هو إلهام منه للملائكة ، كقوله : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾^(٦) ، أي : ألهمها^(٧) . وقد أورد ابن قتيبة كثيراً من الأمثلة على المجاز وتابع فيها الجاحظ ، وكثير منها استشهد بها الجاحظ على المجاز ، وبين أن القول يقع فيه المجاز ، فنقول : قالت الناقة ، وقال البعير ، ولا يقال في مثل هذا المعنى «تكلم» ، ولا يعقل الكلام إلا بالنطق بعينه خلا موضع واحد ، وهو أن تتبين في شيء من الموات عبرة وموعظة . قال الشاعر^(٨) :

وعظتك أجدات صُمّت ونعتك ألسنة خُفّت

ونلاحظ أن ابن قتيبة يتبع الجاحظ في إطلاق المجاز على بعض الأساليب ، وإطلاق الاستعارة على أساليب أخرى ، وإن كان الجاحظ لم يبين العلاقة بين المجاز والاستعارة . وفي ذلك ، يقول ابن قتيبة : «نبدأ بباب الاستعارة لأن

(١) سورة محمد ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ١٨ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٣٢ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٦١ .

(٦) سورة النحل ، الآية : ٦٨ .

(٧) المصدر ذاته ، ص : ١٠٦ .

(٨) المصدر ذاته ، ص : ١٠٩ .

أكثر المجاز يقع فيها»^(١). فدائرة المجاز عنده أوسع من دائرة الاستعارة ، وهو أعم وأشمل منها ، فمن خصائص العرب اتساعهم في المجاز وتفننهم في التعبير. وفي هذا المجال ، قال ابن قتيبة : «وللغرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول وماآخذه ، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن. ولذلك ، لا يقدر أحد من التراجم أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزيبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب»^(٢). «ولو أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه ، فيقول في قول الله عز وجل : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾^(٣). فإن قلت : أنماهم سنين عدداً ، لكنك مترجماً للمعنى دون اللفظ»^(٤).

وضرب ابن قتيبة أمثلة متعددة على المجاز ، ولكن كانت متداخلة مع الاستعارة ، من ذلك ما قاله : «... وقد اختلف الناس في قول الله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾^(٥) ، فذهب به قوم مذاهب العرب في قولهم : بكته الريح والبرق ، كأنه يريد أن الله عز وجل حين أهلك فرعون وقومه وغرقهم وأورث منازلهم وجناتهم غيرهم لم يبك عليهم باكاً ، ولم يجزع عليهم جازعاً ، ولم يوجد لهم فُقد. وقال آخرون : أراد : فما بكت عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض ، فأقام السماء والأرض مقام أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا

(١) يراجع : ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ، د. رمضان الجربي ، ص : ٩٨ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٠ - ٢١ .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢١ .

(٥) سورة الدخان ، الآية : ٢٩ .

دَخَلُوا ﴿١﴾ ، أراد أهل القرية . وقال : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ﴿١﴾ ، أي : يضع أهل الحرب السلاح ﴿٢﴾ .

ومن الأمثلة التي مرت معنا ، نلاحظ أن الكاتب لم يفرق بين المجاز العقلي واللغوي ، ولا بين المجاز المرسل والاستعارة ، فجعل - كما مر معنا - دائرة المجاز أوسع منها ، ونص على أن المجاز أعم ، والاستعارة أخص ، ولكنه يعرف الاستعارة بقوله : « فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة الأخرى إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاوراً لها ، أو مشاكلاً » ﴿٣﴾ . وبذلك ، يخرج عن جعل الاستعارة مقصورة على علاقة المشابهة ﴿٤﴾ ، إذ لم تكن هناك حدود واضحة المعالم بين المجاز والاستعارة على نحو ما عرف عند المتأخرين ، بل كانت بعض أنواع المجاز عنده داخلة في الاستعارة . وذكر بعض الأمثلة فقال : « . . . فكما يستعرون الكلمة يضعونها مكان الكلمة لتقارب ما بينهما ، أو لأن إحداهما سبب للأخرى ، فيقولون للنبات : ندى ، لأنه بالندى ينبت ، ويقولون للنبات : نوء ، لأنه عن النوء عندهم . ويقولون للمطر : سماء . وضحكت الأرض : إذا أينعت . كذلك يستعرون الحرف من الكلمة مكان الحرف ، فيقولون : مدهته ، بمعنى : مدحته » ﴿٥﴾ ، وقد ذكرها الجاحظ قبله فقال : (تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه) . وبينما نجد الجاحظ لا يفرق في العلاقة بين المجاز والاستعارة ، نجد ابن قتيبة يصرح في نهاية باب المجاز فيقول : (ونبدأ بباب الاستعارة لأن أكثر المجاز يقع فيها . ومن الاستعارة « الأخذ ، وأصله باليد ، ثم يستعار في مواضع

(١) سورة محمد ، الآية : ٤ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٣٥ .

(٤) يراجع ما كتبه : د . كامل الخولي ، صور من تطور البيان العربي ، ص : ١٤١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٣٠٢ - ٣٠٣ .

فيكون بمعنى القبول. قال الله تعالى : ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۗ ﴾^(١) ، أي : قبلتم عهدي. وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾^(٢) ، أي : اقبله. ويكون بمعنى الحبس والأسر ، قال الله تعالى : ﴿ فَخُذْ أَعْدَانَا مَكَانَهُ ۗ ﴾^(٣) ، أي : احبسه. والأخذ : التعذيب ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾^(٤) ، أي : تعذيبه. وقال : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۗ ﴾^(٥) ، أي : ليعذبه^(٦). ومن الاستعارة : اللسان ، يوضع موضع القول ، لأن القول يكون بها. قال الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۗ ﴾^(٧) ، أي : ذكراً حسناً^(٨). وهذا عند المتأخرين مجاز علاقته السببية. «ومنه الذكر يوضع موضع الشرف ، لأن الشريف يذكر ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۗ ﴾^(٩) ، يريد أن القرآن مشرف لكم. وهذا عند المتأخرين من المجاز ، لكنه لم يفصل أنواعه ، فـ (لسان صدق) مجاز ، علاقته : الآلية. وكذلك قوله : ﴿ نَاصِيَةٌ كَذِبِيَّةٌ خَاطِئَةٌ ۗ ﴾^(١٠) ، وإنما يعني صاحبها ، والناس يقولون : هو مشؤوم الناصية ، لا يريدونها دون غيرها من البدن^(١١) ، أي : مجاز مرسل ، علاقته : الجزئية». ومن هذه العلاقة ، قوله

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨١.

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩.

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٧٨.

(٤) سورة هود ، الآية : ١٠٢.

(٥) سورة غافر ، الآية : ٥.

(٦) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٥٠٢ - ٥٠٣.

(٧) سورة الشعراء ، الآية : ٨٤.

(٨) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٤٦ ، ٣٠٢.

(٩) سورة الزخرف ، الآية : ٤٤.

(١٠) سورة العلق ، الآية : ١٦.

(١١) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٥٥.

تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْغُرُطِ ﴾^(١) ، قال ابن قتيبة : «ذهب بعض المفسرين إلى أن الله عز وجل يسم وجهه بالسواد . وللعرب في مثل هذا اللفظ مذهب نخبر به : تقول العرب للرجل يُسَبُّ الرجل سبة قبيحة : قد وسمه بميسم سوء . وربما استعاروا للهجاء غير الوسم»^(٢) .

ومثال الشاعر عنتره :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
ويقال جسمه ، لأن الثياب على الجسم تكون ، وهذا مجاز مرسل ،
علاقته المجاورة ، لكنه يدخله في باب الاستعارة»^(٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴾^(٤) ، قال ابن قتيبة : «وأصل الذوق بالفم ، ثم قد يستعار فيوضع
موضع الابتلاء والاختبار ، تقول في الكلام : ناظر فلاناً وذوق ما عنده ، أي :
تعرف واختبر»^(٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴾^(٦) ، قال ابن قتيبة :
«يعني : الملائكة . يريد أنها متتابعة يتلو بعضها بعضاً بما ترسل من أمر الله عز
وجل . وأصل هذا في عرف الفرس ، لأنه سطر مستو بعضه في إثر بعض ،
فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضاً»^(٧) .

ومن الاستعارات التي أوردها ابن قتيبة وينطبق عليها ما وضعه علماء

(١) سورة القلم ، الآية : ١٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٥٦ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٥٥-١٥٧ ، والمعاني الكبير ١/٤٨٦ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ١١٢ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ١٦٤ .

(٦) سورة المرسلات ، الآية : ١ .

(٧) المصدر ذاته ، ص : ١٦٦ .

البلاغة فيما بعد ، قوله تعالى : ﴿ وَأَفْعِدْتُمُ هَوَاءً ﴾^(١) ، قال : «يريد أنها لا تعي خيراً ، لأن المكان إذا كان خالياً فهو هواء حتى يشغله الشيء»^(٢) . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي ﴾^(٣) : «أي : كان كافراً فهديناه وجعلنا له إيماناً يهتدي به سبل الخير والنجاة ، ﴿ النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ ﴾^(٤) ، أي : في الكفر ، فاستعار الموت مكان الكفر ، والحياة مكان الهداية ، والنور مكان الإيمان . وقوله : ﴿ وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقُورِ ﴾^(٥) ، أي : أحمالاً من حيلهم فشبه الإثم بالحمل ، فجعل مكانه»^(٦) .

لكننا نرى ابن قتيبة يعود ليطلق على بعض الشواهد اسم الاستعارة ، وهي حقيقة الكناية ، كقوله : «ومن الاستعارة في كتاب الله ، قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾^(٧) ، أي : عن شدة من الأمر ، كذلك قال قتادة ، وقال إبراهيم : عن أمر عظيم» ، ويفسر ذلك بقوله : «وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه ، شمر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة . وقال دريد بن الصمة :

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد
وقوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾^(٨) ، وهذه كناية»^(٩) .

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٣ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٣٩ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٢ .

(٥) سورة طه ، الآية : ٨٧ .

(٦) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٤٠ .

(٧) سورة القلم ، الآية : ٤٢ .

(٨) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .

(٩) المصدر ذاته ، ص : ١٠٤ .

وكان ابن قتيبة في بعض الأحيان يطلق على المثال الواحد أكثر من تسمية بلاغية ، ففي قوله تعالى : ﴿لَا تُؤَاعِدُوهُمْ سِرًّا﴾^(١) ، مرة يطلق عليه الاستعارة ، ومرة الكناية ، إذ قال : «فاستعير له ، أي : للنكاح : السر» ، وقال : «كما كنى عنه بالسر»^(٢) .

ومن الملاحظ أن الفنون البلاغية التي استخدمها السكاكي والقزويني ومصطلحاتها لم تكن استقرت بتصنيفها في عصر ابن قتيبة . لذلك ، نجد أنه تحدث عن المجاز ثم الاستعارة ثم عن الكناية ثم عن المبالغة من دون تمييز واضح بينها ، فنراه يقول في قوله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^(٣) : «تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عام النفع ، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الريح والبر والسماء والأرض ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمت»^(٤) . وكان هذا جائزاً في أساليبهم ، ولا يعدّه ابن قتيبة من باب المبالغة كما سنرى فيما بعد عندما نتعرض للمبالغة .

ونرى ابن قتيبة يفرد باباً خاصاً في كتابه (تأويل مشكل القرآن) للكناية والتعريض ، لكنه لم يفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للكناية ، فيقول : «الكناية أنواع ، ولها مواضع ، منها أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة لتزيد من الدلالة عليه إذا أنت راسلته أو كتبت إليه إذا كانت الأسماء تتفق ، أو لتعظيمه في المخاطبة بالكنية ، لأنها تدل على الحنكة وتخبر عن الاكتهال»^(٥) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٥ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٦٣ .

(٣) سورة الدخان ، الآية : ٢٩ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٦٨ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٥٦ وما بعدها .

وفي ذلك ، ساق ابن قتيبة كثيراً من الأمثلة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ ﴾^(١) ، «أي : طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه ، والعرب تقول : قوم لطاف الأزر ، أي : خماص البطون ، لأن الأزر ثلاث عليها . ويقولون : فدى لك إزاري ، يريدون : بدني ، فتضع الإزار موضع النفس»^(٢) . «ومنه قوله تعالى : ﴿ أَيَدِيهِمْ وَلِعُنُوا بِمَا قَالُوا بَلَّ ﴾ ، «أي : ممسكة ، ومعلوم أنه كناية عن البخل ، ولذلك كذبهم الله بقوله : ﴿ بَلَّ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٣) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيَدِيَهُمْ ﴾^(٤) ، أي : يمسكون عن العطية . وأصل هذا أن المعطي بيده يمدها ويسطها بالعطاء ، فقيل لمن بخل ومنع : قد قبض يده»^(٥) .

ونلاحظ أن ابن قتيبة ذكر أمثلة كثيرة للاستعارة في باب الكناية ونص على أنها استعارة ، وذلك لأن تمييز الفنون البلاغية لم يكن واضحاً - كما نعلم - في عصره ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مَثَكَاً ﴾^(٦) ، أي : طعاماً . يقال : اتكأنا عند فلان ، أي : طعمنا . والأصل أن من دعوته ليطعم أعددت له التُّكَاةَ للمقام والطمأنينة ، فسمي الطعام متكأ على الاستعارة»^(٧) .
وقال آخر :

دعا شجر الأرض داعيهم لينصره السدر والأثأبُ
«أراد أنه دعا عليهم الخلق ليستنصرهم ، فضرب الشجر مثلاً لكثرة

(١) سورة المدثر ، الآية : ٤ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٤٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٦٧ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ١٦٦ .

(٦) سورة يوسف ، الآية : ٣١ .

(٧) المصدر ذاته ، ص : ١٨١ ، والأشربة واختلاف الناس فيها ، ص : ٧٨ .

الناس ، والعوام تقول : جاءنا بالشوك وبالشجر ، إذا جاء في جيش عظيم»^(١) .

ولكننا نجده في كتابه (تأويل مشكل الحديث) يتحدث عن الكناية الاصطلاحية بوضوح أكثر ، و«الأمثلة التي ساقها عن الكناية هي الأمثلة التي تلقفها العلماء بعده ، وزجوا بها في كتبهم»^(٢) . يقول ابن قتيبة : «وكلام العرب إيماء وإشارة وتشبيه . يقولون : (فلان طويل النجاد) ، والنجاد : حمائل السيف ، وهو لم يتقلد سيفاً قط ، وإنما يريدون أنه طويل القامة ، فيدلون بطول نجاهه على طول ، لأن النجاد القصير لا يصلح على الرجل الطويل . ويقولون : (فلان عظيم الرماد) ، ولا رماد في بيته ولا على بابه ، وإنما يريدون أنه كثير الضيافة ، فنأزه وارية أبداً . وإذا كثر وقود النار ، كثر الرماد . وقال تعالى حكاية عن المشركين في النبي ﷺ : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾^(٣) ، فكنى بمشيه في الأسواق عن الحوائج التي تعرض للناس فيه فيدخلون لها الأسواق كأنهم رأوا أن النبي عليه السلام إذا بعثه الله تعالى أغناه عن الناس وعن الحوائج إليهم»^(٤) .

ويلمح ابن قتيبة معنى التشبيه في الكناية ، فيقول : «والكناية يكون فيها معنى التشبيه ، ومنها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمين) ، وهذا من الكناية ، لأن معنى هذا أنه قال : كنت في شدة وكرب وغم من أهل مكة ، ففرج الله عني بالأنصار ، يعني أنه يجد الفرج من قبيل الأنصار ، وهم من اليمين ، فالريح من فرج الله وروحه كما كان الأنصار

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٨٠ .

(٢) أثر النحاة ، ص : ١٩٢ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٧ .

(٤) تأويل مختلف الحديث ، ص : ١٦٣ - ١٦٤ .

من فرج الله»^(١).

وكما ذكر الكناية ، تكلم عن التعريض وعدّه متفرعاً عنها ، فقال : «ومن هذا الباب : التعريض . والعرب تستعمله في كلامها كثيراً فتبلغ إرادتها بوجه هو أطف وأحسن من الكشف والتصريح ، ويعيرون الرجل إذا كان يكشف في كل شيء ، وقد جعله الله في خطبة النساء في عهدتهن جائزاً ، فقال : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ . . . ﴾^(٢) ، ولم يجز التصريح»^(٣).

ومن أمثلة التعريض ما جاء في القرآن منه ، قال ابن قتيبة : « . . . فمن ذلك ما خبر الله سبحانه من نبي الخضم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ سِعٌّ وَسِعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾^(٤) ، إنما هو مثل ضربه الله سبحانه له ، ونبهه على خطيئته به ، ووّرَى عن النساء بذكر النعاج».

ويذكر التعريض على لسان إبراهيم عليه السلام ، وذلك ما روي في الحديث من قوله حين خاف على نفسه وامراته : (إنها أختي)^(٥) ، لأن بني آدم يرجعون إلى أبوين فيهم إخوة ، ولأن المؤمنين إخوة . ومن التعريض قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾^(٦) ، أي : سأسقم ، لأن من كتب عليه الموت فلا بد من أن يسقم ، ولهذا قيل : «إن في المعاريض عن الكذب لمندوحة»^(٧) . ونقل عن

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢١٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٥ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٦٤ .

(٤) سورة ص ، الآية : ٢٣ .

(٥) أخرجه مرفوعاً عن أبي هريرة : أبو داود في سننه ٢/٢٦٤ ح ٢٢١٢ ، وأبو يعلى في مسنده ٣١٠/٢ ح ١٠٤٠ .

(٦) سورة الصافات ، الآية : ٨٩ .

(٧) أخذه من حديث عمران بن الحصين - مرفوعاً - : «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» . =

المنصور قوله : «عقوبة الحلماء التعريض ، وعقوبة السفهاء التصريح»^(١) . وكان يجعل من مسوغات التعريض القيمة الأخلاقية له ، «ولا شك أن للتعريض قيمة أخلاقية يراعيها المتكلم في خطابه ، فيستعمل اللطف والستر في معانيه ، في حين أن ذلك لا يمنعه عن الوصول إلى هدفه . لكنه يتسلل إلى الغرض دون أن يصطدم بمعايير الذوق ومقاييس الأخلاق»^(٢) .

وتعرض ابن قتيبة لبعض المحسنات المعنوية واللفظية ، فذكر الإفراط في الصفة ، وكان القدامى يطلقون على المبالغة «الإفراط في الصفة»^(٣) . قال بعد إيراد بيتاً لامرئ القيس :

ولا مثل يومٍ في قدار ظللته كأنني وأصحابي على قرن أعفرا
أي : كأننا من القلق على قرن ظبي ، فنحن لا نستقر ولا نكن .
وساق قول بشار ، فقال : ومما أفرط فيه ، قوله :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
وكذلك قول طريح الثقفي^(٤) :

لو قلت للسيل : دع طريقك وال موج عليه بالهضب يعتلج
لارتدّ أوساخ أو لكان له في سائر الأرض عنك منعرج
وقال : وأفرط في وصف العنق بالطول ، فقال يذكر امرأة^(٥) :

= والمعارض ، ج . معارض ، من التعريض . والمعارض : التورية بالشيء عن الشيء .
والتعريض خلاف التصريح . عن : تأويل مشكل القرآن ، ص : ٢٦٧ - ٢٦٨ .
(١) عيون الأخبار ١ / ٢٨٥ .
(٢) أثر النحاة ، ص : ١٩٤ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٧٢ - ١٧٤ .
(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٧٥ ، والشعر والشعراء ٢ / ٧٦٠ .
(٥) الشعر والشعراء ١ / ١٧١ . والرعات : القرط . اللسان (مادة : رعث) .

إذا ارتعشت خاف الجبان ارتعائها ومن يعتلق حيث عُلق يفرق
وأخذ على أبي نواس إفراطه في كثير من موضوعات الشعر ، من ذلك قوله
في الرشيد^(١) :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وقال عن عنتره : ومن إفراطه قوله^(٢) :

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال
وكذلك عرض ابن قتيبة للتوجيه ، ولكن لم يسمه باسمه كما اصطاح عليه
البلاغيون المتأخرون ، فقد قال في قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾^(٣) ، من
رعت الرجل إذا تأملته وتعرفت أحواله ، يقال : أرعني سمعك . وكان
المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : راعنا ، وأرعنا سمعك .
وكان اليهود يقولون : راعنا ، وهي بلغتهم سب لرسول الله ﷺ بالرعونة ،
وينوون بها السب ، فأمر الله المؤمنين أن لا يقولوها لئلا يقولها اليهود ، وأن
يجعلوا مكانها : «انظرنا» ، أي : انتظرنا . يقال : نظرتك وانتظرتك بمعنى^(٤) .

ونراه متأثراً بالفراء ، فقد أعاد ما ذكره الفراء في (معاني القرآن)^(٥) .

ومن الفنون التي ذكرها ابن قتيبة : تأكيد المدح بما يشبه الذم . فنراه
يضرب أمثلة لتأكيد المدح بما يشبه الذم في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا
أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٦) ، أي : ليس ينقمون شيئاً ولا يعرفون من الله

(١) الشعر والشعراء ٢/ ٨٠٠ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٥٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٠٤ .

(٤) تفسير غريب القرآن ، ص : ٦٠ ، ومعاني القرآن ١/ ٦٩ - ٧٠ .

(٥) معاني القرآن ١/ ٦٩ - ٧٠ .

(٦) سورة التوبة ، الآية : ٧٤ .

إلا الصنع الجميل ، وهذا كقول الشاعر :

ما نقم الناس من أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب
وهذا ليس مما ينقم ، وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً . وكقول
النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
أي : ليس فيهم عيب^(١) .

وذكر ابن قتيبة حسن الابتداء الذي سماه البلاغيون براعة الاستهلال ، فقال
في بيت أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملني جزعاً إن الذي تحذرين قد وقعا
لم يتدىء أحد مرثية بأحسن من هذا^(٢) .

وقال في قصيدة النابغة الذبياني (البائية) التي مدح بها الغساسنة :

كليني لهم يا أميمة ناصبٍ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ
«لم يتدىء أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب»^(٣) .

المبحث الثالث : النقد عند ابن قتيبة :

يعدّ ابن قتيبة من أوائل النقاد ، وممن كانت لهم بصمات واضحة في عالم
النقد الأدبي والبلاغي ، فقد ترك لنا كتاباً في الشعر والشعراء ، ذكر فيه
طبقاتهم ، وبعض أشعارهم ، وما يستجد منها ، وما يستخف ، ومن أفرط ،

(١) تفسير غريب القرآن ، ص : ١٩٠ ، والشعر والشعراء ١/٥٢٤ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٦٥ .

(٣) المصدر ذاته ١/٦٦ .

ومن قصد . . .

وكان ابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ) - كما مرّ معنا في الفصل الأول - قد ألف في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، والجاحظ وإن كان كتابه قد فُقد^(١) .

تحدث ابن قتيبة عن أسس عامة وموضوعات نقدية هامة ، منها : قضية القدم والحدائث ، وقضية اللفظ والمعنى ، وقضية الطبع والتكلف ، وقضية السرقات ، ووضع مقاييس محددة يختار على أساسها الشعر . قال في مقدمة (عيون الأخبار) : «مذهبنا ، فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين ، إذا كان متخيراً للفظ ، لطيف المعنى ، لم يُزِرْ به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك ، لم يرفعه تقدمه»^(٢) . وهذا المعنى نجده في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) ، فقد نظر نظرة موضوعية إلى الشعر ذاته لا إلى إبداعه ، فقال : «ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسناً باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاهما حظه ، ووفرت عليه حقه»^(٣) .

وكان المقياس الذي يقيس به ابن قتيبة هو الحسن والجودة ، وفي ذلك يقول : «فكل من أتى بحسن في قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حدائث سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه»^(٤) . فنرى ابن قتيبة

(١) يراجع : تاريخ تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، د. محمد زغلول سلام ، ص : ٦٩ وما بعدها ، وص : ١٠٧ ، والتفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٠٧ ، ١٢٢ .

(٢) عيون الأخبار ، مقدمة المؤلف ، ص : ع ، ويراجع : مقدمة المعاني الكبير ، ص : ح ط ي .

(٣) الشعر والشعراء / ١ / ٦٢ .

(٤) الشعر والشعراء / ١ / ٦٣ .

يرى خلاف ما رآه غيره من العلماء الذين قيموا الشعر بالنظر إلى قائله والزمن الذي قيل فيه ، إذ قال : «ورأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره»^(١) .

وقد جعل ابن قتيبة لاختيار الشعر معايير ، منها :

✽ جودة اللفظ والمعنى . وقد تناول ابن قتيبة هذا الجانب وأشبعه حقه ، فقال : «أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظه»^(٢) ، وذكر رجلاً فقال : «ألفاظه قوالب معانيه»^(٣) .

ونقل تعريف أحدهم للبيان فقال : «هو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويحكى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، وكانوا يعدون البلاغة الحقيقية إنما هي تخير اللفظ في حسن إفهام ، أي : مناسبة اللفظ للمعنى»^(٤) .

وقد رأى كثير من النقاد «أن ابن قتيبة خالف الجاحظ الذي انحاز إلى أهمية اللفظ وقرر أن المعاني مشتركة بين الناس وأن العبرة للصياغة ، وهو قول فيه مجازفة . فالجاحظ يقرر أن المعاني بالنسبة له ، أي : لطبقة الأدباء أمثاله ، هي معان مشتركة ، وليس بالنسبة لعامة الناس . ولم تكن عناية الجاحظ بالألفاظ لذاتها ، بل كانت تأخذ بالاعتبار أن الألفاظ قوالب المعاني ، وأن المعاني

(١) المصدر ذاته ٦٣/١ .

(٢) عيون الأخبار ١٧٣/٢ .

(٣) المصدر ذاته ١٧٠/٢ .

(٤) المصدر ذاته ١٧١/٢ .

النبيلة يجب أن تكتسي بالألفاظ الأنيقة . كما رأى آخرون أن ابن قتيبة قد سبق الجرجاني في نظرية النظم ، منهم الدكتور رمضان الجربي^(١) . وأرى أن هذا من الغلو ، وأن ما ساقه لا ينهض حجة على هذه الدعوى .

ونرى ابن قتيبة يقسم الشعر إلى أربعة أضرب ، فيقول : «ضرب منه حُسن لفظه وجاد معناه ، كقول القائل في بعض بني أمية^(٢) :

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبَقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَاعٍ فِي عِرْنِينِهِ^(٣) شَمَمٌ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه . وكقول حميد بن ثور :

أرى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داءً أن تصحَّ وتسلما
ولم يقل في الكبر شيء أحسن منه .

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا ومالت بأعناق المطي الأباطح

(١) المقاييس البلاغية ، ص : ١٩٦ .

(٢) الشعر والشعراء / ١ - ٦٤ - ٦٩ ، والبيتان للحزین الكناني ، من أبيات يمدح بها عبد الملك بن مروان . وزعم أبو تمام في الحماسة أنهما له في مدح زين العابدين علي بن الحسين ، وزعم غيره أنهما من أبيات الفرزدق في مدح زين العابدين ، ونسبهما المصعب الزبيري في نسب قريش للحزین الكناني ، ومصعب من أقدم المؤلفين ، وكتابه من المصادر الأولى المعتمدة . عن حاشية الشعر والشعراء / ١ - ٦٤ .

(٣) العرنين : الأنف تحت مجتمع الحاجبين ، وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشمم ، يقال : هم شُمَّ العرانيين . والعرنين : الأنف كله ، وقيل : هو ما صلب من عظمه . اللسان (مادة : عرن).

قال ابن قتيبة : «هذه الألفاظ - كما ترى - أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعلينا إبلنا الأنضاء^(١) . ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ، ابتدأنا في الحديث ، وسارت المطي في الأبطح ، وهذا في الشعر كثير .

وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، كقول النابغة :

خطاطيف^(٢) حجن^(٣) في حبال متينة تمد بها أيديك نوازع
رأيت علماءنا يستجدون معناه ، ولست أرى ألفاظه جياداً ولا مبينة
لمعناه ، لأنه أراد : أنت في قدرتك علي كخطاطيف عقفٍ يمد بها ، وأنا كدلو
تمد بتلك الخطاطيف .

وعلى أنني أيضاً لست أرى المعنى جيداً .

وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ، كقول الأعشى :

إن محلاً وإن مرتحلاً وإن في السّفْر ما مضى مهلاً
استأثر الله بالوفاء والحمد وولّى الملامة الرُّجلاً
وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطي ولا يشرب كأساً بكف من بخلا
يريد أن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من

(١) الأنضاء ، ج . نضو - بالكسر - البعير المهزول ، وقيل : هو المهزول من جميع الدواب .
اللسان (مادة : نضا) .

(٢) الخطاف : حديدة حجناء تعلق منها الأداة والعجلة ، وكل حديدة حجناء : خطاف . اللسان
(مادة : خطف) .

(٣) الحجن : اعوجاج الشيء ، وحجن العود : عطفه . اللسان (مادة : حجن) .

بخل ، وهو معنى لطيف^(١) .

نستنتج من الأنواع الأربعة التي ساقها ابن قتيبة أنه يستجيد الشعر الذي يجمع بين صورة المعنى وفائدته ولطفه وحسن تناوله مع جودة اللفظ التي تتجلى في حسن المخرج والمطلع والمقطع - كما يقول - بالإضافة إلى سهولته وتدقيقه وكثرة مائه ورويقه ، وهي نظرة أقرب إلى الشمولية . وإنا أؤيد ما ذكره الدكتور العاكوب عندما قال : «وإذا كان غير قليل من الدارسين المعاصرين أخذوا على ابن قتيبة فصل اللفظ عن المعنى ، فإننا نرى أنه من غير الإنصاف أن نحاكم السابقين بقوانين عصرنا ، مغفلين عامل الزمان وما له من تأثير في تاريخ الأفكار والمبادئ ، بل يجد المرء نفسه أميل إلى تسجيل تفوق لابن قتيبة في هذه الفكرة لاتجاهه بالنقد العربي من النظرة الجزئية إلى ضرب ما من النظرة الشمولية»^(٢) .

وبذا ، يتضح أن ابن قتيبة يلح على ائتلاف اللفظ مع المعنى ، ودعا إلى الألفاظ السهلة المأنوسة غير الحوشية والمتكلفة ، وهذا الموضوع يقودنا إلى قضية الطبع والتكلف والصنعة عنده ، وهي مسألة أولها ابن قتيبة اهتمامه فذكر الشعراء المتكلفين والمطبوعين فقال : «ومن الشعراء المتكلف والمطبوع . والمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر» . وضرب مثلاً على الشعراء المنقحين (المتكلفين) على حد تعبيره ، كزهير والحطيئة ، واستشهد بقول الأصمعي : زهير والحطيئة وأشباههما من عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . . . ، وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولي المنقح المحكك . وكان زهير يسمي كبرى قصائده الحوليات^(٣) . وعلينا أن نفرق بين الشاعر

(١) الشعر والشعراء ١/٦٩ .

(٢) التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٥٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١/٧٨ .

المتكلف ، بمعنى الصانع الموجود للشعر ، وبين الشعر المتكلف - بالفتح -
فالشاعر المتكلف هو الصانع ، أي : المنقح لشعره الموجود له . ويعلل الدكتور
إحسان عباس ذلك بقوله : «إن قلة المصطلح النقدي لدى ابن قتيبة جعلته
يستعمل هاتين اللفظتين بمدلولات مختلفة . . . ولا نظن أن ابن قتيبة يسترذل
شعر زهير أو الحطيئة أو يراهما دون من يسميهم الشعراء المطبوعين»^(١) .

ثم ذكر علامات الشعر المتكلف ، فنص على أن المتكلف من الشعر ، وإن
كان جيداً محكماً ، فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من
طول التفكير ، وشدة العناء ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما
بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه^(٢) . . . أي : هو الشعر رديء
الصنعة ، المخل بأبسط مقتضيات البلاغة^(٣) . ويصف لنا ابن قتيبة الشعر
المتكلف بقوله : « . . . وتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً
بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لفقه»^(٤) ، فكأنه يدعو إلى الوحدة الموضوعية
للقصيدة ، وهنا يفتقر الشاعر في شعره الوحدة ، فلا يقترن البيت الشعري
- كما يقول - بجاره .

وكان من دواعي الشاعرية والإجادة عند الشعراء أن بعضهم يحسن القران
بين البيت وأخيه . ونرى ابن قتيبة يأتي بالشواهد على الشعر المتكلف
والمصنوع ، ثم يقرر أن «أكثر أشعار العلماء بيئة التكلف ، رديئة الصنعة ،
وليس فيها شيء جاء عن إسماع وسهولة كشعر الأصمعي وشعر ابن المقفع

(١) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص : ١٠٩ . ويراجع ما كتبه د. حمادي صمود عن
موقف ابن قتيبة من التكلف والطبع ، في : التفكير البلاغي عند العرب ، ص : ٣٢١ وما
بعدها .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٨٨ .

(٣) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص : ١١٠ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٩٠ .

وشعر الخليل ، خلا خلفاً الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً^(١) .
ثم عرّف المطبوع من الشعراء ، فهو «من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع»^(٢) ، أي : الذي يسوق شعره بعفوية وبساطة من دون تعقيد . ومع ذلك ، يقرر ابن قتيبة أنهم مختلفون في الطبع ، «فمنهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل»^(٣) .
والطبع هنا بمعنى الطباع ، أي : بالمعنى اللغوي المعروف ، فهو يبرز أثر نفسية الشاعر وملاءمة الموضوعات واثلافها مع طبعه . ويتابع ما ذكره الجاحظ عن الطبع الذي كان يسميه «غريزة» . ونلمس من ابن قتيبة هذه التسمية خلال حديثه عن الطبع ، ونراه يرد على العجاج الذي ادعى أنه لا يحسن الهجاء لأن المديح بناء ، والهجاء هدم ، فيقول : «... وليس هذا كما ذكر العجاج ، لأن المديح بناء ، والهجاء بناء . وليس كل بانٍ بضرب بانياً بغيره . . . فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيهاً ، وأجودهم تشبيهاً ، وأوصفهم لرملة وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء ، خانه الطبع ، وذاك أخره عن الفحول»^(٤) ، أي : أن ذا الرمة يجيد الوصف والتشبيه والغزل ، لكنه لا يحسن المديح والهجاء .

وكان يحكم على الشعراء ممن امتاز منهم بالطبع ، فيقول : «بشار أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر ، ولا يتعبون فيه ، وهو من أشعر المحدثين»^(٥) .

(١) الشعر والشعراء ٧٠ / ١ .

(٢) المصدر ذاته ٩٠ / ١ .

(٣) المصدر ذاته ٩٤ / ١ .

(٤) المصدر ذاته ٩٤ / ١ .

(٥) المصدر ذاته ٧٥٧ / ٢ .

ويقول عن أبي العتاهية : « كان أحد المطبوعين ، وممن يكاد يكون كلامه كله شعراً وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب»^(١).

ويصف أبا نواس ، فيقول : « كان أحد المطبوعين»^(٢).

ونلمس من أقواله حبه للطبع وذمه التكلف ، إذ نجده ينقل عن أحدهم شروط البيان من دون استبعاد لشيء منها ، قال : « . . . والذي لا بد له منه أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً عن الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل»^(٣).

ويضع ابن قتيبة مقاييس لاختيار الشعراء ، فعنده ليس كل شعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب ، منها : الإصابة في التشبيه ، وقد يحفظ ويختار على خفة الروي ، ومنه ما يختار ويحفظ لأن صاحبه لم يقل غيره ، أو لأن شعره قليل عزيز (أي : لقلته وندرته) ، وقد يختار ويحفظ لأنه غريب في معناه ، وقد يختار ويحفظ لنبل قائله . ونراه يستشهد ببعض الأبيات على كل نوع مما ذكر ، فيستشهد على غربة المعنى بقول أحدهم في الفتى :

ليس الفتى بفتى يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار
ويستشهد على الاختيار لنبل القائل بأقوال لبعض الخلفاء والوزراء كالرشيد والمأمون والمهدي وعبد الله بن طاهر ، لأن شعرهم - على حد تعبيره - شريف بنفسه وصاحبه ، كقول الرشيد :

النفس تطمع والأسباب عاجزة والنفس تهلك بين اليأس والطمع

(١) المصدر ذاته ٧٩١/٢ .

(٢) المصدر ذاته ٧٩٨/٢ .

(٣) عيون الأخبار ١٧٣/٢ .

وكان يحكم على شعر الشعراء بالجودة أو الرداءة ، وبعد أن يترجم للشاعر يذكر شيئاً من جيد شعره ، كما فعل عند عرضه شعر أبي العتاهية ، قال : « . . . ومما يستحسن من شعر أبي العتاهية قوله :

وعظتك أجدات صُمّت ونعتك أزمنة خُفّت
وعندما ذكر مروان بن حفصة ، قال^(١) :

هم القوم، إن قالوا أصابوا، وإن دعوا أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ونص ابن قتيبة على أنه مما يستجاد من شعر أشجع السلمي قوله في الرشيد^(٢) :

لازلت تنشر أعياداً وتطويها تمضي بهالك أيام وتثنيها
وليهنك النصر والأيام مقبلة إليك بالفتح معقوداً نواصيها
وعندما تعرض لشعر الخريمي قال^(٣) :

أضحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمكان جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصب
ونراه في أحكامه معتدلاً ، فعندما تلاحي أبو نواس ومسلم بن الوليد ، حكم على شعر أبي نواس باعتدال ، فقد أنشد أبو نواس قال :

ذكر الصَّبوحِ بِسُحْرَةِ فارتاحا وأملَّه ديكُ الصِّباحِ صياحا
وأنشد مسلم فقال :

(١) الشعر والشعراء ٢/ ٧٩٤ .

(٢) المصدر ذاته ٢/ ٨٨٤ .

(٣) المصدر ذاته ٢/ ٨٥٦ . والخريمي هو إسحاق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ، وكان من مولى ابن خريم . الشعر والشعراء ، ص : ٥٨٥ - ٥٨٩ - دار إحياء العلوم - بيروت - ط ٣ ، وطبقات الشعراء ، لابن المعتز ، ص : ٢٩٣ - ٢٩٤ .

عاصَى الشَّبَابَ فَرَا حَ غَيْرَ مُفَنِّدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلُّدٍ
فَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةٍ : «وَالْبَيْتَانِ جَمِيعاً صَحِيْحَانِ لَا عَيْبَ فِيهِمَا ، غَيْرَ أَنْ مِنْ
طَلَبَ عَيْباً وَجَدَهُ ، أَوْ أَرَادَ إِعْنَاتاً قَدَرَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُتَحَامِلاً مُتَحِيناً غَيْرَ قَاصِدٍ
لِلْحَقِّ وَالْإِنصَافِ»^(١) .

وَكَمَا يَحْكُمُ لِلشَّعْرِ بِالْجُودَةِ ، يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالرَّدَاءَةِ وَالسَّخْفِ ، وَأَحْيَاناً
يُطَلِّقُ الْأَحْكَامَ مِنْ دُونَ تَعْلِيلٍ ، وَأَحْيَاناً يَعْضَلُّ أَسْبَابَ الْجُودَةِ وَالرَّدَاءَةِ . فَعِنْدَمَا
ذَكَرَ أَبُو نَوَاسٍ قَالَ : «وَمِمَّا يَسْتَخْفُ مِنْ شَعْرِ أَبِي نَوَاسٍ»^(٢) :

قَلْ لَزَهَيْرٍ إِذَا حَدَا وَشَدَا أَقْلَلْ وَأَكْثُرْ فَأَنْتَ مَهْذَارٌ
سَخَنْتَ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودَةِ حَتَّى سَيَّيَّرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ
فَلَا بَدَّ إِذْنًا لِلشَّاعِرِ مِنْ أَنْ يَسْتَبِدَّ بِنَفْسِ الْمُتَلَقِّي ، أَي : يَمْلِكُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ
وَحْسَهُ . وَهَذَا مَا فَطَنَ إِلَيْهِ ابْنُ قَتِيْبَةٍ ، فِي قَوْلِهِ : «وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ : أَشْعَرُ النَّاسِ
مَنْ أَنْتَ فِي شَعْرِهِ حَتَّى تَفْرُغَ مِنْهُ» . فَقَدْ انْتَبَهَ ابْنُ قَتِيْبَةٍ إِلَى أَمْرِ هَامٍ مِنْ تَقْيِيمِ
الشَّعْرِ ، وَأَنَّ بَعْضَ الْأَشْعَارِ لِرُوعَتِهَا تَسْتَبِدُّ بِنَفْسِ الْمُتَلَقِّي اسْتِبْدَاداً تَاماً لَا يَشْغَلُ
مَعَهُ عَنْ أَيِّ شِغْلٍ آخَرَ^(٣) .

هَذَا ، وَإِنْ وَعَى ابْنُ قَتِيْبَةٍ نَفْسِيَةَ الْمُتَلَقِّي ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْفَلْ نَفْسِيَةَ الشَّاعِرِ
نَفْسَهُ ، وَمَتَى يَطَاوَعَهُ الشَّعْرُ ، وَعِلَاقَةُ ذَلِكَ بِالْبَيْئَةِ وَالزَّمَانِ وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ . وَفِي
ذَلِكَ قَالَ : «وَلِلشَّعْرِ تَارَاتٍ يَبْعَدُ فِيهَا قَرِيْبَهُ ، وَيَسْتَصْعَبُ فِيهِ رِيْضُهُ . وَكَذَلِكَ
الْكَلَامُ الْمُنشُورُ فِي الرِّسَائِلِ وَالْمَقَامَاتِ وَالْجَوَابَاتِ ، فَقَدْ يَتَعَذَّرُ عَلَى الْكَاتِبِ
الْأَدِيبِ وَعَلَى الْبَلِيْغِ الْخَطِيْبِ ، وَلَا يَعْرِفُ لِذَلِكَ سَبَباً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ عَارِضِ
يَعْتَرِضُ عَلَى الْغَرِيْزَةِ مِنْ سُوءِ غَدَاءٍ أَوْ خَاطِرِ غَمٍّ» .

(١) الشعر والشعراء ٢/ ٨٠٦ - ٨٠٧ .

(٢) المصدر ذاته ٢/ ٨٠٢ .

(٣) التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٦٢ .

واستشهد لذلك بقول الفرزدق - وهو من الفحول - : «أنا أشعر تميم ، وربما أتت عليّ ساعة ونزغُ ضررس أسهل عليّ من قول بيت» .

وعن عامل الزمن وأثره في شاعرية الشاعر ، والأوقات التي يكون فيها الشعر أطوع لقائله ، قال : «وللشعر أوقات يسرع فيها آتيه ، ويسمح فيها آيئه ، منها : أول الليل قبل تغشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسير . ولهذه العلل ، تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب»^(١) .

وفي الحقيقة ، إن هذه الآراء قد سبقه إليها أبو تمام في وصيته للبحثري ، قال له : «يا أبا عبادة ، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم . واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . فإن أردت النسيب ، فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذي أباد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقاومه ، وتقاص المعاني ، واحذر المجهول منها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نغم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك مما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنة العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى»^(٢) .

وقد اهتم ابن قتيبة ببناء القصيدة ونهجها ، فقسمها ثلاثة أجزاء رئيسة ،

(١) الشعر والشعراء ٨٠/١ - ٨١ .

(٢) العمدة ٧٥٠/٢ .

وهي : المقدمة أو المطلع ، وفيه ذكر الديار والآثار والدمن ، ثم وصف الراحلة والرحلة التي قطعها الشاعر ، ثم الموضوع الأساس . وفي ذلك قال : «سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى وخاطب الربيع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن النسيب قريب من النفوس ، لائظ بالقلوب . . . فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل ، وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة . . . فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، ولم يطل فيمّل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد»^(١) .

وقد دعا الشعراء المحدثين إلى أن يحذوا حذو المتقدمين في سيرهم على نهج القصيدة ونظامها ، والالتزام بتقاليد الشعر العربي ، ومحاكاة القصيدة العربية ، وليس لهم أن يخرجوا عن مذهب القدماء وأن يقيسوا على اشتقاقهم فيطلقوا ما لم يطلقه المتقدمون .

«وقد فهم بعض الدارسين أن ابن قتيبة يصر على أن يظل هذا الشكل نظاماً صارماً لكل شاعر ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً . . . وهذا الوهم منشؤه قول ابن قتيبة : (فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام) . وما أرى ابن قتيبة هنا يؤكد شيئاً سوى التناسب ، وتحريم التقليد الشكلي المضحك ، وإحلال مواد الحضارة محل مواد البداوة في الشعر . . .

(١) الشعر والشعراء ١/ ٧٤ - ٧٦ .

وللشاعر أن يجدد بما يناسب عصره دون حكاية قياسية تدل على ضعف الخيال ، أو أن يعيد ذكر الرحلة ووصف الطلل - وإن لم يوجد في عصره - لأنهما قد أصبحا لديه رمزاً لا حقيقة ، والرمز ذو محل مقبول^(١) .

ولم يغفل ابن قتيبة قضية التناسب بين الموضوعات الشعرية - الذي يسميه القرآن - بين أبيات القصيدة ، أي : الوحدة العضوية للقصيدة .

ومن الموضوعات التي ذكرها كذلك : ما يتعلق بنصوص الشعر ، فإنه أشار إلى ما يقع في بعض الأشعار من عيوب في الوزن والقافية واللفظ والمعنى .

فمن عيوب الوزن : اللجوء إلى الأوزان الثقيلة أو القبيحة التي لا تحلو في الأسماع ولا تصح في الوزن .

ومن عيوب القافية التي ذكرها ابن قتيبة : الإقواء ، وهو اختلاف حركة الإعراب في القوافي (أي : اختلاف حركة الروي) . ومثل لذلك بقول النابغة^(٢) :

قالت بنو عامر خالوا بني أسد يا بؤس للدهر ضراراً لأقوام
ثم قال بعد ذلك :

تبدو كواكبه والشمس ساطعة لا نور نورٌ ، ولا الإظلامُ إظلامٌ
ثم ذكر ابن قتيبة عيب السناد ، وهو اختلاف أرداف القوافي . وذكر العيب في الإجازة ، وهو أن تكون القوافي مقيدة ، فتختلف الأرداف لأن من الجوازات تسكين الروي المتحرك . وكذا العيب في الإعراب^(٣) ، وهو اضطراب

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، ص : ١١٢ - ١١٣ .

(٢) الشعر والشعراء ٩٥/١ وما بعدها .

(٣) المصدر ذاته ٩٨/١ ، ١٠٠ - ١٠٢ .

الشاعر لتسكين ما كان ينبغي له أن يحركه. وقد يضطر الشاعر فيقصر الممدود ، وليس له أن يمد المقصور. وأما ترك الهمز من المهموز ، فكثير واسع لا عيب فيه على الشاعر ، والذي لا يجوز أن يهمز : غير المهموز. وليس له أن يصرف غير المصروف. وقبيح ألا يصرف المصروف وقد جاء في الشعر ، كقول العباس بن مرداس السلمي :

وما كان بدراً ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ في مجمع
وأما قضية السرقات ، فقد ذكرها ابن قتيبة عندما كان يترجم للشعراء ، فكان يذكر المعنى الذي سبق إليه الشاعر والمعنى الذي أخذه من غيره ، ومن أحسن الأخذ وأجاد ، ومن قصر دون المعنى الأصلي. من ذلك ، قوله عند ترجمة رؤبة أنه أخذ عن أبيه العجاج ، ونقل قول الأصمعي : «أخذ رؤبة عن أبيه :

والسدُّ ما دام شداداً أرومهُ

حديدُهُ وقطره ورضمه^(١)

وعاد بعد النحت جونا حنتمهُ

وقال أبوه العجاج^(٢) :

بليت والمسمار جون حنتم تمضي الدواهي حوله ويسلم
فالأصمعي يثبت سرقات رؤبة من أبيه ومن أوس بن حجر ، وينقل عنه ابن قتيبة ذلك. لكن ابن قتيبة لم يعقب شيئاً على تلك السرقات ، فلم نر له رأياً ، بينما نجده أحياناً أخرى يثبت الأخذ ، والفضل لأول قائل ، وأن قصب السبق

(١) السد : الجبل والحاجز ، اللسان (مادة : سد). والقطر : النحاس ، اللسان (مادة : قطر). والرَّضْم : صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض ، الواحدة : رضمة ، اللسان (مادة : رضم).

(٢) الشعر والشعراء ١/٥٩٦ - ٥٩٧. نقل ذلك عن الأصمعي.

له ، ولا أحد يستطيع أن يجاريه أو ييزه . من ذلك ، ما قاله معلقاً على بيت لطفة^(١) : «ومما سبق إليه طرفة فأخذه منه : قوله يذكر السفينة :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسّم التربّ المفائل باليد
أخذه ليبد فقال :

وغدا تشق يدها أوساط الربا قسم الفيال تشق أوسطه اليدُ
وذكر الشعراء الذين أخذوا منه ، وهذا كثير في كتابه (الشعر والشعراء) .
ونراه يورد بيتاً لطفة أخذه عدي بن زيد وليد ، ولكنه يثبت السبق له ،
فقال : «ومما سبق إليه : قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويؤكد أن بعض الأشعار لا يستطيع أحد أن ينازع فيها صاحبها ، منها قول
عترة المشهور في الذباب ، فقال^(٢) : «ومما سبق إليه ولم ينازع فيه : قوله :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غرداً كفعل الشارب المترنم
وقوله في بيت لأرطاة بن سهية : «ومما سبق إليه وأخذه منه : قوله يصف
الخيال :

كأن أعينها من طول ما جسمت سير الهواجر زيت في قوارير
قال غيره :

إذ الركائب محسوف نواظرها كما تضمنت الدهن القواريرُ
وقال : «ومما سبق إليه فأخذ منه : قوله في الناقة^(٣) :

(١) المصدر ذاته ١/ ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٥٣ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ١٧٧ .

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفي ماقط في قاع
تكرو : تلعب بالكرة. الماقط : الذي يضرب بالكرة الحائط ثم يأخذها.
وقد أخذه منه الشماخ ، فقال :

كأن أوب يديها حين عاودها أوب المراح وقد هموا بترحال
مقط الكُرينَ على منكوسة زلفٍ في ظهر حنانه النيرين معوال
وهكذا كان يمايز بين الأبيات ، فيقدم ما يراه الأفضل ، ويجعل السبق
لصاحبه من دون أن يعلل في كثير من الأحيان أحكامه ببيان وجه الجودة
والفضل.

يتبين لنا مما سبق أن ابن قتيبة ، وإن كانت لم تبلور المصطلحات النقدية
في عصره ، قد ذكر لنا أبرز القضايا النقدية وإن كانت ممزوجة بالفنون البلاغية
عنده ، إذ من العسير أن نميز بين ما هو نقد وما هو بلاغة عنده أو في عصره على
الأقل . لأنه جعل الفنون البلاغية مقاييس نقدية . «وبينما ذهب الجاحظ إلى
وضع نظريات لم ينضجها البحث والدرس ، وضع ابن قتيبة استنتاجات تدل
على خاطر ذوقي نقدي أصيل ، كانت كفاءً بنقل النقد إلى مرحلة جديدة»^(١) .

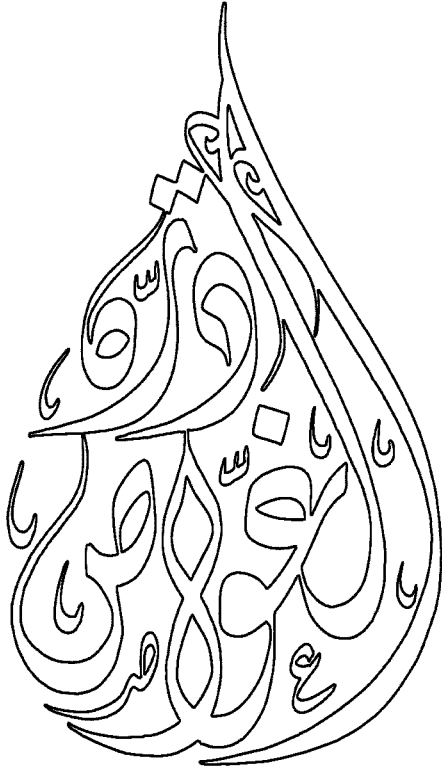
(١) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص : ١١٥ .

الفصل الثالث

العلاقة بين البلاغة والنقد

عند المبرد (٢١٠هـ - ٢٨٥هـ)

- المبحث الأول : التعريف بالمبرد .
- المبحث الثاني : البلاغة عند المبرد .
- المبحث الثالث : النقد عند المبرد .



المبحث الأول : التعريف بالمبرد^(١) :

* نسبه ومولده ومكانته :

المبرد هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالي^(٢) الأزدي ،
إمام النحاة ببغداد في زمنه ، وأحد أئمة البلاغة والأدب والأخبار ، و«كان من
أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه»^(٣).

ولد بالبصرة عام ٢١٠هـ ، وطلب العلم صغيراً ، وأخذ عن أعلام البصرة
النحو واللغة. قال عنه الذهبي : «كان مليح الصورة ، فصيحاً ، مفوهاً ،
إخبارياً ، علامة ، ثقة»^(٤).

وأما عن لقبه ، فيقولون إنه «لما صنف أستاذه المازني كتاب الألف

(١) ترجمته في : مراتب النحويين ، ص : ١٣٥ ، ط ٢- ١٩٧٤ ، وطبقات النحويين
واللغويين ، ص : ١٠١- ١١٠ ، وأخبار النحويين البصريين ، ص : ١٠٥- ١١٣ ،
وتاريخ العلماء النحويين ، ص : ٥٣- ٦٣ ، وتاريخ بغداد ٣/ ٣٨٠- ٣٨١ ، ونزهة
الألباء ، ص : ١٦٤- ١٧٣ ، والمنتظم ٦/ ٩- ١١ (وفيات سنة ٢٨٥ هـ) ، ومعجم الأدياء
٥/ ٤٨٠- ٤٨٦ ، وإنباه الرواة ٣/ ٢٤١- ٢٥٣ ، ونور القبس من المقتبس ، ص :
٣٢٤- ٣٣٤ ، ووفيات الأعيان ٤/ ٣١٣- ٣٢٢ ، والعبر ٢/ ٨١ ، وسير أعلام النبلاء
١٣/ ٥٧٦- ٥٧٧ ، والوافي بالوفيات ٥/ ٢١٦- ٢١٨ ، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ،
ص : ٢٥٠- ٢٥١ ، وطبقات النحاة لابن قاضي شُهبة ، ص : ٢٨٠ ، ولسان الميزان
٥/ ٤٨٧- ٤٨٨ ، وبغية الوعاة ١/ ٢٦٩- ٢٧١ ، والمزهر ٢/ ٤٠٨- ٤٠٩ ، ٤٢٧ ،
وكشف الظنون ٢/ ١٣٨٢ ، وشذرات الذهب ٣/ ٣٥٦ (دار ابن كثير - دمشق) ، وإيضاح
المكنون ٢/ ٣١٧ ، وتاريخ بروكلمان ٢/ ١٦٤- ١٦٧ .

(٢) ثمالة : بطن من الأزدي ، إليهم ينسب المبرد. يراجع لسان العرب (مادة : ثمل).

(٣) طبقات النحويين واللغويين ، ص : ١٠١- ١١٠ .

(٤) العبر ٢/ ٨١ .

واللام ، سأل المبرد عن دقيقه وعويصه ، فأجاب بأحسن جواب ، فقال له ، قم ، فأنت المبرّد- بكسر الراء- أي : المثبت للحق ، فغيّره الكوفيون وفتحوا الراء»^(١).

وقال ابن حجر : «كان المبرد مشهوراً بحسن العبارة والفصاحة ولطافة المنادمة»^(٢) ، كما شهد له القفطي بذلك فقال : «كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وحلاوة المخاطبة وجودة الخط وصحة القريحة وقرب الإفهام ووضوح الشرح وعدوبة المنطق ، على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه»^(٣).

كما أثنى عليه ابن خلكان بقوله : «له التوليف النافعة في الأدب ، منها : كتاب الكامل ، وكتاب الروضة ، والمقتضب ، وغير ذلك»^(٤).

وعندما فاضل الأزهري بين المبرد وثلعب ، قال : «وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بياناً ، وأحفظهما للشعر المحدث ، والنادرة الطريفة ، والأخبار العظيمة»^(٥).

* من شيوخه :

أخذ المبرد عن كثير من علماء عصره ، منهم أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي (ت ٢٢٥هـ) ، وعبد الله بن محمد التوزي (ت ٢٣٣هـ) ، وأبو عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني (ت ٢٤٩هـ) ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ) ، وأبو الفضل العباس بن الفرغ الرياشي (ت ٢٥٧هـ).

(١) معجم الأدباء ٥/ ٤٨٠ ، ويراجع : المزهري ٢/ ٤٢٧ .

(٢) لسان الميزان ٥/ ٤٨٧ .

(٣) إنباه الرواة ٣/ ٢٤١ - ٢٥٣ .

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٣١٣ - ٣٢٢ .

(٥) تهذيب اللغة ، ص : ٢٧ ، ونزهة الألبا ، ص : ١٦٤ وما بعدها .

* من تلاميذه :

من أشهر تلاميذ المبرد : أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) ، وكان من أحدث تلاميذه ، قرأ عليه كتاب سيبويه ، والزجاج (ت ٣١١هـ) الذي اتصل بثعلب ثم انقطع إليه ، وأبو الحسن علي بن سليمان الأخفش (ت ٣١٥هـ) ، وكان له أثر في شرح كتاب الكامل ، ونفطويه أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة (ت ٣٢٣هـ) ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ) ، فقد روى عن المبرد في أوراقه وفي أخبار أبي تمام .

* من آثاره^(١) :

ترك لنا المبرد مؤلفات كثيرة ، ذكر منها ستة وخمسون مؤلفاً .

من مؤلفاته المطبوعة :

١ - البلاغة^(٢) . ويقال إن المبرد أول من أطلق البلاغة على بعض رسائله^(٣) .

٢ - التعازي والمرائي^(٤) .

٣ - رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها^(٥) .

(١) تراجع مؤلفاته في : معجم الأدباء ٤٨٦/٥ ، وبغية الوعاة ٢٧٠/١ - ٢٧١ ، والفهرست ، ومقدمة الكامل للدكتور محمد الدالي ١٥/١ وما بعدها ، ومقدمة المقتضب للأستاذ عزيمة ، ومقدمة المذكر والمؤنث ، ومقدمة البلاغة للدكتور رمضان عبد التواب ، ومقدمة التعازي والمرائي للدكتور الديباجي .

(٢) نشر الرسالة : المستشرق غرونبوم ، عام ١٩٤١ ، وأعاد تحقيقها د. رمضان عبد التواب ، ونشرها في القاهرة .

(٣) مصطلحات بلاغية ، د. أحمد مطلوب ، ص : ٤٤ .

(٤) حققه د. محمد الديباجي ، ونشره ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٧٦ ، وهناك تحقيق آخر للأستاذ إبراهيم محمد حسن ومحمود سالم ، ونشر في مكتبة نهضة مصر - ١٩٩٣ .

(٥) نواذر المخطوطات ١٧٩/١ - ١٩٣ .

٤ - الفاضل^(١). وقد خص فيه فصلاً للفصاحة ، ومنهجه قريب من منهج كتابه الكامل . ذكره بعضهم بعنوان (الفاضل والمفضول). وقد أثبت عزيمة نسبة الكتاب للمبرد في مقدمة (المقتضب).

٥ - القوافي وما اشتقت ألفاظها منه^(٢).

٦ - الكامل في اللغة والأدب^(٣). وهو كتاب مشهور له . قال عنه القاضي الفاضل : «طالعه سبعين مرة ، وكل مرة أزداد منه فوائد». وقال فيه ابن خلدون : «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة ، وهي : كتاب الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي . وما سوى هذه الأربعة ، فتبع لها ، وفروع عنها»^(٤). وقد أكثر في كتابه هذا من الإحالة على كتابه (المقتضب) مما يدل على أنه ألفه قبله . ووضعت عليه شروح ، أوسعها وأشملها : شرح السيد المرصفي في كتابه (رغبة الآمل من كتاب الكامل)^(٥) ، وكتاب (التنبيه على أغاليط الرواة) لعلي بن حمزة البصري . وذكر المسعودي أن إبراهيم بن ماهويه الفارسي عارض المبرد في كتابه الملقب

(١) حققه أ. عبد العزيز الميمني ، ونشره في دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٧٢ .

(٢) حققه د. رمضان عبد التواب - مطبوعات جامعة عين شمس - القاهرة - ١٩٧٢ .

(٣) حققه د. محمد الدالي ، ونشرته مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨١ . وهناك دراسات حديثة واختيارات من الكامل ، كاختيار د. حسين نصار ، واختيار د. الدالي ، والمبرد ودراسة كتابه الكامل ، د. عبد الله الخطيب . ودراسة شاملة للمبرد ، منها : دراسة عبد الخالق عزيمة : أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية ، وكتاب : المبرد : حياته وآثاره ، لأحمد حسنين القرني وعبد الحفيظ فرغلي ، ومقال د. مهدي المخزومي - مجلة المعلم الجديد - ٦٤ - س ١٩٥٦ .

(٤) نوادر المخطوطات ١ / ١٦٤ .

(٥) رغبة الآمل من كتاب الكامل للسيد المرصفي - القاهرة ١٩٢٧ .

بالكامل^(١).

٧ - ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد^(٢).

٨ - المذكر والمؤنث^(٣).

٩ - المقتضب^(٤). وهو مؤلف شهير في النحو ، عالج فيه المبرد مسائل النحو والصرف ، وفي مقدمة التحقيق دراسة وافية عن المبرد وآثاره ومنهجه .

١٠ - نسب عدنان وقحطان^(٥). وهي رسالة في أنساب القبائل العربية .

ومن مؤلفاته التي لم تصل إلينا :

١ - رسالة الاعتنان^(٦) ، أي : المعارضة والمناظرة في الخصومة . ذكر هذه الرسالة صاحب (الخزانة) . وموضوع الرسالة : بيان الأسباب التي اقتضت التهاجي بين جرير والفرزدق ، فادعى لهما حكماً بينهما ، وقضى بشرف الفرزدق على جرير ، وبني مجاشع على بني كليب ، وقضى لجرير على أنه أشعرهما .

٢ - الروضة (كتاب الروضة)^(٧) . وهو كتاب في أشعار المحدثين من

(١) مروج الذهب ١/ ٢٤ - ٢٥ .

(٢) نشره أ. عبد العزيز الميمني في المطبعة السلفية - ١٩٣١ . كما حققه أستاذنا الدكتور محمد رضوان الداية ، وطبعه في دمشق - ١٩٩١ بعنوان : (ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه) ، كما حققه أحمد أبو رعد ، ونشره ، وزارة الأوقاف في الكويت - ١٩٨٨ .

(٣) حققه د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي - مصر - ط٢ - ١٩٩٦ .

(٤) حققه : أ. محمد عبد الخالق عزيمة في أربعة مجلدات ، ونشره في القاهرة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . ونال به درجة الدكتوراه د. جمعة المبروك عون في دراسة له بعنوان : (المبرد : حياته وآثاره ومنهجه في كتاب المقتضب) .

(٥) حقق الرسالة : أ. عبد العزيز الميمني ، ونشرتها لجنة الترجمة والتأليف بالقاهرة - ١٩٣٦ .

(٦) خزانة الأدب ١/ ٣٠٥ . وذكرها أ. عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات ١/ ١٦٤ .

ويراجع ما كتبه أ. عزيمة في مقدمته على المقتضب عن رسالة الاعتنان ١/ ٦٩ . وفي حاشية

البغدادي على بانت سعاد (الاعتناء) وليس الاعتنان .

(٧) أخبار المصنفين ، ص : ٤٢ ، والعقد الفريد ٣/ ٣٠١ ، ٦/ ٢٠٥ ، ٧/ ٧١ ، والمثل =

الشعراء. ورد ذكره في كثير من المصادر ، فقد أشار إليه أبو أحمد العسكري في (أخبار المصحفين) وقال : صحف المبرد في قوله : حبيب بن خدره ، فقال : حبيب بن جدره . وفي ربيعي بن جراش فقال : جراش . وأورد ابن عبد ربه في (العقد الفريد) بعض آراء المبرد في كتاب (الروضة) ، كما ذكره ابن الأثير في (المثل السائر) فقال : «وهو كتاب جمع فيه أشعار شعراء عصره ، بدأ فيه بأبي نواس ، ثم بمن كان في زمانه وانسحب على ذيله . ونقل البغدادي في (الخزانة) من هذا الكتاب ، وهناك نقول أخرى في كتب كثيرة تدل على صحة نسبة الكتاب إليه .

وكان لدى العلامة الميمني نسخة مخطوطة منه أحال عليها في تعليقاته على الفاضل . وقال المسعودي : «وما صنفه أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه في كتابه في الأخبار الذي يعارض فيه كتاب (الروضة) للمبرد ، ولقبه بالباهر»^(١) .

٣ - شرح شواهد كتاب سيبويه^(٢) .

٤ - شرح كلام العرب وتلخيص ألفاظها ومزاوجة كلامها وتقريب مبانيها^(٣) .

٥ - طبقات النحويين البصريين وأخبارهم^(٤) .

٦ - الغلط (كتاب الغلط) . ذكره أبو علي الفارسي^(٥) والسيوطي^(٦) .

= السائر ١٣/٢ ، وخزانة الأدب ٣/٣٣٠ ، وحاشية البغدادي على بانت سعاد ١/٧٣٩ .

(١) مروج الذهب ١/٢٤ - ٢٥ . وقد طبع ما وجد من الروضة في مجلة معهد المخطوطات م ٣٧ ج ١-٢ ، ١٩٩٣ م .

(٢) معجم الأدباء ٥/٤٨٦ .

(٣) معجم الأدباء ٥/٤٨٦ - دار الكتب العلمية ، والفهرست ، ص : ٨٨ ، وإنباه الرواة ٣/٢٥١ ، وتاريخ التراث العربي م ٢/٢ ج ٢ ص ١٦٧ .

(٤) بروكلمان ٢/ص .

(٥) الإغفال ١/٢٠ ، ٥٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٦) المزهر ٢/٣٧٢ .

- ٧ - قواعد الشعر^(١) .
٨ - المدخل في النحو^(٢) .
٩ - المسائل المشروحة من كتاب سيويه^(٣) .
١٠ - ضرورة الشعر والعروض : ذكره البغدادي في حاشيته على بانت سعاد^(٤) .

* وفاته :

توفي - رحمه الله - سنة خمس وثمانين ومائتين ببغداد ، ودفن بمقابر الكوفة . أما الزبيدي ، فذكر أنه توفي سنة ست وثمانين ومائتين ، وأما السيوطي ، فقد أشار إلى الخلاف في ذلك بين ستي اثنتين وثمانين ومئتين ، وخمس وثمانين ومئتين^(٥) .

وفيما يأتي ، سنحاول أن نتلمس آراء المبرد البلاغية والنقدية ، ونضع أيدينا على الخيوط الواشجة بين البلاغة والنقد عنده .

المبحث الثاني : البلاغة عند المبرد :

ذكر المبرد بعض فنون البلاغة في مواضع عدة من كتابه (الكامل) ، لكنه لم يشير فيه إلى كتابه (البلاغة) كما أشار إلى كتابه (الاختيار)^(٦) وكتابه

- (١) الفهرست ، ص : ٨٨ ، وإنباه الرواة ٣/٢٥١ . والمسائل الحلبيات : ٢٣٤ .
(٢) ذكره ابن خبير في فهرسته فيما أدخله أبو علي القالي إلى الأندلس ، فقال : «المدخل للمبرد في جزء تام» ، ص : ٣٩٨ . وللرمانى شرح المدخل للمبرد ، يراجع : إنباه الرواة ٢/٢٩٥ . وحاشية البغدادي : ١/٧٣٩ .
(٣) الإغفال ١/٢٨٧ ، ومعجم الأدباء ٥/٤٨٦ .
(٤) حاشية البغدادي ١/٧٤٠ .
(٥) طبقات النحويين واللغويين ، ص : ١١٠ ، وتاريخ بغداد ٣/٣٨٧ ، ولسان الميزان ٥/٤٨٨ ، وإنباه الرواة ٣/٢٤٦ ، والعبر ٢/٨١ ، وبغية الوعاة ١/٢٧١ ، والمزهر ٢/٤٦٤ .
(٦) الكامل ٣/١٤٤٤ .

(المقتضب)^(١) ، مما يدل على أن كتاب (البلاغة) أو هذه الرسالة كتبها بعد تأليف (الكامل) ، وضمنها خلاصة فكره ، وعصارة جهده في هذا المجال ، وكانت تعريفاته موجزة مركزة. وفي هذه الرسالة ، ذكر أن أحمد بن الواثق سأله عن البلاغة قال : «أحببت - أعزك الله - أن أعلم أي البلاغتين أبلغ : أبلّغة الشعر ، أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع؟ وأيهما عندك - أعزك الله - أبلغ؟ عرفني ذلك إن شاء الله» ، فأجابته : «إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام ، وحسن النظم ، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ، ومعاوضة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويُحذف منها الفضول. فإن استوى هذا في الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعراً ، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه ، فصاحب الكلام المرصوف أحمد لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزناً وقافية ، والوزن يعمل على الضرورة ، والقافية تضطر إلى الحيلة ، وبقيت بينهما واحدة ليست مما توجد عند استماع الكلام منهما ، ولكن يرجع إليهما عند قولهما فينظر أيهما أشدّ على الكلام اقتداراً ، وأكثر تسمحاً ، وأقلّ معاناة ، وأبطأ معاصرة ، فيعلم أنه المقدم»^(٢).

نلمس من هذه الرسالة أن المبرد وضع معايير لكل من الشعر والنثر ، فإن استوت هذه المعايير في الشعر والنثر ، فإنه يفضل الشعر لما فيه من الوزن والقافية.

يقول د. عبد القادر حسين : «... فالمبرد يرى البلاغة في حسن النظم ، والتثام الكلمات ، فلا يكون بينهما تنافر ، ولا يبرأ بعضها عن بعض ، بل يأخذ بعضها بأعناق بعض حتى يحدث التماسك والاتصال ، مع شمول في المعنى ، واختصار في اللفظ ، وتوضيح لكل ما هو بعيد»^(٣) ، بل أقرب البلاغة عنده «أن

(١) المصدر ذاته ١/١١١ ، ٢٢٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٧ ، ٣٦٤ ، ٤١٣ ، ٤٣٩ ، ٧٠٦/٢ ، ٩٦٤ ، ١٠٠٤.

(٢) البلاغة ، ص : ٨١.

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ٢٠٣.

لا يؤتى السامع من سوء إفهام القائل ، ولا يؤتى القائل من سوء إفهام السامع^(١).

وقد تعرض المبرد في مواضع من كتبه لموضوعات من علم المعاني ، منها : الاختصار ، فقد ذكره غير مرة ، ونوّه إلى حذف الفضول من الكلام . وكان يسمي الإيجاز اختصاراً . وعرض لنوعي الإيجاز : إيجاز القصر ، وإيجاز الحذف ، فقال : «أقرب الاختصار لمحّة دالة»^(٢) ، و«خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره»^(٣) ، ويوضح الاختصار بأنه «الاختصار المفهم»^(٤) ، أي : لا يخل بالمعنى .

وعرض لإيجاز الحذف في كتابه (ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد) ، وفي كتابه (المقتضب) كحذف الجواب ، وحذف المسند أو المسند إليه ، وحرف الجر ، والمضاف . وعرض أمثلة من القرآن المجيد والحديث الشريف والشعر . ومجاز هذا عند أهل النظر حذف الخبر لعلم المخاطب لتعظيم الأمر . من ذلك ، ما قاله في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّمَ بِهِ الْمَوْتُ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾^(٥) ، خبره عند المفسرين : (لكان هذا القرآن). ونص على أن كل ما جاء في القرآن من ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ غير مذكور جوابه ، وأكثر ما جاء من ﴿ وَمَا أَدْرِيكَ ﴾ مذكور جوابه^(٦) . ويروى عن النبي ﷺ أنه استسقى على المنبر فسُقي ، فقال : «يا أبا

(١) الكامل ١٥٠٢/٣ .

(٢) المصدر ذاته ٨٨٤/٢ .

(٣) المصدر ذاته ٨٨٤/٢ .

(٤) المصدر ذاته ٤٠/١ .

(٥) سورة الرعد ، الآية : ٣١ .

(٦) ما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٤٩ . ويراجع ما قاله القرطبي في تفسيره ٢٥٧/١٨ حول (ما أدراك) و(ما يدريك) ، وبصائر ذوي التمييز ٥٩٧/٢ ، ويراجع : ما اتفق لفظه واختلف =

طالباه! لو رأيت ابن أخيك إذ يقول : (وأبيضٌ يُستسقى الغمام بوجهه)^(١) ، ولم يقل : (لرأيت ما يسرك) ، وهذا من أسلوب الحذف والاختصار. وكقولك : (لو رأيت فلاناً وفي يده السيف!) ، أي : لرأيت بارعاً! ، فاستغنى عن ذلك^(٢) .

وعرض لحذف الجار والمجرور الواقعين خبراً ، فقال في قول الشاعر^(٣) :

إن محلاً وإن مرتحلاً وإن في السفر إذ مضوا مهلاً
أراد : (إن لنا محلاً) ، فحذف لعلم السامع. ثم أتى بأمثلة من حذف المضاف في القرآن الكريم ، وقال : «وفي القرآن مختصرات ، فإن مجاز كلام العرب يحذف كثيراً من الكلام إذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقي . فمن ذلك : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ ﴾^(٤) . لما كانت القرية والعيير لا يسألان ولا يجيبان ، علم أن المطلوب غيرهما. ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾^(٥) ، أي : (ولكن البرُّ من آمن) ، لأن البر لا يكون البار .

«ومن المختصر قوله - تعالى - : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا

= معناه ، ص : ٤٨ (هامش ٤) .

(١) هو صدر بيت من قصيدة لأبي طالب تزيد على مئة بيت ، عاذ فيها بحرم مكة المكرمة ومكانه منها ، ومدح الرسول الكريم بها ، وتمتمته :
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
الخرانة ٥٧/٢ .

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٤٩ وما بعدها ، والمقتضب ٧٨/٢ حيث قال :
«... فأما الخبر فمعروف جيد» .

(٣) البيت للأعشى ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها سلامة ذا فائس ، وروايته (... ما مضى مهلاً) . الديوان ، ص : ٢٣٣ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٨٢ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

يَسْمَعُ^(١) ، معناه : إن الذين كفروا يتشبهون بالمنعوق به - وهي الشاء - وأنتم كمن ينطق بها ، فتأويل الكلام : مثل الذين كفروا ومثلكم ، أو مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناقق بما لا يسمع إلا دعاءً ، فاختصر وحذف^(٢) . ومما جاء في المختصرات ، قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾^(٣) ، أي : أحد .

و كما ذكر الاختصار المفهم ، ذكر الإطناب المفخم ، وأنه يأتي للتوكيد ، وتحدث عن الاستفهام وخروجه عن وضعه لمعان بلاغية كالتقرير والإنكار والتوبيخ والتقرير والتعظيم^(٤) ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُاُ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(٥) ليوبخ بذلك من حكاها ، وهو - عز وجل - عالم بأن عيسى لم يقله^(٦) .

وأورد للاستفهام التقريري بعض الأمثلة ، منها قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(٧) ، وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾^(٨) ، واستشهد بقول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
ونقل عن أبي عبيدة قوله : «إن جريراً لم يستفهم ، ولو كان استفهاماً ما

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧١ .

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٥٦ - ٥٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٥٩ .

(٤) ما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٥٨ .

(٥) سورة المائدة ، الآية : ١١٦ .

(٦) ما اتفق لفظه ، ص : ٤٢ ، والكامل ٢٧٧/١ ، والمقتضب ٥٢/٢ ، ٢٢٨/٣ ، ٢٦٤ ،

٢٨٩ .

(٧) سورة الزمر ، الآية : ٦٠ .

(٨) سورة الزمر ، الآية : ٣٦ .

أعطاه عبد الملك مائة من الإبل برعائها»^(١).

وعرض للاستفهام الذي خرج عن معناه الأصلي للتعجب والإنكار ، فنجده يقول : «فأما التعجب والإنكار ، فقول المشركين : ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ»^(٢).

وكل ما سنعرض له من الأمور البلاغية سنراه ممزوجاً بالمسائل النحوية والبلاغية . «ولعل من نافلة القول أن نوضح أن اتصال المبرد بالجوانب البلاغية إنما هو مبثوث في ثنايا المسائل والأحكام النحوية ، غير منبت الصلة بها . ونكاد نجد في هذه الشذرات ما يتصل بغاية البلاغة وثمرتها»^(٣).

وتحدث عن التقديم والتأخير ، وقد تناول الموضوع ممزوجاً بقواعد النحو ، وأورد بعض الأمثلة لتقديم المفعول به وجوباً إذا كان الفاعل منحصراً بـ (لا) في جواب (أما) التفصيلية الشرطية ، فقال في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٤) أن المعنى : «مهما يكن من شيء ، فلا تقهر اليتيم»^(٥) . وضرب أمثلة لتقديم التمييز إذا كان العاملُ فعلاً ، فأورد قول المُخَبِّلِ السعدي^(٦) :

أتهجر ليلى للفراق حبيبها وما كان نفساً بالفراق تطيب
وقد نحا المبرد إلى جواز تقديم الحال على عاملها إذا كان فعلاً ، ومثل لذلك بقوله تعالى : «وقول الله - عز وجل - عندنا على تقديم الحال - والله

(١) مجاز القرآن ١/١٨٣ - ١٨٤ ، والمقتضب ٣/٢٩٢ .

(٢) المقتضب ٣/٣٠٨ ، والشاهد من سورة الواقعة ، الآيات : ٤٧ - ٤٨ .

(٣) المبرد : حياته وآثاره ومنهجه في كتاب المقتضب للدكتور جمعة المبروك عون ، ص : ٢٥٥ .

(٤) سورة الضحى ، الآية : ٩ .

(٥) المقتضب ٢/٦٩ - ٧٠ .

(٦) رواية الزجاجي : (و ما كان نفسي بالفراق تطيب) . المقتضب ٣/٣٧ . ويراجع تفصيل موضوع التقديم والتأخير في المقتضب ٣/٩٥ ، ١١٨ ، والخصائص ٢/٣٨٤ .

أعلم . . . ﴿ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾^(١) ، وكذلك هذا البيت لسويد ابن أبي كاهل الشكري الذي عاش في الجاهلية دهرًا :

مُزْبِدًا يَخْطُرُ مَا لَمْ يَرْنِي وَإِذَا يَخْلُو لَهْ لِحْمِي رَتَعُ
وقاس المبرد على ذلك أمثلة مصنوعة ليؤكد ما ذهب إليه من تقديم القرآن الكريم للحال أو الشعر العربي ليس عبثًا ، وإنما من أقوى الأدلة على جواز التقديم ، مثل قول حسان بن ثابت :

قد ثكلت أمه من كنت واحده أو كان منتشِباً في بُرثن الأسد
قال المبرد : «من كنت واحده فقد ثكلت أمه»^(٢) .

وتناول موضوع الفصل والوصل خلال حديثه عن واو الابتداء ، ومتى يجوز ذكرها ، ومتى يجب . فإذا وقعت الجملة بعد نكرة أو معرفة وفيها ضمير يتصل بالكلام السابق ، فذكر الواو حينئذ ليس حتمًا في الكلام اكتفاءً بذكر الضمير الذي يربط الكلام ببعضه ببعض ، « فنقول : مررت برجل زيد خير منه ، وجاءني عبد الله أبوه يكلمه - بغير الواو - وإن شئت قلت : وزيد خير منه ، وأبوه يكلمه - بالواو ، وهي حرف عطف - فأما إذا قلت : مررت بزيد عمرو في الدار ، فهذا محال إلا على قطع خبر واستئناف آخر . فإن جعلته كلاماً واحداً ، قلت : مررت بزيد وعمرو في الدار»^(٣) . وواضح من العبارة الأخيرة من كلام المبرد أنه يتحدث عن كمال الانقطاع ، وعن التوسط بين الكمالين كما سمي عند المتأخرين من البلاغيين . ويبدو أن ذكر الواو وحذفها كان من الدقة بحيث يستعصي على أفهام الكبار من العلماء مثل أبي إسحاق الزجاج والمبرد^(٤) ،

(١) سورة القمر ، الآية : ٧ .

(٢) الكامل ١/٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) المقتضب ٤/١٢٥ .

(٤) أثر النحاة ، ص : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

فهذا الحريري يقول في (درة الغواص) : « . . . ومما ينتظم في إقحام الواو ، ما حكاه أبو إسحاق الزجاج - رحمه الله - قال : سألت المبرد عن العلة في ظهور الواو في قولنا : سبحانك اللهم وبحمدك ، فقال لي : سألت أبا عثمان المازني عما سألتني عنه ، فقال : سبحانك اللهم وبحمدك سبحتك»^(١) . فالزجاج سأل المبرد عن العلة في ظهور الواو ، لأنه - على فضل علمه - أشكل عليه ذلك ، فاستعصى على المبرد الجواب ، فبادر إلى الاستفهام عن ذلك مستعيناً بأستاذه المازني ، فأجابه بما اعتبره الحريري إقحاماً للواو ، وأن الكلام ليس في حاجة إليها ، وأنها لو حذفت لبقى الكلام على معناه من دون تغيير . نستنبط من ذلك ، أن الوصل أحياناً لا يتأتى لعدة بلاغية ، وإن كانت هذه العلة البلاغية تتوافر في كثير من الأحيان ، كما نستنبط جواز عطف الخبر على الإنشاء^(٢) .

وتحدث المبرد عن الزيادة في الحروف ، وأنها تأتي للتوكيد^(٣) ، وعن القصر بـ (لا) ، و(بل) .

كما عرض للقلب البلاغي^(٤) ، وكان يسميه - كأغلب البلاغيين القدماء - : التحويل ، وفي ذلك قال : «ومما في القرآن مما يجيء مثله في

(١) درة الغواص في أوام الخواص ، ص : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) أثر النحاة ، ص : ٩٧ ، ٢٠٩ .

(٣) المقضب ٢/٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٤١٨/٤ .

(٤) القلب هو أن يجري حكم أحد جزأي الكلام على الآخر . وهو إما قلب إسناد ، نحو : (لكل أجل كتاب) ، أي : لكل كتاب أجل . و(ويوم يعرض الذين كفروا على النار) ، أي : تعرض النار عليهم . الكلبيات ، ص : ٧٠٤ .

و قلب الشيء : تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه . المفردات للراغب ، ص : ٦٨١ ، والصاحبي ، ص : ٢٠٨ .

والقلب : أن تجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر والآخر مكان الأول ، فيأخذ كل منهما حكم الآخر وصفته . فن البلاغة ، ص : ٣٣٨ .

كلام العرب من التحويل كقوله : ﴿وَأَيُّنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾^(١) ، وإنما العصبه تنوء بالمفاتيح^(٢) .

والقلب عند السكاكي «يورث الكلام ملاحظة ، ويصل به إلى كمال البلاغة . والسكاكي الذي استقرت علوم البلاغة على يديه ، وأخذ كل لون من ألوانها مكانه المعين في أقسام البلاغة من معانٍ وبيانٍ وبيدع ، يعتبر القلب داخلاً في علم المعاني»^(٣) .

أما سيوييه (ت ١٨٠هـ) ، فقد عدّه من الكلام القبيح الذي لا يتصف بالجودة .

وأما الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، فقد أجازته في القرآن الكريم على إطلاقه ، ولم يجزه في الشعر إلا على سبيل الضرورة^(٤) .

وأما ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، فقد أنكر وقوعه في القرآن الكريم وفي غيره ، لأن القلب - فيما يراه - «ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله - عز وجل - لو لم يجد له مذهباً»^(٥) .

وأما معاصره المبرد ، فإننا نجده يعبر عنه بالتحويل ، ويعده كثير الوقوع في القرآن الكريم وكلام العرب .

وأما محمد بن علي الجرجاني ، فقد انتقد من جعل القلب من علم المعاني ، فقال : «قد ظن جماعة ، منهم السكاكي ، أن مطلق القلب من

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٦ . ما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٥٩ ، ويراجع : تأويل مشكل القرآن ، حيث قال ابن قتيبة : «أي : تنهض بها وهي مثقلة» ص : ١٥٣ .

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٠٦ ، والكامل ١/٤٧٥ .

(٣) فن البلاغة ، ص : ٣٤٠ .

(٤) معاني القرآن ٢/٣٠١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٥٤ .

مسائل هذا العلم - علم المعاني - وأنه مقبول ، والحق أنه ليس كذلك لخلوه من البلاغة ، اللهم إلا أن يكون قلب تشبيه للمبالغة ، كقول رؤبة :

وَمَهْمَهُ مُغْبِرَةٌ أَرْجَاؤُهُ كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَّاؤُهُ
أراد أن يشبه لون سمائه بلون أرضه ، فعكس للمبالغة . وإن جاء في القرآن ما يوهم القلب ، وجب تأويله ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾^(١) ، أي : أردنا إهلاكها^(٢) .

والقلب يعدّ من الأمور التي يخرج بها الكلام عن مقتضى الظاهر لأغراض بلاغية .

وفي هذه الدراسة ، لسنا بصدد دراسة لتطور هذا الفن البلاغي وفهم مدلوله ومواقف العلماء منه ، لكننا بصدد تأكيد أن العلماء لم يقفوا منه موقفاً جازماً ، إذ صنفه كل عالم منهم كما تبين له .

ويعدّ التغليب كذلك من الأمور التي يخرج بها الكلام عن مقتضى ظاهره ، فنجد المبرد يسوق لنا الأمثلة عليه ، لكن لا يضعها تحت هذا العنوان ، وإنما يقول : القمران : الشمس والقمر . ويستشهد بقول الفرزدق :

أخذنا بأطراف السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع
وكذلك العمران ، وهما : أبو بكر وعمر^(٣) ، والأسودان : التمر والماء ، والأحمران : اللحم والنيذ ، وقالوا أيضاً : الأحامرة : اللحم والنيذ والزعفران ، والأبيضان : الشحم واللبن ، وقيل : الماء واللبن ، وذهب منه الأطييان : الطعام والنكاح ، والحجران : الذهب والفضة ، والعصران :

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٤ .

(٢) الإشارات والتهنئات ، ص : ٥١ . وهذا من باب التعبير بالفعل عن إرادته . يراجع القاعدة الخامسة من الباب الثامن من مغني اللبيب ، فيه التعبير بالفعل عن إرادته ، ص : ٩٠٣ .

(٣) المقتضب ٤/٣٢٦ . وينظر : المثنى لأبي الطيب اللغوي ، وجنى الجنيتين للمحبي ص : ٨١ .

الغداة والعشي^(١).

وضرب المبرد للتغليب أمثلة كثيرة وإن لم يبرز المصطلح بوضوح ، بل قال : « . . . والعرب تفعل هذا في الشئيين إذا جرى في باب واحد »^(٢).

ومن هذا الباب أيضاً ، الالتفات . وقد ذهب بعضهم إلى أنه من حيث اشتماله على نكتة هي خاصية التركيب : من علم المعاني ، ومن حيث إنه إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في الوضوح والخفاء : من علم البيان . ومن حيث إنه يحسن الكلام ويزينه : من علم البديع . والسكاكي أورد في علمي المعاني والبديع^(٣).

وقد ذكره المبرد بشيء من التفصيل في أكثر من موضع في (الكامل) ، وساق له شواهد من القرآن الكريم والشعر ، وفي ذلك نص على أن «العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾^(٤) ، كانت المخاطبة للأمة ، ثم صرفت إلى النبي - ﷺ - إخباراً عنهم^(٥) . ومثل ذلك قول جرير^(٦) :

و ترى العواذل يتدردن ملامتي
وإذا أردن سوى هواك عصينا
ومثل هذا كثير .

(١) الفاضل ، ص : ٢١ - ٢٢ .

(٢) الكامل ١ - ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٩٨٥ / ٢ ، ٩٨٧ ، ١٢٣٤ / ٣ .

(٣) المطول ، ص : ١٣٠ ، وحاشية سيد شريف على المطول ، ص : ١٣٠ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ٢٢ . ويراجع : رغبة الآمل ، حيث يقول المرصفي : «إنما الخطاب فيها للناس وليس للنبي صلى الله عليه وسلم» ٤ / ١٨٦ - ١٨٧ .

(٥) يراجع : تفسير القرطبي ٨ / ٣٢٤ - ٣٢٥ ، قال في ذلك إنه خروج من الخطاب إلى الغيبة ، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير .

(٦) الكامل ٢ / ٥٧٢ ، ٩١٠ .

كما تحدث المبرد عن المجاز العقلي^(١) ، فقال : «واعلم أن قولهم : عيشة راضية ، ورجل طاعم كاسٍ ، إنما هو على ذا ، ومعناه : عيشة فيها رضى ، ورجل له طعام وكسوة . وكذلك : همُّ ناصبٌ ، إنما هو في نصب ، وحقيقة اللغة غير ذلك . قال الله - عز وجل - : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾^(٢) ، والمعنى : بل مكرم في الليل والنهار . وتقول : سقاك الله الغيث ، ثم يجوز أن تجعل الفعل للغيث ، فتقول : سقاك الغيث يا فتى . قال الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان في الشرى ونمت ، وما ليل المطي بنائم
والمعنى : بنائم المطي فيه .

وقال رؤبة بن العجاج : (ونام ليلي وتفضى همي)^(٣) ، ويروى :
وتجلى .

وقال^(٤) :

أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في جوف منحوتٍ من الساج
وقد استشهد به سيبويه على أنه أخبر عن النهار بكونه في سلسلة ، وعن الليل باستقراره في جوف منحوت اتساعاً ومجازاً .

وأورد المبرد قول الله - تعالى - : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾^(٥) ، إنما هو أهل القرية . وقول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

(١) المقتضب ٣/١٠٥ - ١٦٣ ، ٢٣٠ ، ٢٥١ ، ٣٣١/٤ ، ورغبة الأمل ٣/١٩٤ .

(٢) سورة سبأ ، الآية : ٣٣ .

(٣) رغبة الأمل ٢/١٢٠ . وصدرة : (حارثٌ قد فرجت عني غمي) ، يخاطب الحارث بن سليم .

(٤) الكامل ١/١٧٥ - ١٧٦ ، ٢٨٥ ، ٤١٣ ، ورغبة الأمل ٨/١٢٢ - ١٢٣ .

(٥) سورة يوسف ، الآية : ٨٢ .

أي: ذات إقبال. ويكون على أنه جعلها الإقبال والإدبار لكثرة ذاك منها^(١).
وعلق الأستاذ عبد الخالق عزيمة على قوله: «... فظاهر كلام المبرد في الكامل، أن البيت يجوز فيه ثلاثة توجيهات: أن يكون من المجاز العقلي، أو المصدر في تأويل اسم الفاعل، أو على تقدير حذف المضاف»^(٢).
وللشيخ عبد القاهر الجرجاني كلام جيد في هذا البيت ذكره في (دلائل الإعجاز)^(٣)، قال: «... ومما طريق المجاز فيه الحكم، قول الخنساء:
ترتع ما رتعت حتى إذا اذكرت فإنما هي إقبال وإدبار
وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة، وإنما تجوزت في أن جعلتها - لكثرة ما تقبل وتدبر لغلبة ذاك عليها واتصاله بها، وأنه لم يكن لها حال غيرهما - كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار. وإنما يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذي وضعاه في اللغة. غير أن عبد القاهر الجرجاني ذكر له أسماء متعددة، وتحدث عنه تفصيلاً... وأظهر ما فيه من روعة، وعدّه كنزاً من كنوز البلاغة. لكن السكاكي في مفتاحه ينكر المجاز العقلي ويثبته في سلك الاستعارة الممكنة. وبذلك، يخرج من علم المعاني ويدخله في علم البيان. ويعود الخطيب القزويني في نهاية حديثه عن المجاز العقلي يستنكر ما ذهب إليه السكاكي من جعله مثل هذا التعبير استعارة بالكناية، وإدخاله في علم البيان، فنراه يخرج من علم البيان ويدخله مرة أخرى في علم المعاني»^(٤).

(١) الكامل ١/٣٧٤.

(٢) المقتضب ٣/٢٣٠ (هامش: ٢).

(٣) دلائل الإعجاز، ص: ٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) الإيضاح، ص: ٥٠ وما بعدها، ويراجع: فن البلاغة، ص: ٩٠.

ولعل أبرز فن برع فيه المبرد وساق له الشواهد ، هو فن التشبيه ، ويعده كثيراً في كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم ، لم يبعد^(١) . وقد حشد له الأمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف وأشعار العرب القدامى والمحدثين ، وقسمه إلى أنواع ، وأورد أمثلة لكل لون من ألوانه . وقد برزت شخصيته النقدية خلال حكمه على الشعراء وتشبيهاهم ، من أحسن منهم ومن أجاد ، ومن أساء وقصر ، ومن أغرب منهم وأبعد .

ويعدّ المبرد إمام الأدباء والبلاغيين في علاج موضوع التشبيه الذي يعدّ من أهم موضوعات البيان^(٢) ، وتأثر به العلماء الذين جاؤوا بعده ، فأخذوا عنه تقسيمه التشبيه منهم أبو أحمد العسكري ، فقد حذا حذوه^(٣) .

وقد قسم التشبيه إلى أربعة أنواع ، فقال في ذلك : «والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه ، وهو أحسن الكلام»^(٤) .

وضرب أمثلة لكل نوع من الأنواع المذكورة ، فنبه على أن من التشبيه المفرط المتجاوز ، قولهم للسخي : هو كالبحر ، وللشجاع : هو كالأسد ، وللشريف : سما حتى بلغ النجم ، ثم ازدادوا في ذلك ، فمنه قول بعضهم :

له هممٌ لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البر أندى من البحر
ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزه كان الخلي من العمر
ونراه يعجب بالتشبيه المتجاوز الحد ، أي : المبالغ فيه إذا كان جيد

(١) الكامل ٢/٩٩٦ .

(٢) دراسات في نقد الأدب ، ص : ٢٣٩ .

(٣) المصون في الأدب ، ص : ٥٧ .

(٤) الكامل ٢/١٠٣٢ .

النظم ، ويستشهد بقول أبي الطمحان^(١) :

أضأت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ويستند في تبرير هذا الإعجاب بتفسير عقلي يقنع به من يحاول رد هذا
القول^(٢).

وعرض للتشبيه المصيب ، فذكر قول امرئ القيس في طول الليل :

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كَتَانِ إلى صُمَّ جندلٍ
وقال إن هذا في ثبات الليل وإقامته ، والمصام : المقام .

وقال في ثبات الليل :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يبدُبلٍ
وقول الشاعر ذي الرمة^(٣) :

بيضاء في دَعَجٍ ، صفراء في نَعَجٍ كأنها فضة قد مسها ذهب
ونبه المبرد على أن أحسن ما للعرب من التشبيه المصيب وللمحدثين
بعدهم بإجماع الرواة ، قول امرئ القيس في كلام مختصر ، أي : بيت واحد
من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين ، وهو قوله^(٤) :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
وعرض للتشبيه المقارب ، وهو عنده التشبيه الصريح الذي يقوم بنفسه
ولا يحتاج إلى تفسير أو تأويل ، لأنه ظاهر مكشوف يتسم بالسهولة والوضوح .
ومثل له بأمثلة ، منها قول الأعشى :

(١) الكامل ٢/ ١٠٣٤ .

(٢) أثر النحاة ، ص : ٢١٨ .

(٣) الكامل ٢/ ٩٣٤ .

(٤) المصدر ذاته ٢/ ٩٢٢-٩٢٣ .

غزاتك بالخيل أرض العدو وجذعاتها كلقيط العجم
وقول النابغة :

فظل يعجم أعلى الروق منقبضاً في حالك اللون صدق غير ذي أود
وهذا تشبيهه مقارب جداً^(١).

وتعرض للتشبيه البعيد الذي يحتاج إلى التفسير ، نحو قول الشاعر :

بل لو رأنتني أختُ جيراننا إذ أنا في الدار كأني حمار
وأين هذا التشبيه من تشبيه القرآن الكريم لبني إسرائيل الذين حُمّلوا التوراة
ثم لم يحملوها؟! قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾^(٢).

ونقل المبرد قول أحد الشعراء في وصف قوم يحملون الشعر ولا
يفهمونه ، قولاً أجاد فيه وتقدم كلاماً كثيراً من المخلوقين ، قال^(٣) :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه ، أو راح ما في الغرائر
هذه ضروب التشبيه عند المبرد ، لكنه في الحقيقة ، لم يقتصر عليها ،
فقد ذكر كثيراً من التشبيهات كالتشبيه الجامع ، والتشبيه الجيد ، والحسن ،
والعجيب ، والمحمود ، والمستحسن ، والملح ، والقريب ، والبلغ.

ونستطيع القول إن المبرد على الرغم من كثرة مسمياته ومصطلحاته في
التشبيه ، فإنه لم يجد الفروق الجوهرية والاختلاف في أنواع التشبيه . فالتشبيه
المصيب عنده كالجيد أو الحسن أو المليح أو المحمود أو القاصد الصحيح .

(١) المصدر ذاته ١٠١٦/٢ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .

(٣) البلاغة ، ص : ٩١ .

وحتى التشبيه المفرط عندما تناوله رجل جليل - كما يقول - خرج به إلى دائرة الاستحسان من حيث المعنى ، ثم اختار له الألفاظ المناسبة ، فأصبح في غاية الاستحسان ، يقول النابغة في مديح حصن بن حذيفة الفزاري^(١) :

يقولون حصن ، ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح؟!
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيح
فعمّا قليل ثم جاء نعيه فظل ندي الحي وهو ينوح

ومن قوله في تشبيه النساء : « والتشبيه - كما ذكرنا - من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم أن يشبهوا عين المرأة والرجل بعين الطيبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد . والعرب تشبه النساء ببيض النعام ، تريد نقاء ورقة لونه ، وكذلك بالشمس ، والقمر ، والغصن ، والكثيب ، والغزال ، والبقرة الوحشية ، والسحابة البيضاء ، والدرّة ، والبيضة ، والقصبّة ، وإنما نقصد من كل شيء إلى شيء»^(٢) .

وفي تشبيه الساق بالجمّارة ، قال سراقه بن مالك : فرأيت رسول الله ﷺ وساقاه باديتان في غرزه كأنهما جمارتان»^(٣) .

وبين المبرد حد التشبيه الذي يكون به حسناً ، فقال : «واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تشابه من وجوه ، وتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من أين وقع ؟ فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر ، فإنما يراد به الضياء والرونق ، ولا يراد به العظم والإحراق» ثم قال : «أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ،

(١) الكامل ١٠٣٣/٢ .

(٢) المصدر ذاته ١٠٥٨/٢ ، ٨٥٩ ، ٩٤٨ ، ٩٥٠ .

(٣) المصدر ذاته ١٠٣٨/٢ . والحديث أخرجه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير ١٣٣/٧

وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه بفطنته على ما يخفى على غيره ، وساقه بوصف قوي واختصار قريب^(١) . وهو في ذلك ، يؤكد أن الشعر الحسن هو الشعر المطابق للواقع ، الجزل المتين ، مع الإيجاز المفهم .

ومن آرائه في جودة التشبيه ، حكمه على أبيات عمر بن أبي ربيعة ، كما في تعليقه على قوله :

قلت : وجدي بها كوجدك بالما ء إذا ما منعت طعم الشراب
قال : «معنى صحيح ، وقد اعتوره الشعراء ، وكلهم أجاد فيه . وقوله :
(إذا ما منعت طعم الشراب) ، يريد : عند الحاجة ، وبذلك صح المعنى»^(٢) .

ثم نراه ينتقل إلى تشبيهات الشعراء المحدثين ، ونستشف آراءه النقدية خلال أحكامه عليهم في مثل قوله في تشبيه بشار : «ومن حسن تشبيه المحدثين ، قول بشار :

وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا
وهذا التشبيه الجامع . ونظيره في جمع شيئين لمعنيين ما ذكرت لك من قول مسلم بن الوليد : (كأن في سرجه بدرأً وضرغاماً) . ومن حسن التشبيه من قول المحدثين ، قول عباس بن الأحنف^(٣) :

أحرم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا

(١) الكامل ١/٣٨٥ .

(٢) المصدر ذاته ٢/٧٨٩ .

(٣) هو العباس بن الأحنف أبو الفضل الحنفي اليمامي . شاعر مجيد ، رقيق الشعر ، من شعراء الدولة العباسية . كل شعره غزل لا مديح فيه ولا هجاء . توفي سنة ١٩٢ هـ ببغداد . طبقات ابن المعتز ، ص : ٢٥٣ - ٢٥٦ ، ومعجم الأدياء ٣/٤٣٩ - ٤٤٠ - دار الكتب العلمية . والذبالة : الفتيلة ، والجمع : ذبال . القاموس (مادة : ذبل) .

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق
فهذا حسن في هذا جداً.

ومما عدّه من التشبيه الحسن ، قول أبي العتاهية للرشيّد^(١) :

أمين الله أمنك خير أمن عليك من التقى فيه لباس
تساس من السماء بكل برّ وأنت به تسوس كما تساس
كأن الخلق ركب فيه روح له جسد وأنت عليه راس

ونجد المبرد يحكم على بعض أشعار أبي نواس بالحسن والجودة لاتساعه
في القول ، وكثرة تفننه ، فينص على أن «من أكثرهم تشبيهاً لاتساعه في
القول ، وكثرة تفننه ، واتساع مذاهبه : الحسن بن هانئ.ء. ومما يستحسن من
شعره ، قوله^(٢) :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
فامض لا تحنن علي يدا منك المعروف من كدره

ويقول : «مثل هذا لو تقدم لكان في صدور الأمثال . وهذه أشعار اخترناها
من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة ، يحتاج إليها للتمثل لأنها أشكل
بالدهر ، ويستفاد من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب ، لكنهم عابوا
عليه قوله :

كيف لا يدنيك من أمل مَنْ رسول الله مِنْ نَفَرِه
وهو - لعمرى - كلام مستهجن موضوع في غير موضعه ، لأن حق رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن يضاف إليه ولا يضاف إلى غيره» .

ومن شعره الذي يذم ، قوله في الرشيّد^(٣) :

(١) الكامل ١٠٥٣/٢ .

(٢) الكامل ٥٢٧/١ .

(٣) المقتضب ٥٢/١ ، والكامل ٥٢٨/١ .

لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقي
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
قال فيه المبرد : «هذا البيت بادي العوار جداً»^(١) . وعلق عليه الدكتور
عون بقوله : « . . . وإن كان أبو العباس لم يوضح وجه هذا العوار - في أغلب
الأمر - يعني به الإغراق في المبالغة إلى هذا الحد الذي جعل فيه المعدوم يحس
مثل هذا الإحساس من خوف وغيره»^(٢) .

ونراه يحكم على بعض أشعار أبي نواس مما استجاده الناس وهو عنده ليس
بمحمود لما فيه من إفراط^(٣) ، من غير تمييز بين قديم الشعر وحديثه ، وإنما
عمدته في الاستحسان وعدمه : مدى جودة الشعر . وفي ذلك يقول : «وليس
لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل
ما يستحق . ألا ترى كيف يفضل عمارة مع قرب عهده في قوله :

وما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفواً غدورها
فهذا كلام واضح ، وقول عذب»^(٤) .

ولما تعرض لشعر أبي تمام ، أورد حكاية تنبئ عن فضله وإحسانه ،
وكان مما قاله : «قال بعض المحدثين : وليس بناقص حظه من الصواب أنه
محدث . ويقول الصولي : حدثني عبد الله بن المعتز قال : جاءني محمد بن
يزيد النحوي فاحتبسته ، فأقام عندي ، فجرى ذكر أبي تمام ، فلم يوفه حقه ،
وكان في المجلس رجل من الكتاب نعماني ، ما رأيت أحداً أحفظ لشعر أبي
تمام منه ، فقال له : يا أبا العباس ، ضع في نفسك من شئت من الشعراء ، ثم

(١) المصدر ذاته ٥١/١ .

(٢) المبرد ، ص : ٨٤ .

(٣) الموشح ، ص : ٣٨٢ ، والمثل السائر ٣/١٩٢ .

(٤) الكامل ٤٣/١ .

انظر أيحسَن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبي الغيث موسى بن إبراهيم . . .
أتاني مع الركبان ظن ظننته لففت له رأسي حياء من المجد
لقد نكب الغدرُ الوفاءَ بساحتي إذن وسرَّختُ الدم في مسرح الحمد
فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت أحسن من هذا قط ! ما يهضم
هذا الرجل حقه إلا أحد رجلين : إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، وإما
عالم لم يتبحر في شعره ولم يسمعه . قال أبو العباس عبد الله بن المعتز : وما
مات إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله ، مقر بفضل أبي تمام وإحسانه^(١) .
وبهذا ، يظهر لنا أن المبرد ، وإن كان من المحافظين ، إلا أنه لم يجمد
على القديم ، فلا حسن إلا ما قاله المتقدمون ، بل جودة الشعر هي التي تقضي
له بالحسن ، سواء كان قائله من المتقدمين أو المتأخرين .

ويتميز المبرد عن الإمام ثعلب - كما سنرى في الفصل القادم - بأمور ،
منها أنه « كان أسرع من معاصريه إلى تبني الشعر المحدث ، ومنحه كثيراً من
عطفه ، واعتماده أصلاً من أصوله في تدريسه لطلابه ، وإفراده بالاختيار . فهو
لم يكتف بإيراد نماذج منه في كتبه العامة ، كالكامل والفاضل ، وإنما خصص
كتاب الروضة لأشعار المحدثين^(٢) . هذا من ناحية ، وناحية أخرى ، أن المبرد
كان أستاذاً لكثير من الأجيال في القرن الثالث ، ولذا ، أصبح رأيه فيما يقبله
وما يدفعه عمدة لدى النقاد في أواخر ذلك القرن أو في مطلع القرن الرابع^(٣) .

وتناول المبرد المجاز المرسل في أماكن عدة من كتابه (الكامل) ، لكنه لم
يسمه باسمه الاصطلاحي ، وإنما تعرض للكلام عن دلالاته في غضون تعليقه
على النماذج الأدبية . من ذلك ، ما قاله في شعر رجل من بني تميم :

(١) أخبار أبي تمام ، ص : ٢٠٢ .

(٢) كما ذكر صاحب تاريخ بغداد ، وصاحب العقد الفريد .

(٣) تاريخ النقد الأدبي ، ص : ٩٠ .

إن الذين يسوغ في أعناقهم زاد يُمنُّ عليهم لَلْئَامُ
قال المبرد : «وهذا كلام فصيح جداً. قوله : (يسوغ في أعناقهم) ، يريد
حلوقهم ، لأن العنق يحيط بالحلقي . ويقول : لفلان عليك يد ، ولفلان عليك
إصبع . وكل جيد ، وإنما يعني ههنا : النعمة»^(١) .

وأورد قول الراجز يصف غيماً :

أقبل في المستن من ربابه أسنمة الآبال في سحابه
وقال : «أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الإبل لتصير شحومها في
أسنمتها»^(٢) .

وتعرض للاستعارة في أكثر من موطن من كتابه (الكامل) ، إلا أنه لم
يعرفها بأقسامها وأنواعها شأنه في ذلك شأن الجاحظ قبله ، حيث ذكرها ومثّل
لها من غير تعريف لها كما تبين لنا سابقاً . ونجد المبرد يكتفي في تعليقه على
بيت الراعي النميري :

يا نعمها ليلة حتى تَخَوَّنَهَا دَاعٍ دعا في فروع الصبح شحاج
بقوله : «قوله : (شحاج) ، إنما هو استعارة في شدة الصوت ، وأصله
للبلغل . والعرب تستعير من بعض لبعض . قال جرير^(٣) :

إن الغراب كما كرهت لمولع بنوى الأحبة دائم التشحاج
وفي قول الشاعر :

نقريهم لِهَذَمِيَّاتٍ نَقْدُ بِهَا ما كان خاط عليهم كل زَرَادٍ
فسر المبرد سبب استعارته (خاط) بقوله : «لأن الخياطة تضم خرق

(١) رغبة الآمل ٤٠/٤ .

(٢) رغبة الآمل ٢٣٦/٦ - ٢٣٧ .

(٣) الكامل ١/٣٦٨ ، ٣٧١ ، ورغبة الآمل ٣/١٤٩ .

القميص ، والسرد يضم حلق الدرع ، فضربه مثلاً ، فجعله خياطة»^(١) .
وذكر ضرباً من الاستعارة التمثيلية كما في قولك : «فلان عليه دين» ، أو
«ركبه دين» ، تريد أن الدين علاه وقهره .

وتعرض المبرد للكناية ، فقال : «والكلام يجري على ضروب ، فمنه ما
يكون لنفسه ، ومنه ما يُكنى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ في
الوصف»^(٢) ، ونراه يتحدث عن الكناية ويوليها عنايته من حيث تقسيمها
وتفريعها ، ويقصد بالكناية المعنى اللغوي لا الاصطلاحي ، وكذلك فعل ابن
فارس في الصحابي^(٣) .

ولا شك أن المبرد في كتابه (الكامل) حين تناول الكناية نظر إلى ما قاله ابن
قتيبة ، فانتفع به لعنايته بهذا الباب وتوضيحه الدلالة الاصطلاحية للكناية
توضيحاً شديداً ، مما حدا بالمبرد إلى أن يسير على منهجه^(٤) .

وقد اهتم الدارسون بالكناية عنده ، لأنه قسمها إلى ثلاثة أقسام ، ولم
يتعرض لهذه الأقسام والتعريفات أحد قبله . وفي تعريفها قال : «والكناية تقع
على ثلاثة أضرب : أحدها : التعمية والتغطية ، كقوله :

أكني بغير اسمها وقد علم الإي له خفيات كل مكتوم
... ويكون من الكناية - وذاك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس
المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره . قال الله - عز وجل - : ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ

(١) رغبة الأمل ١/٢٠١ ، ٢/٣٣ . ولهذميات ، يقال سيف لهزم ، بمعنى : حاد ، وكذلك
السنان والنانب . اللسان (مادة : لهزم) .

(٢) الإيضاح ٢/١٨٥ ت . د . خفاجي .

(٣) الصحابي ، ص : ٢٥٥ .

(٤) أثر النحاة ، ص : ١٩٣ ، ١٩٥ .

لَيْلَةَ الصَّيَامِ أَرْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ^(١) ، وقال جل ثناؤه : ﴿ أَوْ لَمَسْنُمُ ﴾^(٢) .
والملامسة في قول أهل المدينة - مالك وأصحابه - غير كناية ، إنما هو اللمس
بعينه . ومثلها قول الله - عز وجل - في المسيح وأمه السيدة مريم : ﴿ كَانَا
يَاكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾^(٣) ، وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة .

والضرب الثالث من الكناية : التفضيم والتعظيم ، ومنه اشتقت (الكناية) ،
وهو أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه . ووقعت في الكلام على ضربين : وقعت
في الصبي على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد فيدعى بولده كناية عن اسمه ،
وفي الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه . وإنما يُقال (كُنِي) عن كذا
بكذا ، أي : ترك كذا إلى كذا لبعض ما ذكرنا^(٤) .

ويبدو أن الضرب الثالث من الكناية عند المبرد لا علاقة له بالبلاغة البتة ،
إنما هو لتكنية الرجل حيث يدعى بولده ، أو لتكنية الصبي تفاؤلاً .

والعرب تكني عن المرأة بالبقرة والنعجة والشاة ، قال المبرد في قول
الراعي النميري :

ما زال يفتحُ أبواباً ويغلقُها دوني وأفتحُ باباً بعد إرتاجِ
حتى أضاء سراجُ دونه بقَرُّ حمراً الأنامل عَيْنُ طرفُها ساجِ

(بقر) يعني : نساء . ومثّل لتكنية العرب للمرأة بالنعجة بما جاء في قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾^(٥) ، وقول الأعشى :

فرميت غفلةً عينه عن شاته فأصبتُ حبةً قلبها وطحالها

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٤٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٧٥ .

(٤) الكامل ٢/ ٨٥٨ .

(٥) سورة ص ، الآية : ٢٣ .

يريد المرأة ، فكنى عنها بالشاة .

وقول عمر بن أبي ربيعة :

أبرزوها مثل المهامة تهادي بين خمس كواعبٍ أترابٍ
«فالمهامة : البقرة ، في هذا الموضع .

وتشبهه بالبقرة من الوحش لحسن عينيها ولمشيتها . والبقرة يقال لها :
العيناء والجماع ، العين ، وكذلك يقال للمرأة . وتهادي ، أي : يهدي بعضها
بعضاً في مشيتها ، ومشية البقر تستحسن»^(١) .

ولم يقتصر المبرد على هذه الفنون ، بل تحدث عن ألوان بلاغية عدّها
البلاغيون ممن أتى بعده من فن البديع ، من المحسنات اللفظية أو المعنوية ،
منها السجع ، فجنده يقول : «والسجع في كلام العرب أن تأتلف أوأخر الكلام
على نسق كما تأتلف القوافي . وهو في البهائم موالة الصوت . قال ابن
الذمينة»^(٢) :

أأن سجعت ورقاء في رونق الضحى على فنن غضّ النبات في الرندِ
بكيّت كما يبكي الوليد ولم تكن جليداً ، وأبديت الذي لم تكن تبدي
وهذا التعريف الذي وضعه أخذه عنه علماء البلاغة .

وذكر اللف والنشر ، وهو من الألوان البلاغية التي استقرت فيما بعد
وعُدّت من المحسنات المعنوية ، مثل لذلك المبرد بما قاله عبيد الله بن عبد الله
ابن عتبة : «ما أحسن الحسنات في آثار السيئات ، وأقبح السيئات في آثار
الحسنات ، وأقبح من ذا وأحسن من ذلك : السيئات في آثار السيئات ،
والحسنات في آثار الحسنات» ، ونص على أن «العرب تلف الخبرين

(١) الكامل ٢/٧٩٠-٧٩١ .

(٢) المصدر ذاته ٢/٧٨٧-٧٨٨ .

المختلفين ، ثم ترمي بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ لَيْلٌ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(١) ، علماً بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون ووقت الاكتساب^(٢) .

ومن المحسنات المعنوية التي ذكرها : التجريد ، وساق قول أعشى باهلة :

أخو رغائب يعطيها ويسألها يأبى الظلامة منه النوفل الزفر
وقال : « وإنما يريد به عينه ، كقولك : لئن لقيت فلاناً ليلقيك منه الأسد .
وقوله : (النوفل) : من قولهم : إنه لذو فضل ونوافل . (الزفر) : حمال
الأثقال^(٣) .

ولا شك أن المبرد ، في باب التجريد قد سلك مسلك سيبويه في ذلك ،
بينما أغفله الفراء وابن قتيبة حتى كاد أن يقبر لولا أن المبرد نفخ فيه من جديد ،
فأيقظ الحديث عنه بعد طول سبات^(٤) .

كما تكلم عن المبالغة والإفراط ، وساق أمثلة لذلك ، منها قول
الحطيئة^(٥) :

وإن نظرت يوماً بمؤخرِ عينها إلى علم بالطور قالت له : ابعده
ومن الإفراط أيضاً قوله :

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٣ .

(٢) المصدر ذاته ١/١٦٦ .

(٣) المصدر ذاته ١/٨٠ .

(٤) أثر النحاة ، ص : ٢٢٣ .

(٥) الكامل ١٠١١/٢ . وقرود : جبل ، وما ارتفع من الأرض . جمع قرادد وقراديد . القاموس
(مادة : قرذ) . ومعنى : (إن نظرت) : أي : يهون عليها بُعدُ لنشاطها .

بأرض ترى فرخ الحبارى كأنه بها راكب موفٍ على ظهر قردٍ
كما تكلم عن حسن التقسيم ، وبين ما به يكون حسناً بقوله : «إن حسن
التقسيم أن يستقصي الشاعر تفصيل ما بدأ به فيستوعبه فلا يغادر قسماً يقتضيه إلا
أورده» ، ومثل لذلك فقال : «لم أسمع أحسن تقسيماً مما ورد لقيس بن
ذريح ، إذ قال :

وقد كان فيها للأمانة موضع وللکف مرتادٌ ، وللعين مرتع

المبحث الثالث : النقد عند المبرد :

سئل المبرد مرة عن أبي تمام والبحثري ، أيهما أشعر؟ فقال : «لأبي تمام
استخراجات لطيفة ، ومعانٍ طريفة ، وجيده أجود من شعر البحتري ، وشعر
البحثري أحسن استواءً من شعره ، لأن البحتري يقول القصيدة كلها فتكون
سليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد وما أشبهه إلا
بغائص يُخرج الدّر والمخشلبة»^(١). على أن لأبي تمام والبحثري ما لو قيس بأكثر
شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله. وللبحتري بيتان لو ضمنا إلى شعر زهير لجازا
فيه ، وهما^(٢) :

فما سفه السفيه وإن تعدّى بأنجع فيك من حلم الحليم
متى أحفظت ذا كرم تخطى إليك ببعض أفعال اللئيم

وذكر معنى تعاوره البحتري وأبو تمام - والبحثري حاضر - فقال المبرد
للبحثري : «أنت في هذا أشعر من أبي تمام ، فقال البحتري : لا ، والله! ذلك

(١) المخشلبة: خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ والحلي، يتخذ من الليف والخرز. القاموس (مادة: شخب). وهي معربة. ويقال: مخشلب ومشخلب، على القلب. ولم ينقل عن العرب مثل هذا البناء. وتسمى الجارية: مشخلبة، بما عليها من الخرز والحلي. المعرب، ص: ٥٨١.

(٢) أخبار أبي تمام، ص: ٩٦-٩٧.

الرئيس الأستاذ. والله ، ما أكلت الخبز إلا به . فقال له محمد بن يزيد : يا أبا الحسن ، تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك»^(١) .

«وهذا نقد ينبىء عن ذوق رفيع لدى المبرد ، وإحساس مرهف بما يتضمنه شعر هذين الشاعرين من مظاهر الجمال . وإن كان في عبارة المبرد الأخيرة شيء من المبالغة ، فشعر الشعراء السابقين على أبي تمام والبحثري مفعم بمظاهر الجمال التي لا يمكن إنكارها والغرض منها أو الإقلال من شأنها بالقياس إلى شعر هذين الشاعرين»^(٢) .

إلى جانب ما ذكرنا ، نراه في موضع آخر يعيب على أبي تمام تشبيهاً له ، حيث ذكر أنه مما يعاب به أبو تمام ، قوله :

تُثَقِّي الحرب منه حين تغلي مراجلها بشيطان رجيم
فجعل الممدوح هو الشيطان الرجيم^(٣) .

ونقل بيتاً لأبي نواس نعتته بالسخف ، جاء فيه^(٤) :

أفَعِشْتَ حتى عبتهم ، قل لي متى فرزنت سرعة ما أرى يا بيدق
قوم إذا اسود الزمان توضحوا فيه فغودر وهو منهم أبلق
ويعلق عليه الأستاذ القرني بقوله : «من كل هذا يتجلى أن المبرد كان ذا ذوق رفيع في الأدب ، وكان ضليعاً في اللغة ، متبحراً في النحو ، خلفت له زعامة طبقته عن جدارة واستحقاق . وكان في نقده للشعر لا ينظر إلى اللغة

(١) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ . ويراجع : أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية ، أ . عضيمة ، ص : ١٧٣ .

(٢) المبرد : حياته وآثاره ومنهجه في كتاب المقتضب ، د . جمعه المبارك عون ، ص : ٨٥ - ٨٦ .

(٣) المقتضب ١/ ٥١ .

(٤) الموشح ، ص : ٤٩١ - ٤٩٢ .

فحسب ، ولا إلى النحو فحسب ، ولكنه ينظر إليهما معاً ، ولا يفضل جانب المعنى ، وهذا هو منهج النقد السليم . وكان جريئاً في نقده ، لا يتحرج من المجاهرة بإظهار العيب فيما يسمع ويقرأ ولو كان هذا الذي يسمعه أو يقرأه لواحد من فطاحل الشعراء أو الأدباء ، أو لواحد من شيوخه ومن تلقى عنه ، فقد نقد سيويوه وأبا عبيدة^(١) .

وكان يطلق الأحكام على الشعراء أنفسهم ، فيقول في البحرني : «أنشدنا شاعر دهره ، ونسيح وحده ، أبو عبادة البحرني»^(٢) . وقال : «ما رأيت أشعر من هذا الرجل ، لولا أنه ينشدكم كما ينشدني لمألت كتيبي من أمالي شعره» . ونراه يتناول في نقده الشعراء القدامى مع المحدثين ، فقد نقد الأعشى ، وساق المرزباني هذا الخبر في موشحه وقال : «حدثني عبد الله بن أحمد أن المبرد روى قول الأعشى :

وتبرد ببرد رداء العروس في الصيف رقرقت فيه العبيراً
وتسخن ليلة لا يستطيع نباحاً به الكلب إلا هريراً
ثم قال : هذا كلام مقبول ومستحسن ، إلا أنه أتى به في بيتين ، وطول الخطاب . وأجود منه قول طرفة بن العبد :

تطرد البرد بحر ساخن وعيك القيظ إن جاء بقر
فقول طرفة أجمع وأخصر»^(٣) .

ونراه يفضل الكلام المعبر الخالي من التزيد ، والبعيد عن المبالغة والتكلف . وقد روى السيد المرتضى في أماليه أن المبرد قال : «مما يفضل لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيد ، وبعده عن الاستعانة قول أبي حية

(١) المبرد للقرني ، ص : ١١٠ وما بعدها .

(٢) العبر في خبر من غير ٧٩/٢ .

(٣) البلاغة ، ص : ٨٢ - ٨٣ .

الشميري :

رمتني وستر الله بيني وبينها عشيّة آرام الكناس رميم
 ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم
 ثم قال : «إن الشاعر يقول : أصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شاباً لَرَمَيْتُ
 كما رُميت ، وَقَتَّتْ كما قُتِنَتْ . ولكن عهدي قد تطاول بالشباب ، وهذا كلام
 واضح» . ثم فسر الاستعانة فقال : «معناها : أن يدخل في الكلام ما لا حاجة
 بالمستمع إليه ليصحح رويًا ، أو يقيم وزناً إن كان في شعر ، وليتذكر به ما بعده
 إن كان في كلام منشور»^(١) . وعقب المرتضى على ذلك بأن البيتين اللذين
 نسبهما المبرد إلى أبي حية هما لنصيب^(٢) . والاستعانة ، بهذا المعنى ، حشو
 يقتضيه الوزن ، وهذا ما عليه أكثر العلماء في زمنه ، فالجاحظ قبله ، كما
 رأينا ، يفسر معنى البلاغة ويوضحها بما نقله عن صديق له قال : «قلت
 للعتابي : ما البلاغة؟ قال : كل من أفهمك حاجتك من غير إعادة ولا حُبسة ولا
 استعانة ، فهو بليغ»^(٣) .

وهذا بشر بن المعتمر يقول : «ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً
 كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما
 يفسدهما ويهجنهما»^(٤) .

والمبرد ممن تكلم عن اختيار الثوب اللفظي الملائم للمعنى القائم في
 النفس ، يقول عنه صاحب (المثل السائر) : «ليس أحد في زمني إلا وهو
 يسألني عن مشكل من معاني القرآن ، أو مشكل من معاني الحديث ، أو غير

(١) أمالي السيد المرتضى ١/٤٤٧ ، ويراجع : الكامل ١/٤٥ .

(٢) المبرد للقرني ، ص : ١١٠ .

(٣) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٥٣ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٣٦ .

ذلك من مشكلات علم العربية. فأنا ، بهذا ، إمام الناس في زمني . ولكن ، إذا عرضت لي حاجة إلى بعض إخواني وأردت أن أكتب إليه شيئاً في أمرها أحجم ، لأنني أرتب المعنى في نفسي ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية ، فلا أستطيع » ، وعلق القرني على قوله هذا بأنه يفرق بين العلم والكتابة ، وأنه يشير إلى أن الإنسان يقع له المعنى الشريف ويعجز عن اختيار الألفاظ الملائمة لشرف هذا المعنى^(١). وهذا إشارة وتلميح إلى قضية اللفظ والمعنى . ولعل المبرد يريد أن يصل إلى ما عبر عنه الجاحظ بقوله : « لا يكون الكلام بمستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك »^(٢). وقوله : « فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة »^(٣).

ومن قواعد استحسان الشعر التي يعتمدها المبرد في أحسن المراثي : « ما خلط فيه بين مدح وتفجع على المرثي . فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولهجة معربة ، ونظم غير متفاوت ، فهو الغاية من كلام المخلوقين »^(٤).

وكان يحكم بالقبح على عدم المشاكلة في النظم ، فقد عاب على الكميت ما عاب نصيب عليه في قول الكميت :

وقد رأينا بها حوراً منعمة أيضاً تكامل فيها الدل والشنب

قال المبرد : « والذي عاب نصيب من قوله (تكامل فيها الدل والشنب)

قبيح جداً ، وذلك أن الكلام لم يجز على نظم ، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما

(١) المبرد للقرني ، ص : ٩٧ - ٩٨ .

(٢) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ١٥ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

(٤) الكامل ٢ / ٧٨٩ .

يشاكلها. وأول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق ، وأن يوضع على رسم المشاكلة^(١). وهذا رأي هام للمبرد ، فهو يؤكد النظم ، لكن بتعبير يختلف عن تعبیر عبد القاهر الجرجاني . ولعل هذه الأحكام وأمثالها هي التي كانت نواة لما عرف فيما بعد من مصطلحات بلاغية ، كالمشاكلة التي أشار إليها المبرد آنفاً.

وعاب على الفرزدق قوله :

يا أخت ناجية بن سامة إنني أخشى عليك بني إن طلبوا دمي
فقال : «ما للمتغزل وذكر الأولاد ، وطلب الثارات؟! هلا قال كما قال
جرير^(٢) :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا
ومما جمع فيه المبرد بين الألفاظ والمعاني في الاستحسان ، قوله : «ومما
يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره ، قول أعرابي من بني كلاب :
فمن يك لم يغرِض فإني وناقتي بحجر إلى أهل الحمى غرِضانِ
هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإنني وإياها لمختلفان
تحن فتبدي ما بها من صبابة وأخفي الذي لولا الأسي لقضاني
يريد : لقضى علي ، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن
مخرج^(٣) .

ونراه يطلق أحكاماً على الأبيات الشعرية بالحسن أو القبح ، فيقول : فلان
أحسن وأجاد ، وفلان أحسن كل الإحسان . وهذا ما صنعه مع أبيات الشماخ بن

(١) المصدر ذاته ٦٩١/٢ .

(٢) المصدر ذاته ٣٧١/١ .

(٣) المصدر ذاته ٤٦/١ .

ضرار في مديح عرابة بن أوس ، قال الشاعر مادحاً له :

رأيت عَرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تلقاها عَرابةٌ باليمين
إذا بلَّغْتَنِي وحملتِ رحلي عَرابة فاشريقي بدم الوتين^(١)

وقد عاب بعض الرواة قوله : (فاشريقي بدم الوتين) ، قال المبرد : «كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائها عنها ، فقد قال رسول الله ﷺ للأَنْصارِية المأسورة بمكة وقد نجت على ناقة رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إني نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها. فقال رسول الله ﷺ : لبس ما جزيتها»^(٢).

ومما لم يعب في هذا المعنى ، قول عبد الله بن رواحة الأنصاري لما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زيد وجعفر على جيش مؤتة^(٣) :

إذا بلَّغْتَنِي وحملتِ رحلي مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمي وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وحكم بالحسن على بيت عروة بن الورد :

تقول سليمان لو أقيمت لسرنا ولم تدر أنني للمقام أطوف
فقال : «هذا واضح حسن . وأملح ما جاء في هذا المعنى وأحسن ، قولُ

(١) الوتين : عرق بالقلب ، إذا انقطع مات صاحبه . جمع : وُتْنٌ وأوْتِنَةٌ . القاموس (مادة : الوتن). واشريقي : من الشَّرْق ، والشرق بالماء والريق ، أي : دخول الماء الحلق حتى يغص به . اللسان (مادة : شرق).

(٢) هو جزء من حديث رواه عمران بن حصين رضي الله عنه ، أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٣٦٥-٣٦٦ ح ٨٢٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ٥/ ٢٠٦-٢٠٧ ح ٩٣٩٥ ، وسعيد بن منصور في سننه ٢/ ٣٩٦-٣٩٧ ح ٢٩٦٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ٥/ ٢٣١ ح ٨٧٦٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ٩/ ١٠٩ ح ١٨٠٢٤ .

(٣) الكامل ١/ ١٦٧ وما بعدها .

أبي تمام حبيب بن أوس الطائي :

آلفة النحيبِ كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الأوباب إلا لموقوف على ترح الوداع
فهذا مليح حسن^(١) .

ويستحسن قول الفرزدق في جرير :

فهل ضربةُ الرومي جاعلةٌ لكم أباً عن كليب أو أباً مثلَ دارمِ
ولكنه يعيب على الفرزدق قوله :

وما مثله في الحي إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه
وذلك بوصفه أنه «من أقبح الضرورة ، وأهجن الألفاظ ، وأبعد المعاني» ، يقصد بذلك استهجانَه لما وقع فيه من التقديم والتأخير مما أدى إلى صعوبة الوقوف على دلالة . وفي ذلك إشارة خاطفة إلى قضية التعقيد اللفظي والمعنوي ، فيحكم على الألفاظ بالهجنة ، وعلى المعاني بالبعد ، وهي آراء نقدية ، لكن انطلاقاً من مقاييس بلاغية .

ونلاحظ مزجه بين النقد والبلاغة ، فيقول : «وقد يضطر الشاعر المفلق ، والخطيب المصقّع ، والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق ، واللفظ المستكره ، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره ، وسترتا من شينه ، وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ، كان ذلك له ، ولكن يفتقر السيء للحسن ، والبعيد للقريب»^(٢) .

ويعلق عليه د . إحسان عباس بقوله إنه «ذو رأي نقدي طريف في العيب

(١) البلاغة ، ص : ٨٥ - ٨٦ .

(٢) الكامل ١/٤٠ .

الذي يستطيع الحسن من حوله أن يغطي عليه . وهذا الرأي لم يحسن صاحبه نفسه استغلاله ، لأن الكشف عن العيوب كان إحدى مهمات النقد الكبرى . وقد أدرك المبرد ما في رأيه هذا من ضعف ، فرد على نفسه بأنه يسلم أن الكلام القبيح يبدو أشد قبحاً إذا وقع بين الكلام الجميل من حوله ، فليست المسألة مسألة خفاء ، وإنما مردها إلى اغتفار القبح من أجل الجمال»^(١) .

«وإذا كان أبو العباس يحس ما كان في الشعر أحياناً من نبوة وضعف أو إسفاف ، فإنه لا يقلل عن ذلك إحساساً بما يتسم به من لمحات تسترعي الانتباه ، وتنتزع الإعجاب»^(٢) .

وفي رسالته (البلاغة) نجده يسوق جملة من الموازنات الدقيقة بين الأقوال المنظومة والمنثورة ، ويصدر حكمه الصريح على كل منها . وهو حكم مبني على التعليل في كل نص يورده . وإذا وجد سبباً للضعف أو التقصير ذكره مع أوجه الاستحسان التي يراها^(٣) . فإذا أراد أن يبرز الأسلوب الأدبي الرفيع ، بل أرقى أساليب البلاغة ، نراه يعرض لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول في حقه : « . . . فإذا جاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، رأيت من كل منطلق بائناً ، وعلى كل قول عالياً ، ولكل لفظ قاهراً . فمن ذلك أنهم قالوا في باب تصرف الزمان ، وتصرم الآجال ، أقاويل معناها واحد ، وقال رسول الله ﷺ ، فنفهم مسافة ما بين الكلامين ، واتضاع الأقاويل عن قوله عليه السلام ، وإن كانت غايات من قول غيره ، كقول لبيد بن ربيعة :

كانت قناتي لا تلين لغامز فالأنها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحنني ، فإذا السلامة داءً

(١) تاريخ النقد الأدبي ، ص : ٩٤ .

(٢) المبرد : حياته وأثاره ، د . جمعة المبروك ، ص : ٨٥ .

(٣) دراسات في نقد الأدب العربي ، ص : ٢٤٢ .

يقول : تقرّبي من أجلي . ومثله قول النمر بن تَوَلَب :

يسر الفتى طولُ السلامة والغنى فكيف ترى طولَ السلامةِ يفعلُ
يود الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحملُ
وقال حميد بن ثور :

أرى بصري قد خانني بعد صحة وحسبك داءً أن تصح وتسلما
ولا يلبث العصران يوماً وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

فكل هؤلاء محسن مجمل ، والفضل منهم لأوزنهم كلاماً ، وأسبقهم إلى المعنى . ولكن ، أين هذا كله من قول رسول الله ﷺ : (كفى بالسلامة داءً)^(١)؟! فانظر إلى هذا الكلام الذي لا زيادة فيه ولا نقصان ، لا يطول المعنى ولا يقصر عنه! وانظر إلى فخامته وجزالته ، يقول : (كفى بالسلامة داءً) ، فأى كلام أوعظ ، أو زجرٍ في القلب أوقر؟! إن هذا الكلام ليجل عن أن يبلغه وصف ، أو يحيط بكنهه قول ، فإذا جاء القرآن نظرت إلى الشيء الذي هو أوحده ، والقول الذي هو مُنْتَبِتٌ . ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان؟! والداعي والبرهان؟! وإنما وضع السراج للبصير المستضيء ، لا للأعمى والمتعامي!^(٢) .

وأورد قول أحد الشعراء في وصف قوم يحملون الشعر ولا يفهمونه قولاً أجاد فيه ، وتقدم كلام كثير من المخلوقين ، فقال :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أوراخ ما في الغرائر

(١) مسند الشهاب ٣٠٢/٢ ح ١٤٠٩ ، عن حماد بن زيد عن أنس بن مالك ، سنده منقطع

بينهما ، لم يسمع منه ، وإنما سمع خلأثق من التابعين . تهذيب الأسماء واللغات ١

/١٦٧ - ١٦٨ ، وسير أعلام النبلاء ٤٥٦/٦ - ٤٦٤ ترجمة ١٦٩ .

(٢) البلاغة ، ص : ٨٧ - ٩٠ .

ثم علق عليه بقوله : «فهيئات هذا من قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا
التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾^(١)»^(٢).

وقال أردشير بن بابك في عهده : «وقد قال الأولون منا : (القتل أقل
للقتل). يقول : إذا قتل القاتل ، امتنع غيره من التعرض للقتل . فهذا أحسن
الكلام من كلام مثله . . . فإذا جاء قوله - جل وعز - : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾^(٣) ، جاء ما لا اعتراض عليه ، ولا معارضة له . وقوله :
﴿ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ، خطر ثانٍ ، فتبارك الله الذي ليس كمثله شيء»^(٤).

وقد تناول المبرد السرقات الأدبية ، وحاول الكشف عنها لدى الشعراء ،
لا كما وصفه الصولي بأنه لا يعرف استراقات الشعراء^(٥) . وأورد لأبي تمام
بعض الأبيات ، ولم ينف عنه السرقة ، فهو يبين مواطنها في شعره ، ولا يكتفي
بهذا ، بل يبين مواطن زيادات المعاني التي أضافها أبو تمام إلى المعنى
المسروق . وهذه الزيادة الطريفة - في رأي المبرد - دليل على حذق أبي تمام
وحسن صنيعه . وهكذا ، نجده يقول في أبيات لابن أبي عيينة أن حبيب بن
أوس الطائي أخذ معناها ، وجمعه في ألفاظ ، وقال في حقه إنه هكذا يفعل
الحاذق بالكلام^(٦).

في ذات الوقت ، نجده يدل على المعاني المسروقة ، لا بين الشعر
والشعر فحسب ، بل بين الشعر والنثر أيضاً^(٧) ، «من ذلك ، فطنته إلى المعاني

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .

(٢) البلاغة للمبرد ، ص : ٩٠ - ٩١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧٩ .

(٤) البلاغة للمبرد ، ص : ٩٢ .

(٥) أخبار أبي تمام ، ص : ٩ .

(٦) الكامل ، ويراجع الحركة النقدية ، ص : ٣١ .

(٧) تاريخ الأدب العربي ، د . إحسان عباس ، ص : ٩١ .

الأصيلة التي حاول السارق إخفاءها في ثياب عباراته ، ومن هؤلاء السراق : أبو العتاهية الذي لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الأخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة . وقوله :
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
مأخوذ من قول الحسن : (اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها).
ويعرض لكثير من السرقات عنده ، ويقول : ولا يخفى أن الاهتمام إلى مواضع الأخذ والاحتذاء من أدق ما يفتن إليه النقاد الحاذقون بالأدب وصناعته ونقده»^(١).

و د . طبانة يعد المبرد من أوائل من تكلم عن السرقات ، وفتح باب القول في هذا الموضوع الدقيق ، فولجته من بعده كثير من النقاد ، وتوسعوا فيه ، وعدوه باباً من الأبواب الهامة في النقد . وكان أستاذاً لمن جاء بعده ، كالعسكري والأمدي والقاضي الجرجاني وعبد القاهر والسكاكي ، ولكن لا ينسى أن بعض سابقيه من النقاد قد تناولوا هذا الموضوع ، ولكنهم لم يزيدوا في هذا تناول على الإشارة إلى مواضع التشابه التي لمحوها في أثناء دراستهم»^(٢).

كما ألمح المبرد أثناء اختياره للأشعار إلى موقفه من قضية اللفظ والمعنى ، غير أنه لم يتناول القضية بشيء من التفسير ، «فهو يدور في الفلك النقدي العام في عصره دون أن يكون ذا بصر نافذ يميزه بين النقاد ، ولكنه ابن العصر ومصطلح العصر»^(٣).

كما نلاحظ المزج المستمر بين النقد والبلاغة ، فبينما هو يتحدث عن

(١) دراسات في نقد الأدب العربي ، ص : ٢٣٩ .

(٢) المرجع ذاته ، ص : ٢٣٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ، د . إحسان عباس ، ص : ٩٤ .

الإطناب والإيجاز - وهما من علم المعاني - نراه يبرز قضية اللفظ والمعنى ، ويورد مثلاً من شعر الفرزدق في هجاء جرير :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
«فتأويل هذا أن بيت جرير في العرب ، كالبيت الواهن الضعيف ، فقال :
(وقضى عليك به الكتاب المنزل) ، يريد قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَإِنَّ
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) . وهذا فن من فنون
البديع ، ويدعى الاقتباس ، لكنه لم يذكره بمصطلحه الذي عرف به فيما بعد .
ويمتاز أسلوبه بالفصاحة والبيان . وتدل كتاباته على أن له ذوقاً أدبياً رفيعاً ، وله
قدرة على البيان وفصاحة التعبير»^(٢) .

وعلى الرغم من هذا الأسلوب ، فقد أخذ عليه النقاد مأخذ ، منها أسلوب
الاستطراد الذي غلب عليه كما غلب على الجاحظ ، وهذه سمة التأليف في
ذلك العصر ، وهي عدم تناول موضوع بعينه ، بل الانتقال من موضوع إلى
آخر ، فلم يُعَنَّ بالتنظيم والتقسيم . يقول د . طبانة : «فقدت آثارهم روح
التنظيم ، وأسلوب الدراسة المنهجية ، وتشتت تبعاً لذلك آراؤهم في النقد مع
ما في كثير منها من الجودة وعظم حظها من التوفيق»^(٣) .

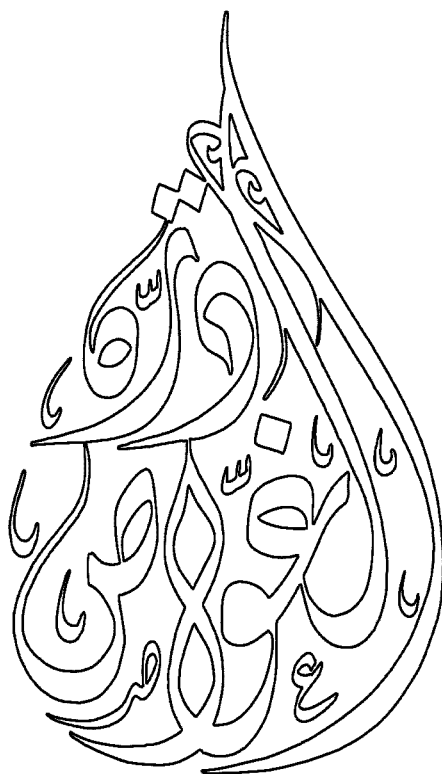
ونود أن نختم هذا الفصل بقول أستاذنا المبارك : «إن في كتاب الكامل
عامة ثروة بلاغية ونقدية قيمة ، أفاد منها من جاء بعد أبي العباس من العلماء .
ولعل إدراك أهل العصر لبعض فنون البلاغة إلى جانب عوامل أخرى كان
الممهد الأول لظهور أول كتاب نظري عرفناه في البلاغة ، وهو كتاب
(البديع) ، لمؤلفه عبد الله بن المعتز ، تلميذ أبي العباس المبرد»^(٤) .

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤١ .

(٢) المتقضب ، مقدمة المحقق عزيمة ، ص : ١٠٤ .

(٣) دراسات في نقد الأدب العربي ، ص : ٢٤٦ .

(٤) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٦٤ .



مَكْتَبَةُ الدُّرُورِ وَالرَّجُلِيِّينَ

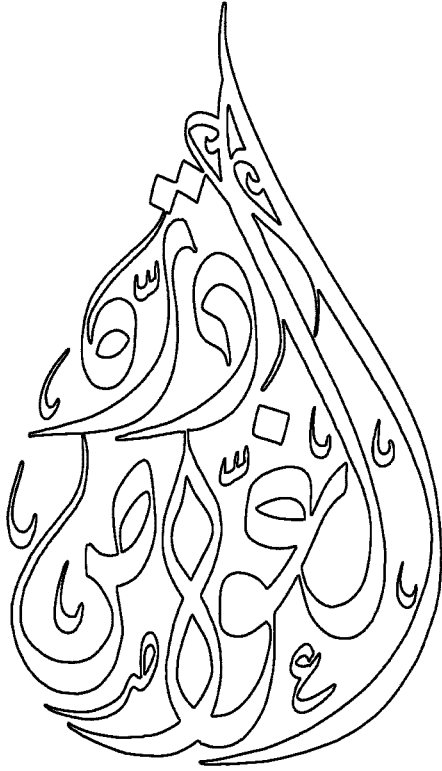
الفصل الرابع

العلاقة بين البلاغة والنقد عند

الإمام أبي العباس ثعلب

(٢٠٠هـ - ٢٩١هـ)

- المبحث الأول : التعريف بالإمام ثعلب .
- المبحث الثاني : البلاغة عند الإمام ثعلب .
- المبحث الثالث : النقد عند الإمام ثعلب .



المبحث الأول : التعريف بالإمام ثعلب :

* نسبه وولادته ومكانته :

هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني ولأء. كنيته : أبو العباس ، ولقبه : ثعلب. وهو إمام الكوفيين في النحو واللغة. كان محدثاً مشهوراً بالحفظ والفقہ والديانة. ولد في بغداد عام مئتين للهجرة. وتوفي فيها عام واحد وتسعين ومئتين للهجرة في خلافة المكتفي ، وقد بلغ التسعين وأكثر ، ودفن في مقابر باب الشام^(١).

قال القفطي : «كان ثقة ، حجة ، صالحاً ، ديناً ، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ، ورواية الشعر القديم»^(٢). وقال أبو بكر التاريخي : «ثعلب فاروق النحويين ، والمعيار على اللغويين من الكوفيين والبصريين ، أصدقهم لساناً ، وأعظمهم شأناً ، وأبعدهم ذكراً ، وأرفعهم قدراً ، وأوضحهم علماً ، وأرفعهم مقاماً ، وأثبتهم حفظاً ، وأوفرهم حظاً في

(١) ترجمته في مراتب النحويين ، ص : ١٥١-١٥٢- ط ١٩٧٤ ، وطبقات النحويين واللغويين ١٤١/١- ١٥٠- دار المعارف- ط ٢ ، وتاريخ العلماء النحويين ، ص : ١٨١-١٨٢- ط . جامعة الإمام ، وتاريخ بغداد ٥/٢٠٤- ٢١٢ ، ونزهة الألباء ، ص : ١٧٣-١٧٦ ، والمستظم ، وفيات ٢٩١ هـ ، ص : ٢٤- ٢٥ ، ومعجم الأدباء ٢/٥٥- ٧٨ ، وإنباه الرواة ١/١٧٣- ١٨٦ ، ونور القبس ، ص : ٣٣٤-٣٣٧ ، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٧٥ ، ووفيات الأعيان ١/١٠٢- ١٠٤ ، والمختصر في تاريخ البشر ٢/٦٠ ، وإشارة التعيين ، ص : ٥١- ٥٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥ ، وتذكرة الحفاظ ٢/٦٦٦ ، والبلغة ، ص : ٦٥- ٦٦ ، وبغية الوعاة ١/٣٩٦- ٣٩٨ ، والمزهر : ٢/٤١٢ ، ومفتاح السعادة ، ص : ١٨٠- ١٨٢ ، وكشف الظنون ١/٣٣ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٢٠٥/٢ ، ١٢٧٢ ، وشذرات الذهب ٣/٣٨٣- دار ابن كثير- ، والأعلام ١/١٦٧ ، وتاريخ بروكلمان ٢/٢١٠- ٢١٤ .

(٢) إنباه الرواة ١/١٧٤ .

الدين والدنيا»^(١). وقد ابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة ، وحفظ كتب الفراء فلم يشذ منها حرف ، وعني بالنحو أكثر من غيره ، فلما أتقنه أكتب على الشعر والمعاني والغريب»^(٢). وعندما سئل المبرد عنه قال : «أعلم الكوفيين ثعلب . فذكر له الفراء ، فقال : ولا يعشُرُهُ»^(٣). وهذه شهادة طيبة يعترف بها المبرد لثعلب رغم ما كان بينهما من المنافرات ، واختلاف الناس في تفضيل كل منهما على صاحبه . وكان ابن الأعرابي إذا شك في شيء قال له : «ما تقول يا أبا العباس في هذا؟» ثقة بغزارة حفظه .

وعندما عقد أبو الطيب اللغوي في كتابه (مراتب النحويين) موازنة بينه وبين ابن السكيت ، قال : «انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثلعب ، وكانا ثقتين أمينين . . . وكان ثعلب أعلمهما بالنحو»^(٤).

* شيوخه وتلاميذه :

أخذ الإمام ثعلب العلم عن علي بن المغيرة الأثرم (ت ٢٣٠هـ) ، ومحمد ابن زياد الأعرابي (ت ٢٣١هـ) ، ومحمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) ، والزيبر بن بكار (ت ٢٥٦هـ) ، وسلمة بن عاصم (ت ٢٧٠هـ)^(٥).

وأبرز من أخذ عنه العلم : إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ) ، وأبو موسى الحامض (ت ٣٠٥هـ) ، وأبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي (ت ٣١٠هـ) ، وعلي بن سليمان الأخفش (ت ٣١٥هـ) ، وإبراهيم بن عرفة (نفظويه) (ت ٣٢٣هـ) ، وأبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) ، وأبو عمر الزاهد

(١) معجم الأدباء ٥٥/٢ ، وإنباه الرواة ١٧٦/١-١٧٧ ، ونور القبس من المقتبس ، ص : ٣٣٧-٣٣٤ .

(٢) بغية الوعاة ١/٣٩٦ .

(٣) إنباه الرواة ١/١٧٧ .

(٤) شرح ديوان زهير ، مقدمة الشارح ، ص : ٢٢ .

(٥) تذكرة الحفاظ ٢/٦٦٦ . وكان الذهبي يقول عنه : شيخ اللغة والعربية .

المعروف بـغلام ثعلب (ت ٣٤٥هـ)^(١). وكان يرى في أواخر أيامه أنه أنفق عمره في الاشتغال بالنحو ، وعندما دخل عليه أحدهم قال له : «اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أهل الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغل يزيد وعمرو ، فليت شعري ! ما يكون حالي؟ فذهب صديقه مغتماً عليه ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «أقرىء أبا العباس عني السلام ، وقل له : أنت صاحب العلم المستطيل» . قال أبو عبد الله الروذباري : «أراد أن الكلام به يكمل ، والخطاب به يجمل ، وأن جميع العلوم مفتقرة إليه» .

* مصنفاته :

ألف الإمام ثعلب عديداً من الكتب في النحو واللغة ، ضاع كثير منها ، ونقل تلميذه ابن الأنباري كثيراً من أقواله في مؤلفاته : الزاهر ، وإيضاح الوقف والابتداء ، وشرح القصائد السبع الطوال .
وقد ذكر مؤلفاته ياقوت^(٢) .

أبرز مصنفاته التي وصلت إلينا ، هي :

١ - كتاب الفصيح^(٣) . قال عنه : «هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم . وقد ألفت عليه كثير من الشروح والتعليقات كالتلويح في شرح الفصيح للهروي ، وذيل الفصيح لموفق الدين البغدادي»^(٤) . كما شرحه أبو العباس الترمذي وسماه غريب الفصيح ، وشرحه أحمد بن يوسف الفهري اللبلي (ت ٦٩١هـ) تلميذ الشلوبين ، وسماه : تحفة

(١) نزهة الألباء ١/١٣٩ ، والتذكرة ٢/٦٦٦ .

(٢) معجم الأدباء ٢/٧٧ .

(٣) فصيح ثعلب والشروح عليه ؛ ص : ٢ . نشره وعلق عليه د . محمد عبد المنعم خفاجي ، وطبعه بالمطبعة النموذجية بمصر - ١٩٤٩ م .

(٤) طبع للمرة الأولى بمطبعة السعادة مع التلويح - مصر - ١٩٠٧ م .

المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح ، ثم اختصره في كتاب تحفة المجد^(١) .
ونقده علي بن حمزة البصري في كتابه : التنبيه على ما في الفصيح من الغلط .

٢ - قواعد الشعر^(٢) . وهو من أهم كتبه لما تضمنه من آراء في الشعر
والبلاغة والنقد ، وهو كتاب صغير ، لكنه جمّ المنافع والفوائد . وقد شكّ
بعضهم في صحة نسبة الكتاب إليه ، كما شكوا في نسبة كتاب الفصيح . يقول
السيوطي : «وذكر طائفة أن الفصيح ليس من تأليف ثعلب ، وإنما هو من تأليف
الحسن بن داود الرقي ، وقيل : تأليف يعقوب بن السكيت»^(٣) . لكن ، يجزم
بعضهم بصحة نسبته إلى الإمام ثعلب «نظراً لأنه يحتفظ بطابع ثعلب التعليمي
الجاف ذي التقاسيم والتعاريف الذي ينأى عنه طبع المبرد الذي كان يتسم
بالذوق وفصاحة البيان ، وانطلاق التعبير دون حدود أو قيود»^(٤) . وهذا النص
يؤكد ما ذهب إليه القفطي ؛ إذ قال : «كان هو ومحمد بن يزيد المبرد شيخي
وقتهما ، وكان المبرد يود الاجتماع به والمذاكرة ، فيمتنع ثعلب من ذلك ،
وسئل ختنه الدينوري عن ذلك فقال : المبرد حسن العبارة ؛ فإذا اجتمعا حكم
للمبرد ، فإن مذهب ثعلب مذهب المعلمين»^(٥) .

٣ - مجالس ثعلب^(٦) . وهو يتضمن أقوالاً في الشعر واللغة والنحو

(١) يراجع مقال أ. د. حاتم الضامن في مجلة : آفاق الثقافة والتراث ، س : ١٠ ، ٤٤ ، ص :
١٩٠ ، ٢٠٠٣ م .

(٢) حققه د. عبد المنعم خفاجي ، وطبعه في البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٤٨ م . كما حققه د.
رمضان عبد التواب ، ونشره في دار المعرفة - القاهرة - ١٩٦٦ م .

(٣) المزهر / ٢٠٧ ، وبغية الوعاة / ٣٩٧ .

(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ٢٢٩ . وقد جزم المستشرق الألماني نولدكه بذلك ،
ويراجع : قواعد الشعر ، ص : ١٣ - تح . د. رمضان عبد التواب .

(٥) إنباه الرواة / ١ / ١٨٠ .

(٦) شرحه وحققه أ. عبد السلام هارون - دار المعارف - مصر - ١٩٤٨ م . وترجم لثعلب ترجمة
وافية في مقدمة التحقيق . وفاته أنّ في الكتاب نقصاً ، وقفنا عليه في مخطوطات الكتاب .

والرواية. ويبدو أن ثعلباً لم يكن في مجالسه مهتماً بقضايا البلاغة اهتمامه بمسائل العربية والشروح اللغوية؛ فكتاب المجالس حافل بالنحو واللغة، قليل الحظ من البلاغة. وقد اشتملت هذه المجالس «على ضروب شتى من علوم العربية، وضمت في تضاعيفها كثيراً من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين. ونستطيع أن نقول: إن هذه المجالس من أهم الوثائق العلمية في بيان مذهب أهل الكوفة. ومما هو جدير بالذكر أن ثعلباً كثيراً ما يستعرض في أثناء المجالس بعض آراء أهل البصرة... وثعلب في ذلك كله الرجل الثقة الثبت الذي يملأ نفس القارئ إيماناً بصحة ما يجد فيه من رواية صادقة»^(١).

من مؤلفاته التي لم تصل إلينا :

اختلاف النحويين ، وفعلت وأفعلت ، والمصون في النحو^(٢) ، وإعراب القرآن ، والتصغير ، والوقف والابتداء .

قال فيه ابن النديم : «ولأبي العباس مجالسات وأمالٍ أملاها على أصحابه في مجالسه تحتوي على قطعة في النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر ، رواها عنه جماعة ، وعمل أبو العباس قطعة من دواوين العرب ، وفسّر غريبها؛ كالأعشى ، والنابتين ، والطفيل ، والطرماح ، وغيرهم»^(٣). كما ذكر ابن خلكان عشرين مصنفاً له^(٤) ، وذكر السيوطي له كتاب : مجاز الكلام وتصاريفه ، وقد ضاع مع الزمن وبقي ما نقله عنه في المزهري^(٥).

(١) المجالس ، مقدمة المحقق ١/ ٢٤ .

(٢) تاريخ العلماء النحويين ، ص : ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) الفهرست ، ص : ٨١ .

(٤) وفيات الأعيان ١/ ١٠٤ .

(٥) المزهري ١/ ٣٩٣ .

المبحث الثاني : البلاغة عند الإمام ثعلب :

أبرز الموضوعات التي تعرض لها الإمام ثعلب في علم المعاني والتي كانت منشورة في كتبه بإيجاز. من ذلك ما ذكره في مجالسه عن التقديم والتأخير ، وساق شواهد كثيرة ، منها : قول الله عز وجل : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾^(١) ، أي : كانوا من الزاهدين فيه ، أي شروه على زهد منهم^(٢) . وقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾^(٣) ، قال : «يقال : تدلى فدنا ، فقدم وأخر»^(٤) .

وكذلك تحدث عن الاستفهام وخروجه عن معناه الأصلي لأغراض بلاغية ، منها قوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴾^(٥) ، قال : «هذه الألف منهم تعجباً»^(٦) .

ومن أبرز موضوعات علم المعاني التي تعرض لها تحت عنوان : (فنون الشعر) هي : الأمر ، والنهي ، والخبر ، والاستخبار . وهذه تقسيمات سبقه إليها العلماء من قبل ، أمثال ابن قتيبة وغيره . يقول ابن قتيبة : «الكلام أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهي : الأمر ، والاستخبار ، والرغبة . وواحد يدخله الصدق والكذب ، وهو الخبر»^(٧) . وقد صنفت هذه ضمن فنون علم المعاني .

(١) سورة يوسف ، الآية : ٢٠ .

(٢) مجالس ثعلب ١/٢٠٧ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٨ .

(٤) المجالس ١/١٧٣ .

(٥) سورة الصافات ، الآية : ٥٨ .

(٦) المجالس ١/٢١٧ .

(٧) أدب الكاتب ، ص : ٧ ، ويراجع تفصيل ذلك في كتاب أستاذنا د . عبد القادر : أثر النحاة ، ص : ٢٢٩ .

وقد ذكر أحمد بن فارس في كتاب (الصاحبي) : «أن معاني الكلام عند أهل العلم عشرة : الخبر ، والاستخبار ، والأمر ، والنهي ، والدعاء ، والطلب ، والعرض ، والتضيض ، والتمني ، والتعجب . ثم إن هذه المعاني التي تفهم من تلك الأساليب لا تختص بها معاني الشعر وحده ، وإنما هي معاني للكلام جميعاً ، شعره ونثره»^(١) .

وبينما نرى الإمام ثعلباً يتحدث عن هذه الفنون ، نجده يقسمها ويفرّعها إلى موضوعات الشعر العربي ، فيقول : «هذه الأنواع الأربعة تتفرع إلى مدح ، ودعاء ، ورثاء ، واعتذار ، وتشبيب ، وتشبيه ، واقتصاص أخبار»^(٢) . ويضرب الأمثلة على ذلك ، فهو يتكلم عن أغراض الكلام التي يتناولها علم المعاني في باب : الإنشاء الطلبي على أنها من قواعد الشعر ، ويجعل التشبيه غرضاً من أغراض الشعر .

ويستشهد بقول امرئ القيس :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةٌ حَنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلٍ
ويعده من التشبيه الجيد الذي ليس فيه إفراط ولا تفريط ، وهو التشبيه الخارج عن التعدي والتقصير^(٣) .

ويتحدث عن التشبيه التمثيلي والتشبيه المتعدد ، ويسوق أمثلة له من الشعر ، كقول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثْقَبِ
وكقوله في تشبيه الطير :

(١) الصاحبي ، ص : ١٨٣ ، ويراجع : دراسات في نقد الأدب للدكتور طبانه ، ص : ٢٤٨-٢٤٩ .

(٢) قواعد الشعر ، تحقيق : د. رمضان عبد التواب ، ص : ٣٧ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٠ .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وَكْرِهَا العنابُ والحَشْفُ البالي
يقول ثعلب : « . . . ويزعم الرواة أن هذا أحسن شيء وجد في تشبيه
شيئين بشيئين في بيت واحد»^(١) .

ويسوق بيت النابغة الجعدي :

رمى ضرعَ نابٍ فاستمرَّ بطعنة كحاشيةِ البُرْدِ اليماني المُسَهَّم
ونرى ثعلباً يسوق الأمثلة الكثيرة على هذا النوع من التشبيه . واختياره لهذه
التشبيهات هو اختيار مصيب يكشف عن إحاطته بمحفوظ كثير . وحديثه عن التشبيه
دون أن يفصل في أنواعه وتفريعاته يدل على أن العلوم النظرية والمصطلحات لم
تكن ناضجة نضجاً كاملاً في ذهنه وأذهان غيره ممن عاصره أو سبقه .

وقد تناول المجاز العقلي والمجاز المرسل ، وساق أمثلة كثيرة في
مجالسه على المجاز ، واستشهد بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ،
وأقوال العرب ؛ فقال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال : إني
أبدعُ بي فاحملي ، قال أبو العباس : «الإبداع : أن تموت راحلته ، قال :
أُبدعُ بالرجل إذا ماتت راحلته»^(٢) ، فأسند الإبداع له . وبعضهم يعدّ ذلك من
المجاز ، وآخرون يعدّونها استعارة تمثيلية .

«وقال الأصمعي : قالوا : (لوى فلان عذاره عني) : وإنما العذار للفرس
والبعير . وقالوا : (لو جاريتني لجئت مضطرب العنان) ، وإنما العنان للدابة ،
أي : لو فاخرتني لاضطرب عنانك . ويقال : (أتى فلان فلاناً فما زال يُقتلُ في
ذُرْوَتِهِ وغارِبِهِ حتى صرّفه) ، وإنما يفعل ذلك بالبعير إذا خُتل ليُصرّف إلى
شيء . ويقال : (ألقي حبله على غاربه) ، والغارب للبعير . ويقال للرجل إذا

(١) قواعد الشعر ، ص : ٤١ .

(٢) مجالس ثعلب : ١٢٢/١ .

جاء باغياً : (جاء يَجُرُّ رَسَنَهُ). ويقال : (كلمت فلانا بكلمة فذهبت جازة الرَسَنِ) إذا تُسومع بها. ويقال : (ما أوقع طائرته) إذا كان ساكناً. و(فلان رَخِي اللَّبِّبِ) إذا كان في سعة يصنع ما شاء^(١).

وتحدث أبو العباس ثعلب عن الاستعارة ، فقال : «وهو أن يستعار للشيء اسم غيره ، أو معنى سواه ، كقول امرئ القيس في صفة الليل مستعيراً وصفه جمل :

فقلتُ له لما تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَزْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَالِ
وقول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفت كلّ تميمة لا تنفع
ولا ظفر للمنية . وقال مالك بن حريم الهمداني يصف قائداً :

فأوسعن عقبيه دماءً وأصبحتُ أناملُ رجليه رواعفَ دُمعاً^(٢)
ولا أنف للأنامل ولا عين . وكقول ذي الرمة :

سقاه الشرى كأسَ النعاسِ فرأسُهُ لِدِينِ الكرى من أوّلِ الليلِ ساجدُ
ولا دين للكرى ولا كأس للنعاس^(٣).

ونلمس أن ثعلباً - مما سبق - يسوق الشواهد على الاستعارة الممكنية ، وكان العلماء يسمونها الاستعارة بالكناية. ونرى الصولي في القرن الرابع (٣٣٥هـ) يجعل الاستعارة بالكناية «أجلّ استعارة وأحسنها ، وكلام العرب جارٍ

(١) المصدر ذاته : ١٢٢/١ .

(٢) كتاب الاختيارين؛ المفضليات والأصمعيات : «فأصبحت» بدل : «وأصبحت» ، ورواعف : قواطر ، أي : تقطر الدماء ، ص : ٢٣٧ .

(٣) قواعد الشعر ، ص : ٥٧ ، وما بعدها .

عليها»^(١). ولكن ، نرى حظ الاستعارة عنده أقل بكثير ، حيث إنها لم تتجاوز مثلاً واحداً أشار إليه إشارة خاطفة في مجالسه ، فقال : (فلان عبد غاريه) ، أي : بطنه وفرجه ، ثم يقول : الغار : الفرج في الجبل ، استعارة ههنا»^(٢).

ويبدو أن الاستعارة - كغيرها من فنون البلاغة - لم تتضح بأنواعها وتفرعاتها عنده ، ولم يعرفها تعريفاً متميزاً عن سبقة أو عاصره ، فالمبرد - كما مر معنا- يعرفها بقوله : «والعرب تستعير من بعض لبعض»^(٣). كذلك نرى ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) قد ذكرها قبله وأفرد لها باباً ، وعرفها بقوله : «العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجازاً لها ، أو مشاكلاً». ومع ذلك ، فقد عدّ التشبيه لوناً من ألوان الاستعارة»^(٤).

وكما تحدث الإمام ثعلب عن الاستعارة تحدث عن الكناية تحت عنوان : «لطافة المعنى» ، وهو الدلالة بالتعريض عن التصريح^(٥) ، واستشهد بقول امرئ القيس :

أَمْرُخُ خِيَامِهِمْ أَمْ عُشْرُ أَمِ الْقَلْبُ فِي إِثْرِهِمْ مَنْحَدِرُ
قال : أهم مقيمون كعود المرخ ، أم قد حطوا الرحلة كانهطاط العُشْرِ ، أم قد ارتحلوا ، فالقلب في إثرهم منحدر؟ وفيه قول آخر يدل على الإيماء الذي يقوم مقام التصريح لمن يحسن فهمه واستنباطه .

وقد ساق بعض الأمثلة على الكناية شرح بعضها وعلق عليها أحياناً ، وترك الآخر بلا تعليق .

(١) أخبار أبي تمام ، ص : ٣٧ ، ويراجع ما كتبه أستاذنا حول الموضوع في أثر النحاة ، ص : ٢٣٣ .

(٢) مجالس ثعلب : ٤٦٣/٢ - ط ١ - ١٩٤٨ م .

(٣) الكامل : ٣٧١/٢ ، ٦٣٨ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٠٢ - ١٠٧ .

(٥) قواعد الشعر ، ص : ٥٣ ، وما بعدها .

واستشهد بقول عروة بن الورد :

أقسّم جسمي في رسوم كثيرةٍ وأحسو قراح الماء والماء باردٌ
يريد : أوتر أضيافي بزادي . وكقول نصيب في سليمان بن عبد الملك :
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُهُ ولو سكتوا أثنتُ عليك الحقائقُ
يقول : لما فيها من عطائك .

ومما استعرضناه من أمثلة الكناية عنده ، نجده لم يقسمها أو يذكر أنواعها كما فعل معاصره المبرد ، حيث قسمها إلى أضرب - كما مر معنا - فذكر «التعمية ، والتغطية ، والرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، والتفخيم ، والتعظيم»^(١) . ولكنه يكتفي في كتابه (قواعد الشعر) بهذه الأمثلة عن الكناية ، ولو استعرضنا مجالسه لوجدنا فيها أمثلة للكناية والتعريض . وقد استمد شواهدا من القرآن الكريم ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال العرب ، فيقول : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾^(٢) ، « كما تقول للرجل : أحدنا كاذب أو أحدنا مخطيء ، تكذيباً جميلاً »^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ ﴾^(٤) ، قال : « العهد الذي أخذت عليكم في ظهر آدم عليه السلام »^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾^(٦) ، أي تهديد^(٧) . وقوله : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ

(١) الكامل ٢/ ٨٥٥ - ٨٥٦ .

(٢) سورة سبأ ، الآية : ٢٤ .

(٣) مجالس ثعلب ١/ ١٣٢ ، ويعتبر السكاكي هذا المثال من باب سوق المعلوم مساق غيره ، قال : « ولا أحب أن أقول : التجاهل » . مفتاح العلوم ، ص : ٤٢٧ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .

(٥) المصدر ذاته ١/ ٨٦ .

(٦) سورة الرحمن ، الآية : ٣١ .

(٧) المصدر ذاته ١/ ٨٥ .

الرُّؤُوفِ ﴿١﴾ ، قال : «مجالس اللهوء»^(٢) . ويستشهد بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «لا تقوم الساعة حتى تختم الأيدي » ، أي : حتى تمتنع عن العطية^(٣) . وقال ثعلب : «قيل لأعرابي : هل لك في البادية؟ قال : أما ما دام السعدان مستلقياً ، فلا» ، يقول ثعلب : «وهو أبدأً مستلقٍ» ، كره البادية^(٤) .

وقد تناول من المحسنات المعنوية : حسن الخروج ، والذي يسميه المتأخرون : حسن التخلص ، يقول ثعلب : «في حسن الخروج عن بكاء الطفل ، ووصف الإبل ، وتحمل الأظعان ، وفراق الجيران ، بغير : (دع ذا) ، و(عدّ عن ذا) و(اذكر ذا) ، بل من صدر إلى عجز لا يتعداه إلى سواه ، ولا يقرنه بغيره» . ويستشهد بأبيات من عيون القصائد العربية التي وفق شعراؤها للتخلص والانتقال من موضوع إلى آخر . قال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر :

لا تَشْكِي إلي وانجعي الأسد سود أهل الندى وأهل الفعالِ
وقول الحطيئة مادحاً ابن شماس :

فما زالت العوجاء ترمي زمامها إليك ابن شماس تروح وتغتدي
واستشهد بأبيات لعنترة ، وحاتم الطائي ، وحسان بن ثابت ، وذو الرمة الذي مدح هلال بن أحوز المازني^(٥) :

حنت إلى نَعَم الدهنا فقلت لها أمي هلالاً على التوفيق والرَّشَدِ
وهم ينتقلون من موضوع إلى آخر ويحسنون التخلص ، فمن بكاء الديار

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٧٢ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٨٦ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٢٠ .

(٤) المصدر ذاته ١/ ٢٨٥ .

(٥) قواعد الشعر ، ص : ٦٠ - ٦٢ .

ووصف الأطلال أو وصف الناقاة إلى المديح ، ومن النسب إلى الهجاء ، ومن النسب إلى الرثاء ، أو إلى أي موضوع أساس قيلت من أجله القصيدة . ولعل ثعلباً من أوائل من فطن إلى هذا المحسن المعنوي فذكره وحشد له الأمثلة التي توضح وتبرز ما يرمي إليه . لكن المتأخرين من البلاغيين أبدوا اهتمامهم بهذا المحسن المعنوي - كما سنرى فيما بعد - .

ومن المحسنات المعنوية التي ذكرها ثعلب : المبالغة ، وسماها : الإفراط في الإغراق^(١) ، وساق الأمثلة الدالة على الغلو في المعنى والمبالغة فيه ، فيصف سعة الطعنة على لسان ابن الرعلاء الغساني :

وغموسٍ تَضِلُّ فيها يد الآسِ - سي وَيَعِي طبيها بالدواء
وقول قيس بن سعد بن عبادة في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لو عدّد الناس ما فيه لما برحت تشنى الخناصر ، حتى ينفد العدد
ونلاحظ من الشواهد السابقة تناوله لموضوع المبالغة عموماً دون أي تفصيل لتفريعاتها - كما نجد ذلك عند المتأخرين - لكن ، نجد ذكراً للإفراط عند ابن قتيبة خلال حديثه عن الاستعارة^(٢) . وعند المبرد في حديثه عن التشبيه المفرط يقول : «من التشبيه المفرط المتجاوز» ، ويقول : «ومن عجب التشبيه في إفراط»^(٣) . كما نجد تلميذه ابن المعتز يعرفها بـ «الإفراط في الصفة» ، ويجعلها فناً من فنون البديع التي تناولها . «ولعل من سبقه ، ومنهم أستاذه ثعلب ، كانوا يتعرضون للموضوعات البلاغية وهم بصدد أبحاث قرآنية أو

(١) قواعد الشعر ، ص : ٤٩ - ٥٣ . يقول د. خفاجي : الإفراط : الإغراق ، ص : ١٨ ، بينما

يذكره د. رمضان في تحقيقه : الإفراط في الإغراق ، ص : ٤٩ .

(٢) مشكل تأويل القرآن ، ص : ١٢٧ .

(٣) الكامل ٢/ ١٠٣٣ - ١٠٣٤ .

لغوية. أما هو ، فقد عمد إلى التأليف البلاغي عن قصد ، وجعل من البلاغة غاية تأليفه^(١) . ونجدها عند قدامة باسم المبالغة .

ويتحدث ثعلب عن مجاورة الأضداد ، وهو ما سماه البلاغيون الطباق أو المطابقة كما سنجد ذلك عند ابن المعتز ، ويعرفه بقوله : «وهو ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده»^(٢) ، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾^(٣) ، وهو ما نسميه طباق الإيجاب . وبعد هذا المثال ، يورد الأمثلة دونما شرح أو تصنيف لها من حيث نوعها البلاغي ، ويسوق بيت الشاعر عمرو بن معد يكرب :

أعاذل إنه مالٌ طريف أحبُّ إلي من مالٍ تِلَادِ
وقول الأعشى :

أرى مَنْ عَصَاكَ أَصْبَحَ محزواً وكعبُ الذي يطيعك عالٍ
وقول حميد بن ثور يصف ذئباً :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي الـ عدوٌّ بأخرى فهو يقظانٌ هاجعٌ^(٤)

ثم يعود إلى ذكر المطابق ، فيعرفه بأنه «تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين»^(٥) ، نحو قوله تعالى : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيَّتٍ﴾^(٦) . لكن الأمثلة التي ساقها تنطبق على طباق السلب ، وتعريفه ينطبق

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٦٨ .

(٢) قواعد الشعر ، ص : ١٢ وما بعدها .

(٣) سورة الأعلى ، الآية : ١٣ .

(٤) وبيروى : نائم ، وهو خطأ ، لأن قصيدة حميد بن ثور التي منها هذا البيت عينية ، والبيت في ديوانه وروايته :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان هاجع
(٥) قواعد الشعر ، ص : ٦٤ وما بعدها .

(٦) سورة إبراهيم ، الآية : ١٧ .

على ما سماه البلاغيون : الجناس ، كقول طرفة :
كريمٌ يُروِّي نفسه في حياته ستعلمُ إن متنا صدَى أيننا الصّدي
ويفسر فيقول : الصّدى : الهامة ، والصدى : العطش^(١) .

ورواية التبريزي : (إن متنا غداً) ، لكنه يشرح الرواية الثانية (إن متنا
صدى) أي : عطشاً ، و«الصّديُّ : العطشان». ويروى : (إن متنا صدى أيننا
الصدى) ، والمراد بالصدى في هذه الرواية : ما كانت العرب تزعمه في
الجاهلية أن الرجل إذا قُتل ولم يُدرك بثأره ، خرج من رأسه طائر يشبه البوم
فيصيح : اسقوني اسقوني ، فإذا أخذ بثأره سكن . والصدى في غير هذا ،
قالوا : بدُن الميت ، والصوت الذي تسمعه من ناحية الجبل ونحوه ، وذكر
البوم ، ويقال : هو صدى مالٍ ، أي : الذي يقوم به^(٢) .

وقول الشاعر :

وكم من حسام مرتدٍ بحسامِهِ وكم عاملٍ فيهم بأسمر عاملٍ
وقول أعرابي :

تمرّي بإنسانها إنسانٌ مقلّتها إنسانةٌ من جوارى الحيّ عَطْبُولُ
أي تمرّي بذكر حبيبها دموعها .

ثم يأتي بأمثلة على الجناس تحت عنوان المطابق ، منها قول جرير :
فما زال معقولاً عقالٌ عن الندى وما زال محبوباً عن الخير حابس^(٣)
وينتقل إلى تعريف الجزالة في اللفظ ، فيقول : «ما لم يكن بالمُعرب
المستغلق البدوي ، ولا بالسفساف العامي ، ولكن ما اشتد أسره ، وسهل

(١) قواعد الشعر ، ص : ٦٤ .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ، ص : ١١٣ .

(٣) قواعد الشعر ، ص : ٦٥ .

لفظه ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ، وتُوهِمُ إمكانه»^(١) ،
أي : السهل الممتنع ، ليس السوقي المستهجن ، ولا الوعر المستغلق .

وفصاحة الكلمة عنده هي التي يكثر دورانها على الألسنة وتستعملها
العرب ، «ولا يبعد أنه ألف كتابه (الفصيح) لهذا الغرض»^(٢) . وهذا الكلام كان
معروفاً لدى العلماء قبله ، فقد ذكر قريباً منه ابن قتيبة في (أدب الكاتب) عندما
قال : «إنما يكره وحشي الغريب ، وتعقيد الكلام»^(٣) .

ولم يكن ثعلب يهتم بذكر ألوان من البلاغة وحدها ، وإنما كان يحاول أن
يخرج صور البلاغة بشيء من النقد ، فتناول تحت عنوان (انساق النظم) عيوب
الشعر المتصلة بنظمه ووزنه وقافيته ، وتناول سلامته مما يخل بفصاحته وصحة
قوافيه ، كالسناد والإقواء والإكفاء والإجازة والإيطاء^(٤) .

ولم ينسَ ما يخل بفصاحة اللفظ من اجتماع حروف متنافرة كالسين
والشين ، والعين والغين ، والتاء والثاء ، مما أصبح فيما بعد من شروط
الفصاحة التي تتناول تنافر الحروف .

ويقسم ثعلب الشعر من حيث قيمته الفنية إلى أقسام خمسة : الأبيات
المعدلة ، والأبيات الغرّ ، والأبيات المحجلة ، والأبيات الموضحة ،
والأبيات المرجلة ، «فالمعدل من الأبيات»^(٥) : ما اعتدل شطراه ، وتكافأت
حاشيتاه ، وتم بأيهما وَقَفَ على معناه ، وإنما بذّها سابقاً ، ولاح دونها نيراً
لاختصاصه بفضلهما ، وسلبه محاسنها لتوسطه ذروتها ، ونأيه عن التعدي
والتقصير دونها ، فهو أقرب الأشعار إلى البلاغة ، وأحمدتها عند أهل الرواية .

(١) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ وما بعدها .

(٢) أثر النحاة ، ص : ٢٣٥ .

(٣) أدب الكاتب ، ص : ١٧ .

(٤) قواعد الشعر ، ص : ٦٧ وما بعدها .

(٥) قواعد الشعر ، ص : ٧٠ وما بعدها .

وساق الأمثلة الشعرية على ذلك ، منها قول زهير :
ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقهُ ومن لا يُكْرَم نفسه لا يُكْرَم
وقول الأضبط بن قريع :
اقْبَلْ من الدهر ما أتاك به من قرّ عيناً بعيشه نفعه
وقول عبيد بن الأبرص :
من يسأل الناس يحرمُوه وسائل الله لا يخيبُ
وهذه الأمثلة التي ساقها من أهم مقاييس ثعلب في استجداء الشعر ، وهو ما يدعوه وحدة البيت ، «وهي استقلال البيت بمعناه ، بل استقلال كل شطر من شطري البيت بمعناه ليصبح مثلاً سائراً»^(١).

ثم ينتقل إلى الأبيات الغرّ ، ويعرفها بقوله : «وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه ، وكان لو طُرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته . وإنما ألفنا هذه الأبيات مُصليةً ، وجعلناها بالسوابق لاحقة لملاءمتها إياها ، وممازجتها لها في اتفاق أوائلها وإن افرق أواخرها ، لأن سبيل المتكلم الإفهام ، وبغية المكلم الاستفهام ، فأخفّ الكلام على الناطق مؤونة ، وأسهله على السامع محملاً ما فهم عن ابتدائه مرادُ قائله . فقد وصفت العرب الإيجاز فقرظته ، وذكرت الاختصار ففضلته ، فقالوا : لمحة دالة لا تخطيء ولا تبطيء»^(٢).

ونلاحظ ثعلباً في تناوله للأبيات الغرّ يتحدث عن الإيجاز ، وهو من فن علم المعاني ، ويذكر لنا أقوال البلاغيين قبله عندما عرفوا البلاغة بأنها الإيجاز

(١) دراسات في نقد الأدب ، ص : ٢٥٢ .

(٢) قواعد الشعر ، ص : ٧٦ وما بعدها . والأغر من الخيل : هو الذي في جبهته بياض .
القاموس (مادة : غرر) .

وأنها اللمحة الدالة ، كما عند المبرد في (الكامل) ، وعند الجاحظ في قوله :
لا تخطيء ولا تبطئي ، في كتابه (البيان والتبيين) - كما مر سابقاً- ويستشهد
بأبيات ، منها قول حسان بن ثابت :

رَبِّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا لٍ وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَعِيمُ
وقول الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهَّأ لهم سادوا
ومن الأبيات الغر التي يفهم معناها من صدرها الأول ، ينتقل إلى الأبيات
المحجلة ، «وهي ما نُتج قافية البيت عن عروضه ، وأبان عجزه بغية قائله ،
وكان كتحجيل الخيل . وإنما رتبنا هذه في الطبقة الثالثة ، وجعلناها للمصلية
تالية ، لشبهها بها ، ومقاربتها لها ، وانتظامها معها»^(١) . فراه يقسم الشعر إلى
طبقات ، ويجعل الأبيات المحجلة في الطبقة الثالثة ، لكن مضمونها يشير إلى
نوع بلاغي سماه علماء البلاغة «الإرصاد أو التسهيم» واعتبروه من المحسنات
المعنوية من فن البديع^(٢) . ويستشهد ببعض الأبيات ، منها قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن بيك حولاً كاملاً فقد اعتذر
وقول الآخر :

ولو عن ثنا غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد
ويعرض للطبقة الرابعة من الشعر ، وهي الأبيات الموضحة^(٣) ، وهي ما

(١) قواعد الشعر ، ص : ٨٠ وما بعدها . والتحجيل : بياض في قوائم الفرس كلها .
القاموس (مادة حجل) .

(٢) فن البديع ، ص : ٥٨ ، والإرصاد : هو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إن
عرف الروي . الإيضاح ، ص : ٣٩٤ ، وتحجير التحبير ، باب التسهيم ، ص : ٢٦٣ .

(٣) قواعد الشعر ، ص : ٥٨ . الوضح في الفرس : التحجيل في القوائم . القاموس (مادة :
وَضَحَ) .

استقلت أجزاءها ، وتعاضدت وصولها ، وكثرت فقرها ، واعتدلت فصولها ، فهي كالخيل الموضحة ، والفصوص المجزعة ، والبرود المحبرة ، كقول الخنساء :

المجد حلتُهُ ، والجود علتُهُ والصدق حوزتُهُ إن قرنهُ هابا
خطابُ مُعضلةٍ فرّاجٍ مظلمةٍ إن هابَ مُضلعةٍ أنى له بابا

وقول أخت مسعود بن شداد العدوية ترثيه :

حمال ألوية ، شهاد أندية شداد أوهية ، فراج أسداد^(١)
قتال طاغية ، ربّاء مرّقةٍ قوال محكمةٍ ، فكأك أقياد

ونلاحظ أن الأبيات ذكرت في كتب البلاغيين تحت «فن الترصيع»^(٢) ،

فقد ذكره قدامة بن جعفر بعنوان «الترصيع» ، وسرى ذلك في حينه ، فقد ذكر الأمثلة ذاتها^(٣) . كما أن أبا هلال العسكري ذكر بعض الأمثلة التي ساقها ثعلب على الأبيات الموضحة في باب «الترصيع» . ولم يكن قصد الإمام ثعلب من الأبيات الموضحة هو استقلال الجملة في المعنى داخل البيت الواحد ، وإنما هو لون من ألوان البديع ، وهو اجتماع صفات متعددة تجتمع كلها في بيت واحد لإبراز صورة من المدح أو الذم ، لكنها مستقلة من حيث الشكل^(٤) . وأما

(١) قواعد الشعر ، ص : ٨٨ . وقدم د . خفاجي : شداد أوهية على شهاد أندية . قواعد الشعر ، ص : ٦٢ .

(٢) تحرير التحرير ، ص : ٣٠٢ ، والإيضاح ، ص : ٤٤٢ . وعده من المحسنات اللفظية ، فقال : «الترصيع ، وهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان ، متفقة الأعجاز أو متقاربتها» . المفتاح ، ص : ٤٣١ ، وهو من أنواع السجع ، أي : أن يقسم الكاتب أو الشاعر العبارات إلى أقسام منفصلة ، وكل لفظ يتفق وما يقابله في الوزن والحرف الأخير . فن البديع ، ص : ١١٨ .

(٣) نقد الشعر ، ص : ٣٨ .

(٤) أثر النحاة ، ص : ٢٣٧ .

من ادعى وحدة الجملة واستقلالها عن جارتها داخل البيت الواحد ، فذلك إسراف غير مقبول ، وإهدار للتماسك أو الوحدة التي ينبغي أن تتوافر في العمل الشعري كله^(١) .

أخيراً ، يعرض للطبقة الخامسة من الشعر وهي «الأبيات المرجلة التي يكمل معنى كل بيت منها بتمامه ، ولا ينفصل الكلام منه ببعض يحسن الوقوف عليه غير قافيته ، فهو أبعداها من عمود البلاغة ، وأدّمها عند أهل الرواية ، إذ كان فهم الابتدء مقروناً بآخره ، وصدوره منوطاً بعجزه ، فلو طرحت قافية البيت وجبت استحالته ، ونسب إلى التخليط قائله»^(٢) . واستشهد بأمثلة كثيرة لفحول الشعراء ، كقول امرئ القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان
وقول جرثومة بن مالك القريعي يمدح هلال بن أحوز المازني :
فتى إن تجده مُعَوِزاً من تلاده فليس من الرأي الأصيل بمُعَوِز
وقول جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل
وهذا النوع يعدّه البلاغيون من المحسنات اللفظية ، وهي «رد أعجاز الكلام على ما تقدمها» ، أو رد العجز على الصدر . ولكن ثعلباً يمزج بينه وبين بعض الفنون كالإرصاد ، وذلك خلال تعريفه وسوقه الأمثلة ، كقول الخنساء ترثي صخرأ :

يهيئُ النفوس وهون النفوس س يوم الكريهة أبقى لها^(٣)

(١) دراسات في نقد الأدب ، ص : ٢٥٦ .

(٢) قواعد الشعر ، ص : ٨٨ وما بعدها . والترجيل : بياض في إحدى رجلي الدابة . القاموس (مادة رَجَل).

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٩١ .

وقول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ يمينٌ ، أو نفار ، أو جلاء^(١)
ولكن ، نرى النقاد والبلاغيين بعده قد بينوا هذا المصطلح وأوسعوه
دراسة وبحثاً - كما سنرى عند ابن المعتز وغيره في الفصول الآتية - إلا أن ثعلباً
لم يصف شيئاً جديداً إلى أصناف البديع ، بل لم يحصها كما أحصاها ابن قتيبة
في (تأويل مشكل القرآن)^(٢).

المبحث الثالث : النقد عند الإمام ثعلب :

نلاحظ من تقسيمات ثعلب الشعر إلى طبقات واختياره الألقاب لأبياته مما
هو مستحسن من صفات الخيل ، يشبه العروضيين . وإذا كان العروضيون قد
أخذوا مصطلحات البيت العروضي من الخباء ، فقالوا : الأسباب والأوتاد
والفواصل والعروض ، فإن ثعلباً استمد مصطلحات نقده للشعر من الخيل ،
فقال : منها الغرّ ، ومنها الموضّح ، ومنها المرجلّ ، ومنها المحجلّ . وهذا ما
أكده الدكتور إحسان عباس بقوله : «وإذا كان الخليل قد وقف على الخباء في
وضع مصطلح العروض ، ووقف الأصمعي عند الفحل من الجمال في تصور
الشاعرية ، فما أحرأه أن يقف عند الفرس . ولعله استوحى قول ابن الأعرابي :
استجيدوا القوافي ، فإنها حوافر الشعر ، لأن حوافر الفرس هي أوثق ما فيه ،
وبها نهوضه ، وعليها اعتماده . فوسع صاحب (قواعد الشعر) هذه اللمحة ،
وأوجد مصطلحاً مستمداً من الفرس يدور حول وصف البيت المفرد . فالبيت
إما معدّل ، أو أغرّ ، أو محجلّ ، أو مرجلّ . فأما الأغرّ والمحجلّ ، فهما
واضحا العلاقة بالفرس . وأما المعدلّ ، فلاعتدال جانبي الجواد . . . ومن

(١) المصدر ذاته ، ص : ٨٩ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ١٦١ .

هنا ، يتضح أن جهد المؤلف لا يتعدى ابتكار المصطلح أو توسيع دلالاته^(١) . ويقول الدكتور سلام : «... وأتى بتعريفات لم نعهدها عند غيره ، اقتبسها من صفات الخيل ، على حين اقتبس غيره من صفات الثياب... ولعل في هذا نفسه دليلاً على تحفظ ثعلب واستغراقه في القديم وعدم إقباله على الحضارة بفكره وذوقه... واعتماده مقاييس الشعر القديم التي تعارف عليها الرواة واللغويون ، لا ما تعارف عليه الشعراء والكتاب. ومنها : تفضيله للشعر الوسط الذي يحوي الإيجاز في القول ، والإتيان باللفظ على قدر المعنى دون تفریط أو إسراف ، فمال بذوقه إلى القصد وعدم المبالغة»^(٢) .

ويقول د. أحمد طاهر حسنين : «ومن أهم إضافات ثعلب في رأبي : تلك المصطلحات التي أوردتها ، وهي مرتبطة بالبيئة العربية ، كأن يخلع على بعض الأبيات الشعرية تسميات هي ألصق ما تكون بالخيل العربية. ودلالة هذا كبيرة في مجال إثبات أصالة البلاغة العربية ، وأنها ، على الأقل حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ظلت عربية لحماً ودماً. ولن يزلزل من هذا الحكم تلك الإشارات التي تظالعنا في كتب الجاحظ أو ابن قتيبة من معرفة بعض الأصول أو القواعد أو التعريفات من بلاغات أخرى. ويتميز جهد ثعلب في مجال المصطلحات بكونه همزة وصل حقيقية بين سابقه (أو معاصريه) ولاحقيه»^(٣) . والكتاب ، كما وصفه د. إحسان عباس : «بما فيه من اضطراب الأنواع والتقسيمات وعدم وضوح منهج معين في تبويبه ، يدل على أن مؤلفه لم يدرك القرن الرابع ولا قرأ لابن طباطبا أو لقدامة ، بل ولم يعرف بديع ابن المعتز. وإذا كان ابن سلام قد تناول مقاييس الأصمعي بالصياغة الجديدة ، فإن مؤلف

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٨٥-٨٦ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ١٦ .

(٣) المصطلح البلاغي وتطوره ، ص : ٣١٦ وما بعدها .

(قواعد الشعر) قد عاد إلى الخليل فتحدث عما يخل باتساق النظم . وذلك شيء قد وقف عنده ابن سلام نفسه ، وسيقف عليه قدامة^(١) . . . وليس فيه أي صدى لذلك الجَيْشَان الذي حفل به القرن الثالث^(٢) ، بل اتسم بالمحافظة على القديم والتمجيد به . وكان متأثراً بأستاذه الأصمعي ، وهذا ما أكده د . أحمد طاهر ، إذ قال : «كان ثعلب نحوياً بالدرجة الأولى . والنحوي ، بوجه عام ، يتميز بمعرفة الحدود ، والميل إلى ضبط المسائل ، وتقنين المادة . وهكذا كان ثعلب حين تعامل مع البلاغة العربية ، لم ينس أدواته تماماً . وربما لهذا السبب يجيء تحديده لما عرضه من مصطلحات تحديداً دقيقاً يتفوق به على ابن المعتز نفسه . وترينا النماذج التي أوردها نوعاً من نضجه الفني ، وحسنه البياني تجاه ما يختار أو يناقش . ولعل صفة النحوي أو اللغوي غلبت عليه أكثر ، فحجبت عنا رؤية الجانب الآخر من عبقريته ومساهماته في مجال البلاغة العربية»^(٣) .

وأكد المعنى ذاته د . محمد زغلول سلام ، إذ قال : «نتبين أثر ذوق ثعلب اللغوي ، وأفقه المحدود في تأويل الشعر وفهم مراميه البيانية ، وجوانبه الجمالية ، واستغرقتة كثرة الحدود ، مما قلل من شأن الكتاب»^(٤) .

لكن الدكتور إحسان عباس يقر أنه «ليس له في مجالسه تعليق نقدي واحد . وإذا تحدث عن الشعراء أورد تعليقات مجملة سريعة ، مثل قوله : (الفرزدق وجريير أشعر من ذي الرمة ، وذو الرمة أشعر من كثير ، وكثير أشعر من جميل)»^(٥) . وهكذا يفاضل بين الشعراء ، ثم يقول عن (كتاب قواعد الشعر) :

(١) الصواب : [وقف عليه ابن قتيبة] ، وذلك لتقدم وفاته ، إذ توفي سنة ٢٧٦ هـ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٨٣ ، ٨٥ .

(٣) المصطلح البلاغي وتطوره ، ص : ٣١٨ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ١٥٧ .

(٥) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٨٣ .

«لن نجد ناقداً سوى مؤلف هذا الكتاب يجعل قواعد الشعر هي : الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وأن فنون الشعر من مدح وثناء... إنما تنبع من هذه القواعد ثم يجمع إلى هذا كله حديثاً عن لطافة المعنى ، وعن حسن الخروج ، ومجاورة الأضداد ، والمطابقة ، ثم عن جزالة اللفظ ، واتساق النظم . كل ذلك في سطور وبانتقال مفاجيء من موضوع إلى آخر»^(١).

لكننا نجد في كلام د. إحسان عباس غبناً للإمام ثعلب ، فكل من سبقه أو عاصره كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد ، نراهم ينتقلون من معنى إلى آخر ، ومن مصطلح - إن صح القول - إلى آخر دون حدود واضحة فاصلة ، وقد عرف ذلك في القرن الثالث للهجرة . ولا ننس ذكر ابن قتيبة لفنون الشعر ، إذ اعتبرها اعتباراً مشابهاً لثعلب ، وقد جاء ذكر ذلك في حينه^(٢).

ويقول د. رمضان عبد التواب : «إننا لا ندعي أن هذا الكتاب يحتوي على نظريات كبيرة في النقد والبلاغة ، ولكنه - على أي حال - لبنة في ذلك البناء الضخم الذي اكتمل على مر الأيام ، وهو مرآة صادقة لحالة ذلك العلم في عصور الدراسة العربية الأولى ، ويعتبر خزانة صغيرة لمجموعة لا بأس بها من الشواهد الشعرية البليغة ، إذ يحتوي على مائتي بيت تقريباً من عيون الشعر العربي»^(٣).

ويقول د. خفاجي : «وهو أول أثر علمي لعالم من علماء القرن الثالث يتحدث فيه مؤلفه عن الشعر بهذا اللون من الدقة والتحديد والوضوح ، والفهم للشعر والأدب ، والتذوق لهما ، والوقوف على آثار بلاغتهما»^(٤).

(١) المرجع ذاته ، ص : ٨٤ .

(٢) يراجع : ص : ١٢٩ من هذا البحث .

(٣) قواعد الشعر ، مقدمة تحقيق د. رمضان عبد التواب ، ص : ١٧ .

(٤) المصدر ذاته (مقدمة تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي) ، ص : ٥٤ .

ويقول د. محمد زغلول : « . . . وإذا كان لهذا الكتاب من أهمية ، فإنما تكون في سبقه على كتابي (البديع) و(نقد الشعر) ، وإن كنا لا نجزم بسببه لابن المعتز ، فقد ألف كتابه عام ٢٧٤هـ ، ولا نعرف تاريخ تأليف كتاب ثعلب على وجه التحديد ، ولكننا مع ذلك نقر بأستاذية ثعلب لابن المعتز»^(١) . ويقر د. خفاجي بتأثر ابن المعتز بأستاذه ثعلب يقول : «إن ابن المعتز بنى كتابه (البديع) على نظرية ثعلب التي وضعها في (قواعد الشعر). ونكاد نجزم بأن ثعلباً ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه البديع عام ٢٧٤هـ ، لأن ثعلباً عالم معمر ، ولأنه لو كان ابن المعتز قد سبقه بالتأليف ، لما استطاع ثعلب أن يقف عند هذا الحد في عرض ألوان البيان والبديع والتي ألم بها ابن المعتز . . . إذ كان ثعلب - ولا شك - سيستفيد من دراسات ابن المعتز لو كان ابن المعتز قد ألف كتابه (البديع) قبل أن يؤلف أستاذه (قواعد الشعر)»^(٢) .

ونحن ، سواء وافقناه أم خالفناه في رأيه ، لا نشك في أن البلاغة عند ابن المعتز - وهو الذي كان تلميذاً للمبرد ثم ثعلب - استقيت من مصادر عربية أصيلة .

ويقول أ. عبد السلام هارون : « . . . وأبو العباس أديب عبقرى الذوق . وبالنظر فيما اختاره من أشعار العرب وأرجازها وأخبارها ، يلمس القارىء طيب الانتخاب ، وجودة الاختيار ، وروح الأديب ، ودقة العالم»^(٣) .

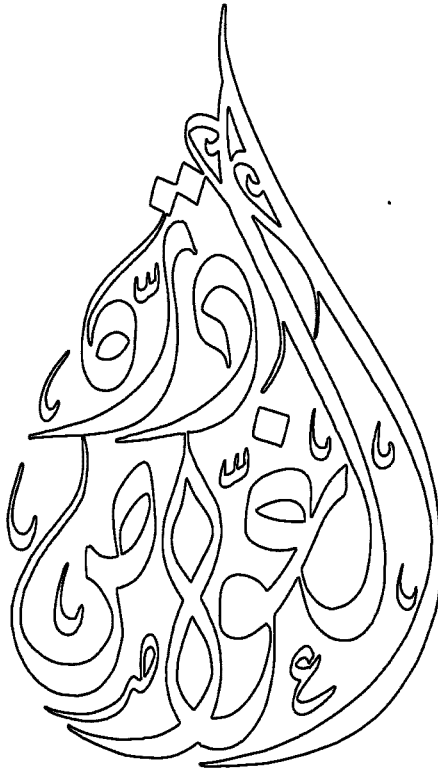
وهكذا ، يأخذ كتاب (قواعد الشعر) مكانه بين كتب النقد والبلاغة العربية دالاً على عصره المتقدم الذي وضع علماءه اللبنة الأولى في بناء ذلك العلم الذي أصبح دوحة ذات فروع باسقة كثيرة الأفنان في العصور التالية ، ويعدّ

(١) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ١٦١ .

(٢) قواعد الشعر ، مقدمة تحقيق د. خفاجي ، ص : ٥٦ .

(٣) المجالس ، مقدمة المحقق ١/ ٢٤ .

«مرحلة وسطى بين مرحلتين : الأولى ، وهي مرحلة الاحتكام إلى المعاني وقياس الأدب بجودتها ووضوحها وفخامتها ، والمرحلة الأخرى ، وهي مرحلة العناية بالصورة الأدبية أو مرحلة تصنيع الأدب وصبغه بالصبغة البيانية . وقد كانت نظرة ثعلب إلى هذين الاتجاهين واضحة في هذا الكتاب»^(١) .



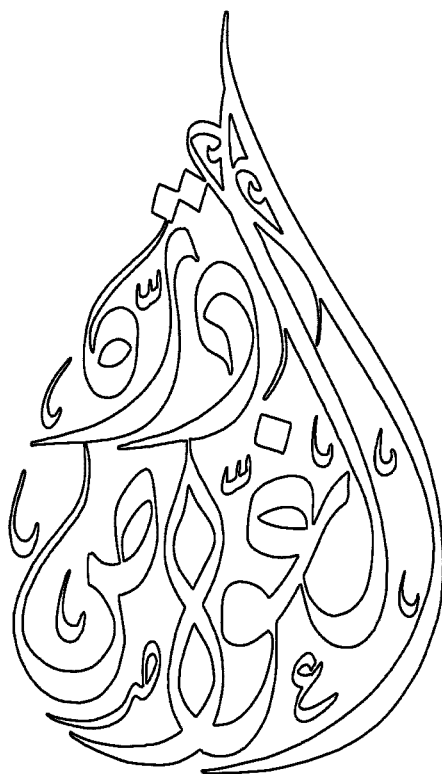
(١) دراسات في نقد الأدب ، ص : ٢٥٦ .

الفصل الخامس

العلاقة بين البلاغة والنقد

عند ابن المعتزات 296 هـ

- المبحث الأول : التعريف بابن المعتز .
- المبحث الثاني : البلاغة عند ابن المعتز .
- المبحث الثالث : النقد عند ابن المعتز .



المبحث الأول : التعريف بابن المعتز^(١) :

* نسبه ، وولادته وآراء العلماء فيه :

هو عبد الله بن المعتز بالله ، يكنى أبا العباس . ولد سنة سبع وأربعين ومئتين للهجرة . وهو شاعر مطبوع ، قال عنه الصولي : « . . . شاعر مفلق ، حسن الطبع ، واسع الفكر ، كثير الحفظ والعلم ، يحسن في النظم والنثر ، من شعراء بني هاشم المتقدمين وعلماهم . ومن نشأ في الرواية والسماع ، سمع من صعودا صاحب الفراء ، وأخذ عنه اللغة والغريب ، وعن أعراب فصحاء كانوا يقدمون سر من رأى . ما رأيت عباسياً قط أجمع منه ولا أقرب لساناً كان من قلب ، يقدم أهل العلم ويؤثرهم . وكان أحمد بن سعيد الدمشقي مؤدبه لا يفارقه»^(٢) . كما أخذ العلم عن شيخي البصرة والكوفة : المبرد وثلعب - روى عنه أشعاره محمد بن يحيى الصولي وغيره^(٣) . - وقال عنه ابن النديم : « . . . واحد دهره في الأدب والشعر . لقي العلماء من النحويين والأخباريين ، كثير السماع ، غزير الرواية . . . »^(٤) . وكانت داره مغانماً لأهل الأدب ، وكان

(١) ترجمته في : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم للصولي ، ص : ١٠٧ - ٢٩٧ ، والفهرست ، ص : ١٢٩ - ١٣٠ ، وثمار القلوب ، ص : ٣١٨ - ٣٢٢ ، وتاريخ بغداد ٩٥/١٠ - ١٠١ ، وأبناء نجباء الأبناء ، ص : ١٥٤ - ١٥٦ ، ونزهة الألبا ، ص : ١٧٦ - ١٧٧ ، ومعجم الأدباء ٤/١٥١٩ - ١٥٢٦ ، ووفيات الأعيان ٣/٧٦ - ٧٩ ، ومفتاح السعادة ١/١٩٩ - ٢٠٠ ، وتاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ٢/٣٤٥ - ٣٤٦ ، وشذرات الذهب ٣/٤٠٥ - ٤٠٩ ، والأعلام ٤/١١٨ - ١١٩ . وللدكتور الخفاجي كتاب : ابن المعتز وتراثه في النقد والأدب والبيان ، وللأستاذ عبد العزيز سيد الأهل : عبد الله بن المعتز : أدبه وعلمه ، ومحمد عبد العزيز الكفراوي : عبد الله بن المعتز : حياته وإنتاجه .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ، ص : ١٠٧ وما بعدها .

(٣) تاريخ بغداد ٩٥/١٠ - ١٠١ ، ومعجم الأدباء ٤/١٥٢٠ .

(٤) الفهرست ، ص : ١٢٩ - ١٣٠ .

يجالسه منهم جماعة^(١). وقال عنه الأنباري : «... محاسن شعره كثيرة جداً»^(٢). وقال ياقوت : «... وقد أخذ من كل فن من العلوم بنصيب»^(٣). ووصفه طاش كبري زاده بأنه «كان بليغاً ، شاعراً مطبوعاً مقتدرراً على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، جيد القريحة ، حسن الإبداع للمعاني ، مخالطاً للعلماء والأدباء ، معدوداً من جماعتهم»^(٤). وكان فاضلاً أديباً علامة ، له تصانيف . تولى الخلافة يوماً وليلة .

* مصنفاته :

ترك لنا ابن المعتر أكثر من اثني عشر مصنفاً ، منها :

- ١ - كتاب البديع^(٥) .
- ٢ - ديوان شعر^(٦) .
- ٣ - فصول التماثيل^(٧) .
- ٤ - كتاب سرقات الشعراء^(٨) .

- (١) أشعار أولاد الخلفاء ، ص : ١٠٧ .
- (٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري ، ص : ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٣) معجم الأدباء ٤ / ١٥٢٠ .
- (٤) مفتاح السعادة ١ / ١٩٩ - ٢٠٠ .
- (٥) طبع في ليدن بعناية كراتشوفسكي ، وشرحه د . عبد المنعم خفاجي - البابي الحلبي - ط ١ - القاهرة - ١٩٤٥ .
- (٦) ديوان ابن المعتر برواية الصولي ، طبع في جزئين في استانبول سنة ١٩٥٠ ، وحققه د . عبد الباقي يحيى الشواي - رسالة دكتوراه - فيينا - النمسا - ١٩٥٩ ، وشرحه وقدم له أ . ميشيل نعمان - طبع في الشركة اللبنانية للكتاب - ط ١ - بيروت - ١٩٦٩ ، وحققه : د . يونس أحمد السامرائي - عالم الكتب - بيروت - ط ١ - ١٩٩٧ .
- (٧) حقيقه : جورج قنازق وفهد أبو خضرة - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٨٩ .
- (٨) ذكره الأمدي في المؤلف والمختلف ، ص : ٢١٥ ، والموازنة ١ / ٢٧٣ ، ٣٠٤ .

٥ - طبقات الشعراء المحدثين^(١).

كما ترك لنا كثيراً من الرسائل الأدبية والنقدية^(٢). وقد ذكر المرزباني في موشحه رسالة ابن المعتز في نقد أبي تمام^(٣). كما احتفظ بها أبو حيان التوحيدي كاملة في مقدمة كتابه (البصائر والذخائر)^(٤). وذكر له الصولي شعراً كثيراً لم يرد في ديوانه ، كما أورد له كثيراً من الرسائل النادرة^(٥).

* وفاته :

مات ابن المعتز مقتولاً سنة ست وتسعين ومائتين^(٦).

المبحث الثاني : البلاغة عند ابن المعتز :

عُرف ابن المعتز أنه كان أديباً ذوّاقاً مثقفاً بثقافة عربية أصيلة ، يمدّه بها أصل يصل إلى بني هاشم ، ويرويها ويتعهدّها شيخا البصرة والكوفة في النحو واللغة : المبرد وثعلب ، ويرعاها مؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقي . وبذلك ، تضافرت أسباب كثيرة في صقل موهبته . وفي هذا الفصل ، سنحاول إمطة اللثام عن علاقة البلاغة والنقد عنده .

عُرف ابن المعتز البلاغة بقوله : « هي أن تقرب ما تريد ، ولم تُطل سفر الكلام ، أو هي البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام »^(٧) . وألف في البلاغة

(١) حققه د. عبد الستار فراج .

(٢) جمع رسائله وحقّقها د. عبد المنعم خفاجي - البابي الحلبي - ط ١ - ١٩٤٦ ، بالإضافة إلى أرجوزته في المعتضد وفي ذم الصبوح .

(٣) الموشح ، ص : ٤٧٠ وما بعدها ، ورسالته في محاسن أبي تمام ومساويه ، جمعها وحقّقها د. عبد الكريم الحبيب - جامعة البعث - حمص - سورية .

(٤) البصائر والذخائر ١/٩٣ - ٩٤ .

(٥) أشعار أولاد الخلفاء ، ص : ١٠٧ - ٢٩٧ .

(٦) تاريخ الخميس ٢/٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٧) وفيات الأعيان ٣/٧٧ ، ورسالته ، ص : ٦٥ .

كتاباً سماه (البديع) ، وهو من أوائل الكتب المصنفة التي عرفناها في هذا الباب ، إذ لم يتجاوز ابن المعتز فيه الفن الذي وضعه من أجله ، على حين أن المؤلفات السابقة مزجت مسائل البلاغة بموضوعات أُخر ، فكانت البلاغة منشورة في تضاعيفها .

ولم يكن ابن المعتز أول من استعمل لفظ «البديع» ليطلقه على الفنون البلاغية ، وإنما كانت الكلمة مستعملة قبله^(١) . وقد استخدمها الجاحظ بمفهومها البلاغي عندما تحدث عن بديع بعض الشعراء - كما مر معنا في الفصل الأول من الباب الأول - . على أن مصطلح البديع عند ابن المعتز يشمل الفنون البلاغية التي قسمها إلى خمسة أبواب أساسية ، وهي : باب الاستعارة ، وباب التجنيس ، وباب المطابقة ، وباب ردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها ، وباب المذهب الكلامي . ثم جعل لها ثلاثة عشر فناً فرعياً ، وعدّها من محاسن الكلام ، وهي : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج من معنى إلى معنى ، وتأکید المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض ، والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعانات الشاعر نفسه في القوافي ، وتكلفه من ذلك ما ليس له ، وحسن الابتداءات .

ولسنا مع د . طبانة في رأيه القائل إن ابن المعتز لم يؤلف كتابه في وقت واحد ، بل ألفه على مرحلتين : مرحلة للفنون الخمسة الأولى ، ثم إنه سمع اعتراضاً على صنيعه لقصره البديع على تلك الفنون ، فتابع كتابة بقية المحسنات ، وضمها إلى الفنون الخمسة لينفي عن نفسه تهمة الجهل بتلك البقية^(٢) . واستدل على ذلك بما أقحمه ابن المعتز من قول بعد ذكره فنون

(١) يراجع : بديع القرآن لابن أبي الإصبع ، ص : ٦ وما بعدها .

(٢) دراسات في نقد الأدب العربي للدكتور طبانة ، ص : ١٩٧ - مكتبة الأنجلو - ط ٣ - ١٩٦٠ ، والبيان العربي ، ص : ١٣٣ - ١٣٤ .

البديع الخمسة وقبل إيراده المحسنات : «... وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين . وأول من نسخه مني : علي بن هارون بن يحيى المنجم» ، فقد كتب خاتمته التي اعتاد كل مؤلف أن ينهي بها مؤلفه^(١) .

وأرى أنه ليس في الكتاب ما يدل على ذلك غير هذه العبارة ، لأن ابن المعتز نفسه قال : «... إنما أطلق عليه اسم البديع هو ما يذكره الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، أما العلماء باللغة والشعر القديم ، فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو . ويعلم الناظر أنا اقتصرنا على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيقٍ في معرفتها^(٢) .

ونحن مع أستاذنا د . حسين في تساؤله عن السبب الذي من أجله لم يدخل ابن المعتز المحسنات ضمن ألوان البديع ويسوي بينهما ، مع أنه تباهى بأنه لم يجمع فنون البديع قبله أحد ! ولا بد له من التزام الدقة في تصنيفه حتى يكون أهلاً لهذا التفاخر ، واختلاف التسمية يعني بالضرورة عنده اختلاف المسميات ! وخلص إلى أن البديع عند ابن المعتز في تقديره أرقى درجة من المحسن وإن كان لم يصب في ذلك كل الإصابة ، فبعض الألوان التي ضمنها المحسنات كانت أرفع درجة من بعض ألوان البديع ، وكان أجدر به أن لا ينظمها في سلك المحسنات^(٣) . وعليه ، فإن رأي د . طبانة لا يمكن التعويل عليه هنا ، ولعل رأي أستاذنا أقرب إلى الصواب .

على أن الجدير بالذكر هنا هو أن نعرف هل كانت تلك الفنون الثلاثة عشر التي أتبعها ابن المعتز للبديع ، وعدّها من المحسنات داخلة في مفهوم البديع في عصره ؟ ذلك لأن البديع في عصره يشمل كل الصور والأساليب البلاغية ،

(١) البديع ، ص : ٥٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٥٨ .

(٣) أثر النحلة في البحث البلاغي للدكتور عبد القادر حسين ، ص : ٢٤٢ .

وليس بمفهومه الخاص الذي تحدد فيما بعد والذي يشمل المحسنات المعنوية واللفظية .

ولو استعرضنا الفنون البلاغية التي ذكرها ابن المعتز ، لوجدنا الفن الأول من فنون البديع عنده هو فن الاستعارة ، فقد تكلم عنه وجعله في الباب الأول من كتابه ، وعرفه بأنه «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها»^(١) ، وأورد له أمثلة من القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ وآثار الصحابة والتابعين ، ثم جاء بأمثلة من الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي ، وأمثلة من شعر المحدثين ، وتمثل بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾^(٣) ، والاستعارة في قوله تعالى : ﴿ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ، و﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ .

ثم عرض لأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، كقوله : «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيعة طار إليها»^(٤) .

وبعد أن أورد كلام الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم من التابعين وأشعار القدماء والمحدثين ، أتى ببعض الاستعارات المعية التي لم يوفق أصحابها ، ووصفها بأنها مما عيب من الشعر والكلام ، وأنه إنما أخبر بالقليل منها ليُعرف فيجتنب^(٥) ، لكنه لم يفصل كما فصل البلاغيون المتأخرون من حيث ذكر أحد

(١) البديع ، ص : ٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٢٤ .

(٤) جزء من حديث صحيح يروى عن أبي هريرة - مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخرجه مسلم في صحيحه ، أوله - واللفظ له - : «من خير معاش الناس لهم : رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يتغي القتل . . . » ٣/١٥٠٣ ح ١٨٨٩ ، وابن ماجه في سننه ٢/١٣١٦ ح ٣٩٧٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ٥/٢٥٧ ح ٨٨٣٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ٩/١٥٩ ح ١٨٢٧٨ ، وشعب الإيمان ٤/٤١ ح ٤٢٨٨ .

(٥) البديع ، ص : ٢٣ .

طرفيها - مثلاً - إلى تصريحية وممكنة ، أو بجعل لفظها إلى أصلية وتبعية ، أو بجعل الملائم إلى مجردة ومرشحة ومطلقة . إذ إن المصطلحات البلاغية لم تكن قد تبلورت بمفهومها الذي عرفت به فيما بعد .

ولنا أن نساءل : هل كان هذا الفن جديداً على ابن المعتز ؟ أو أنه كان عبقرياً في ضبطه وجمعه مع باقي الفنون البلاغية وسلكه في البديع ؟ ولو عدنا إلى الاستعارة لوجدنا العلماء ذكروها قبله كالغراء (ت ٢٠٧ هـ) في (معاني القرآن)^(١) ، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)^(٢) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)^(٣) ، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ)^(٤) ، والإمام ثعلب (ت ٢٩١ هـ)^(٥) ، ولا بد أن يكون ابن المعتز قد اطلع على هذه الآثار واستقى منها ، وكانت هذه المؤلفات في بيئته ، ومتاحة له لكي يطلع عليها ، وقد ألف كتابه عام (٢٧٤ هـ) كما نعلم ، فضلاً على أن كلاً من المبرد و ثعلب كان كلاهما أستاذاً له .

ثم انتقل إلى التجنيس ، وجعله في الباب الثاني من كتابه ، وعرفه بقوله : «هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها»^(٦) . ولكنه لم يعرض لكل أنواع الجناس وتفرعاته ، وإنما عرض لجناس الاشتقاق ، وقال فيه : «... منه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ، ويشق منها ، مثل قول الشاعر :

يوم خلجت على الخليج نفوسهم

(١) معاني القرآن ١/٢٣٩ ، ٢/٩١ - ١٥٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٥٣ ، والحيوان ٦/١٩٣ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٠٢ - ١٠٧ .

(٤) الكامل ٢/٣٧١ .

(٥) مجالس ثعلب ١/٤٦٣ - ط ١ - ١٩٤٨ .

(٦) البديع ، ص : ٢٥ .

أو تكون تجانسها في تأليف حروفها دون المعنى ، مثل قول الشاعر :

..... إن لوم العاشق اللوم

وأورد أمثلة على جناس الاشتقاق والجناس المماثل والجناس المضارع ، ثم أورد الجناس عند المحدثين في الشعر والنثر ، وانتقل إلى التجنيس المعيب في الكلام والشعر عند بعض المحدثين^(١) ، ولكنه لم يفسر لنا كالمعتاد - الأسباب التي دعت إلى نقد بعض الشعراء المحدثين . ولو عدنا أدراجنا إلى الوراء ، إلى الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) ، لوجدناه قد ذكر التجنيس ، وكذلك الإمام ثعلب^(٢) . لكن ابن المعتز ذكره بشيء من التنوع والتفريع .

وأما الباب الثالث من البديع ، فهو المطابقة . وقد نقل تعريف الخليل لها فقال : «يقال : طبقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد . فالقائل لصاحبه : (أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان) ، قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب»^(٣) ، وقد فهمها بمعناها اللغوي والاصطلاحي ، لكنه لم يفرق بين مطابقة السلب والإيجاب . وأورد مثلاً عليها قول الله عز وجل : ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٤) ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وآثار الصحابة والتابعين ، وشعر القدامى والمحدثين ، من ذلك قول الحسن : «كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب»^(٥) ، وقول بشار^(٦) :

لهفي عليها ولهفي من تذكرها يدنو تذكرها مني وتناني

(١) المصدر ذاته ، ص : ٣٤ .

(٢) قواعد الشعر ، ص : ٥٧ .

(٣) البديع ، ص : ٣٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٧٩ .

(٥) البديع ، ص : ٣٧ .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ٤٣ .

ثم أورد المعيب في المطابقة عند بعض المحدثين ، وحكم على بعضها بالرداءة^(١).

ونحن بصدد المطابقة ، لا بد من ذكر من تأثر بهم ، فقد تناولها قبله - كما رأينا - الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ) ، والإمام ثعلب وسماها «مجاورة الأضداد»^(٢).

وأما الباب الرابع ، وهو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، فقد فصل في تعريفاتها ، فقال في ذلك : «وهذا الباب ينقسم إلى ثلاثة أقسام . . . فمن هذا الباب ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه الأول ، ومنه ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول . . .» ، وساق الشواهد على اللفظين المكررين كما قرر علماء البلاغ المتأخرون ، ثم أورد أمثلة لرد العجز على الصدر في اللفظين المشتقين^(٣) ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۗ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾^(٤) ، كما استشهد بالحديث النبوي وأشعار القدامى والمحدثين ، فعاب على بعض الشعراء المحدثين تناولهم لهذا الفن .

ثم انتقل إلى الباب الخامس من البديع ، فقال عنه : «وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ : المذهب الكلامي ، وهذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك» ، فهو يقرّ أنه لم يجد له أمثلة من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وإنما في قول الصحابة ، وتمثل بقول أبي الدرداء : «إن أخوف ما أخاف عليكم أن يقال : علمت ، فماذا

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٦ وما بعدها .

(٢) قواعد الشعر ، ص : ٦٢ .

(٣) البديع ، ص : ٤٨ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٢١ .

عملت؟»^(١)، وتمثل بأبيات للمتقدمين والمتأخرين مثل أبيات أبي عبد الرحمن العطوي^(٢) :

فوحق البيان يعضده البُرُّ هانُ في مَأْقَطِ ألدِ الخصام
ما رأينا سوى الحبيبة شيئاً جمع الحسن كله في نظام
هي تجري مجرى الأصالة في الرأى ، ومجرى الأرواح في الأجسام
ثم أورد - كعادته - ما عيب من هذا الفن ، لكنه لم يعرفه أو يبين مقصد الجاحظ منه . وأغلب الظن أن ابن المعتز ظن في ذلك شيئاً من التكلف ، فذهب إلى تبرئة القرآن الكريم منه ، يؤكد ذلك الأمثلة التي ذكرها ابن المعتز ، إذ هي قائمة على التكلف حتى كاد بعضها يصل إلى درجة الألفاظ ، منها قول أبي تمام^(٣) :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضى
على أن للمذهب الكلامي طريقة في إيراد الحجج لا تشترط التكلف والتعقيد الذي رأيناه في أمثلة ابن المعتز ، وليس شرطاً أن يقوم المذهب الكلامي على التكلف كما رأى ابن المعتز . ولذلك ، فقد رأى غيره من اللاحقين أن القرآن الكريم ، وإن خلا من التكلف ، لم يخل من المذهب الكلامي . وقد عبر عن هذا واحد من علماء البلاغة ، هو ابن أبي الإصبع^(٤) ، الذي ردّ على من زعم خلو القرآن من المذهب الكلامي ، كالجاحظ وابن المعتز ، وهو مشحون به! وتعريفه - كما يرى - أنه احتجاج المتكلم على ما

(١) اللفظ الذي وقفت عليه عن أبي الدرداء : «أخوف ما أخاف إذا لقيت ربي تبارك وتعالى ، يقول لي : . . . » عند أحمد في الزهد ، ص : ١٣٦ ، وفي لفظ : «إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب ، أن يقال لي : . . . » عند ابن المبارك في الزهد ، ص : ١٤ .

(٢) البديع ، ص : ٥٣ - ٥٤ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٥٥ .

(٤) تحرير التحبير ، ص : ١١٩ .

يريد إتيانه بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام . ومن شواهده في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢) .

ولنا أن نساءل : هل تفرد ابن المعتز بذكر البابين الرابع والخامس من دون سائر العلماء والبلغاء ؟

يجيبنا عن ذلك التساؤل ابن المعتز نفسه أنه أخذ رد الأعجاز على الصدور عن الجاحظ .

ونرى ابن المقفع قد سبق الجاحظ حينما قال : « . . . وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير الأبيات للشعر البيت إذا سمعت صدره عرفت قافيته »^(٣) ، وكأنه أراد به طريقة المتكلمين العقلية في دقة الاستنباط وفي التعليل وفي الكشف عن المعاني الحقيقية^(٤) .

كما أخذه عن الإمام ثعلب الذي سماه : الأبيات المرجلة ، لكنه لم يضع له تعريفاً محدداً وإن ذكر له الأقسام وساق له الأمثلة الشعرية .

كما أن الفن الخامس : المذهب الكلامي ، أخذه عن الجاحظ ، ونسبه للتكلف ، ولم يجد له أمثلة من القرآن الكريم ، فيقول في ذلك : « هذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً »^(٥) .

وتساءل الدكتور حسنين مندهشاً أكثر من مرة عن سبب وضع ابن المعتز له

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة يس ، الآية : ٧٩ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٦ ، وأثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ٢٤٠ .

(٤) البلاغة : تطور وتاريخ ، ص : ٧١ .

(٥) البديع ، ص : ٥٣ .

مع أنواع البديع رغم أنه ذكر مثلاً لا يعدو إلا أن يكون حسن تقسيم أو تفصيل^(١) ، وهو قول الفرزدق^(٢) :

لكل امرئ نفسان : نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى وبطيعتها
ونفسك من نفسك تشفع للندی إذا قلّ من أحرارهن شفيعتها
لكن ، نرى أن ابن المعتز قد أخذ المذهب الكلامي عن الجاحظ وجعله ضمن
الفنون البلاغية التي رآها - في مجموعها - مستحقة لاسم البديع ، لا ما آلت إليه
هذه المصطلحات في العصور المتأخرة .

وانتقل ابن المعتز بعد ذلك يشرح الفنون الثلاثة عشر ، وذلك لتكثر فوائد
كتابه للمتأدبين ، فعرض للتشبيه ، وهو من الفنون التي أولاهها عنايته ، بل كان
هو نفسه شاعراً مقتدرأً على التشبيه الجيد والمصيب .

والتشبيه فن معروف ، تناوله الخليل بن أحمد ، والمبرد - أستاذه - وكان
قسم التشبيه إلى أقسام وفصل فيه كثيراً ، كما تناوله باقي العلماء إلى عصر
الإمام ثعلب أستاذ ابن المعتز ، كما أن معظم هذه المحسنات والفنون - رغم أنه
أفرد لها كتاب البديع - قد ذكرها العلماء قبله ، كاللنقات ، فقد تحدث عنه
الفراء^(٣) ، وتأکید المدح بما يشبه الذم تحدث عنه ابن قتيبة في (الشعر
والشعراء)^(٤) ، والتعريض والكناية تناولهما الفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة والإمام
ثعلب^(٥) ، والإفراط في الصفة كان معروفاً عند المبرد والإمام ثعلب ، وحسن
الابتداء ذكره الجاحظ وابن قتيبة^(٦) ، وحسن الخروج تكلم عنه الإمام ثعلب

(١) المصطلح البلاغي وتطوره ، ص : ٣١٢ ، ٣١٥ .

(٢) البديع ، ص : ٥٤ .

(٣) مغاني القرآن ١/١٥ .

(٤) الشعر والشعراء ١/٥٢٤ .

(٥) تأويل مختلف الحديث ، ص : ١٦٣ ، وقواعد الشعر ، ص : ٥٣ وما بعدها .

(٦) البيان والتبيين ١/١١٦ ، والشعر والشعراء ١/٦٥ .

باسم حسن التخلص ، وكان الجاحظ قد سبقه عندما ذكر حسن التخلص والانتهاه ، والهزل الذي يراد به الجذره الجاحظ قبله واستفاد منه ابن المعتز في فهمه لهذا المحسن البديعي ، وضرب أمثلة كثيرة له غير الأمثلة التي ساقها الجاحظ ، وذلك لأن كتاب الجاحظ لم يكن كتاب بلاغة بمعناها المحدد .

أما في حديثه عن الاعتراض والرجوع ، ففيه نوع من التفصيل المعقول . وقد وجدناه يُغفل ذكر بعض المحاسن : كالإغراق ، والإفراط ، والتلميح^(١) ، والسجع^(٢) ، وإصابة المقدار^(٣) ، والازدواج ، واللغز في الجواب^(٤) ، والتمثيل - وقد ذكرها الجاحظ^(٥) - والتغليب^(٦) ، والقلب المكاني^(٧) ، وحسن التقسيم - وقد ذكرها المبرد - .

من هنا ، نستنتج أن الفنون والمحسنات التي تكلم عنها ابن المعتز واختار ما كان منها مناسباً ، وسماها علم البديع ، وبنى عليها كتابه ، هداه إليها ذوقه وطبعه الأصيل ، وهو الشاعر الوحيد من بين من ذكرنا من العلماء . لذلك ، يرى إدريس الناقوري أن «بديع ابن المعتز كان محاولة جديدة امتازت بالتنظيم والتبويب ، أفادها صاحبها من النقاد والعلماء السابقين . ومن الواجب الاعتراف لابن المعتز بجهده الهام ومشاركته الإيجابية في هذا المجال ، ليس لأنه نظم البديع فحسب ، بل كذلك لأنه سعى أكثر من غيره إلى تحديد

(١) ذكر التلميح في : البيان والتبيين ٢/ ١٨٢ ، و٣/ ٢٦٠ .

(٢) ذكر السجع في : البيان والتبيين ١/ ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٣) ذكر إصابة المقدار في المصدر ذاته ١/ ٢٢٧ .

(٤) ذكر اللغز في الجواب في المصدر ذاته ١/ ١٤٧ .

(٥) الحيوان ٢/ ٣٥ ، والبيان والتبيين

(٦) ذكر التغليب في المصدر ذاته ١/ ١٨٧ - ١٨٨ ، ٤١١ ، والفاضل ، ص : ٢١ - ٢٢ ،

والمقتضب ٤/ ٣٢٦ .

(٧) ذكر القلب المكاني في : الكامل ١/ ٤٧٥ ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، ص : ٦ .

الاصطلاحات وتدقيقها. ولو لم يكن له فضل غير هذا - كما يقول مندور - لكفاه ليحظى في تاريخ النقد العربي بمكانة هامة^(١).

وبهذا ، يظهر لنا أن كتاب (البدیع) أول كتاب في البلاغة العربية بالمعنى الصحيح ، حيث لم يبعد في مباحثه عن دائرة البحث البلاغي ، فيكون ، بذلك ، رسم لنا منهج البديع ، ووسائل تحسين الأسلوب الأدبي ، ومهد الطريق أمام العلماء الذين خاضوا بحار هذه الصنعة ، ونهوا إلى شيء من آثار تلك الفنون في تجميل الأساليب ، وتوضيح المعاني^(٢) . وسيتضح لنا ذلك أكثر عندما ندرس النقد عنده .

* * *

المبحث الثالث : النقد عند ابن المعتز :

لم تكن الموضوعات النقدية عند ابن المعتز مقصودة لذاتها في كتابه (البدیع) ، بل كانت تمر عرضاً ، ولا نستطيع بحال من الأحوال أن نفصل البلاغة عن النقد عنده وإن فصلنا ذلك من الناحية النظرية فدرسنا البلاغة على حدة ، وسندرس النقد على حدة .

ويعتبر كتابه (البدیع) أول كتاب يشرح الفنون البلاغية ، كالتشبيه والاستعارة ، ويجعلها مقياساً من مقاييس النقد ، ومعياراً من معاييرها ، فانتقل النقد إلى طور جديد هو طور العناية بالصورة ، والتوجيه إلى دراسة الشكل ، وكان الأمر قبل ابن المعتز محصوراً في نقد المعاني والأفكار^(٣) . وقد أكد هذا

(١) الأسس الموضوعية لنشأة المصطلح في النقد العربي القديم ، د. عبد الإله النبهان ، ص : ٢١ - مجلة التراث العربي - ع ٥٩ - س ١٥ - ١٩٩٥ .

(٢) يراجع : البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ، ص : ١٢٢ - دار المنارة - جدة - ط ٧ - ١٩٨٨ .

(٣) يراجع : دراسات في نقد الأدب للدكتور طبانة ، ص : ٢٠٤ - ط ٣ - ١٩٦٠ .

المعنى د. المبارك بقوله : «كان لابن المعتز فضل واضح في ترسيخ النظرة السليمة إلى البلاغة ، تلك التي تنظر إلى العناصر البلاغية على أنها مقاييس صالحة للنقد الأدبي... إنه أول من ألف في البديع بمفهومه الجديد . وبذلك ، يدخله عنصراً أساسياً من عناصر نقد الأسلوب الأدبي . لقد كان القدماء - وهم لا يدرون ما البديع؟ - ينقدون على أساس من اللغة والنحو والمعنى ، أما ابن المعتز ، فقد أرسى للنقد جانباً آخر يقوم على تمييز الأسلوب الأدبي بما فيه من فنون البديع ، وفنون البديع أولها الاستعارة . وعلى هذا ، فقد أدخل ابن المعتز الصورة أو الشكل بين عناصر النقد الأدبي بعد أن كان معظم النقد من قبله متجهاً إلى الكلمة»^(١) ، فملكة النقد كانت في كثير من الأحيان مبنية على الذوق لا على الفكر التحليلي ، فقد يقف الناقد عند جزئية من الجزئيات ، «فإذا انفعل فيها اندفع إلى التعميم في الحكم ، فجعل من شاعرٍ أشعر الناس لبيت أو أبيات أو قصيدة واحدة قالها»^(٢) .

وقد ترك لنا ابن المعتز ، بالإضافة إلى بديعه ، كتاب (طبقات الشعراء المحدثين) ، ولم يقسمه ابن المعتز إلى طبقات كما فعل ابن سلام ، وإنما صور لنا مذهب الشعراء ، والخصائص الفنية لشعراء الحداثة ، وعقد كثيراً من الموازنات الأدبية . وقد وفق في اختياراته ، إذ إن بعض دواوين هؤلاء الشعراء ضاع ، فاحتفظ لنا كتابه بمقطعات من أشعارهم ، والأحكام التي تبين لنا مذهب كل شاعر وخصائصه وشيوخه .

كما ترك لنا سرقات الشعراء ، وهو في حكم المفقود . وقد نسبه له الأمدي في (الموازنة)^(٣) و(المؤتلف والمختلف)^(٤) ، كما نسبه له المرزباني في

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ، أ. د. مازن المبارك ، ص : ٧٣ - ٧٤ .

(٢) ابن المعتز وآراؤه البلاغية والنقدية للدكتور عبد الرازق أبو زيد ، ص : ٧٠ .

(٣) الموازنة ١/ ٢٧٣ ، ٣٠٤ .

(٤) المؤتلف والمختلف ، ص : ٢١٥ .

موشحه أكثر من مرة ، ونقل عنه أحكام ابن المعتز على الشعراء ، كنقده لامرئ القيس والنابعة وزهير والأعشى . «وموضوع الكتاب لا يقتصر على بيان السرقات ، بل تناول نتاج فحول الشعراء بالنقد وإحصاء آراء النقاد في شعرهم ، وبيان أخطائهم التي أخذت عليهم»^(١) .

كما ترك لنا رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه . ولهذه الرسالة قيمة خاصة في النقد الأدبي . ولعله خص أبا تمام بها لأنه من شعراء الحداثة ، وأن الخصومات التي قامت وتأجج نارها كانت بسببه وأضرابه الذين أولعوا بالبديع ، وكثر في أشعارهم كثرة مفرطة ، فعرف بهم . وما تأليفه لكتاب (البديع) إلا للرد على شعراء الحداثة ليثبت لهم أن هذا اللون قديم ، وأنه وجد في القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي منذ الجاهلية ، لكن كثر في شعرهم فعرف بهم . وفي ذلك قال : « . . . ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم . ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه ، وتفرغ فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف»^(٢) . وقد شغل أبو تمام النقد في القرن الثالث وما بعده ، فألفوا في نقده وسرقاته ، وابن المعتز أول من ألف رسالته هاته ، وهي أصل من أصول الموازنة التي اعتمد عليها الأمدى في نقد شعر أبي تمام^(٣) . كما أن المرزباني روى جزءاً منها ، لكن الرسالة لم تك بأكملها كما يؤكد الكثيرون^(٤) .

(١) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد للدكتور خفاجي ، ص : ٣٦٦ .

(٢) البديع ، ص : ١ .

(٣) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد ، ص : ٣٦٨ .

(٤) المرجع ذاته ، ص : ٣٦٧ . ويراجع : رسائل ابن المعتز ، تـ د . خفاجي ، وتاريخ النقد

وكان ابن المعتز في بديعه وطبقاته يحكم على بعض الشعراء بالجودة ، ويستحسن شعرهم ، كما يحكم على شعر بعضهم الآخر بالرداءة ، فمدح أصحاب الطبع ، وقدم منهم أربعة لم ير أطبع منهم في الجاهلية والإسلام ، وهم : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد الحميري ، وأبو عيينة^(١) . ويقول عن ربيعة الرقي : « . . . وشعر ربيعة الرقي في الغزل يفضل على أشعار هؤلاء من أهل زمانه جميعاً ، وعلى كثير ممن قبله ، ولا أجد أطبع ولا أصح غزلاً من ربيعة^(٢) . وبينما نراه يحكم على بعضهم بالطبع ويمدحهم ، نجده تارة أخرى يذمّ التكلف وأصحابه ، فيورد أبياتاً متكلفة لأبي تمام ، منها هذا البيت :

قَدْ كُنتَ أَتَيْتَ أَرِييتَ فِي الغُلُوءِ كَم تَعْدِلُونَ وَأَنْتُمْ سُجْرَائِي^(٣)

ويقول : هذه من الأبيات المتكلفة^(٤) .

ومن استعماله للغريب الذي كان يستبشع مثله من العجاج ورؤية ، قوله وهو يصف ظبية^(٥) :

تَقْرُو بِأَسْفَلِهِ رِبُولاً غُضَّةً وَتَقِيلُ أَعْلَاهُ كِنَاساً فَوْلِفَا
ونجد أن معظم أحكامه النقدية إنما أطلقت في كثير من الأحيان على الفنون البلاغية عند الشعراء كإجادتهم للتشبيه ، أو الاستعارة ، أو المطابقة ، أو إساءتهم في إيراد الاستعارات والمطابقات . . .

ولم تكن أحكامه كلها معللة ، بل كان يكتفي في كثير من الأحيان بالحكم

(١) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ٢٩٠ .

(٢) رسائل ابن المعتز ، ص : ٣٥ - ت. د. خفاجي ، والطبقات ، ص : ١٥٩ .

(٣) السجراء : جمع : سجير ، وهو الصديق . وسجير الرجل : خليله وصفه . وساجره : صاحبه وصفاه . لسان العرب (مادة : سجر) .

(٤) رسائل ابن المعتز ، ص : ٢٦ - ٢٧ .

(٥) الموشح ، ص : ٤٧٥ .

على الشعراء بالإجادة أو الإساءة من دون تعليل ، وأحياناً كان يستنبط ويعلل أحكامه ، كما في قوله في أبي نواس : « كان أبو نواس آدب الناس ، وأعرفهم بكل شعر ، وكان مطبوعاً ، لا يستقصي ولا يحلل شعره ، ولا يقوم عليه ، ويقول على السكر كثيراً . لذلك ، يوجد فيه ما هو في الثريا جودة وحسناً وقوة ، وما هو في الحضيض ضعفاً وركاكة»^(١) .

وكان يحكم على شعر البحري بالجودة وصفاء الطبع ، قال في ذلك : « . . . ولو لم يكن للبحري إلا قصيدته في وصف إيوان كسرى - فليس للعرب مثلها - وقصيدته في وصف البركة . . . (وعدد قصائده المشهورة) ، لكان أشعر الناس في زمانه ، فكيف وقد انضاف إلى هذا صفاء مدحه ، ورقة تشبيهه في قصائده؟! وكان كثيراً ما ينشد ويعجب من جودته في قوله :

إذا زمجر النوتي فوق علاته رأيتَ خطيباً في ذؤابة منبر^(٢)

وقال ابن المعتز في سبب ميله إلى الشعر : « كان مما حبب الشعر إلي أنني سمعت البحري ينشد الماضي (والده) شعراً تشوقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر . . . - (و عدد أصناف ما أخذ) - وهو عندي من أحسن شعره»^(٣) .

لكنه كان يميل للاعتدال ، ولا يؤثر المبالغات التي لا حقائق وراءها ، بل كان منصفاً للشعراء فيما يطلقه من أحكام ، فنجده يفضل أبا تمام على البحري فيقول : « . . . فأما أن يشق غبار الطائي بالحدق في المعاني ، فهيهات!»^(٤) . وعندما ذكر له شخصاً أبا الشيبص بقوله : « من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر منه فكذبه . والله ، لكأن الشعر أهون عليه من شراب الماء على العطشان . كان

(١) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ١٩٤ - ١٩٥ ، وربما : [يحكك] بدل : [يحلل] .

(٢) أخبار البحري ، ص : ٧٢ - ٧٣ ، وديوان المعاني للعسكري ٧٩٩/٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٠٨ .

(٤) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ٣٥ .

أوصف الناس للشراب ، وأمدحهم للملوك . قال ابن المعتز : وليس توجد هذه الصفات في ديوان شعره ، ولا هو ساقط ، ولكن هذا سرف شديد^(١) .

وأنصف مسلم بن الوليد فقال إنه لا يتفق لشاعر مثل ما اتفق له في هذا المعنى في ألف سنة ، وهو قوله^(٢) :

وإني وإسماعيل حين فقدته لكالغمد يوم الروع فارقه النصلُ
ونقل أحياناً ما عيب على الشعراء ، سواءً في كتابه (البديع) أو في كتابه (الطبقات) حين ترجم لهم ، أو في كتابه (السراقات) ، وما نقل عنه الأمدي في موازنته ، إذ يذكر أن ابن المعتز قد أنشد لسلم الخاسر يعيبه برديء الاستعارة في قوله يرثي موسى الهادي :

لولا المقابر ما حظ الزمان به لا ، بل تولى بأنف كلمه دامي
وقال : «هذا رديء ، كأنه من شعر أبي تمام الطائي . وليت لم يكن لأبي تمام من رديء الاستعارة إلا مثل استعارة سلم هذه أو نحوها ، ونعوذ بالله من حرمان التوفيق»^(٣) ، مع أنه يثني عليه في طبقاته فيقول : «سلم أحد المطبوعين المحسنين ، وكان كثير البدائع والروائع في شعره»^(٤) .

وقد عرض لاستعارات قبيحة لم يتذوقها ، كاستعارة العباس بن الأحنف :
ولي جفون جفاها النوم فاتصلت أعجاز دمع بأعناق الدم السرب
وقال في ذلك : «هذا وأمثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام ، وإنما نخبر بالقليل ليُعرف فيُجتنب»^(٥) .

(١) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ٢٣٥ ، ورسائل ابن المعتز ، ص : ٣٤ .

(٢) رسائل ابن المعتز ، ص : ٣٥ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٤) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ١٠٠ .

(٥) البديع ، ص : ٢٣ .

وكان يستحسن استعارة ذي الرمة ، قال مرة : «ذو الرمة أبدع الناس استعارة ، وأبرعهم عبارة»^(١) .

ونلمس ، انطلاقاً من أحكامه التي أطلقها ، خبرته الواسعة ، وثقافته العالية ، وتمييزه للشعر ، ونقده للشعراء . وهذا الخبر الذي نسوقه يوضح لنا شخصية ابن المعتز في نقده ، قال الصولي : «اجتمعت مع الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق بعلم البديع تحقّقاً ينصر دعواه فيه لسانُ مذاكرته ، فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعباً من شعبه ، وأرانا أحسن ما قيل في بابه إلى أن قال : ما أحسنُ استعارةٍ اشتمل عليها بيت واحد من الشعر ؟ قال الأسدي^(٢) : قول لبيد :

وغداة ريحٍ قد كشفت وقرّةً إذ أصبحت بيد الشمالِ زمامها^(٣)
قال أبو العباس : هذا حسن ، وغيره أحمدٌ منه . وقد أخذه من قول ثعلبة ابن صعير المازني^(٤) :

فتذكرت ثقلاً رثيداً بعدما ألفت ذكاءً يمينها في كافرٍ
وقول ذي الرمة أعجب منه :
ألا طرقت ميّ هيوماً بذكرها وأيدي الثريا جُنْحُ في المغاربِ

(١) رسائل ابن المعتز ، ص : ٣٨ .

(٢) من أساتذة ابن المعتز ، وهو أبو سعيد محمد بن هُبَيْرَةَ الأَسدي النحوي ، عارف بالنحو واللغة ، ومتصرف في فنون الأدب . معجم الأدباء ٥/٤٧٦ .

(٣) ديوان لبيد ، ص : ٣١٥-٣١٦ . والرواية [وزعت] بدل [كشفت] . وبيت لبيد :

حتى إذا ألفت يدأ في كافرٍ وأجرنَ عَوْرَاتِ الثغورِ ظلامها
(٤) من شعراء المفضليات ، وهو ثعلبة بن صعير بن خزاعي بن مازن . جاهلي قديم . الشعر

والشعراء ، ص : ١٧٨ ، والموشح ، ص : ١١٩ ، وشرح المفضليات ١/٤٦٤ .
وثقلاً ، الثقل : البيض ، أي تذاكرا بيضهما . والرثيد : المنضود . يراجع : شرح المفضليات ١/٤٧٧ .

وهو خبر طويل ما زال ابن المعتز يفاضل فيه بين الشعراء ، فيفضل أحدهم على الآخر باستعارة أو مطابقة أو مقابلة أو الجمع بين الاستعارة والمقابلة ، كما في قول الحصين بن الهمام ، فقد جمع بين الاستعارة والمقابلة :

نظاردهم نستودع البيضَ هامهم ويستودعوننا السمهريّ المقوماً^(١)
وكان يذكر من أول من سبق إلى ذاك المعنى ، وإلى تلك الاستعارة ، ونراه في كل ذلك ينقد بنظر ثاقب ، وثقافة عربية أصيلة ، فيقول وقد سبق جرير ذا الرمة في استعارته التي يقول فيها :

تحيي الروامس ربعها وتجده بعد البلى فتميته الأمطار
وهذا بيت جمع الاستعارة والمطابقة ، ويفسر سبب إعجابه به بكونه بيتاً جمع بين الاستعارة والمطابقة ، إذ جاء بالإحياء والإماتة ، والبلى والجدة. يقول الصولي : «فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بحر أبي العباس ما غاض فيه معينه ، ولم ينهض حتى زودنا من بره ولفظه نهاية ما اتسعت له حاله»^(٢).

مما سبق ، نجد الرجل الحصيف ، والناقد المنصف ، والشاعر المتذوق ، والبلّغ الضليع . وعندما ترجم لأبي تمام في طبقاته ، أنصفه فقال : «وشعره كله حسن»^(٣) . ويرى د. إحسان عباس أن كتاب الطبقات يمثل مرحلة متأخرة من حياة ابن المعتز ، ودليله هو الموقف النقدي من أبي تمام ، إذ مر بمرحلتين : مرحلة تمثلها رسالة مستقلة كتبها في نقد أبي تمام ، ومرحلة يمثلها كتاب الطبقات . وخلاصة رأيه في أبي تمام في الرسالة أنه بلغ غايات الإساءة

(١) البيت لحصين بن الحُمَام في المفضليات ، وهو حصين بن الحمام بن ربيعة ، وهو أحد الشعراء المقلين المشهورين في الجاهلية ، وقيل : أدرك الإسلام . الشعر والشعراء ، ص : ٤٣٧ ، وشرح المفضليات ١/٢٠٨ . والرواية فيها :

نظاردهم نستقد الجُرد كالقنا ويستودعون السمهريّ المقوماً
شرح المفضليات ١/٢١٤ .

(٢) رسائل ابن المعتز ، ص : ١١ - ١٢ .

(٣) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ٢٨٤ .

والإحسان ، وأما في الطبقات ، فقد أصاب رأيه بعض التغير^(١) .

وكان ينتقد من يتعصب على أبي تمام ويتجنى عليه ، كإبراهيم بن المدبر^(٢) ، فقال له مرة : أتقول هذا لمن يقول^(٣) :

غدا الشيب مختطاً بفؤدي خُطَّةً سبيل الردى منها إلى الموت مَهْبِغٌ
وأنشده أبياتاً من غر قصائد أبي تمام ، فقال : «فكأنني - والله - ألقمته حجراً» . ثم ذكر ابن المعتز موقفاً آخر لابن المدبر من تعصبه على أبي تمام ، قال : «... وهذا الفعل من العلماء مفرط القبح ، لأنه يجب ألا يُدْفَع إحسان محسن عدواً كان أو صديقاً ، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع . ومن عاب مثل هذه الأشعار التي ترتاح لها القلوب ، وتجذل بها النفوس . فإنما غض من نفسه ، وطعن على معرفته واختياره»^(٤) .

وكان ابن المعتز يذكر براعة الاستهلال عند أبي تمام في كثير من قصائده ، فنجده يقول : «ولو استقصينا أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره ، لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك ، وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً ، لأن الرجل كثير الشعر جداً ، وأكثر ما له جيد»^(٥) . ورغم ذلك ، نراه ينتقده بابتدائه المذمومة في كثير من قصائده ، كما ينتقد تكلفه المقيت ، وتجاوزه المقدار . وفي ذلك قال ابن المعتز : «وقد أنكروا عليه قوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب
ولم يجن جنون عطاياه انتظاراً للطلب . يتدىء بالجود ويستريح . وكذلك قوله في قصيدته :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد

(١) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص : ١١٨ .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر أبو إسحاق الكاتب . كاتب بليغ ، وأديب فاضل ، وشاعر جواد مترسل . وزير للمعتمد . توفي سنة ٢٧٩ هـ . معجم الأدباء ١/١٤٣ .

(٣) أخبار أبي تمام ، ص : ٩٧-٩٩ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٧٦-١٧٧ .

(٥) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ٢٨٥ .

لعمري ! لقد حررت يوم لقيته لو أن القضا وحده لم يبرد فلم تخرج المطابقة خروجاً حسناً ، ولا تحسن في كل شيء»^(١).

كما وقف ابن المعتز عند بعض المعاني التي أتى بها أبو تمام فعابها وعلق عليها ، وذكر إنكار الناس لها لما بينها من التباين والتناقض . وأحياناً يقول : «وهذا من عجائب أبي تمام»^(٢) ، ويقول أيضاً : «وقد أسقطنا من معائب شعره شيئاً كثيراً لم نثبته في رسالتنا ، وقصدنا من ذلك ما يبهر الحجة ، ويفل حد النصر»^(٣).

وزراه عندما عرض للسرقات ، كان يحكم على بعض أبيات لأبي تمام بالسرقة ، وأنه قد وفق في بعضها ، وأخفق في بعضها الآخر . فمن السرقات الموفقة - مثلاً - هي التي استطاع أبو تمام فيها أن يزيد في المعنى ، أو كانت أبياته أجزل من الأصل في اللفظ ، وحسن السبك ، أو يأتي بمعنى يكون هو الأجل من تلك المعاني المسروقة . فذكر ابن المعتز عناصر للجودة في السرقة والإخفاق ، فقال : «وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في (اختيار الأشعار)^(٤) وجدته قد طوى أكثره في إحسان الشعراء ، وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع إليها في وقت حاجته ، ورجاء أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ، ويقنعوا باختياره لهم فتعمى عليهم سرقاته»^(٥).

وهكذا ، يكشف ابن المعتز أسلوب أبي تمام في أخذه أشعار غيره ، وتستره على ذلك بإسقاط الأصول التي أخذ منها في اختياراته . ولا شك أن هذا - إذا ثبت - يدل على عدم الإنصاف عند أبي تمام . وله رأي في السرقة يقول فيه :

(١) يراجع : الرسائل ، ص : ١٩ ، ٢٥ ، ففيها الكثير من الانتقادات . ويبدو أن القسم الذي وصل إلينا هو ذكر المساوية فقط .

(٢) الرسائل ، ص : ٢٥ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٧ .

(٤) (اختيار الأشعار) هو كتاب الحماسة لأبي تمام .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ٢٤ .

«ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به من تقدمه ، ولا يُفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه ، لا فقير إليه»^(١).

وقد كان ابن المعتز ممن يفتنون إلى محاسن الألفاظ ومساوئها ، يدل على ذلك أخبارٌ كثيرة ، منها ما رواه لنا الصولي بقوله : «دخلت على ابن المعتز يوماً وعنده جماعة ، فرمى إلي بهذه القصيدة (قصيدة ليحيى بن علي المنجم) ، وقال : انظر ، أترى فيها لفظة رائعة ، أو معنى سليماً ؟ قلت له : الأمير - أيده الله - أعلم بهذا مني ومن جميع الناس ، فقال لي : ما فيها لفظة تمر من طريق الإحسان إلا قوله»^(٢) :

والشعر صوب العقول يظهر في الـ نَدِيٌّ أَفْنُ الْإِنْسَانِ أَوْ حِكْمُهُ
فسرق هذا اللفظ ، ثم أتبعه بما ليس بسرقة من لفظه الغث ، وإنما أخذه من قول أبي تمام :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب
فقلت : لقد جوّده أبو تمام وبينه وإن كان المعنى أخذه . قال : ومن أين أخذه ؟ قلت : من قول أوس بن حجر :

أقول بما صبت علي غمامتي وجهدي في جبل العشيرة أحطب
فقال : من ههنا - والله - أخذه . وجعلت أعجب من فطنة ابن المعتز بالشعر»^(٣).

وإنصافاً لأبي تمام ، قال عنه في طبقاته : «أبو تمام كثير الشعر جداً ، وأكثر ما له جيد . والرديء الذي له إنما يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة ، فلا .» وقد أنصف

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٤ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٦ - ١٧ .

(٣) الرسائل ، ص : ١٧ .

في حكمه على شعر البحتري ، فيقول : « وقد أنصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه ، فقال : جيده خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه . وذلك لأن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه ، إنما ألفاظه كالعسل حلاوة ، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن ، فهيهات ، بل يغرق في بحره . على أن للبحتري المعاني الغزيرة ، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ، ومسروق من شعره»^(١) . فهو يحكم على الشعراء هنا انطلاقاً من قضية اللفظ والمعنى ، وهو القائل عندما سئل عن البيان : «البيان ترجمان القلوب . وخير البيان ما كان مصرحاً عن المعنى ليسرع الفهم إلى تلقيه ، وموجزاً ليخف على اللفظ تعاطيه»^(٢) .

ويقرر قبل الجرجاني بأكثر من قرنين أن المعنى سابق على اللفظ ، فيقول : «العقل يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه ، ثم يبيدها بألفاظ كواسٍ في أحسن زينة . والجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين المعارض واستكمال محاسنها»^(٣) ، يقصد أن المعنى موجود في النفس ، وسابق على اللفظ ، لكننا نختار له الثوب اللفظي الملائم ، ونكسوه إياه .

تلکم كانت بعض القضايا النقدية التي أولها ابن المعتز عنايته ، ودار عليها معظم نقده ، وهي قضية الطبع والصنعة ، وقضية السرقات ، وقضية اللفظ والمعنى ، وهو ما استطعت الوقوف عليه من نقد ابن المعتز . وإذا كان ما ذكره بعض الدارسين من أن رسالة ابن المعتز في نقد أبي تمام لم يصل إلينا منها إلا ما ذكره عن مساوئه ، أما آراؤه وأحكامه المتعلقة بمحاسن أبي تمام ، فقد ضاعت ، فلا شك أنها لو وصلت إلينا لكانت لنا ثروة نقدية تكشف بها عن ابن المعتز ناقدًا يتبوأ منزلته بين نقاد الأدب في عصره ، وكان منطلقاً في كل ما قال من ثقافة عربية أصيلة . «وجملة القول ، إن عمل ابن المعتز في ميدان البلاغة والنقد عمل شاعر ذواق ، وعربي أصيل بنزعة وثقافته . ولا شك أن عروبة ابن المعتز تتضح أكثر فأكثر إذا وازنا بين عمله وعمل قدامة بن جعفر صاحب كتاب

(١) طبقات الشعراء المحدثين ، ص : ٢٨٦ .

(٢) رسائل ابن المعتز ، ص : ٦٢ تحت عنوان : «حكم وآداب» .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٦٣ .

(نقد الشعر) المتوفى بعد ابن المعتز بأقل من نصف قرن^(١).

وأما ما ذكره بعض الباحثين من أن ابن المعتز لم يؤلف كتاباً في أصول النقد الأدبي كما فعل قدامة بعده في كتابه (نقد الشعر) الذي رسم فيه خطة محكمة لنقد الشعر استحدث منها البلاغة منهج البحث والتأليف فيها^(٢) ، فإنه قول يسقط صاحبه من اعتباره أثر الثقافة اليونانية التي تأثر بها قدامة ، والتي لم تشب آراء ابن المعتز شائبة منها ، لأنه كان ذا ثقافة عربية أصيلة لا كما يرددون دائماً تأثره بـ «بلاغة أرسطو»^(٣) كما يذكر د. طه حسين وكثير من النقاد المعاصرين ، منهم د. أمجد الطرابلسي ، إذ رأى أنه ليس من المصادفة أن يتقارب ظهور بلاغة أرسطو بالعربية وظهور كتاب (البدیع) لابن المعتز ، ويرى أنه من المحتمل جداً أن نقل كتاب (الخطابة) كان له دوره في إثارة هذا الحماس ، ولاسيما الجزء الأخير من الكتاب المذكور الذي يتضمن حديث أرسطو عن العبارة ، فهو الجزء الوحيد الذي كان في الإمكان تكييفه ليصبح ملائماً للأسلوبية العربية^(٤) ، فابن المعتز لم يكن مترجماً ، كما أنه لم يكن ناقلاً ، وإنما كان ممن فتحت القراءة والثقافة عيونهم على ظواهر من تراثهم ، فوعوا ما عندهم في ضوء معرفتهم ما عند الآخرين ، ولم يكن عليهم إلا وضع المصطلح الخاص بهم ، مستفيدين من جماع ما تراكم في تراثهم الأدبي النقدي والبلاغي^(٥).

وفي عمل ابن المعتز ، قال د. النبهان إنه كان من الأعمال الخالصة لوجه النص الأدبي ، وامتزجت عنده البلاغة بالنقد. بل إنهما التحما التحاماً يبين عن مدى التطور الحاصل في مجال المصطلح ودلالته^(٦).

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٧٤.

(٢) ابن المعتز وتراثه في النقد والبيان ، ص : ٣٦٩.

(٣) ترجم كتاب (الخطابة) حنين بن إسحاق.

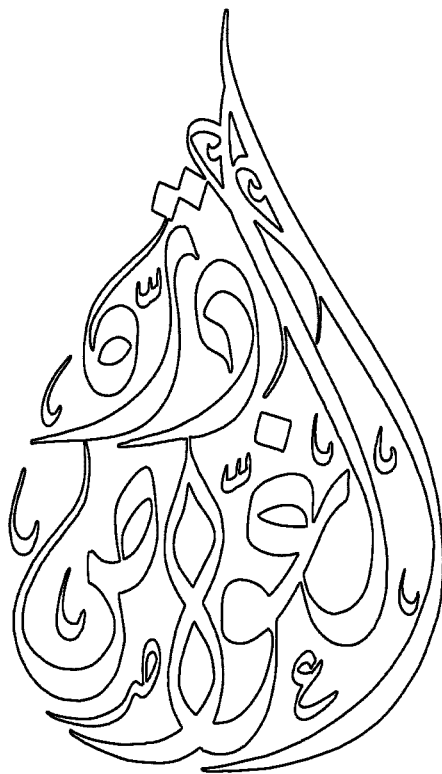
(٤) الأسس الموضوعية لنشأة المصطلح في النقد العربي القديم ، د. نبهان ، عن كتاب نقد الشعر عند العرب للدكتور أمجد الطرابلسي - مقال في مجلة التراث العربي - ع ٥٩ - ص ١٥ - ص : ٢٠ ، وراجع : التفكير البلاغي لحمادي صمود ، ص : ٣٨٠.

(٥) المرجع ذاته ، ص : ٣٨٠.

(٦) المرجع ذاته ، ص : ٢٣.

وفي الثناء على كتابه (البديع) ، قال أستاذنا . د . عبد القادر حسين : «ففكرة الكتاب الأساسية لابن المعتز خاصة دون غيره أن القول بأن مادة البديع وألوانه كانت مبسوطة في كتب السابقين ، فذلك لا يقلل من أهمية الكتاب ، فلا شيء يخلق من العدم ، وإنما ثمة بذور لكل شيء ، ولكن العظمة لا تكتب إلا لمن يحسن استغلال هذه البذور حتى تنمو على يديه وتنسب إليه . ومن ثم ، نال ابن المعتز تقدير العلماء ، واستحق أن يكتب لمصنفه الخلود»^(١) .

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ، د . عبد القادر حسين ، ص : ٢٤٤ .

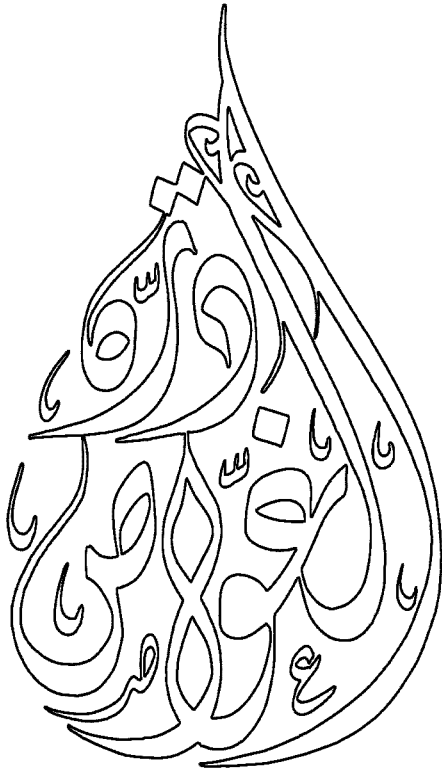


الباب الثاني

العلاقة بين البلاغة والنقد

في القرن الرابع الهجري

- الفصل الأول : العلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن طباطبا العلوي .
- الفصل الثاني : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي بكر الصولي .
- الفصل الثالث : العلاقة بين البلاغة والنقد عند قدامة بن جعفر .
- الفصل الرابع : العلاقة بين البلاغة والنقد عند الحسن بن بشر الأمدي .
- الفصل الخامس : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي عبيد الله المرزباني .
- الفصل السادس : العلاقة بين البلاغة والنقد عند القاضي الجرجاني .
- الفصل السابع : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي هلال العسكري .



الفصل الأول
العلاقة بين البلاغة والنقد
عند ابن طباطبا الحلوي
(ت ٣٢٢ هـ)

- المبحث الأول : التعريف بابن طباطبا .
- المبحث الثاني : البلاغة عند ابن طباطبا .
- المبحث الثالث : النقد عند ابن طباطبا .



المبحث الأول : التعريف بابن طباطبا^(١) :

* نسبه ومكانته :

هو أبو الحسن محمد بن أحمد ، ينتهي نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وطباطبا لقب لأحد جدوده (إبراهيم) ، وكان ينطق القاف طاءً .

ولد بأصبهان ، واستقر بها ولم يفارقها . وصفه ياقوت - وهو صاحب أوسع ترجمة له ، ومنه استقى من جاء بعده - بأنه شاعر مفلق ، وعالم محقق ، شائع الشعر ، نبيه الذكر ، مشهور بالذكاء والفظنة وصفاء القريحة وصحة الذهن وجودة المقاصد . ووصفه المرزباني بأنه شيخ من شيوخ الأدب . وله كتب ألفها في الأشعار والآداب . وكان معاصراً لابن المعتز ، وكان يقدمه

(١) ترجمته في : معجم الشعراء للمرزباني ، ص : ٤٢٧ ، والفهرست لابن النديم ، ص : ١٥١ ، ومعجم الأدياء لياقوت ٩٧/٥ ، والمحمدون للقفطي ، ص : ٩ - ١٠ ، والوافي بالوفيات للصفدي ٧٩/٢ - ٨٠ ، ومعاهد التنصيص للعباسي ١٢٩/٢ - ١٣٠ ، وهدية العارفين للبغدادي ٣٣/٢ ، وأعيان الشيعة لمحسن الأمين العاملي م ٧٢/٩ - ٨٠ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٠١/٢ ، والأعلام للزركلي ٣٠٨/٥ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣١٢/٧ ، وتاريخ التراث العربي لسيزكين م ٢/٢ ج ٤/٤ - ٢٤٤ - ٢٤٦ ، ومقدمة التحقيق لكتاب عيار الشعر للحاجري وسلام ، ونشرة د . المانع ، ومقدمة تحقيق شعره للسيد جابر الخاقاني ، ومقدمة تحقيق د . الهدلق لرسالة في استخراج المعنى ، وكتاب ابن طباطبا الناقد للدكتور محمد عبد الرحمن الربيع .

وقد وهم محقق (كتاب عيار الشعر) ، د . المانع ، عندما نسب له ترجمة في وفيات الأعيان ١٣٠/١ ، وإنما المترجم له هو ابن طباطبا الرسي المصري (ت ٣٤٥ هـ) . ويذكر ابن خلكان أن أبا منصور الثعالبي ذكر له ترجمة (في بيتمة الدهر) ٤٢٨/١ ، قسم : مصر والمغرب ، لكنه ليس بصاحب (عيار الشعر) ، فنقل د . المانع أن الثعالبي قد ترجم له دون التثبت من ذلك .

ويلهج بذكره ، معجباً بشعره ، وقد ذكره أكثر من مرة في كتابه (البديع) ، ولم يكن بينهما لقاء لعدم مغادرته أصبهان ، وتسنى له قراءة ديوانه آخر عمره .

توفي بأصبهان عام ٣٢٢ هـ . وله عقب فيها كثير ، منهم العلماء والأدباء والنقباء والمشاهير .

* آثاره :

كان ابن طباطبا شغوفاً بالعلم ، مغرماً بالكتب ، يعتبرها أعلى من الأصدقاء . وقد ترك لنا بعض الآثار ، ضاع منها ما ضاع ، وسلم منها القليل ، ذكرها معظم من ترجم له ، منها :

- ديوان شعره . ذكره ابن النديم في الفهرست ، وذكر أن الصولي جمع شعر ابن طباطبا ورتبه على حروف المعجم . وهو من الدواوين المفقودة . وقد جمع بعض شعره السيد جابر الخاقاني ، ونشره^(١) . كما قام د . محمد عبد الرحمن الربيع بجمع شعره من مصادر كثيرة ، وكتب دراسة عنه لم تقف على مجموعته حتى الآن^(٢) .

- رسالة في استخراج المعنى^(٣) . ذكرها ياقوت والصفدي والبغدادي .

(١) شعر ابن طباطبا العلوي ، جمع وتحقيق : جابر الخاقاني - منشورات اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين - ١٩٧٥ .

(٢) ابن طباطبا الناقد ، ص : ١٧ .

(٣) حققها د . محمد الهدلق ، ونشرها في مجلة معهد المخطوطات العربية م ٣٢/ج ١/١٩٨٨ ، ذكر معظمها : حمزة الأصفهاني - وكان معاصراً للمؤلف في أصبهان - في كتاب (التنبيه على حدوث التصحيف) ، حققه : د . محمد أسعد طلس - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٦٨ ، كما حققه : محمد حسن آل ياسين - مكتبة النهضة - بغداد - ط ١ - ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، وذكر الرسالة في الصفحات : ٢٨١ - ٣٠٣ ، بعنوان : (في نمط من معنى الشعر يصلح أن يجاوز به المصحف) .

- عيار الشعر^(١) . ذكره معظم من ترجم له . ونسبه صاحب كشف الظنون لأبي القاسم بن طباطبا المصري الرسي ، نقيب الطالبين ، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ ، فوهم وخلط بين أبي الحسن وأبي القاسم ، كما وهم بروكلمان عندما ظن أن (عيار الشعر) كتاب في العروض ، يقول : «ابن طباطبا مؤلف الكتاب العروضي (عيار الشعر)»^(٢) ، بينما الحقيقة أن لابن طباطبا كتاباً آخر هو (كتاب العروض) ، ذكرناه آنفاً .

وكتاب (عيار الشعر) أثر جليل امتزجت فيه البلاغة بالنقد ، واستفاد منه معظم من جاء بعده . وهو من أوائل الكتب النقدية في القرن الرابع الهجري ، حيث اعتمد فيه ابن طباطبا لعرض آرائه النقدية على فنون بلاغية وعمما يستحسن من هذه الفنون وعمما يستقبح منها^(٣) . وقد صنف الحسن بن بشر الأمدي (ت ٣٧١ هـ) في انتقاده كتاب (إصلاح ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الأخطاء) ، لكن فقد مع ما فقد من تراثنا^(٤) .

من آثاره التي لم نقف عليها :

- تقریظ الدفاتر^(٥) .

(١) طبع بتحقيق : د. الحاجري وزغلول سلام - القاهرة - ١٩٥٦ ، كما طبع بتحقيق عباس عبد الساتر - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٢ ، وطبع بتحقيق : د. عبد العزيز بن ناصر المانع - الرياض - ١٩٨٥ ، واعتمدها في دراستي .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٠١/٢ .

(٣) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٧٩ .

(٤) يقول د. الربيع إنه بذل جهداً كبيراً للعثور على الكتاب ، أو نقل آراء الأمدي عنه ، فلم يوفق ، فللكتاب أهمية - إن وجد - لأنه يفصح عن آراء الأمدي في ابن طباطبا باعتباره ناقداً من جهة ، ولمكانة ابن طباطبا في عصر الأمدي من جهة أخرى . ابن طباطبا الناقد ، ص : ٧٤ .

(٥) معجم الأدباء ٩٧/٥ ، والوافي بالوفيات ٧٩/٢ ، وهديّة العارفين ٣٣/٢ .

- تهذيب الطبع . وقد نسبة له معظم من ترجم له ، وذكره ابن طباطبا في (عيار الشعر) في أكثر من موضع ، يقول : «...» وقد جمعنا ما اخترناه من أشعار الشعراء في كتاب سميناه (تهذيب الطبع) ، ليرتاض من تعاطى قول الشعر بالنظر إليه ، ويسلك المنهاج الذي سلكه الشعراء . ويتناول المعاني اللطيفة كتناولهم إياها . . . واقتصرنا على ما اخترناه من غير نفي لما تركنا ، بل لاستحسان له خصصناه به دون ما سواه . وقد شذ عن الكثير مما وجب اختياره وإيثاره . وإذا استفدناه ألحقناه بما اخترناه»^(١) .

- كتاب الشعر والشعراء . ذكره ابن النديم ، وقال عنه إنه اختياريه^(٢) ، وربما كان هو كتابه (تهذيب الطبع) ، لأنه عبارة عن اختيارات له من أشعار الشعراء كما نص على ذلك بنفسه^(٣) .

- كتاب العروض . ذكره ياقوت والصفدي والعباسي والبغدادي . قال عنه ياقوت إنه لم يسبق إلى مثله ، رغم أنه كان يكره علم العروض . «ولعل كراهيته لهذا العلم دعته أن يصمم على تذليله إلى درجة تمكنه من التأليف فيه ، أو لعل وصف كتابه بأنه لم يسبق إلى مثله يؤذن بأنه نهج في عرض هذه المادة منهجاً جديداً يسهل جناها للدارسين»^(٤) .

المبحث الثاني : البلاغة عند ابن طباطبا :

لو أنعمنا النظر ، لوجدنا أن النقد الأدبي مازال ممتزجاً في هذا القرن بالبلاغة ، لأنها عنصر من العناصر التي يقيس بها الناقد نقده . ولكننا

(١) عيار الشعر ، ص : ١٠ ، ١٢ ، ١٩ .

(٢) الفهرست ، ص : ١٥١ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٢٤ .

(٤) معجم الأدباء ٩٧/٥ ، والوافي بالوفيات ٧٩/٢ ، ومعاهد التنصيص ١٣٠/٢ ، وهدي

العارفين ٣٣/٢ .

«لا نستطيع أن نعد (عيار الشعر) كتاباً في البلاغة بالمعنى الذي آلت إليه البلاغة فيما بعد من أمر استقلالها وقيامها علماً ذا كيان خاص بين علوم العربية»^(١). لكن ، اعتمد فيه ابن طباطبا على بعض فنون البلاغة في نقده للشعر . وقد ألمح ابن طباطبا إلى بعض أبواب علم المعاني كالإيجاز والإطناب والمساواة والتقديم والتأخير ، وذكر من فنون البيان التشبيه والكناية والتعريض ، كما ذكر بعض الفنون البديعية التي ألحقها المتأخرون بعلم البديع .

ففي باب المعاني ، تكلم ابن طباطبا عن مراعاة الكلام لمقتضى الحال ، وهذا ما يعبر عنه السكاكي بقوله «لكل مقام مقال» ، حيث قال : «... فلكل كلمة مع صاحبها مقام ، ولكل حدّ ينتهي إليه الكلام مقام . وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به ، وهو الذي نسميه مقتضى الحال»^(٢) .

وأول من ذكره وأولاه اهتمامه - كما رأينا - الجاحظ في كتابه (الحيوان)^(٣) .

ويعتبر ابن طباطبا مراعاة ذلك من أسباب جودة الشعر ، وفي ذلك يقول : «ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى ، وهي موافقته للحال التي يعدّ معناها لها كالممدح في حال المفاخرة ، وكالهجاء في حال مباراة المهاجي والحط منه ، حيث ينكى فيه استماعه له ، وكالمراثي في حال جزع المصاب وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه والتعزية عنه ، وكالغزل والنسيب عند سلوى العاشق واهتياج في شوقه وحنينه إلى من يهواه»^(٤) . وأحسن الشعر ما وضعت فيه كل كلمة موضعها حتى تطابق المعنى الذي أريدت له من غير حشو يجتلب .

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٨١ - ٨٢ .

(٢) مفتاح العلوم ، ص : ١٦٨ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٧ .

(٣) الحيوان ٣/ ٣٦٨ .

(٤) عيار الشعر ، ص : ٢٣ - ٢٤ .

فإنراه يعرض لأبيات زادت قريحة قائلها على عقولهم ولم يراعوا مقتضى الحال الذي يُعدّ المعنى له ، ويسوق الشواهد لذلك ، منها قول جرير :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا
فقليل له : يا أبا حزره ، لم تصنع شيئاً ، أعجزت أن تفخر بقومك حتى
تعديت إلى ذكر الخلفاء؟! وقال له الخليفة : جعلتني شرطياً لك ! أما لو
قلت :

لو شاء ساقكم إليّ قطينا
لسقتهم إليك عن آخرهم»^(١).

وتحدث في (عيار الشعر) عن التقديم والتأخير ، ودعا الشعراء إلى تجنب ذلك في قصائدهم حتى لا يخل ذلك بترابطها ، فقال : «... وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيتاً على بيت دخله الخلل»^(٢).

ودعا إلى الوحدة الفنية ، فتكون «القصيدة كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف»^(٣).
لذلك ، دعا إلى التناسب بين الكلمة وأختها المجاورة لها ، فلا يباعد الشاعر بين كلمة وأختها ، ولا يحجز بينهما بحشو يشينها ، فنراه يدعو إلى التناسب في الألفاظ ذاتها ، فإذا استخدم الشاعر - مثلاً - الألفاظ السهلة ، فلا يخلطها بالألفاظ الوحشية النافرة القياد. وفي ذلك ، يقول : «ويعدّ لكل معنى ما يليق به ، ولكل طبقة ما يشاكلها ، حتى تكون الاستفادة من عقله في وضعه الكلام

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢١٣. ويراجع ما كتبه د. إحسان عباس في : تاريخ النقد الأدبي ، ص : ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢١٣.

موضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسبه»^(١).

كما تحدث عن حسن التركيب ، واعتدال الأجزاء ، وتهذيب القصيدة ، والوحدة الفنية فيها . ولم نجد من النقاد قبله من تكلم عن الوحدة الفنية سوى الجاحظ الذي أشار إلى تلاحم الأجزاء في القصيدة بقوله : «أجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، وجرى على اللسان كما يجري الدهان»^(٢) . وما إشارة ابن طباطبا إلى كون القصيدة مترابطة الأجزاء إلا من هذا القبيل . لذلك ، دعا إلى حسن التخلص والانتقال من موضوع إلى آخر ، فدعا الشاعر إلى أن يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم ، «فإن للشعر فصولاً كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه - على تصرفه في فنونه - وصلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى بألطف تخلص ، وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلاً به وممتزجاً معه»^(٣) .

ويرى د . غنيمي أن مجرد وصل أجزاء القصيدة عند ابن طباطبا في جمعها بين الغزل والمدح أو وصف الديار والآثار والنوق ، وحدة لها ، فلا يكون المعنى الثاني منفصلاً عما قبله متى تخلص إليه الشاعر تخلصاً حسناً ، وإن كان الواقع مغايراً للمعاني التي سبقته ولا مبرر لجمعهما معاً إلا النظام التقليدي^(٤) ، «ويكون خروج الشاعر من معنى إلى آخر خروجاً لطيفاً حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم ، ولا تناقض في معانيها ، ولا وهي في مبانيها ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/٦٧ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٩ .

(٤) النقد الأدبي الحديث ، ص : ٢١١ .

ولا تكلف في نسجها - تقتضي كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها متعلقاً بها ، مفتقراً إليها^(١) . وكأن ابن طباطبا تنبه بشكل دقيق إلى ما ردهه - ولا يزال يردده - النقد في عصرنا من فكرة الوحدة العضوية . ولعل الغريب حقاً أن أصحاب النقد والبلاغة بعد ابن طباطبا لم يتوسعوا في هذا الموضوع^(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن وحدة القصيدة لا تمنع من تعدد الموضوعات ، ونحن مع الدكتور الربيع أنه لا تعارض ولا تناقض فيما يدعو إليه في وحدة القصيدة وتعدد الأغراض ، فهو فقط «يدعو إلى الترابط بين الأجزاء وإجادة الانتقال من غرض إلى غرض . وكلامه عن الوحدة الفنية - وإن خالف في نواح منه آراء دعاة الوحدة العضوية - كلام له قيمته التاريخية ، فهو يدلنا على أن هناك اهتماماً قديماً بترابط أجزاء القصيدة وتنسيقها»^(٣) .

وقد عدّ البلاغيون والنقاد حسن التخلص أو الخروج ومراعاة الانتقال من أوجه تحسين الكلام .

وأما ما يتصل بجعل الألفاظ على قدر المعاني ، فقد دعا ابن طباطبا إلى المساواة ، وهي أن تكون المعاني قدر أكسيتها ، والألفاظ مطابقة لمعانيها من غير حشو وتطويل . وفي هذا الباب ، قال ابن طباطبا في أبيات من الشعر للأعشى في قصة السمومل :

أقتل ابنك صبراً أو تجيء بها طوعاً ، فأنكر هذا أيّ إنكار
واختار أدراعه أن لا يُسبَّ بها ولم يكن عهده فيها بختار
وقال : لا أشتري مالاً بمكرمة فاختار مكرمة الدنيا على العار
«فانظر إلى استواء هذا الكلام ، وسهولة مخرجه ، وتمام معانيه ، وصدق

(١) عيار الشعر ، ص : ٢١٣ .

(٢) البلاغة : تطور وتاريخ ، ص : ١٢٧ .

(٣) ابن طباطبا الناقد ، للدكتور محمد عبد الرحمن الربيع ، ص : ٣٤ - ٣٥ .

الحكاية فيه ، ووقوع كل كلمة موقعها الذي أريدت له ، من غير حشو مجتلب ، ولا خلل شائن . وتأمل لطف الأعشى فيما حكاه واختصره في قوله :

أأقتل ابنك صبراً أو تجيء بها
فأضمر ضمير الهاء في قوله :

واختار أدراعه أن لا يُسبَّ بها

فتلافي ذلك الخلل بهذا الشرح ، فاستغنى سامع هذه الأبيات عن استماع القصة فيها لاشتمالها على الخبر كله بأوجز كلام ، وأبلغ حكاية ، وأحسن تأليف ، وألطف إيماء^(١) .

وأورد أمثلة متعددة أبرز فيها فضيلة الإيجاز والاختصار غير المخمل بالمعنى ، من ذلك قوله : «ومن الاختصار قول لبيد :

وبنو الريان أعداءٌ لـِلا وعلى ألسنتهم ذلت نعمٌ
زينت أحسابهم أنسابهم وكذلك الحِلْمُ زينٌ للكرمِ

ثم ساق بعض الأبيات الموجزة البليغة ليبرز فضيلة الاختصار - كما يقول - الذي ينوب عن الإحاطة ، منها قول عمرو بن معديكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرتِ

«أي : لو أن قومي اعتنوا في القتال ، وصدقوا المِصاع^(٢) ، وطعنوا أعداءهم برماحهم فأنطقني بمدحهم وذكر حسن بلائهم . ولكن الرماح أجرت ، أي : سقت لساني كما يجر لسان الفيصل ، يريد : أسكتني^(٣) .

وكما تحدث ابن طباطبا عن فضيلة الإيجاز ، تحدث عن الإطناب . وفي

(١) عيار الشعر ، ص : ٧٥ - ٧٦ .

(٢) المِصاع : المضاربة والمجادلة . اللسان (مادة : مصع) .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٤٥ - ٤٩ .

ذلك قال : « . . . وعلى الشاعر إذا اضطر إلى اقتصاص خبر في شعر دبره تدييراً يسلس له معه القول ، ويترد فيه المعنى ، فيبني شعره على وزن يحتمل أن يحشى بما يحتاج إلى اقتصاصه بزيادة من الكلام يخلط به ، أو نقص يحذف منه . وتكون الزيادة والنقصان يسيرين غير مخدجين لما يستعان فيه بهما ، وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه ، بل تكون مؤيدة له ، وزائدة في رونقه وحسنه»^(١) .

ولم يكن ما ذكره ابن طباطبا في حديثه عن الإيجاز والإطناب أول من طرق هذه الموضوعات ، بل كان الجاحظ قد ذكر ذلك^(٢) - كما مر معنا - وأسهب فيه .

أما علم البيان ، فلعل أهم ما درسه ابن طباطبا في الصناعة الشعرية ومعيارها : التشبيه ، فإنه عنده مبين ومفصل وبحث مسهب ، عرض فيه لأنواع التشبيهات المختلفة ، «وكأنه يعدّ التشبيه جوهر الشعر ولبه . ومبحثه فيه يُعدّ أهم مبحث في كتاب يتصل بالبلاغة وتطور البحث في مسائلها ، فقد حاول أن يستقصى وجوهه وأقسامه»^(٣) .

وقد تحدث عنه في مواضع متفرقة في كتابه (عيار الشعر) ، وأفرد له أكثر من فصل ، وعرض لطريقة العرب في التشبيه ، وأنه منتزع من طبيعة حياتهم وبيئتهم ، ومن مدركاتهم الحسية . وفي ذلك ، قال ابن طباطبا : «واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها ، وهم أهل وبر ، صحنهم البوادي ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدّ أوصافهم ما رأوه منهما وفيهما»^(٤) .

(١) المصدر ذاته ، ص : ٧٢ - ٧٣ .

(٢) رسالة : البلاغة والإيجاز ، ص : ٢٤ .

(٣) البلاغة : تطور وتاريخ ، ص : ١٢٤ .

(٤) عيار الشعر ، ص : ١٥ .

كما ذكر أنواعه ، فقال : « . . . والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه بمعنى ، ومنها تشبيهه به حركة وبطناً وسرعة ، ومنها تشبيهه به لوناً ، ومنها تشبيهه به صوتاً»^(١) .
وضرب أمثلة كثيرة على ذلك .

كما عرض لكثير من التشبيهات التقليدية ، «وأوصى الشاعر الحاذق بأن يمزج بينها في التشبيهات لتكثر شواهدا ويتأكد حسنهما ، ويتوخى الاقتصار على ذكر المعاني التي يغير عليها دون الإبداع فيها والتلطيف لها لئلا يكون كالشيء المعاد المملول ، وهذا هو الإبداع في نظره»^(٢) .

وتكلم عن أدوات التشبيه ، «فما كان من التشبيه صادقاً ، قلت في وصفه : كأنه أو ككذا ، وما قارب الصدق ، قلت فيه : تراه أو تخاله أو يكاد»^(٣) .
وبذلك ، يعبر عن التفريق بين التشبيه المجمل والتشبيه المؤكد .

وضرب أمثلة للتشبيهات البعيدة التي لم يلطف أصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم في العبارة عنها ، فأتى بأمثلة من شعر النابغة وزهير وبشر بن أبي خازم وليد . . . وفي قول ساعدة بن جُوَيَّة :

كساها رطيب الريش فاعتدلت لها قداحُ كأعناق الظباء زفازفُ
«شبه السهام بأعناق الظباء ، ولو وصفها بالدقة كان أولى»^(٤) .

وتكلم ابن طباطبا عن أحسن التشبيهات ، فقال : « . . . فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشبهاً به صورة ومعنى . وربما أشبه الشيءُ الشيءَ صورة

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٥ .

(٢) البيان العربي ، ص : ١٢٤ - دار المنارة - ط ٨ - السعودية .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٢٢ - ٢٣ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٤٧ - ١٥١ .

وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنىً وخالفه صورة ، وربما قاربه وداناه ، أو شامه وأشبهه مجازاً لا حقيقة^(١) . ويعلق الدكتور الربيع على قول ابن طباطبا : «ولا يفوتنا أن نلاحظ أن المشبه إذا كان مثل المشبه به في كل شيء لا يصح التشبيه ، إذ التشبيه لا يقع بين متحدين في كل الصفات . وأدق من كلام ابن طباطبا قول قدامة : (أحسن التشبيه هو ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد)^(٢) .

وذكر بعد ذلك التشبيهات الغريبة التي - ربما - يصعب علينا إدراكها ، ولكن إن تلفننا في فهمها عرفنا قيمتها وفضلها ، فهو يشيد بالعرب وأنهم لا يلفظون بكلام لا معنى له ، وفي ذلك يقول : «... فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بقبول ، أو حكاية تستغربها ، فابحث عنه ، ونقر عن معناه ، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيثة ، إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنهم أرق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته»^(٣) .

ولكن ، نتساءل : هل ابن طباطبا أول من طرق موضوع التشبيه ، أم سار على نهج من تقدمه ؟ فالتشبيه قد ذكره الجاحظ قبله^(٤) ، كما ذكره ابن قتيبة^(٥) ، وذكره المبرد^(٦) ، والإمام ثعلب^(٧) ، ثم تلميذهما ابن المعتز^(٨)

(١) عيار الشعر ، ص : ١٦ .

(٢) ابن طباطبا الناقد للدكتور الربيع ، ص : ٦٢ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ١٦ .

(٤) الحيوان ١/ ٢١١ .

(٥) يراجع : أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ١٨١ ، فقد استوفى أستاذنا الحديث عن التشبيه عند ابن قتيبة .

(٦) الكامل ٢/ ١٠٣٢ .

(٧) قواعد الشعر ، ص : ٤٠ .

(٨) البديع ، ص : ٦٨ .

وجعله من محاسن الشعر . لكن ، يرى الدكتور الربيع أن الريادة كانت لابن طباطبا ، ولم يسبقه أحد في ابتكار حدود التشبيه وأقسامه ، وقال مؤكداً ما جاء به د . زغلول سلام : « . . . فالدراسات الأسلوبية لا تزال في مراحلها الأولى ، ولم يسبقه من حدد جوانب التشبيه وأركانه وضروبه»^(١) ، فربما كان هو أكثرهم تحديداً وتعديداً « . . . ورأيه هذا قريب من الصواب ، لكن لا ننسى فضل السبق ، فالجاحظ كان قد ذكر التشبيه كثيراً - كما مر معنا - وكذلك العلماء والنقاد الذين ذكرناهم آنفاً .

ولا مبالغة في قول د . حسنين : «إن معالجته للتشبيه تضعه في مكان الريادة عن جدارة ، لقد أكمل ما بدأه ابن قتيبة ، وخاصة في معالجته التشبيه الطريف . فإذا كان لابن قتيبة فضل لفت الأنظار إليه ، يكون لابن طباطبا الريادة في رسم الطريق لصياغته وتحري عناصر الإبداع فيه»^(٢) .
وقد ذكر ابن طباطبا المجاز من دون توسع فيه ، إذ لم يكن كتابه يعرض لفنون البلاغة ، وإنما ما وافق الموضوع الذي هو بصدده . . .

وفي معرض حديثه عنه قال : « . . . ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولا يبعد عنها ، فمن الحكايات الغلقة قول المثقب العبدى في وصف ناقته :

تقولُ وقد درأتُ لها وضيئي أهذا دينه أبداً وديني
أكلَّ الدهر حلُّ وارتحالٌ أما يبقي عليّ ولا يقيني

فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعده للحقيقة . . . وإنما أراد الشاعر أن الناقه لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول»^(٣) .

(١) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ١٩٢ ، وابن طباطبا الناقد للدكتور الربيع ، ص : ٦٣ .

(٢) المصطلح البلاغي وتطوره ، د . حسنين ، ص : ٣٢٠ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٢٠٠ .

ولم يقتصر على ذكر المجاز ، بل ذكر التعريض والكناية ، وفي ذلك قال : «وإذا مر له معنى يستبشع اللفظ به لُطْفَ في الكناية عنه ، وأجلّ المخاطب عن استقباله بما ينكره منه ، وعدل اللفظ عن كاف الخطاب إلى ياء الإضافة إلى نفسه إن لم ينكسر الشعر أو احتال في ذلك بما يحترز به مما ذممناه ويوقف به على أدب نفسه ولُطْفَ فهمه»^(١) . وهذا يدل على وضوح مفهوم الكناية عنده . وأحياناً يسميها التعريض ، وفي ذلك قال : «... وأما التعريض الذي ينوب عن التصريح ، قول الشاعر...» ، وقال في مكان آخر : «... ومن أحسن المعاني والحكايات في الشعر : التعريض الخفي الذي يكون بخفائه أبلغ في معناه من التصريح الظاهر الذي لا ستر دونه»^(٢) .

ونرى الجاحظ قبله قد تكلم عن الكناية ، وضرب لها أمثلة^(٣) ، كما تكلم عنها ابن قتيبة^(٤) ، والمبرد^(٥) ، والإمام ثعلب^(٦) ، وعنهما أخذ ابن المعتز^(٧) ، ثم جاء ابن طباطبا ، فتكلم عنها بهذا الإيجاز ، ولم يقسمها كما فعل المبرد ، إذ قسمها - كما مر معنا - إلى ثلاثة أقسام : الأول بمعنى التعمية والتغطية ، والثاني - وهو أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه إلى غيره ، والثالث التفخيم والتعظيم^(٨) .

وأما المحسنات البديعية ، فقد تكلم ابن طباطبا عن المبالغة والإغراق .

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٠٧ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٧٧ ، ٢٦٣ ، ٧/٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص : ١٠٢ - ١٠٧ .

(٥) الكامل ٢/ ٨٥٥ - ٨٥٦ .

(٦) قواعد الشعر ، ص : ٥٣ وما بعدها .

(٧) البديع ، ص : ٦٤ .

(٨) الكامل ٢/ ٨٥٨ .

وقد اهتم بذلك وأفرد لها باباً سماه : «الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها»^(١) ، واستشهد بأمثلة كثيرة كانت مادة لأمثلة المبالغة وفروعها عند المتأخرين ، من ذلك استشهاده بقول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذرِّ فوق الإثب منها لأثرا
وقول الفرزدق :

وقد خفت حتى لو أرى الموت مقبلاً ليأخذني ، والموت يُكره زائره
لكان من الحجاج أهونَ روعةً إذا هو أغفى وهو سامٍ نواظرةً
وعلق عليه بقوله : «فانظر إلى لطفه في قوله : (إذا هو أغفى . . .) ليكون أشد مبالغة في الوصف إذا وصفه عند إغفائه بالموت ، فما ظنك به ناظراً متأملاً متيقظاً ، ثم نزهه عن الإغفاء فقال : (و هو سامٍ نواظره)»^(٢) .

وبعد أن أورد الأمثلة على الإغراق من شعر المتقدمين ، نراه يورد بعض الأمثلة للمحدثين الذين أغرقوا في مبالغاتهم ، وقال : « . . . وقد سلك جماعة من الشعراء المحدثين سبيل الأوائل في المعاني التي أغرقوا فيها ، فقال أبو نواس :

و أخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وقال بكر بن النطاح^(٣) :

لو صال من غضب أبو دلف على بيض السيوف لذُبْنَ في الأغماد
«فابن طباطبا وغيره قد أشادوا بالمبالغة ، وخاصة هذا النوع الذي يخرج إلى الاستحالة ، وكتبهم وآراؤهم تشهد بعلو كعبهم في فهم أشعار العرب

(١) عيار الشعر ، ص : ٧٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٨١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٨١ .

وتذوق أسرار القرآن الكريم»^(١).

ونلاحظ أن المبالغة أو الإغراق قد تناوله العلماء قبله كالجاحظ^(٢) ، وابن قتيبة^(٣) ، والمبرد^(٤) ، والإمام ثعلب^(٥) وكان يسميها الإفراط في الصفة ، وابن المعتز^(٦).

ومن أوجه تحسين الكلام مفتح الشعر أو جودة الابتداء . ونلاحظ أن ابن طباطبا قد طور هذا المصطلح من حيث التسمية ، فبدلاً من حسن الابتداء الذي ذكره الجاحظ^(٧) وابن المعتز^(٨) الذي سماه حسن الابتداءات نراه يستخدم هذا المصطلح .

ومما تطرق له ابن طباطبا مما ينبغي للشاعر تجنبه الاحتراز في أشعاره ومفتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات . لاسيما في القصائد التي تُضمن المدائح أو التهاني ، ويستعمل هذه المعاني في المرثي وصف الخطوب الحادثة . من هذا القبيل ما أنكره الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس قوله :

أربع البلى إن الخشوع لبادي عليك وإني لم أخنك ودادي
وتطير منه ، فلما انتهى إلى قوله :

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ٢٧٨ .

(٢) الحيوان ٣٥/٢ .

(٣) مشكل تأويل القرآن ، ص : ١٩٧ ، نجد لديه حديثاً عن الإفراط عندما تحدث عن الاستعارة .

(٤) الكامل ١٠١٢/٢ .

(٥) قواعد الشعر ، ص : ٤٩ - ٥٣ .

(٦) البديع ، ص : ٦٥ .

(٧) البيان والتبيين ١/١١٦ .

(٨) البديع ، ص : ٧٥ .

سلام على الدنيا إذا ما فُقدتم بني برمك من رائحين وغادي
استحكم تطيره ، ويقال إنه لم ينقض الأسبوع حتى نزلت به النازلة .

ونراه يحذر من التشبيب بمن يوافق اسمها اسم بعض نساء الممدوح من أم
أو غيرها ، وكذلك ما يتصل به سببه ، أو يتعلق به وهمه . من ذلك ، ما حصل
للشاعر أرتاة بن سهية مع الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكيف تشاء من
شعره ، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات^(١) .

ومن أوجه تحسين الكلام التي ذكرها ابن طباطبا : حسن الخروج
والتخلص . وقد أفرد له باباً سماه «التخلص وطرقه عند القدماء
والمحدثين»^(٢) ، تحدث فيه عن الانتقال الحسن من غرض إلى غرض آخر ،
مقررأ أن المحدثين كانوا أجود في براعة تخلصهم . وفي ذلك قال : « . . . ومن
الآبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها . . . ولطفوا في صلة
ما بعدها به فصارت غير منقطعة عنها ، ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من
تقدمهم » ، وعلل هذا الأمر بأن «مذهب الأوائل في ذلك مذهب واحد ، وهو
قولهم عند وصف الفيافي ، وقطعها بسير الفيافي ، وحكاية ما عانوا في
أسفارهم : (إنا تجشمتنا ذلك إلى فلان) ، يعنون الممدوح ، كقول
الأعشى^(٣) :

إلى هُوذة الوهابِ أزجي مطيتي أرجي عطاءً صالحاً من نوالكا
وأحياناً يستأنف الشاعر الكلام بعد انقضاء التشبيب ووصف الفيافي والنوق
وغيرها ، ويقطع عما قبله ، ويُبتدأ بمعنى المديح ، كقول زهير :

(١) عيار الشعر ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٧ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٨٤ .

(٣) رواية الديوان :

إلى هُوذة الوهابِ أهديت مدحتي أرجي نوالاً فاضلاً من عطائكا

وأبيض فياض يدها غمامة على معتفيه ما تُعَبُّ نوافله
أو يتوصل إلى المديح بعد شكوى الزمان ووصف محنته وخطوبه ،
فيستجار منه بالمدوح^(١).

مما سبق ، نلمس أن ابن طباطبا قد أخذ حسن الخروج أو التخلص عن
سبقه من العلماء . وقد ذكره ابن المعتز باسم : حسن الخروج^(٢).

المبحث الثالث : النقد عند ابن طباطبا :

لم يكن لابن طباطبا في (عيار الشعر) منهج نقدي متمم بالتنظيم والتبويب
والتقعيد ، وإنما عرض فكرته بأسلوبه التعليمي ، فالكتاب في الأصل رسالة
يجيب فيها من سأل عن علم الشعر . والسبب الذي يتوصل به إلى نظمه ،
وبأسلوب يقرب من فهم السائل ، فنراه يعرف الشعر بأنه «كلام منظوم بان عن
المشور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به النظم الذي إن عدل به
عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق»^(٣).

وأهم القضايا النقدية التي أثارها ابن طباطبا : قضية اللفظ والمعنى ،
وقضية التناسب والانسجام ، وقضية السرقات ، وقضية الطبع والصنعة ،
وقضية الوزن والقافية وضرورتهما وأسباب جودتهما وقبحهما ، وقضية ثقافة
الشاعر ومن أين يستمد مادته ، وقضية القدماء والمحدثين .

وهذه القضايا عند ابن طباطبا نسيج واشج ، وسأدرس كل واحدة منها
بشيء من التفصيل .

ففي قضية اللفظ والمعنى ، يقرر ابن طباطبا أن المعنى سابق واللفظ

(١) عيار الشعر ، ص : ١٨٦ .

(٢) البديع ، ص : ٦٠ - ٦١ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٥ .

لاحق ، وأن المعاني تبقى حبيسة في النفس حتى تجد لها الثوب الملائم . وفي ذلك يقول : «وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض»^(١) . فيتكلم عن جودة اللفظ وحسنه ، واكتمال المعنى ، والعلاقة الواشجة بين اللفظ والمعنى كالعلاقة بين الروح والجسد . وعبر عن ذلك بقوله : «الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه ، كما قال بعض الحكماء : (الكلام جسد وروح ، فجسده النطق ، وروحه معناه)»^(٢) .

ويدعو إلى مطابقة اللفظ للمعنى الذي سيق له من أجله ، فتكون الألفاظ الحسنة للمعاني الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض ، ولا تحتاج إلى تفسير وتأويل . . . ولا تجانب الحقيقة ، ولا تكون معتمدة على الفلسفة . وفي هذا الصدد نجده يقول : «وأحسن الشعر ما يوضع فيه كل كلمة موضعها حتى تطابق المعنى والذي أريدت له ، ويكون شاهدها معها لا يحتاج إلى تفسير من غير ذاتها»^(٣) .

ونلاحظ اهتمام ابن طباطبا البالغ بالصدق في المعاني ، فينص على أنه يجب على الشاعر «أن ينسق الكلام صدقاً لا كذب فيه ، وحقيقة لا مجاز معها فلسفياً»^(٤) ، ونبه إلى أثر ذلك وفضله في قوله : «فإذا صدق ورود القول نثراً ونظماً أثلج صدرك»^(٥) ، وفي موضع آخر قال : «فإذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات ، تضاعف حسن موقعها عند مستعملها ، ولاسيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ١١ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٧ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٢١٥ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٢١٦ ، ويراجع : نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا ، ص : ٢٨١ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ٢٢ . وقراءة المحقق : أبهج صدره .

والتصريح بما كان يكتم منها ، والاعتراف بالحق في جميعها»^(١) .

ويدعو إلى الصدق التاريخي (في اختصاص الأخبار) ، والصدق الفني (في صدق التشبيهات) ، في قوله : «فهذا الصدق يعني السلامة التامة من الخطأ في اللفظ ، والجور في التركيب ، والبطلان في المعنى ، أي : هو أن يتمتع الشعر بالاعتدال بين هذه العناصر جميعاً»^(٢)

ويرى أن من أسباب حسن الأشعار أن تودع حكمة تألفها النفوس ، وترتاح لصدق القول فيها ، وما أتت به التجارب منها ، أو تضمن صفات صادقة ، وتشبيهات موافقة»^(٣) .

وهنا تبرز قضية الجمال والتناسب والانسجام ، فهي لمسات بارعة أضفاها ابن طباطبا على أفكاره ، فدعا للتناسب بين اللفظ والمعنى ، والتناسب بين اللفظة وأختها المجاورة لها ، والتناسب بين أجزاء القصيدة ، والتناسب بين القصيدة والقافية ، فجنده يعرض للأبيات المتقنة المحكمة المستوفاة المعاني والسلسلة الألفاظ^(٤) ، وللأبيات المستكرهه الألفاظ ، الرديئة النسيج ، فليست تسلم من عيب يلحقها في ألفاظها ومعانيها^(٥) ، وللأشعار حسنة الألفاظ واهية المعاني^(٦) ، وللأشعار الحسنة المعاني الواهية الألفاظ^(٧) ، والأبيات الحسنة المعاني وقد أبرزت في أحسن معرض ، وأبهى كسوة ، وأرق لفظ^(٨) . وقد

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٤ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص : ١٤٢ .

(٣) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا ، ص : ٢٨١ .

(٤) عيار الشعر ، ص : ٨٢ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ١١٠ ، ١٦٨ .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ١٣٦ .

(٧) المصدر ذاته ، ص : ١٤٤ .

(٨) عيار الشعر ، ص : ١٤٧ .

أشار النقاد إلى تأثر ابن طباطبا بابن قتيبة في تقسيمه الشعر^(١).

وابن طباطبا يبرز المفارقات ، فلا يأتي بمعنى جديد إلا وقرنه بضده .
ونجده يسوق الأمثلة على هذه التقسيمات ، فيقول : « . . . فمن الأشعار
المحكمة ، المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الوصف ، السلسة الألفاظ ،
التي خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً ، فلا استكراه في قوافيها ، ولا تكلف
في معانيها ، قولٌ زهير^(٢) :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً - لا أبأ لك - يسأم
وأتى بأبيات عديدة لزهير من المعلقة وغيرها ليثبت صحة ما ذهب إليه .
وكان يدعو الشاعر إلى أن يحسن تناول المعاني التي سبق إليها ، ويتلطف في
تناول أصولها ، ثم يكسوها من حلل عصره ، ويبرزها في ثوب قشيب ،
فيقول : « . . . وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها ، وأبرزها في أحسن
من الكسوة التي عليها لم يُعب ، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه^(٣) .

ويذكر ابن طباطبا أن المولدين استفادوا من معاني من تقدمهم ، ولطفوا في
تناول أصولها ، ثم ألبسوها أردية عصرهم ، وأكسيت تناسب زمانهم . فعندما
ادعوا لأنفسهم لم ينكر أحد عليهم هذا الادعاء ، وذلك «للطيف سحرهم
فيها ، وزخرفتهم لمعانيها»^(٤) . وأتى بأمثلة للشعراء المحدثين الذين استفادوا
من معاني من سبقهم . لكن ، يبرز أخذهم لهذه المعاني كقول أبي نواس :

وإن جرت الألفاظ منا بمدحةٍ لغيرك إحساناً فأنت الذي نعني

(١) لمزيد من التفصيل في مسألة التأثر هذه ، يراجع : ابن طباطبا الناقد ، ص : ٤٩ ، ونقد

الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا ، ص : ٥٦ وما بعدها

(٢) عيار الشعر ، ص : ١٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٢٣ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٢ .

أخذه من الأحوص ، حيث قال :

متى ما أقل في آخر الدهر مدحة فما هي إلا لابن ليلي المكرم
وكقولٍ دِعْبِلٍ :

أحب الشيب لما قيل : ضيف لحيي للضيف النازلينا
أخذه من الأحوص أيضاً ، حيث قال^(١) :

فبان مني شبابي بعد لذته كأنما كان ضيفاً نازلاً رحلاً
وهكذا ، يجيز ابن طباطبا أخذ اللاحق عن السابق إذا استطاع أن يبيزه في
حسن الصياغة وجودتها ، فهو يتتبع المعاني ، وكيف أخذ الشاعر عن الآخر ،
ولكن ، لا بد من أسلوب ومهارة. لذا ، نبه على ذلك في قوله : «ويحتاج من
سلك هذا السبيل إلى إطفاء الحيلة ، وتدقيق النظر في تناول المعاني
واستعارتها وتلييسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها
كأنه غير مسبوق إليها»^(٢).

وكان يلتمس عذراً للمحدثين ، لأنهم سبقوا بكل معنى بديع ، ولفظ
فصيح ، وحلية لطيفة وخلابة ساحرة ، ودعا إلى استعمال المعاني في غير
الجنس الذي تناولها منه الشاعر ، فيتناول المعنى اللطيف في المنشور من الكلام
ويجعله شعراً. وقد أولى ابن طباطبا هذه الفكرة عنايته ، إذ قرر أن الشعر
رسائل معقودة ، والرسائل شعر محلول ، وأورد كلام العتابي (ت ٢٣٠ هـ) ،
إذ قال : «قيل للعتابي : بماذا قدرت على البلاغة ؟ فقال : بحل معقود
الكلام»^(٣). «ولاشك أن ابن طباطبا هو أول من جعل الأخذ من الشر من

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٢٤ .

(٢) عيار الشعر ، ص : ١٢٦ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٢٧ .

السرقات الحسنة ، فقد لاحظ النقاد من قبله هذا النوع من الأخذ ، ولكنهم لم يجعلوه من بين قواعد السرقة المستحسنة^(١) . ودعا الشعراء إلى التمرس بآثار السابقين ، لا نقلها ومحاولة السرقة منها ، فمع إدامة النظر في الأشعار تلتصق المعاني بالفهم ، وترسخ أصولها في القلب . وفي هذا قال : « . . . ولا يغير على معاني الشعراء فيودعها شعره ، ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يستر سرقته ، أو يوجب له فضيلة . . . فإذا جاش فكره بالشعر ، أدى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار ، فكانت تلك النتيجة كطيب مركب من أخلاطٍ من الطيب كثيرة ، وكمن اغترف من وادٍ قد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة^(٢) . وهذا ، كما قال الدكتور الربيع ، «فهم دقيق لموقف الشاعر من تراث السابقين ، فهو لا يغير عليه ويسرقه ، بل يتفهمه ويعمق معانيه ، ثم يقتدي به ويتأثر ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة الإبداع^(٣) .

هكذا يعالج ابن طباطبا السرقات الشعرية ، وهو باب كبير كما يقول الجرجاني : «هذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استفاه واستكملته^(٤) . وقد عالج هذا الموضوع كثير من البلاغيين والنقاد في القديم والحديث منذ نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث . وقد كان مصطلح السرقة والأخذ موجوداً ، كسرقات الكميت لابن كنانة (ت ٢٠٧ هـ) . وابن سلام (ت ٢٣٢ هـ) كان يسميها الاجتلاب والإغارة ، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) - كما رأينا - حيث أفرد

- (١) مشكلة السرقات ، د. محمد مصطفى هدارة ، ص : ٩٣ ، ويراجع : السرقات في النقد المنهجي لمنذور ، ص : ٣٠٧ وما بعدها ، والسرقات الشعرية في نقد الشعر ، لأحمد طرابلسي ، ص : ١٩٧ وما بعدها ، والسرقات الأدبية ، د. بدوي طبانة .
- (٢) عيار الشعر ، ص : ١٤ .
- (٣) ابن طباطبا الناقد ، د. الربيع ، ص : ٥٦ .
- (٤) الوساطة ، ص : ١٨٣ .

باباً بعنوان : «أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض»^(١) ، وكذلك المبرد (ت ٢٨٥ هـ) الذي عدّه د. طبانة من أوائل من تكلم عن السرقات ، وفتح باب القول في هذا الموضوع ، وكان أستاذاً لمن جاء بعده^(٢) . كما ذكر لابن المعتز كتاب السرقات الذي ضاع ونقل عنه بعض البلاغيين ، وكذلك ما ذكره في كتابه (الطبقات) وفي رسائله عندما قال : «... ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو ينسج له بذلك معنى يفضح به من تقدمه»^(٣) . وكذلك ما ذكره محمد بن داود بن الجراح في كتابه (الورقة) (ت ٢٩٦ هـ) - وكان معاصراً لابن المعتز - ثم ما ذكره القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه (الوساطة) من قضية الدربة ، لكنه لم يربطها بالتقليد والسرقة . ويعتقد د. هدارة أنه أخذها من ابن طباطبا ، إلا أنه لم يصرح بذلك ، فابن طباطبا كان مهتماً بهذه الفكرة إلى حد بعيد ، لذلك ألف - كما يقول د. هدارة - كتاب (تهذيب الطبع) ليضع قواعد السرقة الحسنة ، فيقرر أن الشاعر إذا تناول «المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها ، لم يجب . . . بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه»^(٤) . فهو يعود ، في مسألة الدربة ، إلى القاضي الجرجاني ، بينما الأستاذ طه أحمد إبراهيم ، يعود بها إلى ابن سلام ، حيث يقول : «إن النقد - كما يقول ابن سلام - صناعة وثقافة ، وإنه لا بد فيه من دربة . وإن الناقد قد يرد شعراً ثم يعجز عن أن يبين كيف يرده ؟ وما الضعف فيه ؟ وإن الصورة قد تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي أوصاف الكمال ، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن والتمام الخلقة ، وهي أحظى بالحلاوة ، وأوفى إلى العقول ، دون أن تعرف لهذه

(١) الحيوان ٣/ ٣١١ .

(٢) يراجع الفصل الخامس من الباب الأول في حديثنا عن السرقة عند المبرد .

(٣) رسائل ابن المعتز ، ص : ٢٤ .

(٤) مشكلة السرقات ، ص : ٩٣ .

المزية سبباً إلا أن موقعها في القلب ألطف ، كذلك البيتين الجيدين النادرين قد يتقاربان ، فيعلم أهل العلم بالشعر أيهما أجود دون أن يأتوا بعلّة قاطعة^(١) . ثم ذكر ذلك المرزباني في موشحه (ت ٣٨٤ هـ) - كما سنرى - والحاتمي في (حلية المحاضرة) (ت ٣٨٨ هـ) ، وأبو هلال العسكري في (كتاب الصناعتين) (ت ٣٩٥ هـ).

هذه المعاني ردها نقدة القرن الرابع وما يليه بكل إيمان من أن النقد صناعة لا بد فيها من طبع وقريحة ، ولا بد لهذا الطبع من خبرة وطول معاناة ، وهذا ما يراه القاضي الجرجاني - كما سنرى في فصول لاحقة - يقول في ذلك : «إن الشعر لا يحب إلى النفوس بالنظر والجدل ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة . وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون مقبولاً ، ولكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ، وكثير من شؤون النقد تمتحن بالطبع لا بالفكر»^(٢).

وقد أولى ابن طباطبا قضية الطبع والصنعة عنايته خلال حديثه عن الشعر وعن لفظه ومعناه ووزنه وقافيته ، إذ نجده يقول إنه من الأشعار الغثة الألفاظ ، الباردة المعاني ، المتكلفة النسيج ، الغلقة القوافي ، قول الأعشى :

بانت سعاد وأمسى جبلها انقطعاً واحتلت الغمر فالجدين فالفرعا
لا يسلم منها خمسة أبيات . لذلك ، يقول ابن طباطبا إنه سيوردها ليوقف
على التكلف الظاهر فيها ، وفيها :

تعصي الوشاة وكان الحب آونة مما يزين للمشغوف ما صنعا
و ما طلابك شيئاً لست مدركه إن كان عنك غراب الجهل قد وقعا
«فهذه القصيدة ستة وسبعون بيتاً ، التكلف فيها ظاهر بين ، إلا في ستة

(١) تاريخ النقد الأدبي ، طه إبراهيم ، ص : ١٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٥٠ .

أبيات ، وفيها خلل ظاهر ، وفيها من التكلف وبشاعة القول ما فيها»^(١) .
وبذلك ، نراه يعدّ الكلام الغث المستكره هو الكلام المتكلف ، واستشهد
لذلك بقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه
وقال فيه : «فهذا من الكلام الغث المستكره الغلق ، وكذلك ما تقدمه ،
فلا تجعل هذا حجة ، ولتجنب ما أشبهه»^(٢) .

وهذا الذي تكلم عنه من باب التعقيد وعدم حسن السبك وسوء التقديم
والتأخير ، واستشهد للأبيات المستكرهه الألفاظ ، المتفاوتة النسيج ، القبيحة
العبارة ، بقول عروة ابن أذينة :

واسق العدو بكأسه واعلم له بالغيب أن قد كان قبل سقاكها
واجز الكرامة من ترى أن لو له يوماً بذلت كرامة لجزاكها
«فقوله في البيت الأول : (واعلم أن له بالغيب...) كلام غث ، و(له)
رديئة الموقع ، بشعة المسمع . والبيت الثاني كان مخرجه أن يقول : (واجز
الكرامة من ترى أن لو بذلت له يوماً كرامة لجزاكها)»^(٣) .

ويعرض ابن طباطبا لأبيات كثيرة كانت لا تتمتع بحسن السبك ، أو فيها
تعقيد بسبب التقديم والتأخير سواء أكان التعقيد لفظياً أم معنوياً ، لأن الشاعر لم
يكن مطبوعاً ، فيذكر ابن طباطبا أن أهم خصيصة للشعر إنما هي حسن النظم .
وهذه الفكرة هي التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم فيما بعد .
لذلك ، نراه يعرف الشعر - كما مر معنا - أنه «كلام موزون بان عن المنشور الذي
يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته

(١) عيار الشعر ، ص : ١١٠ - ١٢٠ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٧٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ - ٦٨ .

مجته الأسماع ، وفسد على الذوق ، ونظمه معلوم محدود ، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه^(١) .
فمن افتقد الطبع السليم احتاج إلى تعلم العروض حتى يصير علمه به كالطبع .
وبذلك يصبح الشعر جيداً ، «ومصنفي من كدر العي ، مقوماً من أود الخطأ واللعن ، سالمأ من جور التأليف ، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً ، اتسعت طرقة ، ولطفت موالجه ، فقبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به»^(٢) .
ويعلل ابن طباطبا ذلك من الوجهة النفسية بأن النفس تسكن إلى ما يوافق هواها ، وتقلق مما يخالفه . وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ، فإذا جمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى وعدوية اللفظ فصفا مسموعه ومنقوله من الكدر ، تم قبوله له . وإن نقص جزء اعتدال الوزن أو صواب المعنى أو حسن الألفاظ كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه^(٣) . لذلك ، كان ابن طباطبا يرى أنه لا بد للشاعر من أدوات يعدها قبل تكلف النظم ، فمن نقصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه ، منها : «الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب ، وسلوك مناهجها . وعدوية ألفاظها ، وجزالة معانيها ، وحسن مبادئها ، وحلاوة مقاطعها ، وإفاء كل معنى حظه من العبارة ، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة ، واجتناب ما يشينه من سفاسف الكلام وسخيف اللفظ . حتى لا يكون ملفقاً مرقوعاً ، بل يكون كالسيكة المفرغة ، والوشي المنمنم ، والعقد المنظم ، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم لحسن معانيه كالتذاد السمع بمونق لفظه»^(٤) .

(١) عيار الشعر ، ص : ٥ - ٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٠ - ٢١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢١ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٦ - ٧ .

ويرى ابن طباطبا أن شعر القدماء نتاج الطبع الفياض ، كما قال أحدهم :
«شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا» ، في حين أن أشعار المولدين
متكلفة مصنوعة . ورغم أنه كان ينسج على منوال المحدثين - وهو أحدهم - إلا
أنه كان يعجب بشعر القدماء ، ويعدّه المثال الأعلى الذي يجب على الشاعر أن
يحتذيه . أما المولدون ، فهم «إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يروونه
من أشعارهم ، وبديع ما يغربونه من معانيهم ، وبلغ ما ينظمونه من ألفاظهم ،
ومضحك ما يروونه من نوادرهم ، وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم دون
حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول
فيها»^(١) ، «وبتعبير أدل : يقوم النظام الجمالي للشعر القديم على قدرة
المحاكاة ، والتزام الحقيقة ، في حين تنهض جماليات الشعر المحدث على
براعة الصنعة المتمثلة في اصطیاد المعنى اللطيف الغريب ، فضلاً عن جمال
الصياغة»^(٢) .

ومما يقرره ابن طباطبا أن الحكم المرضي في قبول الشعر ورفضه إنما هو
الفهم الثاقب الذي يطرب للكلام الذي يكون صواباً لا خطأ فيه ، حقاً لا
باطلاً ، مألوفاً غير مجهول ، ويعتم بالكلام الذي يأتيه على أضداد هذه
الصفات . ومثّل الفهم الثاقب في تعامله مع مدركاته كمثل العين والأنف والفم
والأذن واليد في تعاملها مع ما أعدت له . ويعني هذا أنه يبتهج بالكلام الذي يرد
عليه وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها»^(٣) ، وهذه
الفكرة من أخصب الفكر وأثراها في نقده»^(٤) .

(١) المصدر ذاته ، ص : ٣ .

(٢) التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٨٤ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ٢٠ - ٢٣ .

(٤) التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٨٦ ، وقد فصل في هذا الموضوع ، وكان يسميه
جماليات التلقي .

مما سبق ، تتبين لنا شخصية ابن طباطبا الناقد الذي غلب نقده على الأمور البلاغية - وإن عدّ البلاغة مقياساً من مقاييس نقده - متمكناً ، مع قدرة فائقة على التمثل والاستشهاد الذي يدل على سعة اطلاعه ، وغزارة محفوظه من الشعر العربي^(١) . ونحن مع الدكتور طبانة في قوله : «إن آراء ابن طباطبا المستفيضة فيما يستحسن لأجله الشعر وما يغلب عليه مما يدخل في صميم المباحث النقدية . . . وإن مساهماته في مناقشة مفاهيم المصطلحات البلاغية لأمر جدير بالاعتبار^(٢) ، فهو يدخل التأليف البلاغي ومعالجة المصطلحات مرحلة حاسمة ، ويتحول فيها المسار من مجرد الرصد والتجميع - كما في البيان والتبيين - إلى عملية الدرس المتعمق ، والمعالجة الموسعة . ومعنى ذلك أن الجانب الكمي لم يعد مقصداً أو مهماً كما كان عليه الحال من قبل لدى كل من ثعلب وابن المعتز^(٣) . ويبقى (عيار الشعر) له مكانته بين كتب النقد ، ويتصدر مكتبة النقد في القرن الرابع للهجرة ، ولا تزال لآرائه - حتى الآن - جدتها وحيويتها . وكان جل اهتمامه منصرفاً إلى إكساب شداة الشعر وطلبته ومحبيه خبرة واسعة لإنتاج أشعار تتعشقها الآذان ، وتألّفها الأفتدة وتعلقها .

(١) البيان العربي ، د. بدوي طبانة ، ص : ١٢٥ .

(٢) المصطلح البلاغي وتطوره ، ص : ٣٣٥ .

(٣) المرجع ذاته ، ص : ٣٢٠ .

ونلاحظ اهتمام ابن طباطبا البالغ بالصدق في المعاني ، فينص على أنه يجب على الشاعر «أن ينسق الكلام صدقاً لا كذب فيه ، وحقيقة لا مجاز معها فلسفياً»^(١) ، ونبه إلى أثر ذلك وفضله في قوله : «فإذا صدق ورود القول نثراً ونظماً أثلج صدرك»^(٢) ، وفي موضع آخر قال : «فإذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات ، تضاعف حسن موقعها عند مستعملها ، ولاسيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها ، والتصريح بما كان يكتم منها ، والاعتراف بالحق في جميعها»^(٣) .

ويدعو إلى الصدق التاريخي (في اختصاص الأخبار) ، والصدق الفني (في صدق التشبيهات) ، في قوله : «فهذا الصدق يعني السلامة التامة من الخطأ في اللفظ ، والجور في التركيب ، والبطلان في المعنى ، أي : هو أن يتمتع الشعر بالاعتدال بين هذه العناصر جميعاً»^(٤)

ويرى أن من أسباب حسن الأشعار أن تودع حكمة تألفها النفوس ، وترتاح لصدق القول فيها ، وما أتت به التجارب منها ، أو تضمن صفات صادقة ، وتشبيهات موافقة»^(٥) .

وهنا تبرز قضية الجمال والتناسب والانسجام ، فهي لمسات بارعة أضفاها ابن طباطبا على أفكاره ، فدعا للتناسب بين اللفظ والمعنى ، والتناسب بين اللفظة وأختها المجاورة لها ، والتناسب بين أجزاء القصيدة ، والتناسب بين القصيدة والقافية ، فنجده يعرض للأبيات المتقنة المحكمة المستوفاة المعاني

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢١٦ ، ويراجع : نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا ، ص : ٢٨١ .

(٢) المصدر ذاته .

(٣) المصدر ذاته .

(٤) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ، ص : ١٤٢ .

(٥) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا ، ص : ٢٨١ .

والسلسلة الألفاظ^(١) ، وللأبيات المستكرهة الألفاظ ، الرديئة النسيج ، فليست تسلم من عيب يلحقها في ألفاظها ومعانيها^(٢) ، وللأشعار حسنة الألفاظ واهية المعاني^(٣) ، وللأشعار الحسنة المعاني الواهية الألفاظ^(٤) ، والأبيات الحسنة المعاني وقد أبرزت في أحسن معرض ، وأبهى كسوة ، وأرق لفظ^(٥) . وقد أشار النقاد إلى تأثر ابن طباطبا بابن قتيبة في تقسيمه الشعر^(٦) .

وابن طباطبا يبرز المفارقات ، فلا يأتي بمعنى جديد إلا وقرنه بضده . ونجده يسوق الأمثلة على هذه التقسيمات ، فيقول : « . . . فمن الأشعار المحكمة ، المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الوصف ، السلسلة الألفاظ ، التي خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً ، فلا استكراه في قوافيها ، ولا تكلف في معانيها ، قولٌ زهير^(٧) :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً - لا أباً لك - يسأم
وأتى بأبيات عديدة لزهير من المعلقة وغيرها ليثبت صحة ما ذهب إليه .
وكان يدعو الشاعر إلى أن يحسن تناول المعاني التي سبق إليها ، ويتلطف في تناول أصولها ، ثم يكسوها من حلل عصره ، ويبرزها في ثوب قشيب ، فيقول : « . . . وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها ، وأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يُعب ، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه^(٨) .

(١) عيار الشعر ، ص : ٨٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١١٠ ، ١٦٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٣٦ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٤٤ .

(٥) عيار الشعر ، ص : ١٤٧ .

(٦) لمزيد من التفصيل في مسألة التأثر هذه ، يراجع : ابن طباطبا الناقد ، ص : ٤٩ ، ونقد

الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا ، ص : ٥٦ وما بعدها

(٧) عيار الشعر ، ص : ١٢ .

(٨) المصدر ذاته ، ص : ١٢٣ .

ويذكر ابن طباطبا أن المولدين استفادوا من معاني من تقدمهم ، ولطفوا في تناول أصولها ، ثم ألبسوها أردية عصرهم ، وأكسبها تناسب زمانهم . فعندما ادعوا لأنفسهم لم ينكر أحد عليهم هذا الادعاء ، وذلك «للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها»^(١) . وأتى بأمثلة للشعراء المحدثين الذين استفادوا من معاني من سبقهم . لكن ، يبرز أخذهم لهذه المعاني كقول أبي نواس :

وإن جرت الألفاظ منا بمدحةٍ لغيرك إحساناً فأنت الذي نعني
أخذه من الأحوص ، حيث قال :

متى ما أقل في آخر الدهر مدحة فما هي إلا لابن ليلى المكرم
وكقول دِعْبِل :

أحب الشيب لما قيل : ضيف لحي للضيوف النازلينا
أخذه من الأحوص أيضاً ، حيث قال^(٢) :

فبان مني شبابي بعد لذته كأنما كان ضيفاً نازلاً رحلاً
وهكذا ، يجيز ابن طباطبا أخذ اللاحق عن السابق إذا استطاع أن ييزه في حسن الصياغة وجودتها ، فهو يتبع المعاني ، وكيف أخذ الشاعر عن الآخر ، ولكن ، لا بد من أسلوب ومهارة . لذا ، نبه على ذلك في قوله : «ويحتاج من سلك هذا السبيل إلى إطفاء الحيلة ، وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها»^(٣) .

وكان يلتمس عذراً للمحدثين ، لأنهم سبقوا بكل معنى بديع ، ولفظ

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٢٤ .

(٣) عيار الشعر ، ص : ١٢٦ .

فصيح ، وحرية لطيفة وخلابة ساحرة ، ودعا إلى استعمال المعاني في غير الجنس الذي تناولها منه الشاعر ، فيتناول المعنى اللطيف في المنشور من الكلام ويجعله شعراً. وقد أولى ابن طباطبا هذه الفكرة عنايته ، إذ قرر أن الشعر رسائل معقودة ، والرسائل شعر محلول ، وأورد كلام العتابي (ت ٢٣٠ هـ) ، إذ قال : « قيل للعتابي : بماذا قدرت على البلاغة ؟ فقال : بحل معقود الكلام»^(١). «ولاشك أن ابن طباطبا هو أول من جعل الأخذ من النثر من السرقات الحسنة ، فقد لاحظ النقاد من قبله هذا النوع من الأخذ ، ولكنهم لم يجعلوه من بين قواعد السرقة المستحسنة»^(٢). ودعا الشعراء إلى التمرس بآثار السابقين ، لا نقلها ومحاوله السرقة منها ، فمع إدامة النظر في الأشعار تلتصق المعاني بالفهم ، وترسخ أصولها في القلب. وفي هذا قال : «... ولا يغير على معاني الشعراء فيودعها شعره ، ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يستر سرقة ، أو يوجب له فضيلة... فإذا جاش فكره بالشعر ، أدى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار ، فكانت تلك النتيجة كطيب مركب من أخلاط من الطيب كثيرة ، وكمن اغترف من وإد قد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة»^(٣). وهذا ، كما قال الدكتور الربيع ، «فهم دقيق لموقف الشاعر من تراث السابقين ، فهو لا يغير عليه ويسرقه ، بل يتفهمه ويعمق معانيه ، ثم يقتدي به ويتأثر ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة الإبداع»^(٤).

هكذا يعالج ابن طباطبا السرقات الشعرية ، وهو باب كبير كما يقول

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٢٧ .

(٢) مشكلة السرقات ، د. محمد مصطفى هدارة ، ص : ٩٣ ، ويراجع : السرقات في النقد المنهجي لمنذور ، ص : ٣٠٧ وما بعدها ، والسرقات الشعرية في نقد الشعر ، لأحمد طرابلسي ، ص : ١٩٧ وما بعدها ، والسرقات الأدبية ، د. بدوي طبانة .

(٣) عيار الشعر ، ص : ١٤ .

(٤) ابن طباطبا الناقد ، د. الربيع ، ص : ٥٦ .

الجرجاني : «هذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله»^(١) .

وقد عالج هذا الموضوع كثير من البلاغيين والنقاد في القديم والحديث منذ نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث . وقد كان مصطلح السرقة والأخذ موجوداً ، كسرقات الكميت لابن كناسة (ت ٢٠٧ هـ) . وابن سلام (ت ٢٣٢ هـ) كان يسميها الاجتلاب والإغارة ، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) - كما رأينا - حيث أفرد باباً بعنوان : «أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض»^(٢) ، وكذلك المبرد (ت ٢٨٥ هـ) الذي اعتبره د . طبانة من أوائل من تكلم عن السرقات ، وفتح باب القول في هذا الموضوع ، وكان أستاذاً لمن جاء بعده^(٣) . كما ذكر لابن المعتز كتاب السرقات الذي ضاع ونقل عنه بعض البلاغيين ، وكذلك ما ذكره في كتابه (الطبقات) وفي رسائله عندما قال : «... ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو ينسج له بذلك معنى يفضح به من تقدمه»^(٤) . وكذلك ما ذكره محمد بن داود بن الجراح في كتابه (الورقة) (ت ٢٩٦ هـ) - وكان معاصراً لابن المعتز - ثم ما ذكره القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه (الوساطة) من قضية الدربة ، لكنه لم يربطها بالتقليد والسرقة . ويعتقد د . هدارة أنه أخذها من ابن طباطبا ، إلا أنه لم يصرح بذلك ، فابن طباطبا كان مهتماً بهذه الفكرة إلى حد بعيد ، لذلك ألف - كما يقول د . هدارة - كتاب (تهذيب الطبع) ليضع قواعد السرقة الحسنة ، فيقرر أن الشاعر إذا تناول «المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها ، لم يعب . . . بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه»^(٥) . فهو يعود ، في

(١) الوساطة ، ص : ١٨٣ .

(٢) الحيوان ٣/ ٣١١ .

(٣) يراجع الفصل الخامس من الباب الأول في حديثنا عن السرقة عند المبرد .

(٤) رسائل ابن المعتز ، ص : ٢٤ .

(٥) مشكلة السرقات ، ص : ٩٣ .

مسألة الدربة ، إلى القاضي الجرجاني ، بينما الأستاذ طه أحمد إبراهيم ، يعود بها إلى ابن سلام ، حيث يقول : «إن النقد - كما يقول ابن سلام - صناعة وثقافة ، وإنه لا بد فيه من دربة . وإن الناقد قد يرد شعراً ثم يعجز عن أن يبين كيف يردده ؟ وما الضعف فيه ؟ وإن الصورة قد تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي أوصاف الكمال ، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن والتام الخلقة ، وهي أحظى بالحلاوة ، وأوفى إلى العقول ، دون أن تعرف لهذه المزية سبباً إلا أن موقعها في القلب ألطف ، كذلك البيتين الجيدين النادرين قد يتقاربان ، فيعلم أهل العلم بالشعر أيهما أجود دون أن يأتوا بعلّة قاطعة»^(١) . ثم ذكر ذلك المرزباني في موشحه (ت ٣٨٤ هـ) - كما سنرى - والحامسي في (حلية المحاضرة) (ت ٣٨٨ هـ) ، وأبو هلال العسكري في (كتاب الصناعتين) (ت ٣٩٥ هـ) .

هذه المعاني ردها نقدة القرن الرابع وما يليه بكل إيمان من أن النقد صناعة لا بد فيها من طبع وقريحة ، ولا بد لهذا الطبع من خبرة وطول معاناة ، وهذا ما يراه القاضي الجرجاني - كما سنرى في فصول لاحقة - يقول في ذلك : «إن الشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والجدل ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة . وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون مقبولاً ، ولكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ، وكثير من شؤون النقد تمتحن بالطبع لا بالفكر»^(٢) .

وقد أولى ابن طباطبا قضية الطبع والصنعة عنايته خلال حديثه عن الشعر وعن لفظه ومعناه ووزنه وقافيته ، إذ نجده يقول : إن من الأشعار الغثة الألفاظ ، الباردة المعاني ، المتكلفة النسيج ، الغلقة القوافي ، قول الأعشى :

بانت سعادٌ وأمسى حبلها انقطعاً واحتلت الغمرَ فالجدين فالفرعا

(١) تاريخ النقد الأدبي ، طه إبراهيم ، ص : ١٤٩ .

(٢) تاريخ النقد الأدبي ، طه إبراهيم ، ص : ٣٥٠ .

لا يسلم منها خمسة أبيات . لذلك ، يقول ابن طباطبا إنه سيوردها ليوقف على التكلف الظاهر فيها ، وفيها :

تعصي الوشاة وكان الحب آونة مما يزين للمشغوف ما صنعا
و ما طُلابك شيئاً لست مدرکه إن كان عنك غراب الجهل قد وقعا
«فهذه القصيدة ستة وسبعون بيتاً ، التكلف فيها ظاهر بَيّن ، إلا في ستة أبيات ، وفيها خلل ظاهر ، وفيها من التكلف وبشاعة القول ما فيها»^(١) .
وبذلك ، نراه يعتبر الكلام الغث المستكره هو الكلام المتكلف ، واستشهد لذلك بقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه
وقال فيه : «فهذا من الكلام الغث المستكره الغلق ، وكذلك ما تقدمه ، فلا تجعل هذا حجة ، ولتجنب ما أشبهه»^(٢) .

وهذا الذي تكلم عنه من باب التعقيد وعدم حسن السبك وسوء التقديم والتأخير ، واستشهد للأبيات المستكرهه الألفاظ ، المتفاوتة النسج ، القبيحة العبارة بقول عروة بن أذينة :

واسق العدو بكأسه واعلم له بالغيب أن قد كان قبل سقاكها
واجز الكرامة من ترى أن لو له يوماً بذلت كرامة لجزاكها
«فقوله في البيت الأول : (واعلم له بالغيب أن . . .) كلام غث ، و(له) رديئة الموقع ، بشعة المسمع . والبيت الثاني كان مخرجه أن يقول : (واجز الكرامة من ترى أن لو بذلت له يوماً كرامة لجزاكها)»^(٣) .

(١) عيار الشعر ، ص : ١١٠ - ١٢٠ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٧٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ - ٦٨ .

ويعرض ابن طباطبا لأبيات كثيرة كانت لا تتمتع بحسن السبك ، أو فيها تعقيد بسبب التقديم والتأخير سواء أكان التعقيد لفظياً أم معنوياً ، لأن الشاعر لم يكن مطبوعاً ، فيذكر ابن طباطبا أن أهم خصيصة للشعر إنما هي حسن النظم . وهذه الفكرة هي التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم فيما بعد . لذلك ، نراه يعرف الشعر - كما مر معنا - أنه «كلام موزون بان عن المثنور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع ، وفسد على الذوق ، ونظمه معلوم محدود ، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه»^(١) . فمن افتقد الطبع السليم احتاج إلى تعلم العروض حتى يصير علمه به كالطبع . وبذلك يصبح الشعر جيداً ، «ومصنفاً من كدر العي ، مقوماً من أود الخطأ واللحن ، سالماً من جور التأليف ، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً ، اتسعت طرقة ، ولطفت موالجه ، فقبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به»^(٢) .

ويعلل ابن طباطبا ذلك من الوجهة النفسية بأن النفس تسكن إلى ما يوافق هواها ، وتقلق مما يخالفه . وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ، فإذا جمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى وعدوبة اللفظ فصفاً مسموعه ومنقوله من الكدر ، تم قبوله له . وإن نقص جزء اعتدال الوزن أو صواب المعنى أو حسن الألفاظ كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه^(٣) . لذلك ، كان ابن طباطبا يرى أنه لا بد للشاعر من أدوات يعدها قبل تكلف النظم ، فمن نقصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه ، منها : «الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالتها العرب ، وسلوك مناهجها .

(١) عيار الشعر ، ص : ٥ - ٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٠ - ٢١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢١ .

وعذوبة ألفاظها ، وجزالة معانيها ، وحسن مبادئها ، وحلاوة مقاطعها ، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة ، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة ، واجتناب ما يشينه من سفاسف الكلام وسخيف اللفظ . حتى لا يكون ملفقاً مرقوعاً ، بل يكون كالسبيكة المفرغة ، والشوي المنمنم ، والعقد المنظم ، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم لحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه»^(١) .

ويرى ابن طباطبا أن شعر القدماء نتاج الطبع الفياض ، كما قال أحدهم : «شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا» ، في حين أن أشعار المولدين متكلفة مصنوعة . ورغم أنه كان ينسج على منوال المحدثين - وهو أحدهم - إلا أنه كان يعجب بشعر القدماء ، ويعتبره المثال الأعلى الذي يجب على الشاعر أن يحتذيه . أما المولدون ، فهم «إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يروونه من أشعارهم ، وبديع ما يغربونه من معانيهم ، وبلغ ما ينظمونه من ألفاظهم ، ومضحك ما يروونه من نوادرهم ، وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها»^(٢) ، «وبتعبير أدل : يقوم النظام الجمالي للشعر القديم على قدرة المحاكاة ، والتزام الحقيقة ، في حين تنهض جماليات الشعر المحدث على براعة الصنعة المتمثلة في اصطیاد المعنى اللطيف الغريب ، فضلاً عن جمال الصياغة»^(٣) .

ومما يقرره ابن طباطبا أن الحكم المرضي في قبول الشعر ورفضه إنما هو الفهم الثاقب الذي يطرب للكلام الذي يكون صواباً لا خطأ فيه ، حقاً لا باطلاً ، مألوفاً غير مجهول ، ويغتم بالكلام الذي يأتيه على أضداد هذه

(١) المصدر ذاته ، ص : ٦ - ٧ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٣ .

(٣) التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٨٤ .

الصفات . ومثّلُ الفهم الثاقب في تعامله مع مدركاته كمثل العين والأنف والشم والأذن واليد في تعاملها مع ما أعدت له . ويعني هذا أنه يبتهج بالكلام الذي يرد عليه وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها^(١) ، وهذه الفكرة من أخصب الفكر وأثراها في نقده^(٢) .

مما سبق ، تبين لنا شخصية ابن طباطبا الناقد الذي غلب نقده على الأمور البلاغية - وإن اعتبر البلاغة مقياساً من مقاييس نقده - متمكناً ، مع قدرة فائقة على التمثل والاستشهاد الذي يدل على سعة اطلاعه ، وغزارة محفوظه من الشعر العربي^(٣) . ونحن مع الدكتور طبانة في قوله : «إن آراء ابن طباطبا المستفيضة فيما يستحسن لأجله الشعر وما يغلب عليه مما يدخل في صميم المباحث النقدية . . . وإن مساهماته في مناقشة مفاهيم المصطلحات البلاغية لأمر جدير بالاعتبار^(٤) ، فهو يدخل التأليف البلاغي ومعالجة المصطلحات مرحلة حاسمة ، ويتحول فيها المسار من مجرد الرصد والتجميع - كما في البيان والتبيين - إلى عملية الدرس المتعمق ، والمعالجة الموسعة . ومعنى ذلك أن الجانب الكمي لم يعد مقصداً أو مهماً كما كان عليه الحال من قبل لدى كل من ثعلب وابن المعتز^(٥) . ويبقى (عيار الشعر) له مكانته بين كتب النقد ، ويتصدر مكتبة النقد في القرن الرابع للهجرة ، ولاتزال لآرائه - حتى الآن - جدتها وحيويتها . وكان جل اهتمامه منصرفاً إلى إكساب شدة الشعر وطلبته ومحبيه خبرة واسعة لإنتاج أشعار تتعشقها الآذان ، وتألّفها الأفتدة وتعلقها .

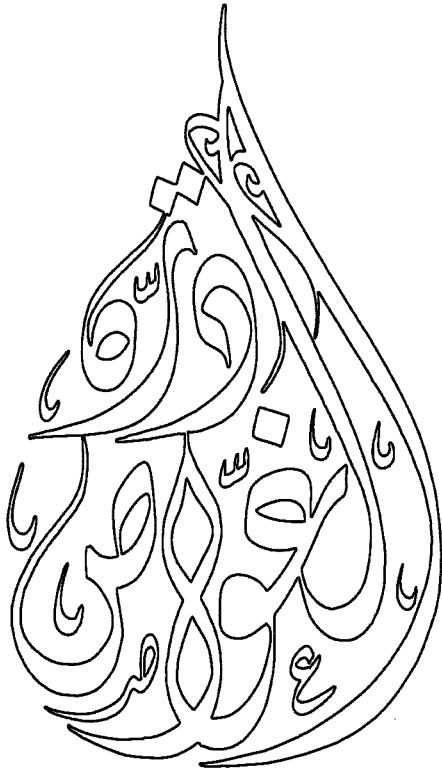
(١) عيار الشعر ، ص : ٢٠ - ٢٣ .

(٢) التفكير النقدي عند العرب ، ص : ١٨٦ ، وقد فصل في هذا الموضوع ، وكان يسميه جماليات التلقي .

(٣) البيان العربي ، د. بدوي طبانة ، ص : ١٢٥ .

(٤) المصطلح البلاغي وتطوره ، ص : ٣٣٥ .

(٥) المرجع ذاته ، ص : ٣٢٠ .



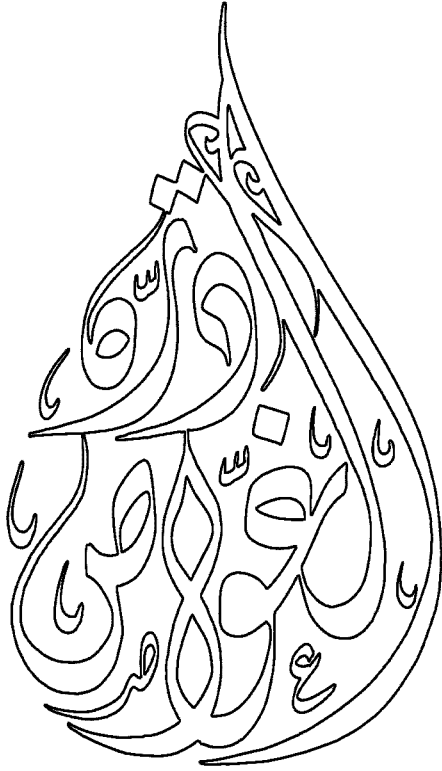
مكتبة الدكتور زوران الرطبة

الفصل الثاني

العلاقة بين البلاغة والنقد عند

أبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ)

- المبحث الأول : التعريف بأبي بكر الصولي .
- المبحث الثاني : البلاغة عند أبي بكر الصولي .
- المبحث الثالث : النقد عند أبي بكر الصولي .



المبحث الأول : التعريف بأبي بكر الصولي :

* نسبه ومكانته^(١) :

هو أبو بكر محمد بن يحيى ، وجدّه صول كان ملكاً بجرجان . ولد الصولي ونشأ ببغداد ، وكان حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء . وقد نادم المكتفي والمقتدر والراضي . كما كان واسع الحفظ ، كثير المحفوظ ، جيد الاعتقاد ، حسن الطريقة ، أديباً ، أخبارياً ، عالماً بأيام الناس . وله خزانة أفردها لما جمع من الكتب التي كان حاذقاً بتصنيفها .

يروى ابن الأنباري عن أحد تلاميذه قال : «رأيت للصولي بيتاً عظيماً مملوءاً كتباً وهي مصنوفة ، فكان الصولي يقول : هذه الكتب كلها

(١) ترجمته في : معجم الشعراء ، ص : ٤٣١ - ٤٣٢ ، والفهرست ، ص : ١٦٧ - ١٦٨ ، وتاريخ بغداد ٣/ ٤٢٧ - ٤٣٢ ، والأنساب ٣/ ٥٦٧ ، ونزهة الألبا ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٦ ، والمتنظم ٥٦/ ١٤ ، ومعجم الأدباء ١٠/ ١٠٩ - ١١١ (دار الفكر - بيروت) ، وإنباه الرواة ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٦ ، ونور القبس ، ص : ٣٤٦ ، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٥٦ - ٣٦١ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠١ - ٣٠٢ ، وتاريخ الإسلام ، من وفيات ٣٣٠ إلى ٣٥٠ ، ص : ١٣٠ - ١٣١ ، والوافي بالوفيات ٥/ ١٩٠ - ١٩١ ، ومرة الجنان ٢/ ٣١٩ - ٣٢٥ ، والبداية والنهاية ١١/ ٢٨٧ ، وطبقات النحاة ، ص : ٢٧٦ ، ولسان الميزان ٥/ ٤٢٧ - ٤٢٨ ، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٦ ، وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٩ - ٣٤٢ (و في طبعة دار ابن كثير : ٤/ ١٩٢) ، هدية العارفين ٢/ ٣٨ ، وبيروكلمان ٣/ ٥١ - ٥٤ ، والأعلام ٧/ ١٣٦ ، ومعجم المؤلفين ١٢/ ١٠٥ - ١٠٦ ، والأوراق : أبو بكر الصولي للأستاذ محمد كرد علي - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، م ٢ ، شباط ١٩٢٦ ، ويراجع مقدمات كتبه : أدب الكتاب ، وأخبار أبي تمام ، وأخبار البحري ، وأبو بكر الصولي : حياته وأدبه للدكتور جمال أحمد العمري ، وأبو بكر الصولي ناقداً للأستاذ صبحي ناصر حسين .

سماعي»^(١). وقال اليافعي : «... و مع فضائله ، والاتفاق على تفننه في العلم ، ما خلا من منتقص»^(٢).

* من شيوخه^(٣) :

أخذ الصولي العلم عن علماء أجلاء في الحديث اللغة والنحو والأخبار ، فحدث عن أبي العيناء محمد بن القاسم (ت ٢٨٣ هـ) ، وأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، وأبي العباس الكندي (ت ٢٨٦ هـ). وأبي العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ). وكان يفخر بأخذه العلم عن المبرد و ثعلب .

* من تلاميذه^(٤) :

روى عنه أبو بكر بن شاذان (ت ٣٧٦ هـ) ، وأبو عبيد الله المرزباني (ت ٣٨٤ هـ). وقد ذكر كثيراً من أخباره في كتابيه (الموشح) و(معجم الشعراء). كما روى عنه الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) ، وأبو أحمد الفرضي .

* مؤلفاته^(٥) :

صنف الصولي كتباً كثيرة تشهد له بطول الباع في علوم شتى . وكان يفخر بمؤلفاته ، منها :

١- أخبار الشعراء . طبع منها : أخبار البحري^(٦) ، وأخبار أبي تمام^(٧) .

(١) نزهة الألباء ، ص : ٢٠٥ .

(٢) مرآة الجنان ٢/٣١٩ - ٣٢٥ .

(٣) تراجع : نزهة الألباء ، ص : ٢٠٥ ، ومعجم الأدباء ١٠/١١٠ ، وتاريخ بغداد ٣/٤٢٧ .

(٤) تراجع : تاريخ بغداد ٣/٤٢٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٠٢ ، ووفيات الأعيان ٤/٣٥٧ .

(٥) تراجع : الفهرست ، ومعجم الأدباء ، ومعجم المؤلفين ، ودراساتها بالتفصيل في كتاب : الصولي للدكتور العمري ، ص : ٣٤٦ - ٤٠٨ .

(٦) حققه د. صالح الأشر - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ١ - ١٩٥٨ .

(٧) حققه عساكر وعزام ونظير الإسلام - المكتب التجاري - بيروت - د . ت .

٢ - أدب الكُتاب^(١).

٣ - الأوراق^(٢) ، وفيه ثلاثة أقسام : قسم أخبار الشعراء المحدثين ، وقسم أشعار أولاد الخلفاء ، منهم : الراضي بالله والمتقي لله ، وقسم أخبار الخلفاء ، قال عنه ابن النديم إنه لم يتمه . لكن طبع منه الأجزاء الآتية الذكر . وقال المسعودي : «وكذلك سلك محمد بن يحيى الصولي في كتابه المترجم بكتاب الأوراق في أخبار الخلفاء من بني العباس وبني أمية وشعرائهم ووزرائهم ، فإنه ذكر غرائب لم تقع لغيره ، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه ، وكان محظوظاً من العلم ، ممدوداً من المعرفة ، مرزوقاً من التصنيف وحسن التأليف»^(٣).

٤ - رسالته في شعر أبي نواس^(٤).

٥ - الشامل في القرآن .

ذكره الصولي في كتابه (أخبار أبي تمام) . وذكر ابن النديم والصفدي وكحالة والبغدادي وغيرهم أنه لم يتمه .

٦ - الشبان ، وقد عمله لابن الفرات .

(١) حققه محمد بهجة الأثري - المكتبة العربية - بغداد - ١٣٤١ هـ / ١٩٢٤ م ، وحققه سميح إبراهيم صالح ، دار البشائر بدمشق

(٢) نشره ج . هيورث دن - مطبعة الصاوي - مصر - ط ١ - ١٩٣٤ - ١٩٣٦ . وللدكتور هلال ناجي : ما لم ينشر من أوراق الصولي - بيروت - ١٩٩٨ . وكان قد نشر قطعة نادرة من كتاب الأوراق للصولي في بغداد سنة ١٩٩٠ . وهناك أخبار عن الأوراق للصولي مذكورة في كتاب الهفوات النادرة ، ص : ٤٠ - ١٨٣ . وقد ألفه غرس النعمة (أبو الحسن الصابي) ، وحققه د . صالح الأستر ، ونشره في مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٦٧

(٣) مروج الذهب ٢٣ / ١ - ٢٤ .

(٤) تحرير التحرير ، ص : ٨٩ .

٧ - شرح حماسة أبي تمام^(١) .

٨ - كتاب الشطرنج^(٢) .

٩ - العُزْر ، وهو عبارة عن أماليه .

ذكره السمعاني فقال : « . . . وكتبت جزءين من أماليه الحسنة عن شيخنا ببغداد»^(٣) .

١٠ - ديوان شعر ، لم يصل إلينا ، وقيل إنه لم يدون ولم يجمع ، وإنما هو مبثوث في بطون الكتب . وقد جمع قسطاً منه د . العمري في كتابه عنه^(٤) .

١١ - جمع دواوين الكثير من الشعراء ، بعضها موجود ، وأكثرها مفقود .

* وفاته :

توفي رحمه الله تعالى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ، بينما أرخ صاحب (نور القبس) بسنة ست وثلاثين وثلاثمائة^(٥) .

المبحث الثاني : البلاغة عند أبي بكر الصولي :

لم تكن البلاغة عند الصولي منفصلة عن أحكامه النقدية ، بل كانت ممتزجة بها ، ونمت تحت جناحها . وقد ذكر بعض الموضوعات البلاغية في ثنايا حديثه عن الشعراء والمفاضلة بين ألفاظهم ومعانيهم .

(١) ذكره المرزوقي في شرحه حماسة أبي تمام ١٤/١ ، وحاجي خليفة في كشف الظنون

٦٩٢/١ ، وتاريخ التراث العربي م ٢/ج ١/١٠٨ .

(٢) طبع بالتصوير عن مخطوطة باستنبول ، نشر معهد تاريخ العلوم الإسلامية والعربية - فرانكفورت - ألمانيا - ١٩٨٦ .

(٣) الأنساب ٥٦٧/٣ .

(٤) الصولي ، ص : ٤٥٣ .

(٥) يراجع : الوافي بالوفيات ١٩١/٥ ، والمنتظم ٥٦/١٤ .

وفي وصيته للكتاب ، دعاهم إلى مراعاة مقتضى الحال ، سواء أحوال المخاطبين أو المتكلمين ، فقال : « . . . يقولون : كاتب رئيسك بما يستحق ، ومن دونك بما يستوجب . واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك »^(١) .

وقد راعى أحوال المتكلمين ، فذكر الأوقات التي هي أنسب لتحرير الكتاب ، ونقل عن أحدهم قوله : « إن الابتداء بنظم الكلام ونثره فتنة تروق ، وجرّة تُعجّب . فإذا سكنت القريحة ، وعدل التأمل ، وصفت النفس ، فليعد النظر ، وليكن فرحه بإحسانه مساوياً لغمه بإساءته . فعندما قال معاوية لعبد الله ابن جعفر : ما عندك في كذا ؟ فقال : أريد أن أصقل عقلي بنومة القائلة ، ثم أروح فأقول بعد تأملي بما عندي »^(٢) .

وكما دعا الصولي الكتاب إلى اختيار أحسن الأوقات لتحرير الكتاب ، دعاهم إلى الإتيان وعدم الإسراع فيه ، فقال : « . . . والكتاب يتصفح أكثر من الخطاب ، لأن الكاتب والمخاطب مشافه مضطر ، ومن يرد عليه كتابك ليس يعلم أسرع فيه أم أبطأت ، وإنما ينظر أصبت أم أخطأت ، أو أحسنت أم أسأت ، فإبطاؤك غير قادح في إصابتك ، كما أن إسراعك غير معيب على غلطك »^(٣) .

وكما تحدث عن مراعاة مقتضى الحال ، نراه يتحدث في (أدب الكتاب) عن الإيجاز والتكرار . وعرف الإيجاز بقوله : « يقال : أوجز في كلامه وكتابه ومقاله إيجازاً ، إذا أسرع وخفف . وموت وجيز ، أي : سريع . ورجل موجز ، إذا كان يفعل ذلك . ووجز الكلام بنفسه يجره وجزأ »^(٤) . ولم يخرج الصولي في

(١) أدب الكتاب ، ص : ٢٣٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص . ١٥٧ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٥٨ .

(٤) أدب الكتاب ، ص : ١٣٤ .

ذكره الإيجاز عما قاله العلماء قبله . واستشهد بقول ابن قتيبة خاصة في باب الإيجاز والتكرار في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، فقد بين ابن قتيبة أهمية التكرار ، وعقد باباً له - ذكرتُ ذلك في حينه - وذكر وصية جعفر بن يحيى لكتابه فيها : « . . . إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا » - يريد بذلك حضهم على الإيجاز والاختصار - قال أبو بكر الصولي : «والذي عندي أنه يحتاج الكاتب والخطيب والشاعر إلى أن يخرجوا معانيهم في أقواتها من الألفاظ على الاختصار ما لم يحتج إلى إكثار ، فإن احتج إلى ذلك جيء به بما لا بد منه»^(١) . وذكر فضيلة الإيجاز وأن البلاغة فيه ، وروى بعض شواهد عن الجاحظ ، مثل قوله : «البلاغة لمحة دالة . وقولهم : لا تنفق كلمتين إذا كفتك كلمة»^(٢) . وروى عن المبرد قوله : «قيل لأبي عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ، ليُسمع منها . قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ، ليحفظ عنها»^(٣) .

وذكر الصولي فضيلة الإيجاز عن بعض الكتاب قال : «أكثر حيل الكاتب في بلاغته يقصد شيئاً ، فيأتي بغيره ويدرجه فيه» ، فقال الصولي : « . . . ومن ذلك خبر المأمون مع كتاب أحد قواده ، قال المأمون : (إني عجبت من بلاغته واحتياله لمراده ، كتب : كتابي إلى أمير المؤمنين - أعزه الله - ومن قبلي من قواده وأجناده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم) ، قال المأمون : ألا ترى إلى إدماجه الخلقة في الأجناد ، وإعفاء سلطانه من الإكثار؟!»^(٤) . كما ذكر الصولي أقوالاً للبلغاء والعلماء في فضيلة الإيجاز والجواب الموجز ، منها : «البلاغة في الجواب

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٨ - ٢٢٩ . وقوله : (في أقواتها) ، لعله يقصد : (في قوالها) .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٩ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٤ .

أوحد وأظهر» ، و«الأجوبة أمهات الفوائد تلدها بتلقيح السؤال»^(١) .

وتكلم عن الإيجاز في القرآن الكريم ، وأنه يوجز في مواطن الإيجاز ، ويطنب ويكرر في مواطن الإطناب ، فقال : «... أولا ترى إلى مواضع الإيجاز بذكر الحجة في القرآن الكريم كيف يأتي مختصراً معجزاً وهو فيه كثير ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾^(٢) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾^(٣) ، ثم قال عز وجل في مكان آخر يذكر هذا : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٤) . ففي كل شيء من خلق الله عز وجل للإنسان عبرة ، إلا أن أقربها وأخصرها أمر نفسه . ثم اختصر عز وجل أمره ونهيه وتحليله وتحريمه .

واستشهد كذلك على الإيجاز بقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الذَّبَابُ عَامِنًا وَعُفُوًا بِالْعُسْفُورِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾^(٥) ، قال : «فأمر أن يوفى بعقوده ، ثم أحل بهائم الأنعام ، واستثنى ما يحرم منها مما يجيء بعد . ثم ذكر أن هذا الحلال يحرم على المُحْرَم ، ولو أراد أبلغ الكتاب أن يجيء بهذه في أسطر كثيرة ما أمكنه على عجزه في حسن اللفظ والنظم . وهذا كثير يطول به الكتاب ، ذكرت ههنا طرفاً منه»^(٥) .

وذكر الصولي التكرير فقال : «وأكثر ما يقع ذلك في الرغبة والرغبة ، ألا ترى إلى كتاب الله عز وجل وكلامه المعجز كيف يكون فيه ذكر الجنة والنار وقصص الأنبياء عليهم السلام ، والنقمة ممن كذبهم ، والأمر بالاعتبار بما نزل بهم ، فكانت الحكمة في تقرير ذلك مما يفعل العرب . وسنأتي بفعلهم بعد .

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٠ .

(٢) سورة يس ، الآية : ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ١ .

(٥) أدب الكتاب ، ص : ١٥٠ - ١٥٤ .

ولأن الإنسان قد يقرأ بعض القرآن ويحفظ شيئاً منه دون شيء ، فلم يُخلِ اللهُ عز وجل كل موضع منه من ترغيب وترهيب وإذكار واعتبار تفضلاً منه على عباده واستدعاءً لطاعتهم ونهياً عن عصيانهم ، فوقع التكرير لذلك»^(١).

وذكر الاستعارة بالكناية ، واعتبرها «أجل استعارة وأحسنها ، وكلام العرب جار عليها»^(٢).

وأورد بعض المحسنات اللفظية والمعنوية ، فتكلم عن الطباق ، والمقابلة^(٣) ، والمبالغة - وكانوا يسمونها الإفراط في الصفة - وبراعة الاستهلال ، وذلك خلال وصيته للكتاب أو نقده للشعراء . وعندما تكلم عما عيب على أبي تمام قال : «وقد عيب عليه الإفراط في التشبيه»^(٤).

وألمح الصولي إلى الفنون البلاغية إلماحاً طفيفاً ، لكن الجوانب النقدية كانت أوضح بكثير عنده من الجوانب البلاغية.

المبحث الثالث : النقد عند أبي بكر الصولي :

كانت المعركة النقدية حامية الوطيس بين أنصار القدماء وأنصار المحدثين . وقد بدأت هذه الحركة النقدية في القرن الثالث ، واشتدت وامتدت إلى القرن الرابع حيث بلغت أوجها ، وكان أبو تمام والبحثري من الشعراء الذين نشطت الحركة النقدية حولهم ، فكان فريق من النقاد يؤيد مذهب أبي تمام ، وفريق آخر يؤيد مذهب البحثري . وكان أبو بكر الصولي واحداً من هؤلاء الذين خاضوا هذه المعركة ، فألف كتاباً في أخبار الشعراء المحدثين ، وجمع شعرهم في كتابه الكبير (الأوراق) . ومن الذين حظوا باهتمامه فأفرد لهم

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) أخبار أبي تمام ، ص : ٣٧ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٧٢ ، وأدب الكتاب ، ص : ٢٥ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٣٢ - ٣٣ ، ١٥٠ ، وأدب الكتاب ، ص : ١٥٠ - ١٦٤ .

كتاباً لأخبارهم وأشعارهم : أبو تمام الطائي وأبو عبادة البحرني ، فألف كتاباً في أخبار البحرني^(١) وضمه أخباره وشعره . ولهذا الكتاب أهمية أدبية ونقدية وتاريخية ، لأن الصولي كان تلميذاً للمبرد ، وصديقاً للبحرني ، فهو متمكن من هذه الأخبار عارف بها . كما ألف كتاباً في أخبار أبي تمام ، وكان مزاحم بن فاتك قد طلب منه أن يؤلف له رسالة في أخباره ، فأرسل إليه هذه الرسالة ، وهي رسالة هامة في النقد . وهذه الأخبار التي جمعها الصولي كانت مقدمة لديوان أبي تمام الذي رتبها الصولي حسب الموضوعات . وبمرور الزمن ، انفصلت الأخبار عن الديوان ، وعرفها المتأخرون منفصلة . ويذكر الصولي في رسالته إلى مزاحم أنه جمع له شعر أبي تمام في موضوعات شتى ، كالممدح والفخر والهجاء والوصف والرثاء والغزل ، ورتبها على حروف المعجم في كل فن من فنونها ، وكانت المعركة في طور تأججها بين القدامى والمحدثين . قال فيها لمزاحم : « . . . لعلمك بعجز المدعين عما كلفتني ، إن أحداً منهم لم يجرؤ أن ينشد قصيدة من شعر هذا الرجل ضامناً للقيام بما فيها ، فضلاً عن إيراد أخباره ، وإبراز فضله ، وتقديمه على غيره ، والاحتجاج بما عيب عليه ، والتضمن لجميع شعره ، والنفع عنه ، والذّب عن حريمه ، والتنبه على جيده ليعلم علوه في الشعر ، وتقديمه في الفهم»^(٢) . وجعل رسالته هذه مقدمة لأخبار أبي تمام وشعره . وذكر له في هذه الرسالة المؤيدين لشعره ، والمعارضين العائبين المجتنبين له ، ولم يسمهم صيانة لأهل العلم ، وأنهم لم يعيبوا عليه إلا ابتغاء الشهرة والمطامع الدنيوية وعلى مبدأ (خالف تُعرف) . والكتاب يضم أخباراً لأبي تمام وآراء نقدية ، ويبرز كثيراً من الجوانب الفنية التي يتميز بها شعر أبي تمام عن شعر غيره . كما يبرز لنا علاقة أبي تمام مع غيره من الأدباء

(١) سماه الصولي في آخر عبارة له في أخباره : آخر أخبار البحرني .

(٢) أخبار أبي تمام ، ص : ١٢ . وقد تناول الدكتور مندور هذا الكتاب في كتابه : النقد المنهجي عند العرب .

والنقاد ، وحدة الصراع بين أنصار الصنعة وأنصار الطبع . ولعل من أسباب تكليفه بالكتابة عن أبي تمام وتصديه للقيام بما كُلف به كونه متمرساً بالأدب ، وقريب عهدٍ بأبي تمام ، فزى الصولي مدافعاً منافحاً عن أبي تمام ومذهبه الفني وشاعريته . ويرى أ. أحمد أمين أن (أخبار أبي تمام) ردّ على كتاب (الموازنة بين الطائيين) الذي تعصب فيه الآمدي للبحثري^(١) .

وأهم القضايا النقدية التي تناولها الصولي : قضية اللفظ والمعنى ، وقضية الطبع والصنعة ، وقضية القدم والحدائث ، وقضية السرقات ، ومن الذي أخذ وأبدع ، ومن الذي زاد على المعنى الأول ، فكان أحياناً كثيرة يعقد الموازنات لذلك .

وقضية اللفظ والمعنى من القضايا ذات الأهمية التي تناولها النقاد قبله . وقد كان الصولي يذكرها عندما يتعرض للمفاضلة بين الشعراء وأيهم أشعر ، أو في أخذ الشعراء بعضهم من بعض . وقد أقر الصولي بأفضلية أبي تمام على البحتري ، ونقل أخباراً كثيرة في كتابيه (أخبار أبي تمام) و(أخبار البحتري) تؤيد ما ذهب إليه . وعندما سئل البحتري عن أيهما أشعر ، أهو أم أبو تمام ؟ قال : «جيده خير من جيدي ، وردئي خير من رديئه» . قال الصولي : «وكان البحتري يؤيد المعاني الحسنة مع الألفاظ الحسنة» ، ومنها أن المجنون قال :
تداويت من ليلي بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمير
فكان هذا من أحسن المعاني بأحسن الألفاظ وإن كان الأصل فيه قول
الأعشى :

وكأسٍ شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها^(٢)

(١) مقدمة أخبار أبي تمام ، وقرأ ما ذكره د. طه الحاجري في بحث عن الآمدي وكتابه الموازنة - نشر الجامعة الليبية - بنغازي - ١٩٥٧ .

(٢) أخبار البحتري ، ص : ١٣٨ - ١٣٩ .

ثم قال الصولي : «وقد صدق البحري في هذا ، فجيد أبي تمام لا يتعلق به أحد في زمانه ، وربما احتل لفظه قليلاً لا معناه ، والبحري لا يختل»^(١) .

وفي موطن آخر قال عندما تناول أخبار البحري : «والبحري لا يختل في لفظ ولا معنى إلا اختلالاً قريباً»^(٢) .

من هنا ، يقرر الصولي أن البحري لا يعجبه إلا ما توافق فيه اللفظ والمعنى ، وذلك من حكمه على شعر الحارث بن وعله عندما قال : «والله ما أنشد إلا أحسن شعر في أحسن معنى ولفظ» ، ثم زاد : «وإذاً ، هو - أي البحري - لا يعجبه من الشعر إلا ما وافق لفظه معناه»^(٣) .

ونراه يحكم على البحري في معظم مواقفه بأنه مهذب الألفاظ ، وحسن التأتي للمعاني ، فيقول في مقدمة ديوان أبي نواس : «فهذا ما عرفتك - أعزك الله - أن شاعراً حاذقاً ، مميزاً ، ناقداً ، مهذب الألفاظ مثل البحري ، لم يكمل لنقد جميع الشعر»^(٤) .

ويذكر أخذ البحري عن أبي تمام اللفظ والمعنى بقوله : «فاحتذى معانيه واقتنصها ، فجذبت المعاني واضطرتته إلى أن حكى لفظه في هذا ، فصار يشبه لفظ أبي تمام ، ولفظ البحري في أكثر هذه أسهل ، فسبحان الذي حول تكلف أبي تمام إلى البحري ، وطبع البحري إلى أبي تمام ! والأمر في هذا أوضح من أن يحوج إلى كلام عليه أو تبين له»^(٥) .

ويقر الصولي بفضل البحري ، لأنه يعترف باغترافه من أستاذه أبي تمام ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٥٧ - ٥٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٣٧ .

(٥) أخبار البحري ، ص : ٦١ .

وساق لنا خبراً عنه عندما سئل في حضرة المبرد عن أبي تمام سنة ٢٧٦ هـ وقد أنشد البحري شعراً قال أبو تمام في مثله : «أنت في هذا أشعر من أبي تمام ، فقال : كلا ، والله . ذاك الأستاذ الرئيس . والله ، ما أكلت الخبز إلا به . فقال له المبرد : لله درك يا أبا الحسن ، فإنك تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك» ، قال الصولي : «وهذا من فضل البحري أن يعرف الحق ويقر به ويدعن له . وإني لأراه يتبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض لفظه ، فلا يقع إلا دونه ، ويعود في بعضها طبعه تكلفاً ، وسهله صعباً»^(١) . وهذا ما يقرره في كثير من المناسبات . وفي حكمه على الشاعرين ، يقول : «لا أعرف أحداً بعد أبي تمام أشعر من البحري ، ولا أغض كلاماً ، ولا أحسن ديباجة ، ولا أتم طبعاً . فالبحري مستوي الشعر ، حلو الألفاظ ، مقبول الكلام»^(٢) .

وكان الصولي يحلل المعاني المستحدثة ، ويبين مواطن الجمال فيها ، معتمداً على المقاييس البلاغية في عصره . ويذكر كيف أخذ كل من أبي نواس والبحري قول المجنون ، فظهر التكلف في لفظ أبي نواس عند ما قال^(٣) :

دع عنك لومي ، فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
فالكلفة في قوله : «بالتى كانت هي الداء» .

وقال البحري سارقاً للفظ ومقتصراً على الطبع :

تداويت من ليلي بليلى فما اشتفى بماء الربي من بات بالماء يشرق
وهذا الخبر يقودنا إلى قضية الطبع والصنعة وموقف الصولي منها ، فإنه عندما اختار أبو تمام شعر المحدثين ، ومرّ بشعر ابن أبي عيينة^(٤) المطبوع الذي

(١) المصدر ذاته ، ص : ٥٧ ، ٦٠ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٤٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٣٨ - ١٣٩ .

(٤) أبو عيينة بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة ، كان شاعراً مطبوعاً . من أعيان =

يهجو به خالداً ، نظر فيه ورمى به وقال : هذا كله مختار . علق الصولي على ذلك بقوله : «وهذا أدل دليل على علم أبي تمام بالشعر ، لأن ابن أبي عيينة أبعد الناس شبهاً به ، وذلك لأنه يتكلم بطبعه ، ولا يكذ فكره ، ويخرج ألفاظه مخرج نفسه ، وأبو تمام يتعب نفسه ، ويكذ طبعه ، ويطيل فكره ، ويعمل المعاني ويستنبطها . ولكنه قال هذا في أبي عيينة لعلمه بجيد الشعر أي نحو كان»^(١) .

ويقول في الموازنة بينهما : «كان أبو تمام يبصر الشعر كله وينقده ، ويفضل الجيد منه وإن كان على غير مذهبه . ولا أعلم شاعرين أشد تبايناً ، ولا أبعد شبهاً من أبي تمام وابن أبي عيينة ، فإن أبا تمام يصنع الكلام ويخترعه ، ويتعب في طلبه حتى يبدع ، ويستعير ويغرب في كل بيت إن استطاع . وابن أبي عيينة لا يصنع من هذا شيئاً ، ويرسل نفسه على سجيته ، ويخرج كلامه مخرج نفسه بغير كلفة ، وربما اختل معناه ولان لفظه للطبع . وأبو تمام لا يسقط معناه البتة ، وإنما يخل في الوقت لفظه ، فإذا استوى له اللفظ فهو الجيد من شعره النادر الذي لا يُتعلق به . وكان ابن أبي عيينة عند أبي تمام ، مع هذا التباعد بينهما ، شاعراً مجيداً»^(٢) .

ونجد الصولي يحكم على الشعراء والأدباء عندما ترجم لهم ، فنبه على من أبدع منهم ومن قصر ، وعقد الموازات الكثيرة ، وفضل بعضهم على بعضهم الآخر . وهو في كل ذلك كان ناقداً حصيفاً مدركاً ما يقول وما يرمي إليه . وهو الذي نادى ودعا النقاد إلى أن يتسلحوا بالعلم والثقافة والدراية ، والأخذ عن الشيوخ العلماء ، وأن يكون الناقد أعلم الناس بالكلام المنظوم

= القرن الرابع . طبقات ابن المعتز ، ص : ١٣٦ - ١٣٨ ، ومعجم الشعراء ، ص : ١٠٩ ،

ويراجع : أشعار آل أبي عيينة ، ص : ٨

(١) أخبار البحري ، ص : ١٣٧ - ١٣٩ ، وأخبار أبي تمام ، ص : ١١٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٦٥ - ١٦٦ .

والمنثور ، وأعلم الناس بالأخذ ، ولا بد من وفرة محفوظه حتى يدرك الأخذ . وفي ذلك قال : « . . . ومن العلوم خاص وعام ، ومصون ومبدول ، فلا ينبغي لمن عرف عامته أن يجهل خاصته ، ولا لمن شرع في مبدوله أن ينكر مصونه . وإنما أجريت هذا لثلا يجسر على الحكم على الشعراء ، وتمييز ألفاظهم ، والحكم بالجميل والردىء لهم من لم يكن أعلم الناس بالكلام ، منظومه ومنثوره ، وأقدر الناس على شيء متى أرادته منه ، وأحفظهم لأخذ الشعراء ، وأعلمهم بمغازيهم ومقصدتهم . . . فأما من لا يحسن أن يعمل بيتاً جيداً ، ولا يكتب رقعة بليغة ، ولا ينال حفظه ما قالته الشعراء في عشرة معانٍ من عشرة آلاف معنىً قد قالت فيه ، فكيف يجسر على ادعاء هذا؟! وكيف يسوغه إياه من سمعه منه؟! »^(١) .

وكان يحكم وينقد الشعراء ، فحكم على شعر علقمة ، ووصفه بالجودة ، وهو قوله :

يرون ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب
وفضله على شعر ذي الرمة الذي يقول :

وما الفقر أزرى عندهن بوصلنا ولكن جرت أخلاقهن على البخل
وقال عن البندنجي^(٢) :

« وكان أعلم الناس بالشعر »^(٣) .

وفضل شعر طرفة على حسان بن ثابت ، وقابله مع شعر عنترة وزهير ،

(١) أخبار أبي تمام ، ص : ٣٨ .

(٢) اليمان بن أبي اليمان أبو بشر . أصله أعجمي . ولد أكمه في سنة ٢٠٠ هـ ببندنج . حفظ أدباً كبيراً وأشعاراً كثيرة . صنف كتاب معاني الشعر ، وكتاب العروض ، وكتاب التقفية . مات سنة ٢٨٤ هـ . معجم الأدباء ٦٤٦/٥ - دار الكتب العلمية .

(٣) أخبار البحري ، ص : ١٤٧ .

وماذا قال كل منهما في الخمر والكرم وإتلاف المال على الخمرة ، وخلص إلى
تقدم زهير على عنترة عندما مدح هرم بن سنان :
أخي ثقة لا تتلف الخمرُ ماله ولكنه قد يهلك المالَ نائله
قال الصولي : «فهذا من أحسن الكلام ، يريد أنه لا يشرب الخمر ، ولكنه
يبذله للحمد»^(١).

ويعلل تقدم الفرزدق على جرير والأخطل ، وابتدائه بأخباره قبلهما
«لشرفه ، وقوة أسر كلامه ، وكثرة معانيه ، وجميل مذهبه . . . ولا أعيب من
يقدم عليه ، إذ كنا نجد أئمة من العلماء لهم فيهم آراء مختلفة ، وتقديم
لبعضهم على بعض . ولكنني في حيز من يقدم الفرزدق»^(٢).

وله رد على من تعصب لأبي نواس على بشار ، قال فيه : «كنت في مجلس
فيه جماعة من أهل الأدب والعصبية لأبي نواس حتى يفرطوا ، فقال بعضهم :
أبو نواس أشعر من بشار ، فرددت ذلك عليه ، وعرفته ما جهله من فضل بشار
وتقدمه ، وأخذ جميع المحدثين منه ، واتباعهم أثره . فقال لي : قد سبق أبو
نواس إلى معان تفرد بها ! فقلت له : ما منها ؟ فجعل كلما أنشدني شيئاً ،
جئت بأصله ، فكان من ذلك قوله :

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نشني وفوق الذي نشني
و إن جرت الألفاظ يوماً بمدحة لغيرك إنساناً ، فأنت الذي نعني
فقلت : أما البيت الأول ، فهو من قول الخنساء :

فما بلغ المهدون للناس مدحة وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل
وأما البيت الثاني ، فمن قول الفرزدق :

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) أخبار أبي تمام ، ص : ١٢ - ١٣ .

وما وامرتني النفس في رحلة لها إلى أحد إلا إليك ضميرها^(١) وهذا الخبر يشير إلى مدى ثقافة الصولي ، وعمق اطلاعه ، وحسن نقده من جهة ، ويصور لنا المجالس الأدبية والأوساط الاجتماعية والثقافية ، إذ كانت هذه مناظراتهم ومحاوراتهم ومسامراتهم : من أشعر ؟ ومن المتقدم ؟ . . .

والصولي ، أحد النقاد الذين انخرطوا في معركة القدم والحداثة ، وكان ممن يفضل أبا تمام ويعترف بتقدمه ، ويورد أخباراً كثيرة تظهر أستاذيته وسبقه . وفي الوقت ذاته ، كان يدعم ما يقول بأقوال البحري نفسه ، ويقرر أن من يتعصب على أبي تمام كان تعصبه أعمى - أي : بالتقليد - لا بالفهم ، ويقدم غيره بلا دراية . وعندما جاء أحد المتعصبين على أبي تمام فقال : أيحس أبو تمام أن يقول كما قال البحري :

تسرع حتى قال من شهد الوغى لقاء أعاد أم لقاء جائب
فقلت له : وهل اقتفى هذا المعنى قبل أبي تمام أحد في قوله :

حن إلى الموت حتى ظن جاهله بأنه حن مشتاقاً إلى وطن^(٢)
و كثيراً ما كان ينصفه ويرد على من طعن فيه ، من ذلك قوله : «وعابوا - أعرك الله - قوله في قصيدته التي أحسن فيها كل الإحسان ، ومدح بها المعتصم ، وذكر فيها عمورية»^(٣) . فالقصيدة في نظر الصولي قد أحرزت قصب السبق ، لكن في نظر غيره لم تنل حظها من الرضا ، فسلقها النقاد باللسنة حداد . وعندما قال منشد القصيدة :

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٤٢ - ١٤٣ . وأمره ، ووامره ، واستأمره : شاوره . لسان العرب (مادة : ومر).

(٢) أخبار البحري ، ص : ١٥١ - ١٥٤ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٩ ، ١٠٩ - ١١٤ .

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب قال الصولي : «ما سمعت (تعالى) إلا في هذا الخبر ، والناس يروونه (المعلى)»^(١) . وهذا يدل على سعة اطلاعه ووفرة محفوظه .

وكان الصولي ، أحياناً ، يقر بأخطاء أبي تمام ومعاييه ، ويثبت أنها لا تنال من قوة شاعريته ، فيقول : «... ولو وهم أبو تمام في بعض شعره أو قصر في شيء فيه ، لما كان من ذلك مستحقاً أن يبطل إحسانه»^(٢) . على أن إعجابه بأبي تمام لم يمنعه من تفضيل غيره عليه في بعض المواضع ، فكان ينتصف للشعراء القدامى ولأهل السبق والفضل حتى من أبي تمام ، فنراه يورد هذا البيت له :

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل
ويقول : «أحسن أبو تمام في هذا المعنى وزاد على الناس بقوله : (إلا أنها لم تقاتل)» . ثم أورد أبياتاً لمسلم بن الوليد في هذا المعنى وقال : «ولا أعلم أحداً قال في هذا المعنى أحسن مما قاله النابغة» ، وهو أولى بالمعنى وإن كان قد سبق إليه ، لأنه جاء به أحسن . قال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب
وهو من الأفوه الأودي :

فترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن ستمار^(٣)
وهذا يدل على سعة اطلاعه ، وغزارة محفوظه ، وقوة استحضاره .

وكان الصولي يقر بفضل أبي تمام وتقدمه ، وموقف بعض العلماء منه ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٠٩ .

(٢) أخبار أبي تمام ، ص : ١٣٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٦٥ - ١٦٦ .

وتعصبهم للقدماء على المحدثين . . . «ولو أن بعضهم كان يعلم بعض الأشعار التي يرويها وأنها لمحدث لما رواها»^(١).

ونراه في كل ما تقدم ناقداً يثبت أسبقية أبي تمام وتقدمه ، وأن البحري - خاصة - والشعراء عامة ، قد تأثروا به ، ونسجوا على منواله .

والمحدثون في نظر الصولي متفوقون على القدماء في الصياغة لا في ابتكار المعاني ، وفي ذلك قال : «إن المتأخرين إنما يجرون بريح المتقدمين ، ويصبون على قوالبهم ، وينتجعون كلامهم ، وقلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده» . وفكرة استنفاد المعاني وأن الأول لم يترك للأخر شيئاً لم تكن من وحي الخصومة بين القدماء والمحدثين - وإن كانت أهم عناصرها - إنها فكرة أقدم من هذه الخصومة بكثير . فمذ العصر الجاهلي وزهير وعنترة يشيران إلى هذه الفكرة في شعرهما . وأشار أبو عبيدة في حكاية عن الفرزدق إلى ذلك ، ثم قال : «إن النقاد المعتدلين من العرب لم يؤمنوا باستنفاد المعاني جملة ، ولكنهم يتركون للمحدثين بعض الفضل فيما يصلون إليه من المعاني . . .»^(٢).

وكان الصولي - كما ذكرنا آنفاً - متسماً بسعة الاطلاع ، وكان يرد الفضل إلى أصحابه ، ويذكر من الشعراء أول من استخدم المعنى ، ويثبت له سبق والأفضلية ، من ذلك قوله : « . . . وأول من أتى بفرح المسؤول ، وطلاقة وجهه ، ثم أحذه الناس فولدوه فقالوا : السؤال أحلى عنده من العطاء ، وراجيه أحب إليه من معطيه ، زهير ، قال :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله^(٣)

(١) قصة ابن الأعرابي مع المدائني ، وكيف تمثل بيتاً لأبي تمام وهو لا يدري . أخبار أبي تمام ، ص : ١٧٧ .

(٢) مقالات في النقد الأدبي لهدارة ، ص : ٦٠ - ٦١ .

(٣) أخبار البحري ، ص : ١٥٤ - ١٥٥ .

وهذا يقودنا إلى موضوع السرقات الذي أولاه الصولي اهتمامه ليثبت من المتقدم ومن السابق. وكان مولعاً بذكر أخذ الشاعر من ألفاظ الشاعر الآخر ومعانيه ، أو ألفاظه دون معانيه .

ونراه يفرق بين مصطلح السرقات^(١) ، فيذكر السرق والابتداء والسبق والاختراع ، وعكس هذه المصطلحات مصطلح الاتباع. كما يذكر النقل ، «وهو أن يأخذ الشاعر البيت بلفظه ومعناه ، أو لفظه دون معناه» ، ويتكلم عن التردد ، «وهو أخذ المعنى دون اللفظ» ، فيذكر بيتاً لأبي تمام ويقول : «... . فما زال البحثري يردد هذا المعنى في شعره ويتبع أبا تمام فيه ويقع في أكثره دونه»^(٢) . ومن المصطلحات التي ذكرها الصولي - وهو أول من ذكرها^(٣) - النسخ والمسوخ^(٤) ، قال في معنى بيت لأبي تمام : «فقال البحثري نسخاً له : وسألت من لا يستجيب ، فكنت في استخباره كمجيب من لا يسأل»^(٥)

وخلال سوق الصولي لأمثلة السرقات ، كان يفاضل بين الشعراء ، ويثبت فضل أحدهما على الآخر. وهو ، أحياناً ، يوازن بين شاعرين قديمين ، وتارة

(١) يراجع : أبو بكر الصولي ناقداً ، للأستاذ صبحي ناصر حسين ، ص : ٩٨ وما بعدها ، فله تفصيل حول هذا الموضوع .

(٢) أخبار أبي تمام ، ص : ٧٤ .

(٣) أبو بكر الصولي ناقداً ، ص : ١٠٣ . ويقول أ. صبحي : «وهم الدكتور هدارة في قوله : (إن القاضي الجرجاني هو أول من استخدم لفظ المسوخ). يراجع : مشكلة السرقات ، ص : ١٧٩ ، ويؤكد أن الصولي أول من استخدمها» .

(٤) النسخ في اللغة : النقل والتحويل ، الكلبيات ، ص : ٨٩٢ . وفي الاصطلاح : أخذ المعنى بلفظه .

والمسوخ : أخذ المعنى مع تغيير النظم ، أو كان المأخوذ بعض اللفظ . الإيضاح ، ص : ٤٥٢ - ٤٥٥ ، ت. أ. د. عبد القادر حسين - وشرح المختصر للفتازاني ٢/ ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ .

(٥) أخبار أبي تمام ، ص : ٧٦ .

أخرى بين شاعر قديم ومحدث ، ومرة ثالثة بين شاعرين محدثين ، وذلك خلال تناولهم موضوعاً شعرياً واحداً ، أو اختلاف الموضوعات الشعرية المقابل بينها .

وهو يقر في كثير من الأحيان بقدرة الشعراء ، لكن يذكر تفوق أبي تمام عليهم وأخذهم منه . وفي ذلك يقول : «ولا أعرف أحداً بعد أبي تمام أشعر من البحتري ، ولا أغض كلاماً ، ولا أحسن ديباجة ، ولا أتم طبعاً ، وهو مستوي الشعر ، حلو الألفاظ ، مقبول الكلام ، يقع على تقديمه الإجماع ، وهو مع ذلك يلوذ بأبي تمام في معانيه ، فأبي دليل على فضل أبي تمام ورياسته يكون أقوى من هذا؟!»^(١) .

من هنا ، يشير الصولي إلى أنه كان قد عزم على تأليف كتاب في أخذ البحتري من أبي تمام ، لكنه وجد بعض أهل الأدب من سبقه إلى ذلك ، ويكره إعادة ما ألف^(٢) .

وهو في كل هذه الأمور يعتمد على علمه الغزير بالشعر ، وثقافته الواسعة بفنونه ، لذلك نراه يقابل بين الشعراء ، ويوازن بين أشعارهم بفهم ودراية ، لا كما كان بعض معاصريه يتهمه بالتقصير وقصر باعه ويتحامل عليه . فكان يسوق الشواهد الشعرية ، ثم يذكر مواطن الأخذ والسرقة ، فيقول ، مثلاً ، في بيت لأبي تمام :

(١) أخبار البحتري ، ص : ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٧٩ - ٨٠ . ويراجع : مشكلة السرقات في النقد العربي ، ص : ٧٠ ، وسرقات أبي نواس (مقدمة المحقق د. مصطفى هدارة) ، ورسالة الدكتور صالح الأشتر عن البحتري ، وحاشية : أخبار البحتري ، ت. د. الأشتر ، ص : ٥٢ ، وكتاب : النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري للدكتور محمد علي أبو حمدة ، ص : ٣٧ وما بعدها . وسأعرض في حديثي عن الأمدي وكتاب الموازنة بعض الكتب التي ألفت في السرقات ، ذكر معظمها د. هدارة في حديثه عن مشكلة السرقات .

وركب كأطراف الأسنه عرسوا على مثلها ، والليل داج غياهبه
مأخوذ من قول البعيث :

أطافت بشعث كالأسنة هُجِدِ بخاشعة الأصواء غُبِرُ صَحُونُهَا^(١)
ونراه يقر بسبق أبي تمام وينفي عنه تهمة السرقة بقوله : «... ولو أن
يصرف عن أحد من الشعراء سرقة ، لوجب أن يصرف عن أبي تمام ، لكثرة
بديعه ، واختراعه وانكائه على نفسه. ولكن حكم النقاد للشعر والعلماء به قد
قضى أن الشاعرين إذا تعاورا معنى أو لفظاً أو جمعاهما ، أن يجعل السبق
لأقدمهما سناً ، وأولهما موتاً. وينسب الأخذ إلى المتأخر ، لأن الأكثر كذا
يقع ، وإن كانا في عصر الحق بأشبههما به كلاماً ، فإن أشكل ذلك تركوه
لهما»^(٢) ، فهذا حكم النقاد على السرقات الشعرية .

وأحكام الصولي على الشعراء متفاوتة وكثيرة مبثوثة في كتبه وتراجمه ،
فتجده يعيب بيتاً لابن الرومي فيما رواه أبو أحمد العسكري في (المصون) لعدم
استقلال البيت بالمعنى ، إذ علق عليه بقوله : «... لقد أحسن وملح ، إلا أنه
جاء بالمعنى في بيتين ، واقتضى للبيت الأول ديناً على البيت الثاني ، وخير
الشعر ما قام بنفسه ، وكمل معناه في بيته ، وقامت أجزاء قسمته بأنفسها ،
واستغنى ببعضها لو سُكت عن بعض مثل قول النابغة :

فلمست بمستبق أحخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
فهذا أجل كلام وأحسنه . ألا ترى أن قوله : (فلمست بمستبق أحخاً لا تلمه)
كلام قائم بنفسه ، فإن زدت فيه (على شعث) كان أيضاً مستغنياً . ولو قلت
أيضاً : (أي الرجال المهذب) ، وهو آخر البيت ، مبتدئاً به كمثل أردته ، كنت

(١) أخبار أبي تمام ، ص : ١١٧ .

(٢) أخبار أبي تمام ، ص : ١٠٠ - ١٠١ .

قد آتيت بأحسن ما قيل فيه»^(١).

ونجده يحكم على بعض الأشعار بالحسن والملاحة ، فيقول :
 « . . . ومن مليح ما قيل في شكوى الدمع قول محمد بن عبد الله بن طاهر :
 وأعجب ما في الدمع عصيان وقته وطاعته أوقات من يتفقد
 إذا قلت : أسعد لم يغثني ، وإن أقل له : كفّ عني نمّ والقوم شهد^(٢)
 وللصولي نظرة صائبة دقيقة في أهل هذا الفن ومدعيه ، قال في أحدهم :
 «إنه صحفي ، حاطب ليل ، يشترط في كتبه اختيار الشعر الجيد ، ويأتي
 بالرديء ، ويزعم أنه يقلل فيحسن ، ويكثر فيسيء ، ثم يحكي الكذب
 ويخطيء بالتاريخ»^(٣).

ونسמעه مرة أخرى مادحاً الوزير محمد بن علي بقوله : «وما رأيت أحسن
 حركة منه ، ولا أظرف إشارة ، ولا أصلح خطأ ، ولا أكثر حفظاً ، ولا أسلط
 قلماً ، ولا أقصد بلاغة ، ولا آخذ بقلوب الخلفاء من محمد بن علي . وله بعد
 هذا كله علم بالإعراب ، وحفظ للغة ، وشعر مليح ، وتوقعات حسان»^(٤).

والذي ينتهي إليه الدارس لآراء أبي بكر الصولي في النقد يقر أنه صاحب
 نظرة شمولية موضوعية واسعة ، فقد تناول معظم قضايا النقد المثارة
 والموجودة في الساحة في عصره ، كقضية اللفظ والمعنى ، وقضية القدم

(١) المصون في الأدب ، ص : ٨ - ٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٢٤ . ويراجع للمزيد : أخبار أبي تمام ، ص : ١٩ - ٢٢ ، ٣٠ ، ٥٤ ، ٦٤ .

(٣) أخبار الشعراء المحدثين (من كتاب الأوراق) ، ص : ٢١٠ .

(٤) قطعة نادرة من كتاب الأوراق ، ص : ١٧ . حكم في هذه القطعة على شعر بعض الوزراء .
 وقد عثر عليها د . هلال ناجي وحققها ، ثم نشرها بعنوان : (ما لم ينشر من كتاب الأوراق
 للصولي) ، وهو القسم المفقود منه . كما ذكر أبو الحسن الصابي (ت ٤٨٠ هـ) في الهفوات
 النادرة أخباراً كثيرة عن الصولي وأوراقه ، ص : ٤٠ ، ١٨٣ .

والحدائثة ، وقضية الطبع والصنعة ، وقضية السرقات الشعرية . وكان ذا نظرة موضوعية ، يستشهد بالشواهد الملائمة ، ويناقش ويحلل معتمداً على ثقافة واسعة ، واطلاع كبير . وكان يرشد في ثنايا كتبه ومؤلفاته الكتاب والعلماء إلى أنه من أراد أن يتصدى للنقد فلا بد له من أدوات النقد ، ومعطيات منها الوهبي ، ومنها الكسبي ، وأبرزها : الطبع وحسن القريحة والدربة ، « فنقد الشعر ، وترتيب الكلام ، ووضع مواضعه ، وحسن الأخذ ، والاستعارة ، ونفي المستكره والجاسي صنعة برأسها ، ولا تراه إلا لمن صحت طبائعهم ، واتقدت قرائحهم ، وتنبهت فطنهم ، وراضوا الكلام ، ورووا وميزوا ، هذا شاعر صادق مميز ناقد مهذب الألفاظ مثل البحري ، لم يكمل لنقد جميع الشعر . ولو أن نقد الشعر والمعرفة كان يدرك بقول الشعر وبالرواية لكان من يقول الشعر من العلماء ويعرض له أشعر الناس » . وضرب أمثلة لبعض العلماء الكبار ، أمثال الخليل وحماد الراوية وخلف والأصمعي وسائر من يقول الشعر من العلماء ، وقال : « . . . ليس شعرهم بالجميل في شعر زمانهم ، بل في عصر كل واحد منهم خلق كثير ليس لجماعتهم علم واحد من هؤلاء ، وكلهم أجود شعراً ، فقد يقول الشعر الجيد من ليس له معرفة بنقده ، وقد يميزه من لا يقوله»^(١) . لكن ، كان لا يهمل آراء من سبقه من النقاد وإن كان لمن سبقه ، كالجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز ، فضل السبق ، إذ كانوا يدلون بآراء أو نظريات نقدية .

نتبين مما سبق أن الصولي لم يأت بشيء جديد أو نظرية نقدية واضحة المعالم ، وإنما آراؤه مبثوثة في ثنايا مؤلفاته لا ينتظمها سلك ، ويعوزها كثير من التنظيم والتبويب والدقة والمنهجية . وكان ممن انخرط في معركة القدم والحدائثة ، وممن فضل أبا تمام على البحري ، واعترف بتقدم الأول وسبقه .

(١) المصون في الأدب ، ص : ٥ .

«ويبدو أن التعصب لأبي تمام أو عليه لم يكن دائماً وليد الذوق الأدبي»^(١) ، بل هو نتاج خصومات شخصية أيضاً. لذلك ، نرى أن الأمدى في الفصول الآتية يؤلف كتاب الموازنة بين الطائنين ليعيد الفضل إلى البحري ويميزه على أبي تمام.

لأجل كل ما سبق ، أميل إلى قول الدكتور إحسان عباس : «... والحق أن كتب الصولي تعدّ في كتب السيرة أكثر مما تعدّ في كتب النقد»^(٢).

(١) النقد الأدبي بين أبي تمام والبحري في القرن الرابع للدكتور محمد علي أبو حمدة ، ص :

.٤١

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٥٢ .

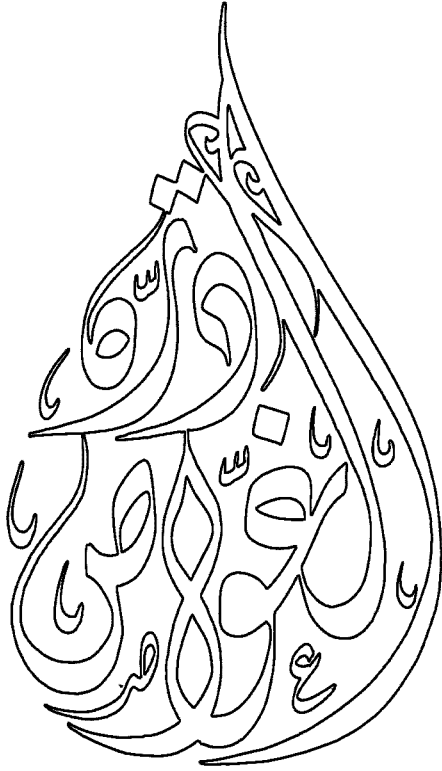
مكتبة الدكتور وائل الخويطر

الفصل الثالث

العلاقة بين البلاغة والنقد عند

قدامة بن جعفر (ت 337 هـ)

- المبحث الأول : التعريف بقدامة بن جعفر .
- المبحث الثاني : البلاغة عند قدامة بن جعفر .
- المبحث الثالث : النقد عند قدامة بن جعفر .



المبحث الأول : التعريف بقدامة بن جعفر^(١) :

* نسبه ومكانته :

هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، أبو الفرج ، وقيل : أبو جعفر الكاتب . كان نصرانيا فأسلم على يد المكتفي بالله ، وقال بعضهم إن جده كان مسلما . وكان والد قدامة - كما يقول الخطيب البغدادي - من مشايخ الكتاب وعلمائهم . وكان وافر الأدب ، حسن المعرفة . له مصنفات . أثنى على قدامة المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) - وكان معاصرا له - وهو أول من ترجم له ، فقال : «كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزا للألفاظ ، مقربا للمعاني»^(٢) . كما أثنى عليه ياقوت بقوله : «... أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة

(١) ترجمته في : مروج الذهب ١/٢٤ - ٢٥ - ط ٢ ، والفهرست ، ص : ١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٢٠٥/٧ ، فيه ترجمة والده . وقد وهم الكثيرون فعزوا الترجمة له ، وهي لوالده . والمتنظم ٧٣/١٤ ، والإيضاح للمطرزي - وقد ترجم لقدامة من خلال شرحه لمقامات الحريري - ومعجم الأدباء ٥/٨ - ٩ (دار الكتب العلمية) ، ٨/٧٥ (دار الفكر) ، والوافي بالوفيات ٦/٢٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ - ط ١٩٩٣ - وعقود الجمان للعينى (في الجزء الذي لم يطبع) ، والنجوم الزاهرة ٣/٢٩٧ - ٢٩٨ ، وكشف الظنون ٢/١٩٧٣ ، وهديّة العارفين ١/٨٣٥ ، والأعلام ٥/١٩١ ، ومعجم المؤلفين ٨/١٢٨ ، وقدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة - ومقدمات تحقيق كتبه - ومقالات كثيرة ، منها : مقال أ. محمد كرد علي في مجلة المجمع (دمشق ، م ١٨/س ١٩٤٣/ص : ٥٤٧) ، ومقال أ. شفيق جبيري في مجلة المجمع (دمشق ، م ٣٢/س ١٩٥٧/ص : ٣٥٣ - ٣٥٥) ، ومقال : قدامة بن جعفر وجهوده النقدية في نظر الباحثين المحدثين (مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، ن ٤/س ١٤٠٠ هـ/ص ٢٠٧) ، والرسائل الجامعية المتعددة ، منها : كتاب نقد الشعر للأستاذ سيد محمد عبد الخالق (رسالة ماجستير/ كلية الآداب/ جامعة القاهرة/ ١٩٨٧).

(٢) مروج الذهب ١/٢٤ - ٢٥ .

الفضلاء ، وممن يشار إليه في علم المنطق»^(١) . وقد ذكروا أنه جالس المبرد وثلعباً. قال ابن الجوزي : « . . . كان عالماً ، وقد سأل ثلعباً عن أشياء»^(٢) . وقال ياقوت : « . . . وأنا لا أعتد على ما تفرد به ابن الجوزي ، وذلك لأنه عندي كثير التخليط ، ولكن آخر ما علمنا من أمر قدامة أن أبا حيان ذكر أنه حضر مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات وقت مناظرة السيرافي ومتى المنطقي في سنة عشرين وثلاثمائة» .

* ثقافته :

تأثر قدامة بالثقافتين اليونانية والعربية ، فقد قيل : إن أصله من نصارى السريان ، وهناك علاقة متينة بين الثقافتين اليونانية والسريانية^(٣) . ويبدو أثر المنطق في أسلوبه وفكره . وذكر تأثره بأرسطو وكتبه كالخطابة ، والشعر ، والجدل ، لكن أ. كرد علي يذكر أصوله الفارسية وتأثره بالثقافة الفارسية^(٤) . وأما ثقافته العربية ، فقد أدرك زمن أبي سعيد السكري (ت ٢٧٥ هـ)^(٥) ، وزمن المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، وزمن ثعلب (ت ٢٩١ هـ) . وكان أثر الإمام ثعلب واضحاً - كما يؤكد بعض الدارسين في كتابات قدامة ، خاصة تأثره بقواعد الشعر لثعلب ، وإكثاره من الاستشهاد بأشعار الهجاء ، إذ كان الإمام ثعلب قد ألف كتاباً في الهجاء ، وأشعار زهير والنابعة ، وقد قام ثعلب بشرح شعرهما^(٦) .

(١) معجم الأدباء ٨/٥ - ٩ .

(٢) المنتظم ٧٣/١٤ .

(٣) أثر الفكر اليوناني على الناقلين : الجاحظ وقدامة ، ص : ٤٤ .

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية ، م ١٨/س ١٩٤٣/ص : ٥٤٧ .

(٥) أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري النحوي ، كان أصغر تلاميذ الأصمعي ، جمع الأشعار

القديمة . كان ثقة ، يقرأ القرآن . معجم الأدباء ٢/٤٧٨ - ٤٨١ (دار الكتب العلمية) .

(٦) أثر الفكر اليوناني ، ص : ٥٥ - ٥٦ .

* مؤلفاته :

ترك لنا قدامة كثيرا من المؤلفات ، منها المطبوع ، ومنها المخطوط ، ومنها ما هو في حكم المفقود . وقد ذكرها - على اختلاف فيها - أكثر من ترجم له .

من آثاره المطبوعة :

١ - الألفاظ ، أو : (جواهر الألفاظ)^(١) .

٢ - الخراج^(٢) .

(١) جواهر الألفاظ ، حققه الشيخ محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط ١ - ١٩٣٢ .

(٢) وقد ذكرته بعض المصادر القديمة باسم (الخراج وصناعة الكتابة) ، كالمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) في مروج الذهب ، والمقدسي (ت ٣٩٠ هـ) في أحسن التقاسيم ، وابن النديم (ت ٤٣٨ هـ) في الفهرست ، وياقوت (ت ٦٢٦ هـ) في معجم الأدباء ، وابن تغري بردي (ت ٨٤٧ هـ) في النجوم الزاهرة . وابن الجوزي يذكره باسم (الخراج وصناعة الكُتَّاب) . ويذكره الصفدي باسم (الخراج) ، «وهو تسع منازل ، وكان ثمانيا ، وأضاف إليه تسعة» . ويقول المطرزي : «ومن مؤلفاته : (صناعة الكتابة) ، ظفرت به وعثرت فيه على ضوأل منشودة . وهو كتاب يشتمل على سبع منازل ، وكل منزلة تحتوي على أبواب مختلفة ، ضمنها خصائص الكُتَّاب والبلغاء ، فمن طالعه عرف غزارة فضله وتبحره في العلم» . عن مقدمة نقد الشعر - تح . كمال مصطفى ، وقدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، ص : ١٠ وما بعدها . وقد ضاعت المنازل الأربع الأولى ، وحقق باقي المنازل في رسائل جامعية ، منها : «قدامة بن جعفر وتحقيق المنزلة الخامسة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة» د . مسفر الدميني / ماجستير - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - ١٩٧٧ ، و«قدامة بن جعفر وتحقيق المنزلة الخامسة» د . طلال جميل الرفاعي - جامعة بغداد - (مطبوعة) ، و«قدامة بن جعفر وتحقيق المنزلة السادسة» تحقيق مستشرق يهودي ، و«قدامة بن جعفر وتحقيق المسألة السابعة» د . محمد عبد الحليم سمارة - دكتوراه - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - ١٩٧٤ . وذكر بعضهم تحقيق المنزلة التاسعة في رسالة جامعية لم أعثر عليها . وكان للدكتور الدميني عناية خاصة في تحقيق اسم الكتاب ، يراجع ص : ٩٢ ، ٢١٧ . ويبدو أن المنزلة =

٣- نقد الشعر^(١) ، وهو من أشهر مؤلفاته النقدية . وقد أحدث ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية والنقدية^(٢) .

٤- نقد النثر : المنسوب خطأً إليه . وهو كتاب (البرهان في وجوه البيان)

= الثالثة كانت في البلاغة ، فقد ذكرها قدامة في المنزلة الخامسة في ديوان الرسائل فقال : «... وقد ذكرت في المنزلة الثالثة أمر البلاغة ، ووجه تعلمها ، وتعريف الوجوه المحمودة منها والمذمومة منها ما إذا أوعى كان الكاتب واقفاً على ما يحتاج إليه» ، كما يقول أبو حيان التوحيدي : «وما رأيت أحداً تنهى في وصف النثر بجميع ما فيه وما عليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه . قال لنا علي بن عيسى الوزير : عرض علي قدامة كتابه سنة عشرين وثلاثمائة ، واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن ، وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريف اللفظ والمعنى ، مما يدل على المختار المجتبي ، والمعيب المجتنب» . الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(١) سماه البغدادي : «نقد الشعر في البديع» . هدية العارفين ١/ ٨٣٥ .

(٢) في ذلك ألف عبد اللطيف البغدادي كتاباً يدافع عنه فيه ، سماه : «كشف الظلّامة عن قدامة» ، وشرحه في كتاب : «تكملة الصناعة في شرح نقد قدامة» . يراجع : كشف الظنون ٢/ ١٩٧٣ ، وعد ابن أبي الإصبع «كشف الظلّامة» من الكتب التي اعتمدها في بديع القرآن ، ص : ٥ ، وتحرير التحبير ، ص : ٨٨ . لكن الأمدي كان متعصباً عليه - كما سنرى في الفصل القادم - فألف كتاب : «تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر» . يراجع : معجم الأدباء (ترجمة الأمدي) ٦٨/٨ (دار الفكر) ، وبغية الوعاة ١/ ٥٠٠ - ٥٠١ ، وتحرير التحبير ، ص : ٨٨ . كما ألف ابن رشيّق كتاب : «تزييف نقد قدامة» ، يراجع : كشف الظنون ٢/ ١٩٧٣ ، وعده ابن أبي الإصبع من جملة المصادر التي اعتمدها في تحرير التحبير ، ص : ٨٨ ، وبديع القرآن المجيد ، ص : ٤ . ودافع عنه ابن أبي الإصبع في كتاب «الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وكلام خصومه» ، يراجع : تحرير التحبير ، ص : ١٤ - ١٥ ، و٤٩ . وقد تأثر بـ «نقد الشعر» الكثيرون ، فأخذوا عنه واستقوا منه ، كالأمدي في موازنته وإن كان يتعصب عليه ، والمرزباني في موشحه ، والعسكري في كتاب الصناعتين ، وابن رشيّق في عمدته ، وابن أبي الإصبع ، «فكثيراً ما يشيد بذكره وينقل عنه ، ويتبعه في تعريفه ، ويمتدح رأيه ، وينصب نفسه للدفاع عنه . وقد أفرد كتاب الميزان للدفاع عنه والمفاضلة بينه وبين خصومه» ، يراجع : تحرير التحبير ، ص : ٤٩ .

لإسحاق بن وهب الكاتب^(١).

ومن مؤلفاته التي هي في حكم المفقود :

١ - جلاء الحزن^(٢).

٢ - حشوشاء المجلس^(٣).

٣ - درياق الفكر ، أو ترياق الفكر^(٤).

٤ - الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبو تمام^(٥). ويبدو أنه يتصل بالمعارك

النقدية التي كانت دائرة في ذلك العصر بين أنصار أبي تمام ومعارضيه .

٥ - زهر الربيع . وقد ذكره المسعودي وأثنى عليه بقوله : « . . . إذا أردت

علم ذلك ، فانظر في كتابه في الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع^(٦) . كما

(١) يراجع : مقدمة نقد النثر ، تح . د . العبادي ود . طه حسين - القاهرة - ط ١ - ١٩٣٣ . ونفى الأستاذ كرد علي نسبة الكتاب لقدامة وأسنده إلى كتاب أهل القرن السادس أو السابع ، مجلة المجمع/دمشق - م ١٨/س ١٩٤٣/ص : ٥٤٧ ، وم ٢٣/س ١٩٤٨ ، ومقال د . علي حسن عبد القادر «تصحيح خطأ وتحقيق شخصية كتاب ورد اعتبار لمؤلف طغى على اسمه الزمان» في مجلة المجمع ، م ٢٤/س ١٩٤٩/ص : ٧٣ - ٨١ . وقد طبع كتاب البرهان بتحقيق د . أحمد مطلوب ود . خديجة الحديثي في بغداد ١٩٦٧ . وقد ذكر هذا الخطأ وبينه د . بدوي طبانة في كتابه : «قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، ص : ١١٣ وما بعدها . وكان د . سلامة قد شك مع من شك في نسبة الكتاب ، وذلك لاختلاف الأسلوب والمنهج ، ووازن موازنة علمية هادفة منتظرا مستقبل مخطوطة نقد النثر إلى أن أماط اللثام أ . عبد القادر . واستفاد من المقال د . مطلوب ود . الحديثي ، وقاما بنشر الكتاب بعد أن صحح الأستاذ نسبه إلى إسحاق بن وهب الكاتب . يراجع : مقدمة البرهان ، ص : ١٩ - ٣٧ .

(٢) الفهرست ، ص : ١٤٤ ، والوافي بالوفيات ٦/٢٤ ، ٢٠٦ ، ومعجم الأدباء ٨/٥ - ٩ .

(٣) الوافي بالوفيات ٦/٢٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٤) الفهرست ، ص : ١٤٤ ، والوافي بالوفيات ٦/٢٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) الفهرست ، ص : ١٤٤ ، والوافي بالوفيات ٦/٢٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٦) مروج الذهب ١/٢٤ - ٢٥ .

ذكره الصفدي بعنوان : (زهر الربيع في الأخبار)^(١).

٦- صابون الفم ، وروي : صابون الغم^(٢).

٧- صرف الهم : وقد ذكره حاجي خليفة ضمن كتب الصرف^(٣).

٨- صناعة الجدل^(٤).

٩- النجم الثاقب ، وهي رسالة في أبي علي بن مقلة^(٥). ويبدو أنها تتصل بالموضوعات النقدية في ذلك العصر.

١٠- نزهة القلوب وزاد المسافر^(٦) ، وذكر حاجي خليفة أنهما كتابان.

* وفاته :

توفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ على الأرجح في خلافة المطيع ، وفي ذيل تاريخ بغداد : سنة ٣٢٨ هـ^(٧). وذكر إسماعيل البغدادي أنه توفي سنة ٣١٠ هـ ، وهذا وهم . وذكر ياقوت أن والده (جعفر بن قدامة) توفي سنة ٣١٩ هـ^(٨).

المبحث الثاني : البلاغة عند قدامة بن جعفر :

كتاب نقد الشعر من الكتب النقدية التي ظهرت في القرن الرابع واعتمدت على فنون بلاغية. وقد حدد قدامة منذ البداية موضوع الكتاب ، وذكر غايته منه ، وهو نقد الشعر ليميزه عن سائر الكتب التي ألُفت. وقد قسم قدامة كتابه

(١) الوافي بالوفيات ٦/ ٢٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) الفهرست ، ص : ١٤٤ ، وكشف الظنون ، وسماه : (صابون الفم في المنطق) ٢/ ١٠٦٨ .

(٣) كشف الظنون ٢/ ١٠٧٨ .

(٤) كشف الظنون ٢/ ١٠٧٨ ، وهدية العارفين ١/ ٨٣٥ .

(٥) الوافي بالوفيات ٦/ ٢٤ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٦) الفهرست ، ص : ١٤٤ ، ومعجم الأدياء ٥/ ٨ - ٩ .

(٧) معجم الأدياء ٥/ ٨ - ٩ ، والنجوم الزاهرة ٣٠/ ٢٩٨ .

(٨) معجم الأدياء ٢/ ٣٨٤ (دار الكتب العلمية) ، وانظر تاريخ بغداد ٧/ ٢٠٥ فيه ترجمة لجعفر

ابن قدامة .

إلى مقدمة وثلاثة فصول. ذكر في مقدمته أسباب تأليفه لنقد الشعر ، وذلك لأنه لمس ميسر الحاجة إلى كتاب نقدي يميز صحيح الشعر من رديئه. يقول في ذلك : «... ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً ، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة ، لأن علم الغريب والنحو وأغراض المعاني محتاج إليه في أصل الكلام العام للشعر والنثر ، وليس هو بأحدهما أولى منه بالآخر ، وعلم الوزن والقوافي - وإن خُصَّ للشعر وحده - فليست الضرورة داعية إليهما لسهولة وجودهما في طباع أكثر الناس من غير تعلّم... فأما علم جيد الشعر من رديئه ، فإن الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم ، فقليل ما يصيبون»^(١).

وقد تحدث قدامة في الفصل الأول عن الشعر ، وعرفه بأنه «قولٌ موزونٌ مقفَى يدل على معنى»^(٢). ثم أخذ هذه العناصر الأربعة وركبها مثني مثني ليحصل على ما سماه بالأربعة المركبات. وخصص الفصل الثاني لنعوت الشعر المفردة ، ثم لنعوت الشعر المركبة. كما خصص الفصل الثالث لعيوب الشعر المفردة ، ثم لعيوب الشعر المركبة.

ويرى قدامة أن الشعر صناعة ، وأنه يتردد بين غائتين ، هما : غاية الجودة ، وغاية الرداءة ، وأن بينهما وسائط ، والشعر تتوزع مرتبته بين هاتين الغائتين بحسب ما يتوفر له من شروط الجودة والرداءة - كما حددها قدامة - وكان اتكاؤه على مفاهيم بلاغية - كما سنرى - وهو يصلح مثالا للنقاد الذين اتكأوا على البلاغة في معايير النقد ، وذلك من خلال الصفات التي وضعها لكل قسم من الأقسام الأربعة التي تحدث عنها فيما يستحسن وما يستقبح.

(١) نقد الشعر ، ص : ١٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٧ .

وطريقة تناوله لبعض المصطلحات البلاغية والنقدية تكشف عن ثقافته العميقة ، وأفقه الواسع ، وتؤكد مدى تأثره بالفكر اليوناني . فكتاب (نقد الشعر) لم يتخلص من بصمات أرسطو عليه سواء في مصطلحاته البلاغية أو النقدية . ونلمس هذا جلياً من خلال تعريفاته واهتمامه بالحدود^(١) والفنون البلاغية التي ذكرها تشير إلى الصلة الحميمة بين البلاغة والنقد عنده ، وهو الموصوف بأنه أحد البلغاء الفصحاء . وقد مر معنا أن قدامة ذكر البلاغة وعرفها في المنزلة الثالثة من كتابه (الخراج وصناعة الكتابة) ، وكذلك عرف البلاغة في مقدمة كتابه (جواهر الألفاظ) ، وذكر الوجوه التي يزدان بها الكلام ، لأنه يعتقد أن «مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجواهر المرصع ، ومركب العقد الموشح ، يعد أكثر أصنافه ، ليسهل عليه إتقان رصفه وائتلافه»^(٢) .

وقد تناول من فنون المعاني : الإيجاز والإطناب والمساواة . وعرف الإيجاز كما عرفه الجاحظ وغيره ، وسماه الإشارة ، «وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بإيماء إليها ، أو لمحة تدل عليها»^(٣) ، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة بأنها لمحة دالة . وقد أورد قدامة كثيراً من الشواهد ليدل على ما ذهب إليه ، فيقول في بيتين لامرئ القيس :

فإن تهلك شنوءة أو تبدل فسيري إن في غسان خالا
بعزهم عززت وإن يذلوا فذلهم أنالك ما أنالا

«فبينة هذا الشعر على أن ألفاظه ، مع قصرها ، قد أشير بها إلى معانٍ طوال ، فمن ذلك قوله : تهلك أو تبدل ، ومنه قوله : إن في غسان خالا .

(١) تراجع : أثر الفكر اليوناني على الناقدين : الجاحظ وقدامة ، ص : ٦٨ - ٦٩ .

(٢) جواهر الألفاظ ، ص : ٢ .

(٣) نقد الشعر ، ص : ١٥٢ - ١٥٣ .

ومنه ما تحته معانٍ كثيرة وشرح طويل ، وهو قوله : أنا لك ما أنالا ، وقول الشاعر :

أهاجك ربع قد تحمل حاضرةً وأوحش بعد الحي منه مناظره
يقول : ما تنظر إلى موضع منه إلا ذكرت فيه من الأنس بمن كان يحله ما قد
أوحش في هذا الوقت بخلوه منه . . .^(١) ، فأشار إلى معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة .

ولكن ، وإن كانت دلالات الألفاظ ، وكثرة إيماءاتها في الكلام وإشارتها
تزيد ثراءً وخصوبةً ، فينبغي ألا يؤدي ذلك إلى الإيجاز المخل ، فنسمع قدامة
يحدثنا عن الإخلال ويعده من عيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى ، «والإخلال :
هو أن يترك من اللفظ ما يتم به المعنى . ومن ذلك قول عروة بن الورد :

أعاذل عاجل ما أشتهي أحب من الأكثر الرائي
فإنما أراد أن يقول : عاجل ما أشتهي مع القلة أحب إلي من الأكثر
المبطىء ، فترك مع القلة ، وبه يتم المعنى»^(٢) . وقد أورد قدامة كثيراً من
الشواهد على الإخلال . ويأخذ أ. محمد سيد على قدامة تشدده في تطبيق
مصطلح الإخلال على كثير من الشواهد التي ليس فيها إخلال في نظره^(٣) .
ولكن ، ليس الإيجاز المخل يفسد المعنى فقط ، بل الإطناب والتطويل من غير
فائدة يفسده كذلك في نظر قدامة . والإطناب «هو أن يزيد في اللفظ ما يفسد به
المعنى»^(٤) . ولكن ، يبقى لميزة الإيجاز والإخفاء نكته بلاغية ، فالإخفاء
عملية فنية مقصودة تحدث أثرها بالغياب أكثر من أثرها في الحضور . وقد تأثر
أبو هلال العسكري بهذه المصطلحات فقال : «... فالإطناب بلاغة ،

(١) نقد الشعر ، ص : ١٥٤ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢١٦ .

(٣) كتاب نقد الشعر لقدامة للأستاذ محمد سيد عبد الخالق ، ص : ٣٣٤ - رسالة ماجستير .

(٤) نقد الشعر ، ص : ٢١٨ .

والتطويل عي ، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب . والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة^(١) . فدعا قدامة إلى الإيجاز في مواطن الإيجاز ، والإطناب في مواطن الإطناب ، والمساواة - وهي أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه - في مواطن المساواة . وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال : كانت ألفاظه قوالب معانيه ، أي : هي مساوية لها ، لا يفضل أحدها على الآخر ، وذلك مثل قول زهير :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أصبت حليماً أو أصابك جاهل^(٢)
فهو يشترط أن يكون اللفظ دقيقاً في التعبير عن المعنى المراد ، ومساوياً للدلالة على المعنى الذي يقصده القائل ، فلا يزيد ولا ينقص .

وهذه المصطلحات تناولها كثير من البلاغيين والنقاد ، فقد تحدث ابن رشيق في عمدته عن الإيجاز والإشارة ، فقال : «الإشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر . وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح ، يعرف مجملاً ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه»^(٣) . كذلك يذكر ابن سنان الخفاجي المساواة والإشارة والإخلال والتطويل لغير فائدة ، ويسمي الأخير «التذليل» ، ويعرفه بقوله : «هو العبارة عن المعنى بألفاظ تزيد عليه»^(٤) .

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ١٩١ ، وقال القول ذاته أبو أحمد العسكري في : رسالة في

تفضيل بلاغة العرب على العجم ، ص : ٢١٨ .

(٢) نقد الشعر ، ص : ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) العمدة ٣٠٢/١ - تح . محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة - ط ٣ - ١٩٦٣ .

(٤) سر الفصاحة ، ص : ٢٥٦ - تح . عبد المتعال الصعيدي - مكتبة صبيح - القاهرة - ط ١ -

١٩٥٣ .

وذكر قدامة الإيغال ، وهو نوع من الإطناب كما ذكره البلاغيون المتأخرون^(١) . وقد جعله قدامة من أنواع ائتلاف القافية مع معنى البيت . وفي ذلك يقول قدامة : «وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتي بها لحاجة الشعر ، فيزيد بمعناها في تجويد ما ذكره من المعنى في البيت ، نحو قول ذي الرمة :

قف العيسَ في آثار مية واسألِ رسوماً كأخلاقِ الرداءِ المسلسلِ
فتم كلامه قبل القافية ، فلما احتاج إليها ، أفاد بها معنى زائداً . وكذلك صنع في البيت الثاني ، حيث قال :

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصلِ
فإنه تم كلامه بقوله : كتبذير الجمان ، واحتاج إلى القافية فأتى بها تفيد معنى زائداً ، ولو لم يأت بها لم يحصل^(٢) .

وقد ذكر قدامة من فنون المعاني الالتفات ، وهو من باب خروج الكلام عن مقتضى الحال - وقد ذكره بعض العلماء والنقاد قبله كابن قتيبة وابن المعتز - وعرفه تعريفاً يقرب من تعريفاتهم ، فقال : «وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله ، أو سائلاً يسأله عن سببه ، فيعود راجعاً على ما قدّمه ، فإما أن يؤكد أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه ، كقول ابن ميادة :

فلا صرمه يبدو ، وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه
فكأنه بقوله : (و في اليأس راحة) التفت إلى المعنى لتقديره أن معارضا

(١) الإيضاح ، ص : ٢٣١ - تح . أ . د . عبد القادر حسين - مكتبة الآداب - القاهرة - ط ١ -

١٩٩٦ ، وتحريير التعبير ، ص : ٢٣٢ وما بعدها .

(٢) نقد الشعر ، ص : ١٦٩ .

يقول له : وما تصنع بصرمه ؟ فقال : لأن في اليأس راحة . ومن هذا الجنس قول عبد الله بن معاوية :

وأجملُ إذا ما كنت لا بد مانعاً وقد يمنعُ الشيءَ الفتى وهو مجملُ^(١)
وقد اختلف مفهوم هذا المصطلح عند المتأخرين .

ومن المصطلحات التي تكلم عنها قدامة : المقلوب ، وكان العلماء يسمونه القلبُ . وله دواعٍ بلاغية كثيرة ، لكن قدامة يذكر أن «الوزن الشعري هو الذي يضطر الشاعر إلى إحالة المعنى ، فيقلبه الشاعر إلى خلاف ما قصد به . مثال ذلك : قول عروة بن الورد :

فلو أني شهدت أبا سعاد غداة غدا بمهجته يفوقُ
فديت بنفسه نفسي ومالي وما آلوك إلا ما أطيقتُ
أراد أن يقول : فديت نفسه بنفسي ، فقلب المعنى^(٢) .

وقد مر معنا القلب البلاغي عند معظم النقاد والبلاغيين في الفصول السابقة ، وقد تكلموا عنه عندما تناولوا خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، لكن بعض البلاغيين لا يجوزونه البتة في النظم والنثر ، يقول علي بن خلف الكاتب : « . . . فأما ما لا يجوز البتة في نظم ولا نثر ، فهو ما قلب على الغلط ، كقول عروة بن الورد^(٣) :

ولو أني شهدت أبا سعاد غداة غدا بمهجته يفوق
فديت بنفسه نفسي ومالي وما آلوك إلا ما أطيقتُ
وتحدث قدامة بن جعفر عن بعض الفنون البيانية ، وإن لم يسمها

(١) نقد الشعر ، ص : ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٢ .

(٣) مواد البيان ، ص : ٢٦٦ - ٢٦٧ .

بمسمياتها ، وذلك بعد أن أخضعها لتقسيمه المنطقي ، وألحقها بقسم من أقسام الشعر عنده . فتحدث عن التشبيه والتمثيل والإرداف ، وعدّ التشبيه غرضاً من أغراض الشعر يقصد لذاته . وليس كلامه هذا صحيحاً ، إذ قلما يخلو فنّ من فنون الشعر إلا وداخله التشبيه .

وذكر قدامة أن «الشيء لا يشبه بغيره من جميع الجهات ، إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معانٍ تعمهما ويوصفان بهما ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها . وأحسن التشبيه هو ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد»^(١) . وساق قدامة أمثلة للتشبيهات الجيدة^(٢) ، واستحسن جمع التشبيهات الكثيرة في ألفاظ يسيرة ، فاستحسن بيت امرئ القيس :

له أطلاب طبي وساقانعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٣)
«فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء» . كما استحسن أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير ، كقول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريعُ طبي ، أو مساويك إسحل^(٤)
أو أن يُشَبَّه شيءٌ في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال ، فنص على أن من أبواب التصرف في التشبيه أن يكون الشعراء قد لزموا طريقاً واحداً في تشبيه شيء بشيء ، فيأتي الشاعر في تشبيهه بغير الطريق التي أخذ فيها عامة الشعراء ، فالشعراء يشبهون الخُوذَ بالبيض ، والدرعَ بالغدير الذي تصفقه

(١) نقد الشعر ، ص : ١٠٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١١٠ - ١١٤ .

(٣) يراجع شرحه في الفصل السابق .

(٤) تعطو : تناول . برخص : أي بنان رخص . غير شئن : أي غير كز غليظ . طبي : اسم كتيب .

والأساريع : ج . أسروع ، ويسروع ، وهي دواب تكون في الرمل ظهورها ملس . والإسحل : شجر له أغصان ناعمة . شرح المعلمات العشر للتبريزي ، ص : ٥٧ .

الرياح ، وإنما يذهبون إلى الشكل ، فاستحسن قدامة قول سلامة بن جندل عادلاً عن تشبيه الشكل إلى تشبيه اللين ، لأن اللين من دلائل جودة الدرع لصغر قتيها وحلقها . يقول سلامة :

فألقوا لنا أرسان كل نجبية وسابغة كأنها متن خرنق^(١)
ثم ضرب بعض الأمثلة للخروج عن التشبيهات التي اعتادها الشعراء ، وعدّها من باب التصرف في التشبيه ، ثم ذكر عيوب التشبيه . وقد انتقده بعض المحدثين منهم د . زغلول لأنه لم يهتم بموضوعات وأغراض التشبيه ، فقال : « . . . عجيب من قدامة أن يعتمد في التشبيه مجرد التطابق في عدد الصفات وهيئاتها بين المشبه والمشبه به دون الاهتمام بموضوع التشبيه والغاية منه . والتشبيه يأتي أساساً في التعبير لأداء دور بعينه ، وهو تجسيم الصفات وتقريبها إلى الحواس ، أو تجسيم ما تنطوي عليه من المعاني ، وإقرارها في النفوس»^(٢) .

ونحن مع الدكتور زغلول في ذلك ، فالتشبيه أثر في تجسيد المعاني وتقريبها إلى النفوس .

ومن فنون البيان التي ذكرها قدامة : الاستعارة ، وذلك في معرض كلامه عن عيوب اللفظ ، وأورد أمثلة للاستعارة القبيحة ، ثم ساق أمثلة للاستعارات الموفقة ، مثل قوله : «وصف ابن المعتز القلم فقال : يخدم الإرادة ، ولا يمل الزيادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضيء»^(٣) . ويقول : «وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول الجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة ، وفيها لهم معاذير ، إذ كان مخرجها مخرج التشبيه

(١) نقد الشعر ، ص : ١١٧ . والنجبية : الناقة السريعة . والجزنق : ولد الأرنب . لسان العرب (مادة نجب وخرنق) .

(٢) تاريخ النقد والبلاغة ، ص : ٢٢٥ .

(٣) جواهر الألفاظ ، ص : ٥ .

كقول زهير :

صحبا القلب عن سلمي وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله
فكأن مخرج كلام زهير إنما هو مخرج كلام من أراد أنه «لما كانت الأفراس
للحرب ، وإنما تعرى عند تركها ووضعها ، فكذلك تُعري أفراس الصبا إن
كانت له أفراس عند تركه والعزوف عنه»^(١) . والذي يريده قدامة هو ما أطلق
عليه المتأخرون الاستعارة المكنية . وأما قوله فخرجها مخرج التشبيه ، لأن
الاستعارة في الأصل «تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه شبهه» ، فيقول في
بيت الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع
«فما جرى هذا المجرى مما له مجاز ، كان أخف وأسهل مما فحش ولم
يعرف له مجاز وكان منافرا للعادة ، بعيدا عما يستعمل الناس مثله»^(٢) . ونلمس
من قدامة ، من خلال كلامه عن الاستعارة أنه لم يوفها حقها ، ولم يذكر
أنواعها وأقسامها وتعريفاتها ، وإنما اكتفى بذكر التمثيل^(٣) ، وهو ما أطلق
عليه المتأخرون الاستعارة المركبة ، أو الاستعارة التمثيلية ، وعرفه بقوله :
«هو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى ، فيضع كلاما يدل على معنى آخر ، وذلك
المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه»^(٤) ، وساق شواهد كثيرة

(١) نقد الشعر ، ص : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٨٠ ، وجواهر الألفاظ ، ص : ٥ .

(٣) يعلل ذلك د. إحسان عباس بأمرين : «أولهما أن المنهج العقلي لا يستلطف مثل هذا التصور الجامع الذي لا يخضع لتحديدات منطقية . والثاني أن قدامة لو لم يخضع لمنطقه الصارم ، لقدرنا أيضا أن يقف مثل هذا الموقف نفسه في بيئة كانت ثائرة على ما يسميه قدامة (ما فحش ولم يعرف له مجاز) من أمثال استعارات أبي تمام التي انصب عليه من أجلها أشد هجوم . لذلك ، يحتكم هنا للعادة ، أي للذوق العام في قبول الاستعارة» . تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ٢٠٨ .

(٤) نقد الشعر ، ص : ١٥٨ ، وجواهر الألفاظ ، ص : ٧ .

ليدل على صحة هذا المصطلح عنده . ومن أمثله قول الغامدي :
فإن ضبحوا منا زأرنا فلم يكن شبيهاً بزأر الأسدِ ضبحُ الثعالب
«فقد أشار إلى قوتهم وضعف أعدائهم إشارة مستغربة ، لها من الموقع بالتمثيل ما لم يكن لو ذكر الشيء المشار إليه بلفظه»^(١) . فالتمثيل ضرب من المجاز يسميه البلاغيون المجاز المركب ، «وهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه»^(٢) ، وسمي استخدامه في بعض الحالات المشابهة «استعارة تمثيلية» .

وذكر قدامة الإرداف ، وأورد أمثلة عليه ، وجعله من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى ، «وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني ، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإن دل على التابع أبان عن المتبع»^(٣) ، «وهو في الأشعار وبلاغة العرب كقول أعرابية : (له نَعَمٌ قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك) . وإنما أرادت أن إبلة تبرك بفنائها ولا تسرح ليقرب عليه نحرها لضيوفه ، فقد اعتادت منه هذه الحالة ، وإنما أرادت أن تصفه بالجود والكرم ، فأنت بمعانٍ هي أرداف ولواحق من غير تصريح بما أرادت بعينه»^(٤) . «وبمنزلة قول ابن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها ، وإما عبد شمس وهاشم
وإنما أراد هذا الشاعر أن يصف طول الجيد ، فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بعدُ مهوى القرط . ومثل قول

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٦١ .

(٢) الإيضاح ، ص : ٣٤٧ .

(٣) نقد الشعر ، ص : ١٥٥ .

(٤) جواهر الألفاظ ، ص : ٧ .

امرىء القيس :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى ، لم تنتطق عن تفضل
«وإنما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترف هذه المرأة وأن لها من يكفيها ،
فقال : (نؤوم الضحى) ، وكذلك سائر البيت . أي : هي لا تنتطق لتخدم ،
ولكنها في بيتها متفضلة . . . فلو قال ذلك بلفظه لم يكن الناس من الاستجادة
لقوله مثلهم عند إتيانه بالردف له»^(١) . ونحن نستشف من الأمثلة التي أوردها
قدامة أنه يعني الكناية عن صفة كما عرفها المتأخرون ، لكن لم يذكرها بهذا
اللفظ ، والأمثلة التي مرت معنا تؤكد ذلك ، فقد استشهد بها العلماء والنقاد
قبله .

وإذا انتقلنا إلى المحسنات اللفظية والمعنوية التي تكلم عنها قدامة وما
يتعلق بالبديع ، نجد أنه ذكر بعضها وأوجد لها مصطلحات تلتقي بعضها مع ما
ذكره البلاغيون والنقاد قبله ، وتفرد هو ببعضها الآخر مضرِباً صفحاً عما ذكره
ابن المعتز فيها ، وذلك لأسباب سنوردها فيما بعد .

ومن المحسنات المعنوية التي تكلم عنها قدامة : التكافؤ أو المتكافؤ .
ويعني به الطباق . وعرفه بقوله : «هو أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمه أو يتكلم فيه
بمعنى ما ، أي معنى كان ، فيأتي بمعنيين متكافئين ، إما من جهة المضادة ، أو
السلب والإيجاب أو غيرها من أقسام التقابل»^(٢) ، مثل قول أبي الشغب
العسبي :

حلو الشمائل وهو مر باسل يحيى الذمار صبيحة الإرهاق
وقد ساق أمثلة نثرية كثيرة للتكافؤ ليدل على ما ذهب إليه ، كقوله : (كدرُ

(١) نقد الشعر ، ص : ١٥٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٤٣ .

الجماعة خير من صفو الفرقة»^(١). فقدامة لم يقبل كل الاصطلاحات التي اتفق عليها البلاغيون والنقاد. وقد ناقش هذا المصطلح كثير من النقاد كالأمدي الذي أكد صحة تسمية ابن المعتز، ورفض تسمية قدامة^(٢) رغم أن العلماء سبقوا قدامة وكفوه المؤونة، لكنه أعرض عنهم وأوجد تسميات أخرى. وقد تبع قدامة أستاذه ثعلباً في تعريف المطابق^(٣). ونرى البلاغيين المتأخرين يطلقون على مثل هذه الأمثلة التي أوردها قدامة طباق السلب، كقوله تعالى: «وترى الناس سكارى وما هم بسكارى»^(٤). ويذكر قدامة أن المحدثين أكثروا منه، «وذلك أنه بطباع أهل التحصيل والروية في الشعر والتطلب لتحسينه أولى منه بطباع القائلين مع الهاجس بحسب ما يسنح من الخاطر مثل الأعراب ومن جرى مجراهم. على أن أولئك بطباعهم قد أتوا بكثير منه). وضرب مثلاً على الطباق من شعر المحدثين قول بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم
 «(فنبه) و(نم) تكافؤ. وله أثر في تجويد الشعر قوي، فإنه لو قال مثلاً:
 (فجرد لها عمراً) لم يكن لهذه اللفظة الموقع مع (نم) ما لـ(نبه)»^(٥). ويفسر د.
 شوقي ضيف تعدد الاصطلاحات بأن «قدامة لم يكن عنده فكرة توحيد
 المصطلح»^(٦). بينما يرى أ. محمد المصري أن «لقدامة الحرية في أن يسمي
 المصطلحات البلاغية بما يشاء»^(٧).

(١) جواهر الألفاظ، ص: ٧.

(٢) الموازنة ١/ ٢٩١- ٢٩٢.

(٣) قواعد الشعر، ص: ٦٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ٢.

(٥) نقد الشعر، ص: ١٤٥- ١٤٦.

(٦) البلاغة: تطور وتاريخ، ص: ٩٠.

(٧) أثر الفكر اليوناني على الناقد الجاحظ وقدامة، ص: ١٢٨.

وذكر قدامة صحة المقابلات ، «وهي أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة ، فيأتي بالموافق بما يوافق ، وفي المخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشرط شروطاً ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين . فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي يشرطه وعده ، وفيما يخالف بأضداد ذلك ، كما قال بعضهم :

فواعجباً كيف اتفقنا فناصحٌ وفيّ ، ومطويّ على الغلّ غادرٌ
فقد أتى بإزاء كل ما وصفه من نفسه بما يضاده على الحقيقة ممن عاتبه ،
حيث قال بإزاء (ناصح) : (مطوي على الغل) ، وإزاء (وفيّ) : (غادر)^(١) .

ونرى أن صحة المقابلات كانت تسمى عند ابن المعتز «الطباقي» ، لكنه لا يذكر المقابلة .

وصحة المقابلات يجب أن تتوافر في الشعر والنثر . لذلك ، نراه يسوق الشواهد النثرية في كتابه (جواهر الألفاظ) ليستشهد على تصحيح المقابلات ، كقوله : «أهل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش ، وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة كمن جمع إلى العجز الخيانة» . وإذا تؤملت هذه المقابلات وجدت في غاية المعادلة ، لأنه جاء بإزاء (الرأي) : (الأفن) ، وإزاء (النصح) : (الغش) ، وفي مقابلة (الكفاية) : (العجز) ، وفي مقابلة (الأمانة) : (الخيانة)^(٢) . ويستمر قدامة في ذكر هذه المحسنات المعنوية التي هي من عناصر ائتلاف اللفظ مع المعنى ، فيذكر المطابق والمجانس ، فيعرف المطابق تعريفاً يكاد ينطبق على ما عرفه أستاذه ثعلب^(٣) ، «ومعناهما أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة» ،

(١) نقد الشعر ، ص : ١٣٣ .

(٢) جواهر الألفاظ ، ص : ٥ .

(٣) قواعد الشعر ، ص : ٣٧ .

ثم يفصل القول ، فالمطابق عنده «هو ما يشترك في لفظة واحدة بعينها» ، وأما المجانس فأن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق ، كما قال النعمان بن بشير لمعاوية بن أبي سفيان :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم^(١)
فقد خص قدامة الجناس بجناس الاشتقاق ، بينما نرى ابن المعتز يعممه في كل كلمتين متجانستين . ونراه يؤكد هذا التعريف في (جواهر الألفاظ) ويأتي بأمثلة نثرية ، منها : (العذر مع التعذر واجب)^(٢) .

وكما تكلم عن صحة المقابلات ، ذكر فسادها ، وجعل ذلك من عيوب المعنى ، «وهو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر إما على جهة الموافقة أو المخالفة ، فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر ولا يوافقه . مثال ذلك قول أبي عدي القرشي :

يا ابن خير الأخيار من عبد شمس أنت زين الدنيا وغيث الجنود
«فليس قوله : (وغيث الجنود) موافقا لقوله : (زين الدنيا) ولا مضاداً ، وذلك عيب»^(٣) ، فعّد قدامة هذا الفساد من عيوب المعنى .

وأشار قدامة إلى صحة التفسير وفساده ، فمن حسن المعنى تفسيره ، ويعبر عنه بقوله : «هو أن يضع الشاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصفه ، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ، ولا يزيد أو ينقص»^(٤) .

ثم أورد في فساد التفسير بيتين أعطى رأيه فيهما . ومن خلال رأي قدامة

(١) نقد الشعر ، ص : ١٦٢ ، ١٦٥ .

(٢) جواهر الألفاظ ، ص : ٤ .

(٣) نقد الشعر ، ص : ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٣٥ .

يتضح لنا أن النوع البلاغي الذي يقصده هو التفسير بعد الإجمال . يقول الشاعر :

فيا أيها الحيران في ظلم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغي من العدى
تعال إليه تلق من نور وجهه ضياءً ، ومن كفيه بحراً من الندى
ووجه العيب فيهما «أن هذا الشاعر - أي الذي سأله عنهما - لما قدم في
البيت الأول الظلم وبغي العدى ، كان الجيد أن يفسر هذين المعنيين في البيت
الثاني بما يليق بهما ، فأتى بإزاء الإظلام بالضياء ، وذلك صواب ، وكان
الواجب أن يأتي بإزاء (بغي العدى) بالنصرة أو بالعصمة أو بالوزر أو بما جانس
ذلك مما يحتمى به الإنسان من أعدائه ، فلم يأت بذلك ، وجعل مكانه ذكر
الندى ، ولو كان ذكر العدم لكان ما أتى به صواباً»^(١) .

ومن المحسنات المعنوية التي تكلم عنها : صحة التقسيم . وتعم هذه
الصحة جميع المعاني الشعرية والنثرية . ففي الشعرية «يبتدىء الشاعر فيضع
أقساماً فيستوفيها ، ولا يغادر قسماً منها ، كقول نصيب :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم : نعم ، وفريق قال : ويحك لا أدري
فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام»^(٢) ،
وساق قدامة بعض الشواهد والأمثلة على ذلك . وهذا يدل على فكره المنطقي
والفلسفي الذي ترك بصماته الواضحة الجليلة في حكمه على الأشعار . وعرف
صحة التقسيم بالنشر كما عرفها بالشعر ، ثم قال بعد ذلك : «فهذه المعاني مما
يحتاج إليه في بلاغة المنطق ، ولا يستغني عن معرفتها شاعر ولا خطيب»^(٣) .
ولو عدنا أدراجنا إلى الوراء حيث بديع ابن المعتز ، نجد البديع خالياً من هذه

(١) نقد الشعر ، ص : ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٣١ .

(٣) جواهر الألفاظ ، ص : ٦ و ٨ .

التأثيرات المنطقية ، وإنما كان عربي الطابع والأسلوب والتعبير .

ومن أنواع نعوت المعاني التي ذكرها قدامة : التتميم^(١) ، ويعرفه بقوله :
«وهو أن يذكر الشاعر المعنى ، فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل
معها جودته شيئاً إلا أتى به . ومثله قول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها صوبُ الريح وديمةُ تهمي
فقوله : (غير مفسدها) إتمام لجودة ما قاله ، لأنه لو لم يقل (غير مفسدها)
لعيب كما عيب ذو الرمة في قوله :

ألا يا اسلمي يا دار مِيَّ على البلى ولازال منهلاً بجرعائك القطر
فإن الذي عابه في هذا القول أن نسب قوله هذا إلى أن فيه فساداً للدار التي
دعا لها ، وهو أن تغرق بكثرة المطر». وقد أثر قدامة تسمية هذا المصطلح
بالتتميم وإن كان من قبله - كالجاحظ مثلاً - قد سماه إصابة المقدار ، وسماه
ابن المعتز «اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه». وقد تأثر البلاغيون والنقاد
بعده بهذا المصطلح ، فوجد أبا هلال العسكري يذكره بقوله : «هو أن توفي
المعنى حظه من الجودة ، وتعطيه نصيبه من الصحة ، ثم لا تغادر معنى يكون
فيه تمامه إلا تورده ، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره ، كقول الله تعالى :
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾^(٢) ، فقوله
تعالى : ﴿ أَلَسَّكُمْ مَّا ﴾ تم المعنى^(٣) . ويسميه ابن رشيق في عمدته التتميم أو
الاحتراس^(٤) . أما ابن سنان الخفاجي ، فسماه التحرز مما يوجب الطعن^(٥) .

(١) نقد الشعر ، ص : ١٣٧ - ١٣٩ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٩٧ .

(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ٣٨٩ - تح . الجاوي ، وأبو الفضل إبراهيم - ط ١ - ١٩٥٤ .

(٤) العمدة ٢/٤١ - تح . بدر الدين النعساني - ط ١ - ١٩٠٧ .

(٥) سر الفصاحة ، ص : ٣٢٢ - تح . عبد المتعال الصعيدي - ط ١ - ١٩٥٣ .

ويسميه صاحب الطراز : الإكمال^(١) .

ولسنا بصدد تطور هذا المصطلح ، ولكن يكاد يتفق معظم البلاغيين والنقاد على أن هذا من نعوت جودة المعنى ، وأنه من المحسنات المعنوية التي تدفع إيهام خلاف المقصود وإن اختلفت التسمية دون اختلاف المضمون^(٢) .

ونراه يذكر من نعوت المعاني كذلك المبالغة ، «وهي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك الغرض الذي قصد ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال أبلغ ما يكون فيما قصده . وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا مادام فينا وتبعه الكرامة حيث مالا
فإكرامهم للجار مادام فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، وإتباعهم إياه الكرامة حيث كان ، من المبالغة في الجميل^(٣) . وقد أورد قدامة أمثلة شعرية ونثرية ليؤيد ما ذهب إليه .

وذكر من نعوت المعاني الغلو . والعلماء والنقاد قسموا المبالغة إلى ثلاثة أقسام :

أولها التبليغ ، وهو أن يكون الأمر المدعى ممكناً عقلاً وعادة .

والإغراق ، وهو أن يكون الأمر المدعى ممكناً عقلاً لا عادة .

والغلو ، وهو أن يكون الأمر المدعى غير ممكن عقلاً وعادة^(٤) .

وقد وجد قدامة الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر ، وهما

(١) الطراز ٣/١٠٨ - القاهرة - ط ١ - ١٩١٤ .

(٢) يراجع : تحرير التحبير ، ص : ٣٥٧ .

(٣) نقد الشعر ، ص : ١٤١ ، وراجع : جواهر الألفاظ ، ص : ٦ .

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص : ٤١٢ وما بعدها ، وتحرير التحبير ، ص : ٣٢١ و٣٢٣ وما بعدها .

«الغلو في المعنى إذا شرع فيه ، والاقتصار على الحد الأوسط فيما يقال منه . . . وإن الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً . ومن أنكروا على الشعراء كأبي نواس قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق فهو مخطيء ، لأنه وغيره ممن ذهب إلى الغلو إنما أراد المبالغة وبلوغ النهاية في النعت ، وقول أبي نواس دليل على عموم المهابة ورسوخها في قلب الشاهد والغائب . وفي قوله : (حتى إنه لتهابك) قوة تكاد تهابك ، وكذا كل غال مفرط في الغلو إذا أتى بما يخرج عن الموجود ، فإنما يذهب فيه إلى تصديره مثلاً . وقد أحسن أبو نواس حيث أتى بما ينبىء عن عظم الشيء الذي وصفه»^(١).

وقد رد على قدامة بعض النقاد القدامى والمحدثين بين مؤيد لرأيه ومعارض^(٢) . وقد ذكر العلماء المبالغة قبل قدامة - كما مر معنا - وكان يسميها ابن المعتز الإفراط في الصفة ، وكذلك ابن قتيبة قبله أطلق عليها ذلك ، والجاحظ ، وذكرها المبرد من خلال حديثه عن التشبيه المفرط ، وتناولها الإمام ثعلب في باب «الإفراط في الإغراق» ، وأورد لها أمثلة كثيرة من أشعار العرب . وأما ابن طباطبا ، فذكرها في حديثه عن الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها ، ورأينا كيف ساق الأمثلة والشواهد الشعرية ليدل على ما ذهب إليه ، ويستحسن هذا الغلو وهو ممن عاصر قدامة . ولكننا نرى قدامة يفرق بين الغلو وبين التناقض والاستحالة وإيقاع الممتنع ، ويجعل ذلك من عيوب المعنى ، ويقف ليرد شبه المعارضين عليه بمواقفه المتناقضة ، لأنه ممن يجذب الغلو ويستحسنه لأنه يجوز أن يقع ، أما الممتنع فلا يجوز أن يقع ، لأن الاستحالة

(١) نقد الشعر ، ص : ٦٤ .

(٢) يراجع : بلاغة أرسطو ، ص : ١٥٩ - ١٦٠ .

والتناقض «هما أن يذكر في الشعر شيء فيجمع بينه وبين المقابل له من جهة واحدة ، والأشياء تتقابل من أربع جهات . . .»^(١) . وشرح هذه الأمور وقسمها تقسيماً منطقياً صارماً ، وأراد أن يخضع الأمور البلاغية لهذا التقسيم متغافلاً عن قضية الطبع التي يفسرها الدكتور طبانة بقوله : « . . . فاختلاف العلماء بموقفهم من المبالغة يعود إلى الطبع ، أي طباع الناس مختلفة في حكمها على الأشياء ، فبعضهم يجنح إلى الإسراف والمغالاة ، وبعضهم يلزم حد الاعتدال»^(٢) . وهذا ما يفسر لنا كذلك مواقف العلماء المتباينة من الغلو الذي يخرج إلى حد الاستحالة ، فقد أسلفنا الذكر عن قدامة وابن طباطبا فكانا يستحسنان ذلك ، ثم جاء الأمدي (ت ٣٧٠ هـ) والرماني (ت ٣٨٤ هـ) والمرزباني (ت ٣٨٤ هـ) - كما سيأتي معنا - واستحسنوا هذا النوع من المبالغة والغلو ، لكن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) كان يقف موقفاً معارضاً ، مما دعا الأستاذ الدكتور حسين أن يرد عليه بقوله : « . . . فابن طباطبا وقدامة والرماني قد أشادوا بالمبالغة ، وخاصة هذا النوع الذي يخرج إلى حيز الاستحالة أو المعدوم - كما ذكرنا - وكتبهم وآراؤهم تشهد بعلو كعبهم في فهم أشعار العرب وتذوق أسرار القرآن . فتجريدهم من هذه الميزة واتهامهم بأنهم لا بصر لهم بصناعة البلاغة أمر فيه كثير من الافتراء والدعوى التي لا تحمل في طياتها الدليل ، بل إننا إذا سلمنا بأن ابن طباطبا وقدامة والرماني لا بصر لهم بصناعة الشعر والبلاغة - كما يزعم القرطاجني - فهل يرضى بالأمدي صاحب الموازنة حكماً في هذا الموضوع وهو المشهود له بطول الباع وقوة الذراع ومضاء القريحة ونفاذ البصيرة في النقد ويعدّ إماماً من أئمة النقاد ؟ . إذا كان يقبله حكماً ، فنحن نقول له إن الأمدي قد ارتضى هذا النوع من المبالغة

(١) نقد الشعر ، ص : ٢٠٤ وما بعدها ، ويراجع دلالة ذلك في : معجم المصطلحات البلاغية . ١١١/١ .

(٢) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، ص : ٢٧٤ .

واستحسنه في الخروج إلى المحال ، يقول : (و قد يبالغ الشاعر في أشياء حتى يخرج منها إلى المحال ، ويخرج بعضها مخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح)^(١) . وسنعرض لهذا الموضوع في الفصل القادم إن شاء الله .

ويبقى لقدامة بن جعفر «اليد الطولى في تحديد أقسام المبالغة ، فقد رأى أن معظم النقاد قد اختلفت آراؤهم حول تحديد مفهوم الغلو في المعنى ، واتصافه بالحسن أو بالقبح . لذلك ، حاول أن يدلي دلوه ويقرر أن الغلو أفضل من التوسط ، وقرر أن الكلام إذا خرج عن الواقع إلى المستحيل صار بمنزلة المثل الذي يضرب للشيء إذا أريد وصفه بغاية العظم أو الحقارة»^(٢) .

وذكر قدامة عكس اللفظ ، وهو ما يسميه البلاغيون المتأخرون العكس والتبديل ، أو المعكوس^(٣) ، أي : عكس ما نظم من بناء ، واستشهد له بقول بعضهم : (أسأل الذي رحمني بك أن يرحمك بي)^(٤) .

ومن المحسنات اللفظية التي ذكرها قدامة : الجناس . وقد مر معنا عندما أطلق عليه اسم المطابق والمجانس ، وذكر أمثلة لجناس الاشتقاق . ثم ذكر المضارعة ، والمضارع نوع من أنواع الجناس ، وذكر له أمثلة استشهد بها ابن سنان في سر الفصاحة^(٥) .

وقد أولى قدامة السجع وأنواعه عنايته ، سواء أكان في الشعر أم في النثر ، وقال : «وهو في النثر مثل القافية في الشعر»^(٦) . وتكلم عن الترصيع ، وهو

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص : ٢٧٨ . وكلام الأمدي في الموازنة ١/ ١٥٥ .

(٢) المرجع ذاته ، ص : ٢٧٧ .

(٣) الإيضاح ، ص : ٣٩٩ ، وتحريير التحبير ، ص : ٣١٨ .

(٤) جواهر الألفاظ ، ص : ٤ ، ويراجع دلالة ذلك في : معجم المصطلحات البلاغية ٣/ ٨٩ .

(٥) سر الفصاحة ، ص : ١٨٧ ، عن : قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، ص : ٣٩٢ . ويراجع

الجناس المضارع في الإيضاح ، ص : ٤٣٥ .

(٦) جواهر الألفاظ ، ص : ٣ .

نوع من أنواع السجع الثلاثة - المطرف ، والترصيع ، والمتوازي^(١) - والترصيع في النثر «أن تكون الألفاظ متساوية البناء ، متفقة الانتهاء ، سليمة من عيب الاشتباه وشين التعسف والاستكراه ، يتوفر في كل جزءين منها متواليين ، أن يكون لهما جزءان متقابلان يوافقانها في الوزن ويتفقان في مقاطع السجع»^(٢) . وساق أمثلة كثيرة ، منها : «حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وصار تمريضك تصريحاً» . هذا في النثر ، وأما في الشعر ، فالترصيع من نعوت الوزن ، «وهو أن يتوخى في الشعر تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف ، كقول امرئ القيس :

مخشٍ ، مجشٍ ، مقبلٍ ، مدبرٍ معاً كتيس طباء الحلب العدوان
فأتى باللفظتين الأوليين مسجوعتين في تصريف واحد ، وبالتاليتين لهما شبيهتين بهما في التصريف . وربما كان السجع ليس في لفظة لفظة ، ولكن في لفظتين لفظتين بالوزن نفسه»^(٣) .

وتكلم قدامة عن المتوازي ، وذلك في كتابه (جواهر الألفاظ) ، لكن لم يشرحه أو يسق له الأمثلة ، وسماه التوازي . ثم ذكر الموازنة ، وسمى المصطلح اعتدال الوزن ، وجعله من حسن البلاغة^(٤) .

وتعرض قدامة للتوشيح ، وجعله من نعوت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، فتعلق القافية بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملائمة لما مر فيه ، حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها ، إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته ، كقول العباس بن مرداس :

(١) الإيضاح ، ص : ٤٤٢ .

(٢) جواهر الألفاظ ، ص : ٤ .

(٣) نقد الشعر ، ص : ٤٠ .

(٤) جواهر الألفاظ ، ص : ٣ .

هم سودوا هجناً وكل قبيلة يبين عن أحسابها من يسودها «فمن تأمل هذا البيت وجد أوله يشهد بقافيته»^(١). وربما أخذه قدامة عن الجاحظ ، فقد ذكره - كما مر معنا - أو عن أستاذه ثعلب الذي ذكر هذا المعنى تحت اسم المحجلة ، ثم أوجد له قدامة هذا المصطلح ، وسار على نهجه أبو هلال في كتاب الصناعتين ، ثم ذكره البلاغيون بالتسليم مرة ، والإرصاد مرة أخرى^(٢).

هذه هي أهم الفنون البلاغية التي تناولها قدامة بن جعفر ، وهذه الأبحاث التي تكلم عنها «لم يتناولها على أنها أبحاث في البلاغة ، وإنما تناولها على أنها شروط تصلُّ بالأسلوب - إذا توافرت فيه - إلى الجودة والكمال»^(٣). وهذا يوصلنا إلى تلمس مواقفه النقدية ومدى صلتها بالبلاغة عنده.

المبحث الثالث : النقد عند قدامة بن جعفر :

إن أبرز القضايا النقدية التي تعرض لها قدامة هي قضية اللفظ والمعنى ، وقضية الطبع والصنعة ، وقضية القدم والحداثة ، وقضية السرقات الشعرية .

تناول قدامة قضية اللفظ والمعنى ، وهما الركبان اللذان ضمهما تعريفه للشعر عندما قال : «الشعر كلام موزون مقفى يدل على معنى»^(٤). فهذه العناصر الأربعة التي يتكون منها الشعر ، وهي : اللفظ ، والوزن ، والقافية ، والمعنى . وقد تأتلف هذه العناصر أو تستقل ، ومن ائتلافها أو استقلالها تكون نعوت الجودة أو نعوت الرداءة ، ومن ائتلاف بعضها مع الآخر تجتمع ثمانية

(١) نقد الشعر ، ص : ١٦٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٥ ، وقواعد الشعر ، ص : ٥٤ - ٥٨ ، وكتاب الصناعتين ، ص :

٣٨٢ ، وتحريم التحجير ، ص : ٢٦٣ ، والإيضاح ، ص : ٣٩٤ .

(٣) الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : ٧٧ .

(٤) نقد الشعر ، ص : ١٦ .

أسباب ، وهي : ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع القافية . فاللفظ والمعنى ركنان أساسان ضمهما تعريفه للشعر .

فاللفظ الحسن «هو أن يكون سمحاً ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، وأن يكون المعنى مواجهاً للغرض المقصود ، غير عادل عن الأمر المطلوب»^(١) .

والوزن الحسن «هو أن يكون سهل العروض ، مرصعاً» .

والقافية الحسنة «هي أن تكون عذبة الحرف ، سلسلة المخرج ، وأن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها»^(٢) .
أي : يكون البيت مصرعاً ، وربما صرعوا أبياتاً آخر من القصيدة ، وبعد قدامة ذلك من اقتدار الشاعر وتمكنه .

وتناول قدامة جودة المعاني من حيث صلتها بأغراض الشعر ، فعدد أغراض الشعر من مديح ، ووصف ، وهجاء ، وثناء ، وقد أدخل التشبيه ضمنها - كما مر آنفاً - ثم ذكر جودتها من حيث التقديم الأمثل لها ، كصحة التفسير والتقسيم . وأغلب ما تكلم عنه قدامة من جودة المعنى هو ما عدّ فيما بعد من المحسنات المعنوية . وقد ساق أحد الكتاب كثيراً من الموازنات بينه وبين أرسطو . ونكتفي بموازنة موقفه من اللفظ . قال قدامة - كما مر سابقاً - «أن يكون اللفظ سمحاً ، سهل مخارج الحروف . . .» ، ويقول أرسطو : «والصفة الجوهرية في لغة القول أن تكون واضحة دون أن تكون مبتذلة ، وتكون واضحة كل الوضوح إذا تألفت من ألفاظ دارجة ، لكنها حينئذ تكون ساقطة . وتكون نبيلة بعيدة عن الابتذال إذا استخدمت ألفاظاً غريبة عن الاستعمال الدارج .

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٨ و ٥٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٥١ .

وأقصد بذلك الكلمات الغريبة والمجاز ، ولا بد من الاعتدال في كل قسم من أقسام القول»^(١).

وقد التقى قدامة مع الجاحظ في فكرته عن المعنى واللفظ بأنه لا عبرة للمعنى ، وإنما العبرة للصياغة. وقد وقف عند هذه الفكرة كثير من النقاد وأبدوا وجهة نظرهم. يقول د. غنيمي هلال : «وإذا كان سبيل الكلام الأدبي سبيل التصوير والصياغة ، فإن قدامة يتلاقى مع الجاحظ في الفكرة نفسها ، وهي أن المعاني مادة الشعر ، والشعر فيها كالصورة ، فلا ينبغي الحكم على الشعر بمادته ، أي : معناه ، وإنما يحكم عليه بصورته. كما لا يعيب النجار في صنعته رداءة الخشب في ذاته»^(٢). فقد حكم قدامة على الشعر بجودة صياغته دون النظر إلى معناه إن كان نبيلاً أو فاحشاً ، وهو مذهب يقوم على فصل الفن عن الأخلاق - أي : نظرية الفن للفن - ويسوق لنا قدامة قول الأصمعي وقد سئل : «من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً»^(٣).

وذكر قدامة أن رداءة اللفظ عندما «يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الأعراب واللغة»^(٤). ووحشياً ، وهو الذي مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيراً بمجانبته له وتنكبه إياه ، فقال : كان لا يتبع حوشي الكلام. وإن كان مجوزاً للأعراب لغلبة البداوة عليهم ، وللحاجة إلى الاستشهاد بشعرهم في الغريب ، لأن الذي يأتي به ليس متطلباً له ، متكلفاً لما يستعمله منه ، ولكن لعادته وسجيته. لكن ، ينعي على أصحاب التكلف الذين يأتون منه بما ينافر

(١) أثر الفكر اليوناني على الناقدين ، ص : ٦٩ ، عن : فن الشعر لأرسطو - ترجمة : أحمد بدوي ، ص : ٦١ - ٦٢.

(٢) النقد الأدبي الحديث ، ص : ٢٥٧.

(٣) نقد الشعر ، ص : ١٧٠.

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٧٢.

الطبع ، وينبو عن السمع .

ومن عيوب اللفظ : المعازلة ، «وهو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به»^(١) . وقد تكلم قدامة عنها عندما ذكر الاستعارة الرديئة . وقد وهم د . غازي يموت فذكر التعطيل بدل مصطلح التفصيل الذي ذكره قدامة . وشرح الدكتور المصطلح بقوله : «يمس الوزن حرية الشاعر في ترتيب الكلام ، ولكن الشاعر الحاذق يأتي بألفاظ ويرتبها بشكل ينسجم مع الوزن ، فإن لم يفلح في ذلك كان التعطيل . وهو عند قدامة : (ألا ينتظم للشاعر نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض فيقدم ويؤخر كما قال دريد بن الصمة :

وبلغ نميراً - إن عرضت - ابن عامرٍ فأبي أخ في النائبات وطالب
ففرق بين نمير بن عامر بقوله : إن عرضت ، أي : فصل^(٢) ، فحرّف
الدكتور يموت (التفصيل) وقال : (التعطيل)^(٣) . وعدت إلى الطبقات المتعددة
لنقد الشعر فلم أجد لفظ (التعطيل) ، ومما لاشك فيه أن الدكتور واهم لأنه
أثبت تعريف قدامة للتفصيل .

ثم تناول قدامة بعد كلامه عن رداءة اللفظ رداءة المعنى وعيوبه ، فذكر
منها : فساد التفسير ، والتناقض ، وإيقاع الممتنع ، ومخالفة العرف ،
والإتيان بما ليس في العادة والطبع ، ونسب الشيء إلى ما ليس منه . ثم تطرق
لعيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وعيوب ائتلاف اللفظ مع الوزن كالحشو
والتثليم والتذنيب والتغيير والتفصيل^(٤) . كما ذكر عيوب ائتلاف الوزن مع

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٧٧ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٢١ .

(٣) نظرية الشعر عند قدامة بن جعفر في نقد الشعر ، ص : ٥١ .

(٤) يراجع : نقد الشعر ، ص : ٢١٨ - ٢٢١ .

المعنى كالمقلوب والمبتور^(١). ثم ذكر عيوب ائتلاف المعنى مع القافية كالتكلف في طلب القافية. ثم تكلم عن عيوب القافية كالتجميع والإقواء والإيطاء والسناد^(٢). كما ذكر عيوب المعاني في الموضوعات الشعرية ، كعيوب الهجاء ، وعيوب المراثي ، وعيوب التشبيه ، وعيوب الوصف ، وعيوب الغزل^(٣).

هذه أبرز قضية عالجهها قدامة في نقد الشعر. وأما قضية القدم والحداثة ، فنستشف من موافقه أنه لا يتعصب للقدمي ، وإنما أكثر من الاستشهاد بشعر المحدثين ، ونراه ينتصر لمذهب البديع ويدافع عن أبي تمام ويؤلف رسالة في الرد على ابن المعتز فيما خطأ به أبا تمام. وهذا يقودنا إلى الحديث عن قضية الطبع والصنعة. والملاحظ على قدامة أنه لم يهتم بها كثيراً وإن وردت في نقده عندما ذكر أن الشعراء القدمي لم يتكلفوا ، ولكن كان عادة وسجية عندهم. أما أصحاب التكلف والصنعة ، فقد جاؤوا بما ينافي الطبع والذوق. لكن قضية الطبع والصنعة ، وقضية القدم والحداثة ، وقضية السرقات الشعرية لم تأخذ حظها الوافر من كتاب نقد الشعر ، مع أن قضية السرقات قد وضجت بها الأوساط الأدبية في عصره ، وألفت فيها كتب كثيرة - كما سنرى في الفصل القادم ونسمع رأي الأمدي وغيره فيها - ورغم أن هذه القضية شغلت الأوساط الأدبية والنقدية في عصره والعصر الذي سبقه ، وتناولها العلماء بالبحث والتنقيب ، فقد ألفت معاصره ابن المعتز «سرقات الشعراء» ، فإن قدامة يشير إليها باقتضاب ويسميها اتباعاً ، فيقول : «قال أعشى باهلة :

بنو تيم قرارة كل لؤم لكل مصب سائلة قرار

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٢.

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٨٥ - ١٨٧.

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧.

وقد تبع أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الأعشى في هذا المعنى فقال :
 أضحوا بمستن سيل اللؤم وارتفعت أموالهم في هضاب المطل والعلل^(١)
 ورأي قدامة في ذلك أن المعاني القبيحة لا يستر قبحها سبق الشاعر إلى
 استخراجها ، وكذلك المعاني الجيدة لا يزيل جودتها تعاور الشعراء إياها .
 يقول قدامة : «وقد شبهوا الدروع بحباب الماء الذي تسوقه الرياح ، فإنه ليس
 يزيل جودة هذا التشبيه تعاور الشعراء إياه قديماً وحديثاً . والذي عندي في هذا
 الباب أن الوصف فيه لاحق بالشاعر المبتدئ بالمعنى الذي لم يسبق إليه ، لا
 إلى الشعراء ، إذ كانت المعاني مما لا يجعل القبيح منها حسناً سبق السابق إلى
 استخراجها ، كما لا يجعل الحسن قبيحاً الغفلة عن الابتداء بها»^(٢) .

وقد عرض قدامة لقضية الصدق الفني عند الشعراء ، فكان يصدر آراءه في
 الشعراء ويحكم للمحسن منهم والمجيد^(٣) ، «وأن المجيد من الشعراء هو
 الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو دائر أنه يجد أو
 وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر ، فمن ذلك قول أبي صخر الهذلي ،
 فإنه يصف ما رأى أن كل متعلق بمودة يجد مثله ، وهو :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
 لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
 فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبغت لا عرف لدي ولا نكر
 و يمنعي من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوماً - وإن كان لها عذر
 مخافةً أني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر

فوصف الشاعر لذلك هو الذي يستجاد ، لا اعتقاده ، إذ كان الشعر إنما

(١) المصدر ذاته ، ص : ٩٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٤٩ .

(٣) يراجع حكمه على شعر الأعشى وكثير في المصدر ذاته ، ص : ٦٩ - ٧٠ .

هو قول ، فإذا أجاد فيه القائل لم يطالب بالاعتقاد ، لأنه قد يجوز أن يكون المحبون معتقدين لأضعاف ما في نفس هذا الشاعر من الوجد ، فحيث لم يذكروه ، وإنما اعتقدوه فقط ، لم يدخلوا في باب من يوصف بالشعر^(١) .

تلك هي أبرز القضايا النقدية التي عالجهها قدامة في (نقد الشعر) الذي يعتبر دعامة من الدعومات التي اعتمدت عليها الدراسات البلاغية والنقدية التي أتت بعده ، إما مؤيدة تنهل من معينه ، أو معارضة تعرض عنه وعن تقسيماته وتفريعاته ، فهو يمثل التيار الشعري الذي يعتمد على الحدود المنطقية ، قد بقي الفكر الفلسفي طاغياً عليه سواء في كتبه المنطقية التي ألفها كالجدل ، وترياق الفكر ، والسياسة ، أو في (نقد الشعر) بعد أن اطلع على كتابي أرسطو الخطابية والشعر ، وأخذ منهما ما يتفق مع المنهاج الذي اختطه لنفسه ليوقف على المقاييس التي يعرف بها جيد الشعر من رديئه^(٢) . لكن ، علينا أمام هذه الآراء ألا نغفل تأثره بأستاذه ثعلب الذي ذكره في كتابه ، فأخذ عنه أغراض الشعر من كتابه (قواعد الشعر) ، ثم أخذ عرضه لموضوعات الشعر ومحاسنه ومعاييه ، وأضاف عليها مسحة من التنظيم والتبويب . ومعلوم أن الإمام ثعلباً شرح ديوان زهير ، كما سمع من أستاذه السكري الذي شرح ديوان امرئ القيس وديوان الهذليين ، فأكثر قدامة من الاستشهاد بأشعار هؤلاء . وقد تساءل كثير من الباحثين عن عدم ذكر قدامة لابن المعتز وإعراضه عن مصطلحاته وجفائه له وتأليفه كتاباً رد فيه على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام ن وذكروا أسباباً كثيرة ، منها أسباب سياسية إذ كان والده جعفر بن قدامة مع ابن المعتز ومن حاشيته وأصدقائه المقربين ، وكان قدامة ضد سلوك أبيه . ومنها أسباب ثقافية حيث يمثل قدامة التيار الفكري اليوناني ، وابن المعتز يمثل التيار العربي

(١) نقد الشعر ، ص : ١٢٦ - ١٢٨ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، ص : ٢٨٦ . ويراجع : تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص : ٢٣٢ ، فقد نفى د . سلام تأثره المباشر بكتاب الشعر لأرسطو .

الأصيل ويعتمد على الذوق لا على الحدود ، ويريد المحافظة على تراثه بعد أن عاش الصراع الفكري في عصره ، «فهو شاعر عاصر جماعة من كبار الشعراء ممن رغبوا عن عمود الشعر وله ديوان شعر... وهو ناقد ألف في طبقات الشعراء المحدثين ، وله رسائل تناول فيها أعلام المذهب الجديد كأبي تمام وموقفه واضح في دفاعه عن القدماء وإرجاع الفضل إليهم»^(١). وكثرت الآراء والأقوال حول هذا الموضوع. ويقف د. أمجد الطرابلسي مفسراً لنا إعراض قدامة عن ابن المعتز وكتابه ومصطلحاته بكونها «لم تجد مكاناً ضمن منهجه المتلاحم ، فأسس صيغاً درسها في إطار تقسيماته ، وهو ما يقفنا على أن المسألة لم تعد قضية أشكال بديعية فقط ، بل غدا الأمر متعلقاً بعلامات الجودة التي تتميز بها مختلف العناصر المكونة للبيت الشعري أو القصيدة ، وهو ما أدى إلى إبعاد كل تشكك في العلاقة الوثيقة التي تشد البديع إلى نقد الشعر... إن البديع نفسه قد اتخذ مظهراً جديداً في كتاب قدامة ، إذ اندمج لأول مرة في العملية النقدية اندماجاً منطقياً ، فلم تعد صيغته تسرد أو تدرس كيفما اتفق على أنها زخارف عادية ، بل قسمت إلى مجموعات تتصل بالوزن ، أو تختص بالمعنى ، أو تدخل في إطار ائتلاف المعنى واللفظ ، أو في إطار ائتلاف المعنى والوزن. وهو منهج يجعل كل مجموعة في مكانها اللائق بها»^(٢). أي أن المصطلحات البلاغية أدت دورها ، وقد سخرها قدامة في نقده للشعر وجعلها معياراً للنقد. وعلينا ألا نغفل - قبل أن نطوي هذه الصفحات - أن ابن المعتز قد سبق قدامة إلى ذكر فنون البلاغة ، واتفق معه في سبعة أنواع ، هي : التشبيه ، والاستعارة ، والطباق ، والتجنيس ، والمبالغة ، والالتفات ، والاعتراض. وانفرد قدامة بذكر فنون أخرى بقي بعض ما اصطلاح عليه منها ، وغير البلاغيون بعض مسمياتها ، وفرعوا منها فروعاً كثيرة. وصح لقدامه

(١) التفكير البلاغي : أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، ص : ٣٧٩.

(٢) نقد الشعر عند العرب ، ص : ٨٨ - ٨٩.

انفراده بثلاثة عشر نوعاً ، هي : «ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن - وقد جعل المتأخرون هذين باباً واحداً وسموه : التهذيب والتأديب . لكن قدامة خص بهما الشعر وحده - وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت - وسماه من بعده : التمكين ، وخص به الشعر وهو لا يخصه - وصحة الأقسام ، وصحة التفسير ، وصحة المقابلات ، والإشارة ، والمساواة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتوشيح ، والإيغال»^(١) . هذا ما ذكره ابن أبي الإصبع في تحريره ، لكن د . مطلوب يذكر أن بعض الباحثين ذكر انفراد قدامة ببعض الفنون ، وأن الشيخ محمد خضر حسين أرجعها إلى أصولها ومصادرها^(٢) . والحقيقة أن الذي ذكر ذلك - كما أسلفنا - هو ابن أبي الإصبع ، وهذه الأنواع البلاغية توزعتها - فيما بعد - كتب البلاغة العربية بفنونها الثلاثة : فن المعاني ، وفن البيان ، وفن البديع .

ولابد لنا من أن نعترف لقدامة بسبقه إلى وضع بعض المصطلحات وتوفيقه بين اللفظ والمعنى ، فهو من القلائل الذين وافقوا بين الشكل والمضمون رغم ما اتهمه بعضهم بأن اختياراته لا تنم عن ذوق عربي أصيل . وقال د . شوقي ضيف فيه : «كان عقله عقل فيلسوف ، ولكن ذوقه لم يكن ذوق أديب»^(٣) . كما أن هناك بوناً شاسعاً بينه وبين معاصره ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) ، «فالأول - يعني قدامة - يريد أن يضع مخططاً منطقياً بقطع النظر عن السعة والشمول وحكم الذوق . والثاني يحاول أن يحد من طغيان الذوق بشيء من القواعد

(١) تحرير التحبير ، ص : ٨٥ - ٨٦ .

(٢) اتجاهات النقد في القرن الرابع ، ص : ٦٧ ، عن الخيال في الشعر العربي للشيخ محمد خضر حسين ، ص : ١٨٨ وما بعدها ، والمصطلح البلاغي وتطوره حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور أحمد طاهر حسنين ، ص : ٣٢١ ، ٣٢٥ ، والأسس الموضوعية لنشأة المصطلح للدكتور عبد الإله النبهان ، ص : ١٧ - ٣٠ .

(٣) النقد ، ص : ٦٩ .

والأسس»^(١) معتمداً على النقد التحليلي . كما وجه إليه أ. سيد محمد عبد الخالق أصابع الاتهام لأنه كان يأتي بالمصطلح فيعرفه ، ثم يسوق الشواهد والأمثلة عليه ، فهو قد عكس القضية ، لأن الأصل - عندهم - أن يسوق له الشواهد والتطبيقات ، ثم يخلص منها إلى وضع المصطلحات والتعريف بها^(٢) . ويلاحظ الملاحظة نفسها أ. إبراهيم سلامة فيقول : «إن المؤلف العلمي هو الذي يستقرىء الشواهد أولاً حتى يكون القاعدة التي تنطبق على شواهد ، وليس من الطريقة العلمية في شيء أن يكون المؤلف القاعدة ، ثم يلتمس لها الشواهد»^(٣) . لكني لا أرى في منهج قدامة هذا الخلل والخطأ ، فهو من باب يأتي إلى المصطلح فيعرفه ثم يسوق له الأمثلة لتوضيحه وإن كان بعض النقاد قد أخذ عليه كثرة التفرعات وعدم إيراد الشواهد الكافية لها ، أو تركها بلا أمثلة توضحها ، أو أخذ عليه التناقض في بعض الأحكام التي أصدرها على الشعراء^(٤) . لكن ، يبقى له دور الريادة والتأصيل لبعض المصطلحات ، وهذا ما اعترف به ابن أبي الإصبع ، إذ قال «جمعت أصول هذا العلم وفروعه ، فالأصول منها ما ابتكر المخترعان الأولان تدوينه ، وهما قدامة بن جعفر الكاتب وابن المعتز»^(٥) ، وما وصفه كل من ابن النديم والحريري والمطرزي شارح مقاماته بأنه علم في البلاغة والفصاحة .

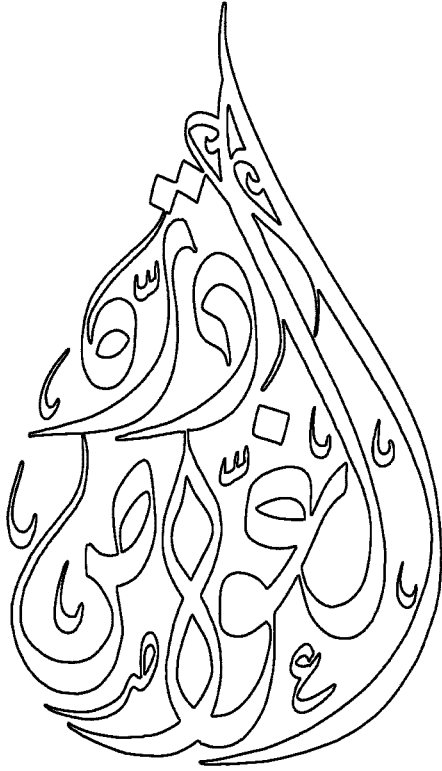
ويبقى كتاب (نقد الشعر) الذي امتزج فيه النقد بفنون البلاغة أنموذجاً حياً لتطور هذه المصطلحات البلاغية وجعلها من معايير النقد عنده .

- (١) تاريخ النقد الأدبي للدكتور إحسان عباس ، ص : ٢٠٦ .
- (٢) تراجع : كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، أ. سيد محمد عبد الخالق ، ص : ٣٢٥ - رسالة ماجستير .
- (٣) بلاغة أرسطو ، ص : ١٦٩ .
- (٤) تراجع حكمه على يزيد بن مالك الغامدي في : نقد الشعر ، ص : ٢١١ .
- (٥) بديع القرآن ، ص : ١٤ .



الفصل الرابع
العلاقة بين البلاغة والنقد
عند الحسن بن بشر الأمدي
(ت ٣٧٠ هـ)

- المبحث الأول : التعريف بالحسن بن بشر الأمدي .
- المبحث الثاني : البلاغة عند الأمدي .
- المبحث الثالث : النقد عند الأمدي .



المبحث الأول : التعريف بالحسن بن بشر الأمدي^(١) :

* نسبه ومكانته :

هو أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي الأصل^(٢) ، البصري المنشأ. قدم بغداد ، واختلف إلى مجالس علمائها ، وأخذ عنهم اللغة والنحو والأدب ، ثم عاد إلى البصرة. قال القفطي : «وولي قضاء البصرة ، وانتهت رئاسة الشعر القديم والأخبار في آخر عمره بالبصرة إليه. كان إماما في الأدب ، وله شعر حسن ، واتساع تام في علم الشعر روايةً ودرايةً وحفظاً ، وصنف كتباً في ذلك حسناً»^(٣). توفي بالبصرة عام ٣٧٠ هـ ، وقيل : عام ٣٧١ هـ. وكان قد تولى الكتابة للكثير من بني هاشم حتى لقب بـ «كاتب بني عبد الواحد الهاشميين».

(١) ترجمته في الفهرست ، ص : ١٧٢ ، ومعجم الأدباء ٢/٤٦٩ - ٤٧٥ ، (دار الكتب العلمية) ، ٨/٧٥ - ٧٦ (دار الفكر) ، وإنباه الرواة ١/٣٢٠ - ٣٢٤ ، وإشارة التعيين ، ص : ٨٧ ، وتاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات : ٣٥١ - ٣٨٠ ، ص : ٤٣٧ ، والوفاي بالفوفيات ، وفيات ٣٧٠ ، والبلغة ، ص : ٨٢ ، وطبقات النحاة لابن قاضي شهبة ١/٢٩٨ (في المخطوط) ، وبغية الوعاة ١/٥٠٠ - ٥٠١ ، وكشف الظنون ٢/١٦٣٧ ، ١٨٨٩ ، ١٩٢٨ ، وإيضاح المكنون ١/٢٢٥ ، وهدية العارفين ١/٢٧١ ، وروضات الجنات ٣/٧٥ - ٧٦ ، وتاريخ بروكلمان ٢/١٧٦ - ١٧٧ ، والأعلام ٢/١٨٥ ، ومعجم المؤلفين ٣/٢٠٩ - ٢١٠ ، وتاريخ التراث العربي م٢/ج ٤/٢١٥ ، ومقدمة الموازنة للسيد أحمد صقر ، والدكتور عبد الله محارب ، وأبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة للدكتور محمد علي أبو حمدة ، ونقد كتاب الموازنة للدكتور محمد رشاد محمد صالح ، وأبو تمام وموازنة الأمدي لمحمد الحسيني ، وأبو تمام وموازنة الأمدي لسوزان بينكي ستكتفتش ، ترجمة أحمد عثمان ، مجلة فصول م٦/ع ٢/س ١٩٨٦ .

(٢) آمد : أعظم مدن ديار بكر ، وأجلها دارا ، وأشهرها ذكرا. ينسب إليها خلق من أهل العلم من كل فن . معجم البلدان ١/٧٦ - ٧٧ (دار الكتب العلمية).

(٣) إنباه الرواة ١/٣٢٠ .

* من شيوخه :

أخذ عن سليمان بن محمد بن موسى النحوي الحامض (ت ٣٠٥ هـ) ،
وأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١ هـ) ، وأبي بكر بن السراج (ت ٣١٦ هـ) ،
والأخفش الأصغر (ت ٣١٥ هـ) ، وأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد
(ت ٣٢١ هـ) ، وأبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفظويه)
(ت ٣٢٣ هـ).

* من تلاميذه :

أخذ عنه القاضي أبو علي المُحَسِّن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤ هـ)^(١) ،
وأبو الحسين علي بن دينار الكاتب (ت ٤٠٩ هـ) ، وأبو القاسم عبد الصمد بن
أحمد بن حنيش (ت ٤١٠ هـ) ، وعبد الكريم بن الحسن النحوي .

* مؤلفاته :

ترك الأمدي الكثير من المؤلفات ، طبع بعضها ، وما زال بعضها الآخر
مخطوطاً أو في حكم المفقود .
ومن آثاره المطبوعة :

- الموازنة بين الطائيين^(٢) ، وهو الكتاب الذي سنعمل عليه في دراستنا له .
لكن ، لا بد من التنبيه على أمر يتصل بظهور هذا الكتاب ونشره ، فقد حقق
السيد أحمد صقر كتاب (الموازنة) في جزئين ، وبقي العلماء والنقاد والقراء

(١) صرح التنوخي بسماعه من الأمدي في روايات أوردها ياقوت في معجم الأدباء ٤٧١/٢ ،
٤٧٥ ، ٤٧٧ (دار الكتب العلمية) .

(٢) طبعت الموازنة عدة طبعات ، منها : طبعة الجوائب في الأستانة ، وطبعة محمد محيي الدين
عبد الحميد ، وطبعة بتحقيق د. عبد الستار فراج (دار إحياء الكتب العربية/ ١٩٦١) ، وطبعة
بتحقيق السيد أحمد صقر (١ ، ٢) دار المعارف ١٩٦١ - ١٩٦٦ ، وأكمل الجزء الثالث
تلميذه د. عبد الله حمد محارب - دراسة وتحقيفاً - ونشره بقسميه في مكتبة الخانجي/ ١٩٩٠ م ،
م ، ووضع فهرس الأجزاء الثلاثة .

يدرسون الجزئين ويصدرون أحكامهم البلاغية والنقدية واللغوية على (الموازنة) من خلالهما إلى أن قيض الله تعالى طالبا من طلاب السيد أحمد صقر - رحمه الله - وقام بدراسة القسم الثالث ، فأغنى المكتبة العربية ، وأثرى الدراسات المعمقة حول (الموازنة) ، فجزاه الله خيراً ، لكنه ذكر أن الكتاب ما يزال ناقصاً ، لأن الأمدي كان قد ذكر بعض الأبواب التي سيختم بها (الموازنة) ولم ترد بالنسخ الخطية المتوافرة . وأرجو من الله تعالى أن يعثر الباحثون على تنمة الكتاب حتى تظهر الدراسات المكتملة حول (الموازنة).

- المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء^(١) .

وله كتب كثيرة في الأدب والنقد ذكرها الرواة ، منها :

- إصلاح ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ^(٢) .

- تبين غلط قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) . وقد ألفه لأبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد ، وذكره أكثر من مرة في الموازنة . يقول الأمدي عن المعازلة عند قدامة : «وقد ذكرت ذلك في كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه»^(٣) . كما ذكره ونسبه له ابن أبي الإصبع^(٤) صاحب (تحرير التحبير) .

(١) نشره كرنكو مع معجم الشعراء للمرزباني في القاهرة/١٣٥٤ هـ ، ثم حققه د . عبد الستار فراج/البابي الحلبي/ القاهرة/١٩٦١ .

(٢) وقد وهم الخونساري عندما ذكر ابن طباطبا ونسب (عيار الشعر) إلى أبي المعز ، وقال : هو يحيى بن محمد ابن طباطبا العلوي النحوي المتكلم مع ابن برهان المتقدم ذكره في هذا العلم . وكان من تلاميذ الربيعي والثمانيني روضات الجنات ٣/٧٥ - ٧٦ . وهذا وهم ، فهناك أكثر من علم يحمل هذا اللقب . انظر الفهرست ، ص : ١٧٢ ، ومعجم الأدباء ٢/٤٧٢ ، وبحثنا في هذه الرسالة عن ابن طباطبا .

(٣) الموازنة ١/٩٤ ، ونسبه له معجم الأدباء ٢/٤٧٥ ، والبغية ١/٥٠١ .

(٤) تحرير التحبير ، ص : ٨٨ .

- تفضيل امرئ القيس على الشعراء الجاهليين^(١) .
- الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام^(٢) ، شرح حماسة أبي تمام^(٣) .
- الفرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر ، أو فرقاً ما بين الخاص والمشارك . قال فيه ياقوت : «تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعاني التي تشترك العرب فيها ولا ينسبها مستعملها إلى السرقة - وإن كان قد سبق إليها - وبين الخاص الذي ابتدعه الشعراء وتفرّدوا به ومن اتبعهم ، ومن قصر في إيضاح ذلك وتحقيقه»^(٤) .
- فعلتُ وأفعلتُ . قال ياقوت : «لم يصنف مثله» ، وقال عنه الذهبي : «كتاب نفيس في معناه»^(٥) .
- كتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما^(٦) .
- معاني شعر البحري^(٧) .
- نثر المنظوم^(٨) .
- وله ديوان شعر نحو مائة ورقة^(٩) .

المبحث الثاني : البلاغة عند الأمدي :

درجنا في دراستنا السابقة على استخلاص بعض الفنون البلاغية ، ثم ذكر

- (١) ذكره له : معجم الأدباء ٢/٤٧٥ ، والبغية ١/٥٠١ .
- (٢) ذكره له معجم الأدباء ٢/٤٧٥ .
- (٣) ذكره له الفهرست ، ص : ١٧٢ .
- (٤) معجم الأدباء ٢/٤٧٦ ، وذكره أيضاً البغية ١/٥٠١ .
- (٥) معجم الأدباء ٢/٤٧٥ ، وتاريخ الإسلام ، وفيات ٣٧٠ ، ص : ٤٣٧ .
- (٦) البغية ١/٥٠١ .
- (٧) الفهرست ، ص : ١٧٢ ، والبغية ١/٥٠١ .
- (٨) معجم الأدباء ٢/٤٧٤ ، والبغية ١/٥٠١ ، وكشف الظنون ٢/١٩٢٨ .
- (٩) تاريخ الإسلام ، وفيات ٣٧٠ ، ص : ٤٣٧ ، والبغية ١/٥٠١ .

ما جاء به في باب النقد. وإن هذا المنهج ليعسر علينا - ونحن مع الأمدي في (الموازنة) - لشدة اللحمة بين البلاغة والنقد ، حيث سخر الأمدي في موازنته البلاغة تسخيراً شديداً للنقد ، واستعان بها في نقده وموازنته بين الشاعرين .

ذكر الأمدي في بداية (الموازنة) أنه ألف الكتاب لواحد من علية القوم ، حيث طلب إليه أن يضع كتاباً يوازن بين شعر أبي تمام والبحثري ، فأجابه إلى ذلك ، وسأل الله تعالى أن يجنبه الهوى ، ويهب له السلامة .

ولم يصدر الأمدي الأحكام الصريحة ، وإنما ترك للقارئ أن يصدر الحكم النهائي^(١) .

وذكر في بداية كتابه هذا أن العلماء والنقاد فريقان :

- الأول ممن يؤثرون الطبع والسجية ، فهم لا يتكلفون في صناعة الشعر ، وهم الذين أيدوا مذهب البحثري .

- والضرب الثاني ممن يؤثرون الصنعة ، ومذهبهم مذهب المتكلفين الذين يغوصون على المعاني ويغربون فيها ، وأشعارهم تحتاج إلى الشرح ، فهم يفضلون أبا تمام ومذهبه .

وذهب كل فريق من هؤلاء يدلي بدلوه ويدلل على صحة ما ذهب إليه ليؤيد أحد الفريقين . وكان لابد للأمدي من أن يأتي بالأدلة والتفصيلات التي تشمل الألفاظ والمعاني والتراكيب . ومن هنا ، كان يتكئ على بعض الفنون البلاغية ، ومن أجاد فيها ومن قصر . فنراه يعرف البلاغة تعريفاً قريباً لما عرفه السابقون ، فيقول : «البلاغة إنما هي إصابة المعنى ، وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف ، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة ، ولا تنقص نقصاناً يقف دون الغاية ، وذلك كما قال البحثري :

(١) الموازنة ١/٤٢٤ .

والشعرُ لمْحٌ تكفي إشارته وليس بالهذرٍ طوّلتْ خُطْبُهُ
فإن اتفق - مع هذا - معنى لطيف ، أو حكمة غريبة ، أو أدب حسن ، فذاك
زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما
سواه^(١) ، لأن الشعر ، كما يقول ، أجوده أبلغه ، وإذا جاء لطيف المعاني في
غير بلاغة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن ، كان ذلك مثل الطراز الجيد على
الثوب الخلق ، أو نقش العبير على خد الجارية القبيحة الوجه^(٢) .

ويقرر الأمدي أن الشعر صناعة . وينقل لنا قول شيوخ العلم بالشعر ،
فيقول : «زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا توجد
وتستحكم إلا بأربعة أشياء ، وهي جودة الآلة ، وإصابة الغرض المقصود ،
وصحة التأليف ، والانتهاء إلى إتمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة
عليها . . . فإن اتفق لك صانع بعد هذه الدعائم الأربع أن يحدث في صنعته
معنى لطيفاً مستغرباً من حيث لا يخرج عن الغرض ، فذلك زائد في حسن
صنعته وجودتها ، وإلا ، فالصنعة قائمة بنفسها ، مستغنية عما سواها»^(٣) .

وقد ذكر لنا بعض الأنواع البلاغية ، فتحدث عن فضيلة الإيجاز كما ذكرها
العلماء قبله ، سواء في الشعر أو في النثر ، فتكلم عن الحذف والاختصار
فقال : «والحذف - لعمرى - كثير في كلام العرب إذا كان المحذوف مما تدل
عليه جملة الكلام . ومن باب الحذف والاختصار قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ
أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾^(٤) ، قال أبو عبيدة : والعرب تختصر
الكلام لعلم المخاطب بما أريد ، كأنه أراد : فيقال لهم : ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ

(١) الموازنة ١/ ٤٢٤ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٤٢٥ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٦ .

إِيْمَانِكُمْ». وضرب أمثلة كثيرة ، ثم قال : «وفي الشعر مثل هذا موجود» ، قال الشاعر :

لو قلت : ما في قومها لم تيشم يفضلها في حسب وميسم
يريد : «أحد يفضلها» ، فحذف «أحد» لأن الكلام يدل عليه ، لأن الآمدي
يقر أن البلاغة الإيجاز ، فكان يفضل الإيجاز حتى إنه فضل قطرياً لأنه اختصر
معنيين في نصف بيت ، يقول عن أبي تمام : «أخذ معنى البيت من قطري بن
الفعاءة وعكسه ، وكلا المعنيين جيد ، وبيت قطري أبرع وأجود لأنه قابل بين
المعنيين في نصف بيت»^(١) .

كما كان يدعو إلى أن يفصل القول على قدر المعنى ، فلا يستعمل منه إلا
بمقدار الحاجة إليه ، فيقول : «... وإن كان (الكلام) صدقا وأوقع موقع
الانتفاع به ، وتكلم به في حينه ، وأحسن تأليفه ، ثم استعمل منه فوق
الحاجة ، خرج إلى الهذر ، أو نقص عن التمام صار مبتوراً ، وسقط منه فضل
الخلال كلها»^(٢) .

ومن فنون البيان التي ذكرها : التشبيه ، فتحدث عن التشبيه البليغ ،
والتشبيه المقلوب ، والتشبيه التمثيلي ، لكنه لم يفرد للتشبيه باباً وإن كانت هذه
الفنون مبثوثة في موازنته ، يتكئ عليها ويجعلها - كما قلنا - مقياساً من مقاييس
نقده . ونراه يتحدث عن التشبيه عند الشعاعين (أبي تمام والبحتري) . ومن هنا ،
نستشف حكمه على التشبيه كما في قوله عن تشبيه أبي تمام جود الجواد بالبحر :
هو البحر من أي النواحي أتته فلجته المعروف والجود ساحله
وهو معنى في غاية الجودة والصحة ، وإنما حذاه على قول مسلم^(٣) :

(١) الموازنة ٣ / ٣١٣ .

(٢) المصدر ذاته ١ / ٤٢٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٧٦ .

هو البحر يغشى سرّة الأرض فيضُهُ وتدرّك أطرافَ البلاد سواحلُهُ
فهو لا يكتفي بالحكم على تشبيهات الشعارين ، وإنما يوازن مع شعر
غيرهما من الشعراء ، ومن أجاد منهم ، ومن قصر ، ومن أخذ. يقول
الأمدي : «وقد تقدم الناس في هذا وأكثروا ، وكل هذا إفراط حسن مُستحلى
لا ينفر معه الطبع ، ولكن الرديء المطروح المرذول عند أهل العلم بصناعة
الشعر ما أنشده المبرد لبعضهم ، وساق أبياتا ، منها^(١) :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البر أندى من البحر
يقول الأمدي : «فليس كل شيء يشبه بشيء يقع التشبيه فيه من جميع
الجهات حتى لا يغادر منها شيئاً قد تكون إنما شبه به ببعض ما فيه ، لا بكله .
وهذا وجه الشبه الذي يقوم عليه الربط بين المشبه والمشبه به ، وهو ما اتفق
عليه البلاغيون ، وكرروا ما قاله هو وغيره من المتقدمين»^(٢) .

وذكر الأمدي بعض أنواع التشبيه ، ونراه أحيانا يذكر المشبه والمشبه به
(أي : التشبيه البليغ) ، يقول - مثلاً - : هذا تشبيه بالسحاب :
جرى حاتم في حلبة منه لو جرى بها القطر شأوا قيل أيهما القطر
كما ذكر التشبيه المقلوب ، فقال عن بيتين لأبي تمام :

إذا وعد انهلت يدها فأهدتني لك النجح محمولاً على كاهل الوعد
دلوحان تفتن المكارم عنهما كما الغيث مفتر عن البرق والرعد^(٣)

(١) المصدر ذاته ١٧٩/٣ .

(٢) اتجاهات النقد في القرن الرابع : د. أحمد مطلوب ، ص : ٢٣٢ .

(٣) دلوحان : من السحاب الدوالح ، وهي المثقلة بالماء . وتفتن المكارم : تبدو وتظهر ، كما
الغيث مفتر عن البرق . والرعد : أقام راحتيه مقام البرق والرعد ، وأن الغيث يفتر عنهما .
الموازنة ١٦٩/٣ .

«هذا على ظاهر لفظ أبي تمام ، وهو عندي من المقلوب لأن حقيقة الافترار الانكشاف ، ومنه قولهم : فررت الدابة : أي كشفت جفلته لأنظر إلى سنه . وهو عندي من المقلوب الحسن السائع الجائز مثله للمتأخرين ، لأن اليمين إذا انفتحتا وانكشفتا عن المكارم ، فإن المكارم أيضا قد انكشفت ، وكذلك البرق والرعد إذا انفتحا وانكشفا عن الغيث ، فإن الغيث قد انكشف واتضح»^(١).

ويرى د . مطلوب «أن الأمدي مرتبط في هذا الفن من فنون البلاغة بعمود الشعر العربي ، وبطريقة العرب في التشبيه ، ولا يرى الخروج عليها لأنه قد يفضي إلى فساد المعنى»^(٢).

و يقرر الأمدي أن المقلوب «في كلامهم شائع مستفيض»^(٣) ، وذلك في نقده لشعر أبي تمام ، وأن أبا تمام كان يضع المشبه به مكان المشبه ، من ذلك قوله :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانسُ قنا الخط ، إلا أن تلك ذوابل
وعلق عليه بقوله : «وقوله : (مها الوحش) ، أراد : كمها الوحش ، إلا أن هاتا أوانس ، فوضع المشبه به في مكان المشبه ، وهذا في كلامهم شائع مستفيض»^(٤) ويعلق على أبيات للبحتري بقوله : «... فهذه هي الطريقة العربية ، والبلاغة المتقنة»^(٥).

وكان الأمدي يطلق مصطلح التمثيل على التشبيه أحيانا ، ويطلق ذلك على

(١) المصدر ذاته ١٦٩/٣ - ١٧٠ .

(٢) اتجاهات النقد في القرن الرابع ، ص : ٢٣٢ .

(٣) الموازنة ١/١٥٨ .

(٤) المصدر ذاته ١/١٥٨ .

(٥) المصدر ذاته ٣/٣٥١ .

التشبيه التمثيلي أحيانا أخرى ، فيقول في بيت لأبي تمام يذكر الخيل :
يحملن كل مدجج سمر القنا بإهابه أولى من السربال
خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال
«... مثله بمثال في غاية الحلاوة والحسن على ظاهره ، وهو قوله :
(كالحسن شيب لمغرم بدلال) ، فجعل الحسن بإزاء الحياء ، لأن الحياء
يعصف الوجه الجميل فيزيده حسنا ، وجعل الدلال بإزاء الشجاعة . ولو قال :
(كالحسن شيب لمغرم بقسوة) حتى تكون القسوة بإزاء الشجاعة... كان
أكشف للمعنى ، ولكن لفظة (الدلال) مع (الحسن) أليق شيء بشيء ، على أن
المدل يقسو ويسطو ويتعدى ويظلم ، فلا أرى شيئا أحسن من الدلال في هذا
الموضع»^(١).

ونراه يسوق التشبيهات الكثيرة دون ذكر أنواعها ومصطلحاتها . ومن
الأمثلة التي عرضها : قول الشاعر محمد بن عبد الملك الهاشمي الحلبي :
وعلي سابعة كأن قتيرها سلخ كسانيه الشجاع الأرقم
«شبه الدرع بجلد حية ، وهذا أحسن تشبيه وأصح وألطفه في أبرع لفظ
وأجود سبك»^(٢).

وقول البحري :

كوعول الهضاب رُحْن وما يمـ لـيكنَ إلا صمّ الرماح قرونا
«من أحسن تشبيه وألطفه . شبه الخيل بوعول الهضاب لأنه قطع بها جبال
الروم ، وجعل قرونها الرماح»^(٣) ، فكان يطلق الصفات على التشبيه الذي
يروق له ، كاللطف والصحة والدقة والحسن والجودة ، فيقول : «هذا تشبيه

(١) الموازنة ٣/٣١٣ ، ٣١٥ .

(٢) المصدر ذاته ٣/٣٣٢ .

(٣) المصدر ذاته ٣/٣٤٣ .

حسن... وهذا تشبيه لطيف... وهذا تشبيه حسن غريب... وأحسن وأجاد... وأحسن من هذا قول فلان... أو يقول: وأجود منه وأغرب قول فلان... أو يقول: وهذا يفوق كل حسن وصحة^(١)، وغير هذا من الصفات التي يطلقها على التشبيه الذي ساقه في مختلف الموضوعات.

وقد تناول الأمدى المجاز وبعض علاقته، وساق بعض الأمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف مدلا على ما يقول، ونراه يقرر أن بعض الأمثلة القرآنية فيها مجاز، وإن كان في غيرها يطلق عليه الاستعارة، كما قال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَشْتَعَلُ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾^(٢)، و﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾^(٣)، و﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٤): «فهذه من الاستعارة التي هي مجاز في القرآن»^(٥).

وذكر بعض علاقات المجاز وإن لم يسم المصطلحات، فذكر قولاً للبحري:

ضحكات في إثرهن العطايا وبروق السحاب قبل رعوده
«فإنه أقام الرعد مقام الغيث، لأنه مقدمة له، وعلم من أعلامه، ودليل من أقوى دلائله ألا ترى أن برق الخلب لا رعد معه، فإذا كان البرق ذا رعد فقلما يخلف، ومثل هذا في كلام العرب - عما ينوب فيه الشيء عن الشيء إذا كان متصلاً به أو سبباً من أسبابه أو مجاوراً له - كثير، فمن ذلك قولهم للمطر: سماء، وقولهم: «ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم». قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قومٍ رعيناها وإن كانوا غضابا

(١) انظر المصدر ذاته ٣/٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢...

(٢) سورة مريم، الآية: ٤.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

(٥) الموازنة ١/١٤.

أراد : إذا سقط المطر رعيناه ، أي : رعيننا النبات الذي يكون عنده ، ولهذا سموا النبات ندى ، لأنه عن الندى يكون»^(١) .

وكان الأمدي يقرر أنه لا مجاز من غير حقيقة ، وأن له صوراً معروفة ، وألفاظاً مألوفة لا يجوز الخروج عليها ، وساق أمثلة كثيرة على المجاز . قال في بيت لأبي تمام :

بيوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدني من هذا وهذا أطول
«فجعل للدهر - وهو الزمان - عرضاً وذلك محض المحال ، وعلى أنه ما كانت له إليه حاجة لأنه قد استوفى المعنى بقوله : كطول الدهر ، فأتى على العرض في المبالغة . فإن قيل : فلم لا يكون سعة ومجازاً؟ قيل : هذه الألفاظ صيغتها صيغة الحقائق وهي بعيدة من المجاز لأن المجاز في هذا له صورة معروفة . . . لا يتجاوز في النطق بها إلى ما سواها»^(٢) .

ونراه يعرض لأسلوب أطلق عليه فيما بعد المجاز العقلي كإطلاق اسم الفاعل وإرادة اسم المفعول وبالعكس ، وهو موجود في كلام الله كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٦١﴾ ﴾^(٣) بمعنى : مرضية . وقول أبي تمام :

فأفزع إلى ذخر الشؤون وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد
بمعنى : جهد المجهود . وقول الخنساء^(٤) :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

(١) المصدر ذاته ١/ ٣٥ - ٣٦ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ١٩٧ .

(٣) سورة الفارعة ، الآيتان : ٦ - ٧ .

(٤) الموازنة ١/ ١٧٣ .

فجعلت الناقاة هي الإقبال والإدبار لأن ذلك كثر منها ، فهذه طريقة الوصف بالمصادر^(١) ، فنراه يعبر بالمصدر عن اسم الفاعل .

ونراه يقف عند الاستعارة لينقد بعض ما فيها من قبح كما فعل في الاستعارات التي رآها قبيحة عند أبي تمام . ويقرر الآمدي أن اللفظ المستعار عليه أن يناسب الشيء الذي استعير له ، «وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعير له وملائمة لمعناه»^(٢) . ونلاحظ من هذا التعريف أن العلماء والنقاد قد سبقوه إليه كابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وغيرهم . وساق الآمدي الأمثلة المناسبة من شعر امرئ القيس وزهير وطفيل ، فيقول في بيت امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

«وقد عاب امرأ القيس بهذا البيت من لم يعرف موضوعات المعاني والاستعارات والمجازات ، وهو في غاية الحسن والجودة والصحة ، لأنه قصد وصف أحوال الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه وثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويتربص تصرّمه . فلما جعل له وسطا يمتد وأعجازا مرادفة للوسط وصدراً متثاقلاً ، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطياً من أجل امتداده ، لأن (تمطى) و(تمدد) بمنزلة واحدة ، وصلح أن يستعير اسم (الكلكل) من أجل نهوضه ، وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لشدة ملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له»^(٣) .

(١) المصدر ذاته ١/ ١٧٣ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٦٦ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

«فلاستعارة لا تكون إلا بهذه القيود ، أما أن نستعير اللفظ لغيره كيفما يحلو لنا ونخرج به عن الحدود المرسومة والقيود الموضوعية ، فيهيئنا للوقوع في الخطأ والفساد . فلاستعارة الحسنة هي التي تقوى فيها الرابطة بين اللفظ المستعار والمعنى الذي أعيرت له»^(١) . يقول الآمدي : «وعلى هذا جاءت الاستعارات في كتاب الله تعالى ، نحو قوله عز وجل : (و اشتعل الرأس شيبا) لما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئا فشيئا حتى يحيله إلى غير حاله الأولى ، كالنار التي تشتعل في الجسم من الأجسام فتحيله إلى النقصان والاحتراق . ونحو ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع
«لما كانت المنية - إذا نزلت بالإنسان وخالطته - صلح أن يقال : نشبت فيه ، وحسن أن يستعار لها اسم الأظفار ، لأن النشوب قد يكون بالظفر»^(٢) .
وقال في بيت طفيل الغنوي :

وجعلت كوري فوق ناجية يقات شحم سنامها الرّحلُ
«لما كان شحم السنام من الأشياء التي تقات ، وكان الرّحل أبدا يتخونه ويتنقص منه ويذيبه ، كان جعله إياه قوتاً للرّحل من أحسن الاستعارات وأليقها بالمعنى»^(٣) .

وبعد إيراد الشواهد على الاستعارات الحسنة ، يقول الآمدي : «فهذا مجرى الاستعارات في كلام العرب» ، ويبدأ فينتقد بعض استعارات أبي تمام فيقول : «وأما قول أبي تمام : (ولين أخادع الدهر الأبوي) فأبي حاجة دعتة إلى الأخادع حتى يستعيرها للدهر وقد كان يمكنه أن يقول : (ولين معاطف الدهر

(١) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الموازنة ١/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

الأبي) ، أو (لين جوانب الدهر) ، أو (خلائق الدهر) . . . فإن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضع ، وكانت تنوب عن المعنى الذي قصده ، ويتخلص من قبح (الأخادع) ، فإن في الكلام متسعا . فأنت تراه كيف يخلط الحسن بالقبيح ، والجيد بالرديء ، وإنما قَبِّحَ (الأخدع) لما جاء به مستعارا للدهر ، ولو جاء في غير هذا الموضع أو أتى به حقيقة ووصفه في موضعه لما قَبِّحَ ، نحو قول البحترى : (وأعتقت من ذل المطامع أخدعي) ، فزاه يستشهد على عدم استعمال أبي تمام للفظه في موضعها على عكس الشاعر البحترى في استعمال الكلمة في موضعها^(١) .

ويعزو الأمدى قبيح استعارات أبي تمام في أغلبها إلى حبه في الإبداع والإغراب ، فكان يحكم عليها بالرداءة والفساد ، ويسوق أمثلة كثيرة ، منها قول أبي تمام :

لم تسق بعد الهوى ماءً أقل قذى من ماء قافية يسقيكه فهمُ
«فجعل للقافية ماء على الاستعارة . فلو أراد الرونق لصلح ، ولكنه قال :
(يسقيكه) ، ففسد معنى الرونق ، لأنك إذا قلت : (هذا ثوب له ماء) ، أو (لفظ له ماء) ، لم تجعل الماء مشروبا على الاستعارة ، فتقول : (ما شربت ماء أعذب من ماء ثوب شربته عند فلان ، ورأيته عند فلان) . وكذلك لا تقول : (ما شربت ماء أعذب من ماء قفا نبك) ، أو (أعذب من ماء قفيدة كذا) ، لأن للاستعارة حداً تصلح فيه ، فإذا تجاوزته فسدت وقبحت^(٢) . وأحيانا ، نراه بعد عرضه للاستعارات يقول : «وهذه الاستعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد عن الصواب»^(٣) . ويقول في بيت آخر لأبي تمام :

(١) المصدر ذاته ٢٧٠ / ١ - ٢٧١ .

(٢) يراجع : الموازنة ٢٧٥ / ١ - ٢٨٠ .

(٣) المصدر ذاته ٢٦٥ / ١ .

علماً أن سيرفل في المعالي إذا ما بات يرفل في الحديد
«قوله: (يرفل في المعالي) استعارة قبيحة ، لأنه يحط المعاني حتى
يجرها إلى الأرض فتصير حينئذ غير معالٍ ، ولو استوى له أن يقول : (يرفل في
السؤدد) ، أو (في المجد) كان أقل قبحا»^(١).

وكان يحكم على بعض الاستعارات بإغرابها وبعدها عن المعقول ، فيقول
في بيت الشاعر :

جارى إليه البين وصل خريدة ما شت إليه المطل مشي الأكبد
«فيا معشر الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية ، خبرونا كيف يجاري
البين وصلها ، وكيف تماشي هي مظلها؟! ألا تسمعون؟! ألا
تضحكون؟!»^(٢).

يقول الأمدي : «وإنما رأى أبو تمام أشياء سيرة من بعيد الاستعارات
متفرقة في أشعار القدماء - كما عرفتك - لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة ،
فاحتذاها وأحب الإبداع والإغراب بإيراد أمثالها ، فاحتطب واستكثر منها»^(٣).

ونراه مرات أخرى يعبر بقوله : «وهذا عين الباب كله في الرداءة
والسخف». ويشير إلى استعارة لأبي تمام ويقول : «استعارة ما وراء قبجها
غاية»^(٤). وبين د. شوقي ضيف أن سبب قبجها عنده يرجع إلى كثرة ما يُجرى
فيها من تشخيص ، إذ يكثر من الاستعارات الممكنية ويغرب فيها إغراباً لم يعرف
لشاعر من قبله. ولعل ابن المعتز أول من وجه أنظار نقاد أبي تمام إلى هذا
الجانب في شعره. ونبه د. ضيف إلى تعليل الأمدي لموقف النقاد منه بأن

(١) المصدر ذاته ٣/٣١٨.

(٢) المصدر ذاته ١/٢٨٠.

(٣) الموازنة ١/٢٧٢.

(٤) المصدر ذاته ٣/٢٢٥.

العرب إنما استعارت المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه ويدانيه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو يكون سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه^(١) . إلا أن د. ضيف خالفه وخطأه في هذه القاعدة التي وضعها للاستعارة ، ذلك أنه أدخل في حيزها ما سماه العرب بالاستعارة الممكنية . واستدرك عليه بأن أبا تمام صاحب مذهب جديد ، وأن من حقه أن يخرج على التقاليد السابقة في الاستعارة . وإذا كان القدماء لم يكثروا من التشخيص ، فمن حقه أن يكثر منه كما تشاء له ملكته التصويرية ، وليس من حق النقاد أمثال الآمدي وابن المعتز أن يأخذوا على يده ، وما دامت المسألة مسألة مذهب ، فقد كان يحسن بالآمدي وأمثاله من النقاد المحافظين أن يخضعوا لهذا المذهب الجديد^(٢) .

ولكن د. محمد علي أبو حمدة يدعي «أن الآمدي لم يستطع أن يتابع أبا تمام في أوجه الشبه والصلات التي يقصدها بين الأشياء في استعاراته ، فطفق ينحو عليه باللائمة لخروجه عن الصلات الواضحة القريبة . ولذلك ، نقول : إن مقاييس الآمدي النقدية قد قصرت عن تفهم استعارات أبي تمام»^(٣) .

وكما ضرب الآمدي الأمثلة لقبيح الاستعارة ، يسوق لنا الأمثلة للاستعارة الجيدة الصالحة متكنا على أمثلة شعرية لأبي تمام ليفهم المخاطب معنى الاستعارة وحدودها ، يقول : «أما قولهم : فلان حلو الكلام ، وعذب المنطق ، أو كأن ألفاظه فئات السكر ، فهذا كلام الناس على هذه السياقة ، وليس يريدون حلاوة اللسان ، ولا عذوبة في الفم ، وإنما يريدون : عذبا في النفوس ، وحلوا في القلوب كما قال أبو تمام :

(١) المصدر ذاته ٢٦٦/١ .

(٢) الفن ومذاهبه ، ص : ٢٣٥ - ٢٣٧ ، والبلاغة : تطور وتاريخ ص : ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) أبو القاسم الآمدي وكتابه الموازنة ، ص : ٩٧ - ٩٨ .

يستنبط الروح اللطيف نسيئها أرجأ ، وتؤكل بالضمير وتُشرب^(١)

وكما ذكر الاستعارة ، ذكر الكناية ، ولكن لم يذكر أنواعها وتفريعاتها ومصطلحاتها . يقول في بيت الأغلب :

لاهُمَ إن عامرَ بن جَهْمٍ أوجب حجاً في ثيابٍ دُسم

«أي : في نفس كثيرة الخطايا والذنوب ، فكنى عن النفس بالثياب ، وعن الثياب الدسم وهو يريد الوسخ . ومثل هذا موجود في كلامهم»^(٢) ، أي أنه ألمح إلى الكناية عن صفة .

وقال في موضع آخر : «والجيد النادر ، والمعنى الصحيح في قول الحارثي (عبد الملك بن عبد الرحيم) :

ولا لاقياً كعب بن عمرو يقودها أبو دَهْمٍ نسجُ الحديد ثيابها

فجعل الحديد ثياباً - وهي الدروع - ولا تسمى ثيابا ، فأغرب في هذا اللفظ وأحسن . ولو قال : (نسج الحديد لباسها) لما كانت له غرابة ، وإنما أراد : قد ألفوها فصارت لهم كالثياب لا كلفة عليهم فيها»^(٣) .

وذكر بيتا للبحري يشير إلى الكناية عن الموصوف وإن لم يصرح بذلك ، قال فيه^(٤) :

قوم ترى أرماعهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

وذكر في موطن آخر أنه أخذه من قول عمرو بن معديكرب الزبيدي :

والضاربين بكل أبيض مرهفٍ والطاعنين مجامع الأضغان

(١) الموازنة ١/ ٢٧٦ .

(٢) المصدر ذاته ٣/ ٣١٤ .

(٣) المصدر ذاته ٣/ ٣٢٩ .

(٤) المصدر ذاته ٣/ ٣٦٦ .

ونص على «أن قول عمرو : (و الطاعنين مجامع الأضغان) في غاية الجودة والإصابة ، لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم ، فإذا وقع الطعن في موضع الطعن ، فذلك غاية كل مطلوب»^(١) .

وقوله في الكناية عن صفة وإن لم يسمها لأنها من اصطلاحات المتأخرين :

والقرط في حرة الذفري معلقه تباعد الحبل منه فهو يضطرب^(٢) ويعدها من المبالغة فيقول : «فهذه المبالغة لاثقة مستحسنة ، لأنه دل على الوصف بالشيء الذي يخص الموصوف لا بالشيء الذي يخص غيره»^(٣) .

لكن الأمدي لم يتوسع بالكناية كما توسع بالاستعارة - كما مر معنا - وذلك لأنه لم يجعل ذلك الفن مما يطعن فيه على أبي تمام ، لأن الاستعارات - كما يرى د . مطلوب - كانت أساس الخلاف والخروج عن تقاليد العرب الشعرية»^(٤) .

هذا كله راجع إلى كراهية الأمدي للإغراب الذي كان يكلف به أبو تمام سواء في الاستعارة أو الكناية .

ومن فنون البديع التي ذكرها الأمدي : الطباق ، وهو من المحسنات المعنوية . عرفه بقوله : «وهو مقابلة الحرف بضده أو ما يقارب الضد . وإنما قيل (مطابق) لمساواة أحد القسمين صاحبه وإن تضادا أو اختلفا في المعنى . ألا

(١) الموازنة ٣١٦/١ - ٣١٧ .

(٢) الذفريان : ما عن يمين العنق ويساره . لسان العرب ، مادة (ذفر) . تباعد الحبل منه : أي تباعد حبل العنق من القرط ، لأنها طويلة العنق . يراجع التعليق على البيت عند المرزباني في الموشح ، ص : ٢٨٨ .

(٣) الموازنة ١٥٦/١ .

(٤) اتجاهات النقد في القرن الرابع ، ص : ٢٣٢ - ٢٣٣ .

ترى إلى قولهم في أحد المعنيين إذا لم يشاكل صاحبه : ليس هذا طبق هذا؟! وقولهم في المثل : (وافق شن طبقة). والطبق للشيء إنما قيل له (طبَّق) لمساواته إياه في المقدار إذا جعل عليه أو غطي به وإن اختلف الجنسان . ومنه : (طباق الفرس) إذا وقعت قوائم رجله في موضع قوائم يديه في المشي أو العدو. . . فهذه حقيقة الطباق ، إنما هو مقابلة الشيء بمثل الذي هو على قدره ، فسموا المتضادين إذا تقابلا : متضادين . ومنه قول زهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا
فطابق بين قوله (كذب) وبين قوله (صدقا)^(١) . يقول الأمدى بعد أن ساق الأمثلة : «إن أبا تمام رأى الطباق في أشعار العرب وهو أكثر وأوجد في كلامها من التجنيس ، فلو اقتصر على ما اتفق له في هذا الفن من حلو اللفظ وصحيح المعنى مثل قوله :

نشرت مزيد مدامع لم تنظم والدمع يحمل بعض ثقل المغرم
ثم تجنب مثل قوله :

قد لان أكثر ما تريد وبعضه خشن ، وإني بالنجاح لوائح
ونجد هذا مما يكثر إن ذكرته لتهذب معظم شعره وسقط أكثر ما عيب عليه منه^(٢) . لذلك نراه يصدر الباب بقوله : «ما يستكره للطائي من المطابق» . وذكر مصطلح أو لقب (الطباق) ، وأن معظم البلاغيين تواردوا على تسميته (الطباق) . لكن ينتقد قدامة بن جعفر لأنه خالف من تقدمه وسماه (المتكافى) ، وسمى ضرباً من المتجانس : المطابق ، وهو أن تأتي الكلمة مثل الكلمة سواء في تأليفها واشتقاق حروفها ، ويكون معناهما مختلفاً . يقول الأمدى : «وما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبي الفرج ، فإنه وإن كان هذا

(١) الموازنة ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) الموازنة ١/ ٢٨٨ - ٢٩٠ .

اللقب صح لموافقته معنى الملقبات . وكانت الألقاب غير محظورة - أي : أن المصطلحات لم تكن قد اصطحح عليها الناس - فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها ، إذ قد سبقوه إلى التلقيب وكفوه المؤونة^(١) . ومن هنا ، نلاحظ أن الآمدي يحب المحافظة على القديم ، وكان يدين أبا تمام لاستعماله الطباق وإن حصل المعنى ركيكاً ضعيفاً . يقول في أبيات لأبي تمام ، منها :

فأضحى الفلا قد جدّ في بري نحضه وكان زماناً قبل ذاك يلاعبه

«قوله : (يلاعبه) : لفظة ضعيفة المعنى ، وإنما جاء بها من أجل قوله : (جد في بري نحضه) ليطابق بين الجد واللعب ، أي أن الفلا جدّ في أخذ لحمه في سيرنا هذا السير ، فجعل مكان هذا القول (وكان زماناً قبل ذاك يلاعبه) على مذهبه في عشق الطباق الذي لا بد له من أن يأتي به وإن حصل المعنى ضعيفاً ركيكاً ، وربما كان محالاً»^(٢) .

ومن الفنون البديعية التي ذكرها الآمدي أيضاً : المبالغة ، ورددها كثيراً في موازنته ، من ذلك قوله : «وقد يبالغ الشاعر في أشياء حتى يخرج فيها إلى المحال ، ويخرج بعضها مخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح . . .» ، وساق مثالا له من شعر أبي نواس :

أشمّ طوال الساعدين كأنما يُنَاطُ نِجَادَ سِيفِهِ بِلِوَاءِ^(٣)

ويرى الآمدي أن كثيراً من المبالغات تصل إلى حدّ الإفراط ، ويكون الإفراط حسناً في بعض المواضع ، وسيئاً في مواضع أخرى . وقد ذكر بيتاً لبكر ابن النطاح الحنفي :

(١) المصدر ذاته ٢٩١/١ - ٢٩٢ .

(٢) المصدر ذاته ٢٨٣/١ - ٢٨٤ .

(٣) المصدر ذاته ١٥٥/١ ، وانظر المبالغة وأمثلةها ١٥٦/١ - ١٥٧ .

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها ، فليتق الله سائله
وأخر لمسلم بن الوليد :

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وعلق على ذلك بقوله : «وهذا - لعمرى - إفراط حسن ، وبيتا الطائيين
(وذكرهما) أجود معنى وألطف ، لأنهما لم يخرجوا عن طريقة الجود والكرم ،
وهذان البيتان خارجان عنهما»^(١) . وكان يرى أن معظم المبالغات في شعر أبي
تمام من المغالطات ، وبعضها من قبيل الخطأ .

كما ذكر الأمدي بعض الأمثلة على الإرصاء أو التسهيم - وهو محسن
بلاغي - لكنه لم يذكر المصطلح رغم سوقه الأمثلة الصحيحة عليه . من ذلك
تعليقه على قول الشاعر :

ومن لا يقدم رجله مطمئنة فيثبتها في مستوى الأرض يزلق
«لما قال : (و من لا يقدم رجله مطمئنة) اقتضى أن يأتي في آخر البيت ب
(يزلق) ، فهذا الكلام الذي يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض .
وإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي في عجزه ، فالشعر الجيد - أو أكثره -
على هذا بني»^(٢) .

وكما ذكر الأمدي بعض المحسنات المعنوية ، ذكر بعض المحسنات
اللفظية كالتجنيس ، فقد عقد فصلا في قبيح تجنيس أبي تمام ، وعرف
التجنيس بقوله : «وهو ما اشتق بعض من بعض»^(٣) - كما عرفه السابقون -
وضرب أمثلة على التجنيس مدللا على أنه يأتي أحيانا خادما للغرض ويحتاجه
اللفظ ، كقول جرير :

(١) الموازنة ٣/ ٢٢٩ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٢٩٦ - ٢٩٩ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٢٨٢ ، ويراجع ١/ ٢٨٣ - ٢٨٧ .

وما زال معقولاً عقال عن الندى وما زال محبوباً عن الخير حابسٌ
وقول الفرزدق :

خفاف أخف الله عنه حسابُه وأوسعُه من كل سافٍ وحاصِبِ
وكأن قول هذين الشاعرين في تجنيس ما جنّسناه من الألفاظ ، وحاجتهما
إليه يشبه قول النبي ﷺ : « عَصِيَّةٌ عصت الله ورسوله ، وغِفَارٌ غفر الله لها ،
وأسلم سألها الله »^(١) .

وذكر الأمدى أن الشعراء الأوائل كانوا لا يعتمدون الجناس وإن وجد في
شعرهم ، « لكن إنما يأتي منه في القصيدة البيت الواحد أو البيتان على حسب ما
يتفق للشاعر ، ويحضر في خاطره ، وفي الأكثر لا يعتمده ، وربما خلا ديوان
الشاعر المكثّر منه ، فلا ترى له لفظة واحدة ، فاعتمده الطائي وجعله غرضه
وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واختصر على مثل قوله :

أرامةٌ كنتِ مألّف كل ريم

وأشبه هذا من الألفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى لكان قد أتى
على الغرض وتخلص من الهجئة والعيب»^(٢) . ويعلل الأمدى مذهب أبي تمام
في التجنيس بأنه « رأى المجانس من الألفاظ متفرقاً في شعر الأوائل ، فاعتمده
الطائي وجعله غرضه » ، وأورد أمثلة كثيرة ذكرها أبو تمام لم يكن موفقاً في
أكثرها ، وكله من معيب التجنيس عنده . يقول عنه : « فهذا كله تجنيس في غاية
البشاعة والركاكة والهجانة » ، وضرب أمثلة على ما استكره من تجنيس العرب
منذ امرئ القيس^(٣) . وكان أحياناً يضرب المثل بشعر أبي تمام على قبح

(١) المصدر ذاته ١٥ / ١ ، ٢٨٣ . والحديث متفق عليه ، لكن بتأخير « عصية عصت الله ورسوله
» ، أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٢٩٣ ح ٣٣٢٢ ، ومسلم في صحيحه ١ / ٤٧٠ ح
٦٧٩ ، و٤ / ١٩٥٣ ح ٢٥١٨ .

(٢) المصدر ذاته ١ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧ .

التجنيس ، فيقول : « . . . هذا تجنيس قبيح يشبه تجنيسات أبي تمام الرديئة»^(١) ، وينقل لنا بعض الأمثلة التي عاب بها ابن المعتز في كتابه البديع أبا تمام ، وقبح تجنيسه .

وذكر الأمدي أن الجناس جاء عند الشعراء معللاً نادراً ، «والطائي استفرغ وسعه في هذا الباب ، وجدّ في طلبه ، واستكثر منه ، وجعله غرضه ، فكانت إساءته فيه أكثر من إحسانه ، وصوابه أقل من خطئه»^(٢) .

ومن الأمور البلاغية التي ذكرها الأمدي : حسن الابتداء^(٣) ، فقد ذكر باباً للابتداءات ، وحسن ابتداءات كل من الشاعرين ، وكان يستحسن بعض ابتداءات أبي تمام وبعض ابتداءات البحري . ومن الابتداءات التي استحسناها لأبي تمام قوله :

ما في وقوفك ساعة من باس نقضي ذمام الأربع الأدراس
قال : «وهذا ابتداء جيد بالغ» ، ثم ذكر بعض ابتداءات البحري ، كقوله :

ذاك وادي الأراك فاحبس قليلاً مقصراً من ملامتي أو مُطِيلاً
وكان يقول : . . . هذا ابتداء صالح . . . وهذا ابتداء جيد . . . وأما البحري ، فإنه تصرف فيه في ابتداءات جيداً حساناً بارعة حلوة . . . وهذا بيت من جيد الابتداءات وبارعها . . .

ويقرر الأمدي أن «هذه طريقة القوم في الوقوف على الديار . . . وطريقة الطائيين ما عدلا عنها ولا خرجا إلى غيرها»^(٤) . وكان لكل موضوع من

(١) المصدر ذاته ٣/٣٦١ .

(٢) المصدر ذاته ١/٢٨٧ .

(٣) المصدر ذاته ١/٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٣٦٧ .

(٤) المصدر ذاته ١/٤٣٥ .

موضوعات الشعر وتفريعاته ابتداءات ، فعمد الآمدي إلى تلك الابتداءات ووازن بينها ، يقول : «... فهذا ما ابتدأ به من ذكر الوقوف ، وأجعلهما فيه متكافئين من أجل براعة بيتي البحتري الأولين ، وأنهما أجود من سائر أبيات أبي تمام ، ولأن للبحتري في الباب التقصير الذي ذكرته ، وليس لأبي تمام مثله»^(١) . لكننا نجد أن كثيراً من أحكامه على ابتداءات الشعراء غير معلة ، أو هي أحكام عامة .

ومن الأمور البلاغية التي ذكرها كذلك : حسن الخروج^(٢) ، فذكر الخروج من النسب إلى المديح ، أو الخروج بذكر وصف الإبل والمهامه ، وكان يذكر الخروج الجيد البالغ ، والخروج النادر الحسن ، والخروج الطريف العجيب ، والخروج النادر الحسن الطريف... يقول : «ومن طريفات الخروج قول أبي تمام :

تداو من شوقك الأقصى بما فعلت خيل ابن يوسف والأبطال تطرد
ذاك السرور الذي آلت بشاشته أن لا يجاورها في مهجة كمد
وهذا - لعمري - معنى في غاية الحسن والحلاوة»^(٣) . ويقول الآمدي :
«كانوا كثيراً ما يقولون إذا فرغوا من النسب وأرادوا المدح أو غيره من الأغراض : (فدع ذا) ، فتجنبها المتأخرون واستقبحوها . وكذلك قولهم : (فعد عن ذا) ، وهي عندهم أحسن»^(٤) .

وكما ذكر حسن الخروج ، ذكر خروجات رديئة ومتوسطة^(٥) ، وكان لا يخفي فضل البحتري في سائر ما أورده لأبي تمام من حسن الخروج أو رديئه .

(١) المصدر ذاته ١/٤٤٠ .

(٢) الموازنة ٢/٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٣) المصدر ذاته ٢/٣٢٣ .

(٤) المصدر ذاته ٢/٢٩١ .

(٥) المصدر ذاته ٢/٢١٨ .

ومع أنه ذكر خروجات متوسطة ، إلا أنه قال : «وما تركت لهما إلا وسطاً ليس بجيد ولا رديء»^(١).

المبحث الثالث : النقد عند الأمدي :

شهد القرن الرابع حركة نقدية كانت جذورها في القرن الثالث ثم استمرت في القرن الرابع. وقد كانت هذه المعركة النقدية تدور بين أنصار القديم والحديث ، وبين أنصار أبي تمام والبحثري ، فقد اتخذت المفاضلة بينهما ميداناً لها ، وكان لكل من الشاعرين أنصار ، فقد ألف أنصار أبي تمام الكتب في مدحه والثناء عليه والدفاع عنه وعن مذهبه ، وألف معارضوه كتباً تغض من شأنه. «وكان لا بد من نشوء مذهب معتدل يقوم على أسس نقدية صريحة ، ويعيد الفضل إلى أهله»^(٢). لذلك ، ألف الأمدي (الموازنة) ، والمعركة مازالت حامية الوطيس ، والخصومة دائرة رحاها حتى بعد وفاة الصولي (ت ٣٣٥ هـ). وكان الصولي - كما مر معنا في البحث السابق - قد ألف أخبار أبي تمام وأخبار البحثري ، واطلع عليهما الأمدي وذكرهما في موازنته ، لكنه لم يكن يثق بالصولي وعلمه ، «كما كان دائم التهجم عليه»^(٣). ووضح هذا الأمر من خلال كلامه عن النسخ القديمة التي رجع إليها من ديوان أبي تمام ، فقال : «... ورجعت إلى النسخة العتيقة التي لم تقع في يد الصولي وأضرابه»^(٤) ، وكان الصولي يبرز تفوق أبي تمام. لذلك ، رأى بعضهم أن الأمدي يميل إلى مذهب البحثري مؤيداً له وناصراً لطريقته ، وراداً على الصولي وأمثاله.

(١) المصدر ذاته ٣١٠/٢.

(٢) لمزيد من التفصيل يراجع : النقد المنهجي عند العرب ، ص : ٩٨ ، أبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة ، ص : ٨٠.

(٣) مقدمة الموازنة ، د. محارب ٢٧/٣ وما بعدها.

(٤) الموازنة ١/ ٢١٦.

وقد برزت ثقافة الأمدي العميقة ، وعلمه الغزير ، ونضجه الفني ، وعالج أبرز القضايا النقدية ، فكتاب (الموازنة) «حشد ضخم لكل ما وصل إليه القرن الرابع الهجري من ذوق أدبي ، ونقد وتمرس بالشعر ، ووقوف على أخبار الشعراء وأحوالهم ومراتبهم ، وآراء أهل العلم وشيوخ اللغة في ذلك»^(١).

والأمدي يميل بطبعه إلى النقد ، فقد ألف كتباً في النقد - كما مر معنا - منها : (تبيين غلط قدامة في نقد الشعر) ، و(الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام) ، و(إصلاح ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ) ، وغيرها . ومن أبرز القضايا النقدية التي عالجها : قضية اللفظ والمعنى ، وقضية الطبع والصناعة ، وقضية القدم والحداثة ، وقضية السرقات . ولم يكن هناك حدّ بين قضية وأخرى ، وإنما تمتزج امتزاجاً كبيراً ، وذلك من خلال الحكم على آثار الشعارين ، فكان يأتي بالأدلة والتفصيلات التي تشمل ما ذهب إليه . وكان الأمدي يبدي استحسانه واستهجاناً لشعر أحد الشعارين دون أن يبحث طويلاً في أسباب الحسن والاستهجان ، وأحياناً كان يطلق أحكامه معللة . وقد مر معنا أن الأمدي ذكر انقسام الناس إلى فريقين : الأول يمثل ذوق الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعين وأهل البلاغة . وقد فضل هؤلاء البحثري ، ونسبوه إلى حلاوة اللفظ وحسن التخلص وصحة العبارة وقرب التأتى ، وأنه أعرابي مطبوع على مذهب الأوائل ، وأنه يتجنب التعقيد ووحشي الكلام ، وكان متقيداً بعمود الشعر . والثاني يمثل ذوق أصحاب الصناعة الذين يميلون إلى التدقيق والغوص على المعاني ، وهم الذين فضلوا أبا تمام . وكان الأمدي بطبعه يميل إلى سهولة الألفاظ ويدعو لها ليتجنب القائل وحشي اللفظ وسخيف القول ، ويقرر أن رداءة الألفاظ يكون من وجهين : «إما أن تكون اللفظة من ألفاظ العوام سخيفة في نفسها أو جيدة قد وضعت في غير موضعها فصارت

(١) أبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة ، ص : ٥ .

رديئة في ذلك الموضوع خاصة. فإن كانت لك بلاغة ، وبجوهر الكلام خبرة ، تعرف هذا إذا مر بك من النظم والنثر لا محالة ، وإن كنت بمعزل عن ذلك فلست تقدر أبداً على تمييز ما بين الجيد والرديء ، فاترك هذا الباب لأهله ولا تداخلهم فيه»^(١) ، فلا بد إذن من الخبرة والدربة لمن ينقدها. ثم يقرر أن طريقة الشاعر وطبيعة شعره تخفى إلا لطائفة من الناس ، وهم ذوو البلاغة ، «وأهل الأ طباع النقية ، والقرائح السليمة . . . » ، ورتب على ذلك قوله إنه «وجب أن أعدل إلى انتزاع الأبيات المتفقة المعاني من كل قصيدة من قصائدهما ، وأنوعهما أنواعاً ، وأوازن بين أبيات كل نوع حتى يظهر الفضل في المعاني خاصة»^(٢) .

وأكد الأمدي أن بعض المعاني مشتركة ومبتذلة ومعروفة ، لذلك لا يستطيع تفضيل أحد الشعارين على الآخر ، ففي باب التشبيه يقول : « . . . هما في هذا الباب متكافئان ، لأنهما ركبا معنى قد تقدم الناس فيه ، وهو من المعاني المشتركة»^(٣) . ولكن ، لا تكون التقدمة بالمعاني وإن سخرت للشاعر بعضها على من هو أعلى طبقة منه ، «لأن التقدمة لا تكون بالمعاني وحدها ، وإنما ينظر في بحر الشاعر ، وجنس شعره ، وطلاقته وبلاغته وقدرته ، وتمكن خاطره ، واستواء طريقته. فإن أحببت أن تمتحن ذلك ، فأثبت مرثي الطائيين كلها في الباب ، وتأمل الجميع ، فإن الأمر يظهر لك ظهوراً بيناً واضحاً»^(٤) .

ثم يقرر الأمدي أن المعاني - وإن كانت مشتركة - فلا بد من توافق الألفاظ معها ، وكونها ملائمة لها ، وأن لا نراعي المعنى على حساب اللفظ ، «فإن رداءة الكلام منظومه ومثوره ليست من أجل رداءة المعنى فقط ، بل يكون أيضاً من أجل رديء اللفظ ، وقبيح النظم ، وسوء التأليف ، وأن يقترب البيت بما

(١) الموازنة ٣/ ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٢) الموازنة ٣/ ٤٧٢ .

(٣) المصدر ذاته ٣/ ٢١٥ .

(٤) المصدر ذاته ٣/ ٢١٥ .

لا يليق بموضعه»^(١). ونلمس من قول الآمدي السابق دعوته المستمرة والملحة إلى اختيار القائل الألفاظ المأنوسة ، وأن يتجنب وحشي اللفظ وسخيف القول والمعاظلة في الكلام ومداخلة بعضه ببعض من تقديم وتأخير ورداءة نسج ، فنراه يعقد بابا بعنوان : «ما يستكره للطائي من الألفاظ»^(٢) ، فيقول في معرض ذكره مساوية البحري : «فقد حرصت واجتهدت في أن أظفر له بشيء يكون بإزاء ما أخرجته من مساوية أبي تمام في سائر الأنواع التي ذكرتها ، فلم أجد - لشدة تحرزه ، وجودة طبعه ، وتهذيب ألفاظه - من ذلك إلا أبياتا يسيرة»^(٣). ولطالما كان ينعى على أبي تمام استعماله الوحشي من الكلام ، وابتعاده عن السهولة والسلامة. ولئن كان زهير - كما قال عمر رضي الله عنه - لا يتبع حوشي الكلام ، «فإن أبا تمام - لعمرى - يتبعه ويتطلبه ويتعمل لإدخاله في شعره»^(٤). ويعلل الآمدي رأيه ويدافع عنه بقوله : «فإن قال قائل : إن هذا الذي أنكرته وذمته من شدة تشبث الكلام ببعضه ببعض ، وتعلق كل لفظة بما يليها ، وإدخال كلمة من أجل أخرى تشبهها وتجانسها - هو المحمود من الكلام - وليس من المعاظلة في شيء. ألا ترى أن البلغاء والفصحاء لما وصفوا ما يستجاد ويستحب من النثر والنظم قالوا : هذا كلام يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ؟ ! قيل : هذا صحيح من قولهم ، ولم يريدوا به هذا الجنس من النثر والنظم... وإنما أرادوا المعاني إذا وقعت ألفاظها في مواقعها ، وجاءت الكلمة مع أختها المشاكلة لها التي تقتضي أن تجاورها لمعناها إما على الاتفاق أو التضاد حسبما توجهه قسمة الكلام ، وأكثر الشعر الجيد هذه سبيله»^(٥).

(١) المصدر ذاته ٣ / ٤٧١ .

(٢) المصدر ذاته ١ / ٣٠٠ .

(٣) المصدر ذاته ١ / ٣١٢ .

(٤) المصدر ذاته ١ / ٣٠٠ .

(٥) الموازنة ١ / ٢٩٧ .

وكأننا نراه بهذا القول يخرج إلى نظرية النظم التي أكمل حلقاتها عبد القاهر الجرجاني كما سنرى في الفصول اللاحقة .

وكان أحيانا يذكر بعض الألفاظ ويقول : « . . . وهذه الألفاظ ، وإن كانت معروفة مستعملة ، فإنها إذا اجتمعت استقبحت وثقلت » ، ويقول أحيانا أخرى : « . . . فهاتان لفظتان مستكرهتان إذا اجتمعتا »^(١) .

وربما يكون هذا من استعمال الألفاظ الغريبة ، أو عدم صحة التركيب من التقديم والتأخير . ويقرر الأمدي أن أكثر هذه الألفاظ الوحشية تكون مجتمعة من أراجيز العرب « وإن كان يستهجن من الأعرابي القح الذي لا يتعمد له ولا يتطلبه ، وإنما يأتي به على عادته وطبعه ، فهو من المحدث - الذي ليس له من لغته ولا من ألفاظه ولا من كلامه الذي تجري عادته به - أخرى أن يستهجن »^(٢) . ولهذا ، أنكر الناس على رؤبة استعماله الغريب الوحشي ، وذلك لتأخره وقرب عهده حتى زهد كثير من الرواة في شعره إلا أصحاب اللغة والغريب^(٣) .

ومن هنا ، تراه يذكر باباً آخر يتحدث عن شعر أبي تمام بعنوان : « باب في سوء نسجه وتعقيد نظمه ووحشي ألفاظه » ، وينقد قدامة بن جعفر لأنه غلط في أمثلة المعازلة غلطاً قبيحاً ، فيقول : « إن من المعازلة التي قد لحظت معناها في الكتاب على قدامة بن جعفر : شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض ، وأن يداخل لفظة تشبهها أو تجانسها وإن أخل بالمعنى بعض الإخلال » ، ويأتي بالأمثلة وينقدها قائلاً : « وإذا تأملت المعنى - مع ما أفسده من اللفظ - لم تجد له حلاوة ، ولا فيه كبير فائدة »^(٤) ، لأن أبا تمام في غالب الأحيان يتخير اللفظ على حساب المعنى ، لكن البحثري له عناية بتخير ألفاظه

(١) المصدر ذاته ١/ ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٣٠٤ .

(٣) المصدر ذاته ١/ ٣٠٤ .

(٤) المصدر ذاته ١/ ٢٩٤ - ٢٩٥ .

ومعانيه ، يقول : «ليست لأبي تمام عناية باللفظ كعنايته بالمعاني ، فهو إذا جاءه المعنى أورده بأي لفظ استوى له ، والبحتري عنايته مصروفة إلى تخير الألفاظ كما يتخير المعاني ، وذلك قوله :

بمنقوشة نقش الدنانير يتغى لها اللفظ مختاراً كما ينتقى المعنى
وقوله :

مصروفة باللآلي من نوادرها مسبوكة اللفظ ، والمعنى من الذهب
«وهذا إحسانه المعروف المشهور الذي لا يدفع»^(١). لكن الآمدي كان يقر لأبي تمام في بعض الأحيان بجيده البالغ ، إلى جانب وجود شعر ساقط له ، أما البحتري فليس عنده ذاك الشعر الرديء ، يقول : «... فأبو تمام قد مضى له عين نادر ، وجيد بالغ ، ورديء ساقط. وقد ذكرت جودة الجيد في موضعه ، ورداءة الرديء. فأما العين النادر ، فقوله :

يود وداذاً أن أعضاء جسمه إذا أنشدت شوقاً إليها مسامع
«وأما البحتري ، فقد مضى له عين نادر ، وجيد بالغ ، ولم يمض له رديء»^(٢) وأقول في الموازنة بينهما : إن عيون شعر أبي تمام أجود من عيون شعر البحتري ، وهما في جيدهما متساويان. وأطرح إساءات أبي تمام في هذا الباب»^(٣) فلا أعتد بها»^(٤) ، فهو يقرر ويحكم لأبي تمام في النوادر فيقول : «... وأما أبو تمام في هذه الأبواب من النوادر أكثر تصرفاً وأشعر من البحتري»^(٥).

(١) الموازنة ٦٩٣/٣.

(٢) المصدر ذاته ٧٠٠/٣ - ٧٠١.

(٣) باب ما وصف فيه أشعارهما.

(٤) المصدر ذاته ٧٠٢/٣.

(٥) المصدر ذاته ٢٥١/٣.

ويؤيد مرات عديدة قول أهل العلم بالشعر وحكمهم على أبي تمام بالاستحسان فيقول : «مازلت أسمع أهل العلم بالشعر يستحسنون بيت أبي تمام هذا :

وإذا هبت الرياح نسيمًا فعلى ربع دارها والجَنابِ
«وهو - لعمرى - حسن». ويقول عن آخر : «... وهذا البيت أحسن من كل حسن ، وأجود من كل جيد». ويقول في ثالث : «هذا عين الباب كله ، أو يقول : «فقد عيب ، وليس بعيب عندي»^(١).

ورغم صدور بعض الأحكام عن الآمدي بجمال وجودة وحسن أبيات أبي تمام ، إلا أنه كان يؤثر البحري صاحب المذهب المطبوع الذي لم يفارق عمود الشعر . يقول عن قصيدة البحري :

ضمان على عينيك أني لا أسلو وأن فؤادي من جوى بك لا يخلو
بني تغلب أعزز عليّ بأن أرى دياركم أمست وليس بها أهل
«وقد بينت عن فضل البحري وعريته وطريقته التي ليست لشاعر من المتأخرين ، وهي تبزُّ كل ما قالوه في وصف الحرب»^(٢). وكان لا يخفي إعجابه بمذهب البحري الذي لم يخرج عن سنن العرب وهدْيهم أو عن طريقة الشعراء الفحول ، سواء في ألفاظه أو معانيه ، وفي ذلك يقول : «... فهذه طريقة الشعراء الفحول في مذهب لا يحسنه إلا العظماء المطبوعون من الأعراب ، ولا يتجه لمثله مسلم ولا أبو نواس فضلا عن أبي تمام»^(٣).

ويعلل أكثر من مرة في موازنته سبب تقديم البحري ، فيقول : «... لأن

(١) المصدر ذاته ٤٩٦/١ ، ٢٧٧ .

(٢) المصدر ذاته ٣٧٨/٣ - ٣٧٩ .

(٣) الموازنة ٣/٣٨٣ .

البحثري أعرابي الشعر مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر ، فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور النمري والخريمي وأمثالهم أولى . ولأن أبا تمام شديد التكلف ، صاحب صنعة ، ومستكره الألفاظ ، فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد أحق وأشبه . على أنني لا أجد من أقرنه به لأنه ينحط عن درجة مسلم ، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه^(١) . ونراه أحيانا يعلق بقوله : « . . . إن هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب »^(٢) . أو يقول عن أبيات له ، منها :

من سجايا الطلول ألا تُجيباً فصوابٌ من مقلّة أن تصوبا
فاسألنّها واجعل بكاك جواباً تجدّ الشوق سائلاً ومُجيباً

«هذه فلسفة حسنة ، ومذهب من مذاهب أبي تمام ، ليس على مذهب الشعراء ولا طريقتهم . . . ولم يسلك البحتري هذا الطريق ، بل جرى في هذا الباب على مذاهب الناس ، فقال^(٣) :

فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ولا نحن من فرط البكا كيف نسأل
«وما أحسن المعنى الصحيح إذا ما أتى به الطبع النقي ، وكان قائله مخبراً بالأمر على ما هو»^(٤) . أو يقول : « . . . فهذه هي الطريقة العربية ، والبلاغة المتقنة »^(٥) .

وكل ما مر معنا نفسره بأن الأمدي لا يحب أن يخرج عن سنن العرب ،

(١) المصدر ذاته ٤/١ - ٥ .

(٢) المصدر ذاته ١/١٤٧ . وللمزيد ، يراجع : علي علي صبح : عمود الشعر العربي في موازنة الأمدي ، ص : ٦٩ - ٧١ ، والمرزوقي : شرح حماسة أبي تمام (مقدمة الشارح) ١/٨ - ١٠ .

(٣) الموازنة ٣/٣١ .

(٤) المصدر ذاته ١/٥٢٣ .

(٥) المصدر ذاته ٣/٣٥١ .

سواء كان في تشبيهاتهم أو استعاراتهم أو كنياتهم أو طريقة تعبيرهم ووصفهم للأشياء . فكل ما يربط بالقديم وطريقة تناوله كان يروق له ويحكم على صاحبه بالاستحسان ، وكل ما يخالف هذا المفهوم كان يحكم عليه بالاستهجان ، فيحكم على قول الشاعر البحرّي :

وليالٍ كُسين من رقة الصيد — ففخيلن أنهن برود
«وهذا من حلو ألفاظه ونسجه ، غير أنه أساء في قوله : (فخيلن أنهن برود) ، لأن البرود لا توصف بالرقّة ، وإنما توصف بالمتانة والصفاقة . وإذا وصف الشيء ذو الألوان قيل : (كأنه بُرد) ، لأن البرد قلّ ما يكون غزله من نسيج لون واحد ، وإنما يكون من ألوان ، فإنما علق هذا من قول أبي تمام الذي أخطأ فيه كل الخطأ يصف الحلم :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه بُردُ
«وقد ذكرت هذا من أغاليطه ، ولست أدري كيف ذهب مثله على البحرّي مع جودة طبعه وكثرة مذاهبه»^(١) .

«والخطأ في هذا البيت ظاهر ، لأنني ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقّة ، وإنما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك»^(٢) .

من خلال حكم الأمدي على مثل هذه الأبيات تبدو شخصيته ، ونستشف رأيه . إنه يمثل المحافظة على كل ما هو تقليدي جرت عليه سنن العرب ، وينفر من كل جديد ويصمه بالهجنة والغربة . يقول الدكتور أبو حمدة : «نرى الفرق شاسعا بين ذوق أبي تمام الذي كان صورة لحضارة القرن الثالث الهجري بما تحمل هذه الحضارة من ترف فكري وحضاري وتأنق في جميع مظاهر الحياة ،

(١) الموازنة ٦٥١/٣ .

(٢) المصدر ذاته ١٤٣/١ ، ٦٥٢/٣ .

وبين ذوق الأمدي الذي ظل أسير صور البداوة وخشونتها^(١). ونرى الأمدي يقف شامخاً أمام أبي تمام ينتقده ويتعقب أخطاءه اللغوية ، «لأن أبا تمام تعتمد أن يدل في شعره على علمه باللغة ويكلام العرب ، فتعمد إدخال ألفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره»^(٢).

ومن الانتقادات اللغوية التي لا مجال لبحثنا في إيرادها هو استعماله الألفاظ لغير دلالتها التي وضعت لها ، أو استخدامه الألفاظ العامية ونسجها في تراكيب ركيكة^(٣).

وأما المعاني المستغربة التي ساقها أبو تمام ، فقد كان يستلهمها من سابقه. وفي ذلك ، يقول الأمدي : «إن أبا تمام إذا أورد المعنى المستغرب لم يكن ذلك منه ببدع ، لأنه يأخذ المعاني ويحتذيها ، فليست له في النفوس حلاوة ما يورده الأعرابي القح...»^(٤). وهذا يقودنا إلى موضوع الأخذ والسرقعة ، وكان الأمدي يسمي السرقعة أخذاً.

وقضية السرقات قديمة في التاريخ الأدبي ، وإنما تطور لفظ المصطلح مع الزمن وبقي مدلوله واحداً. وقد استخدم كثير من البلاغيين والنقاد مصطلحات لم تكن معروفة ثم عرفت فيما بعد. ولسنا بصدد تأريخ لهذا المصطلح ، ولكن لو عدنا بأدراجنا إلى الوراء لوجدنا ابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ هـ) يذكر السرقات في طبقاته باسم الأخذ ، وكان متحفظاً من إطلاق اسم السرقعة ، وإنما أطلق لفظ الإغارة أو الاجتلاب. واستمر النقاد في إطلاق مسميات مختلفة على السرقعة والأخذ. وجاء ابن المعتز وألف كتاباً في سرقات الشعراء ، كان من أبرز الكتب التي اعتمدها الأمدي في موازنته. وبرزت هذه المشكلة بوضوح عند

(١) أبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة ، ص : ٩٨ - ٩٩.

(٢) الموازنة ٢٥/١.

(٣) يراجع المصدر ذاته ١/١٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦...

(٤) المصدر ذاته ١/٢٤ - ٢٥.

تناوله قضية «القدم والحداثة» ، فأنصار القديم يسفهون المحدثين لأن معانيهم مأخوذة من المتقدمين وليس فيها أي جديد ، «وكان توسعهم في هذا الموضوع أساس مشكلة السرقات في الأدب العربي»^(١) ، «إذ حاول أنصار القديم أن يجعلوا من هذه السرقات إغارات حقيقية لا ينسب الفضل فيها للمتبع ، فالشعر القديم عندهم هو المثل والنموذج الذي يحتذيه المحدث . أما أنصار الحديث ، فقد حاولوا أن يخرجوا مشكلة السرقات من هذا المفهوم الضيق ويجعلونها مشكلة تتعلق بفن الأدب نفسه من حيث هو صياغة وتعبير وضرب من التصوير»^(٢) .

وقد اختلفت النظرة إلى السرقات ، فبعض النقاد يجعلها باباً مهماً من أبواب النقد ، ولكنها تمثل عند البلاغيين باباً من أبواب البلاغة .

وقد ذكر الآمدي سرقات أبي تمام والبحري - وكان يسميها الأخذ أو الاتباع - فيقول : «... والذي تبع ذا الرمة فأحسن الاتباع : الوليد بن عبيد البحري»^(٣) ، وفي موضع آخر قال : «... أخذه الطائي...»^(٤) .

وذكر الآمدي أن محمد بن داود بن الجراح ذكر في كتابه (الورقة) أن ابن أبي طاهر أعلمه أنه أخرج للبحري ستمائة بيت مسروق ، ومنها ما أخذه من أبي تمام خاصة مائة بيت . ويعقب الآمدي بقوله إنه كان ينبغي عليه ألا يذكر السرقات فيما أخرج من مساويء الشعاعين ، لأن من أدركه من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كثير مساويء الشعراء ، وخاصة المتأخرين إذا كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر . ولكن أصحاب أبي

(١) للمزيد من التفصيل ، يراجع : د. مصطفى هدار : مشكلة السرقات في الأدب العربي ، ود. بدوي طبانة : السرقات الأدبية .

(٢) د. هدار : مقالات في النقد الأدبي ، ص : ٦٥ .

(٣) الموازنة ٨٣/١ .

(٤) المصدر ذاته ٨٣/١ ، ٨٥ ، ١١٠ ...

تمام ادعوا أنه أول سابق ، وأنه أصل في الابتداء والاختراع ، فوجب إخراج ما استعاره من معاني الناس»^(١).

ويؤكد الأمدي على تأثير البيئة الواحدة في شعر الشعراء فتقع معانيهم متقاربة لأنهم يتفقون في طريقة التفكير والطباع ، ويكادون يتفقون في أساليب التعبير ، وذلك لاتفاقهم على كثير من المعاني ، فيقول : «إن المعاني الشعرية إذا صدرت عن شاعرين من أهل بلدين متقاربين فلا يجوز أن يحكم بالسرقة على أحدهما ، لأنه غير منكر لشاعرين مكثرين متناسبين ومن أهل بلد متقاربين أن يتفقا في كثير من المعاني ، ولا سيما ما تقدم الناس فيه وتردد في الأشعار ذكره»^(٢). وأكد الأمدي أن كثيرا من السرقات ترجع إلى محفوظ الشاعر أو كثرة ما يطرق سمعه ، وربما يعيد المعنى أو يكرره ، سواء أتعمد ذلك أم لم يتعمده . ويدلل على كثرة السرقة عند أبي تمام أن له كتب اختيارات مشهورة معروفة ، وله محفوظ وافر من الشعر الجاهلي والإسلامي والمحدث ، فكان هذا سبباً في كثرة سرقاته . لذلك ، يقرر الأمدي أن «الذي خفي من سرقاته أكثر مما ظهر منها»^(٣). وقد سمع أبا العلاء السجستاني يقول إنه ليس له معنى انفرد به واخترعه إلا ثلاثة معان ، ثم ذكرها . . . ولكن الأمدي لا يوافق على كثرة سرقات أبي تمام ، ويقول في ذلك : « . . . بل أرى أن له مخترعات كثيرة ، وبدائل مشهورة»^(٤). ويقسم سرقات أبي تمام إلى محاسن ومساوىء ، ولكل منهما درجات .

ومن محاسنه أنه يأخذ المعنى ويزيد عليه ، أو يحول المعنى من موضوع إلى موضوع آخر ، ويأخذ المعنى فيكشفه ويزيده وضوحاً . تلك من محاسن سرقاته .

(١) المصدر ذاته ١/ ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) المصدر ذاته ١/ ٥٦ .

(٣) الموازنة ١/ ٥٨ - ٥٩ .

(٤) المصدر ذاته ١/ ١٣٧ - ١٣٨ .

وأما مساوئها ، فهو أنه يأخذ المعنى بلفظه ، أو يتعسف في هذه الألفاظ المأخوذة ، أو يأخذ المعنى ويقصر عنه . وأحياناً يأخذ معنى صدر بيت من شاعر ، وعجزه من شاعر آخر^(١) .

والذي يهمننا ويستوقفنا ونستشفه من حكم الأمدي على أبي تمام هو وفرة معلوماته ، وسعة ثقافته ، وكثرة محفوظه ، وعدم تجنيه على أبي تمام في كل المواقف التي عرضها في موازنته ، «وإعمال ذوقه الأدبي في المعالجة والتطبيق»^(٢) .

ويبدو أن التعصب لأبي تمام أو عليه لم يكن دائماً وليد الذوق الأدبي ، وإنما كانت الخصومات الشخصية لها دور في كثير من المواقف النقدية .

ويرى كثير من النقاد المعاصرين أن هناك جذورا للخصومة والعداوة بين الصولي (ت ٣٣٥ هـ) وتلاميذه كالأصفهاني (ت بعد ٣٦٠ هـ) والمرزباني (ت ٣٨٤ هـ) من جهة ، وبين أبي موسى الحامض (ت ٣٠٥ هـ) وتلاميذه - ومنهم الأمدي - من جهة أخرى^(٣) . فكأنما اتخذ الصولي والأمدي من أبي تمام ميداناً للخصومة . ويرى أ. أحمد أمين في كتاب (الموازنة) تعصباً للبحثري من وراء حجاب ، ووضع مقابل الصولي في تعصبه على أبي تمام^(٤) . ويرى د. عزام أن كتاب الموازنة يشهد بتعصبه على أبي تمام^(٥) . لذلك ، نرى المرزوقي - شارح ديوان الحماسة - يضع كتاباً ينتصر به لأبي تمام : (الانتصار

(١) راجع : المصدر ذاته ١/١٣٨ وما بعدها ، ولمزيد من التفصيل ، يراجع : د. عبد اللطيف الحديدى : السراقات الشعرية بين الأمدي والجرجاني ، ص : ٧٨ - ٨٩ .

(٢) يراجع : د. ضيف : المصطلح البلاغي وتطوره حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥

(٣) يراجع : أبو حمدة : النقد الأدبي بين أبي تمام والبحثري ، ص : ٤١ .

(٤) يراجع مقدمة تحقيق أخبار أبي تمام للصولي .

(٥) يراجع مقدمة تحقيق ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي .

من ظلمة أبي تمام).

من هنا ، نجد الكثير من النقاد يأخذون على الأمدي عدم التزامه بالمنهج الذي رسمه في بداية الموازنة ، ويعده د. محمد رشاد صالح متصلاً من هذه الخطة ، وأن البحثري أخطأ كثيراً ، وقد أهمل أخطاءه الأمدي ليظهر تفوقه على أبي تمام^(١) . ولعل قلة إطلاقه الأحكام النقدية الصريحة هي التي دعت د. إحسان عباس إلى اتهامه والحملة عليه والقول بأن موازنته أقرب إلى السذاجة ، وأن الإحصاء لا يحقق الغاية المرجوة من النقد^(٢) . وادعى آخرون أن «أصول كتاب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث ومؤلفيه»^(٣) . صحيح أننا لا ننكر تأثيره بمن قبله واعتماده على آرائهم ليستدل بها في حكومته على آثار الشعارين . لكن لسنا مع ما قاله د. خفاجي بأن «الموازنة صدى لآراء نقاد القرن الثالث . ويرجع فضل الأمدي - فقط - إلى تدوين هذه الآراء وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها»^(٤) . وهذا تجن على الأمدي ، وإجحاف بالموازنة . والصواب - في رأبي - أنه امتداد لما سبق . وتمثل جهوده البلاغية والنقدية حلقة وصل ، فكتاب (الموازنة) من أشهر كتب النقد في هذه المرحلة ، وقد أغنى المكتبة البلاغية والنقدية العربية ، فقد تزكت (الموازنة) بصمات واضحة على نقاد القرن الرابع والخامس - كما سنرى - ونسمع أصداءها في كتاب (الوساطة) للجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) ، و(كتاب الصناعتين) للعسكري (ت ٣٩٥ هـ) ، و(العمدة) لابن رشيقي (ت ٤٥٦ هـ) ، و(سر الفصاحة) للخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) ، و(أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ).

(١) يراجع : د. محمد رشاد صالح : نقد كتاب الموازنة ، الفصل السادس منه ، وص : ٢٤٣ وما بعدها .

(٢) د. إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ١٨٢ .

(٣) د. طه إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص : ١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) د. عبد المنعم خفاجي : الفكر النقدي الأدبي في القرن الرابع ، ص : ٧٧ .

وسنذكر هذا في حينه .

وتأييدا لما ذكرنا ، نسوق ما قاله د . محارب في حق (الموازنة) : « . . . إن كتاب الموازنة يصور بوضوح شديد ذلك النشاط الذهني الخلاق الذي ما فتىء يضح في التقاليد الشعرية كثيراً من رسومه التي اعتمدها النقاد علامات في الطريق . . . وعلى الرغم من بعض الآراء النقدية - التي عرفنا بعضها - والتي كانت في أحيان كثيرة ترداداً لما قاله الآخرون ، والتي نزعنا إلى التقليل من أهمية محاولة الأمدى ، مستخدمة المقاييس الحديثة التي ما زالت محل خلاف بين المحدثين أنفسهم ، فقاوسوا بها أدبيات تلك العصور . . . تظل دراسة الأمدى هذه عملاً نقدياً رائعاً يستحق كل الثناء والإطراء ، كما يستحق أن يبذل فيه الباحث الجهد الوافي ليخرج للناس على أفضل صورة ممكنة»^(١) .

(١) مقدمة تحقيق الموازنة للدكتور محارب ١٦/٣ .

مكتبة الدكتور د. وائل الخويطر

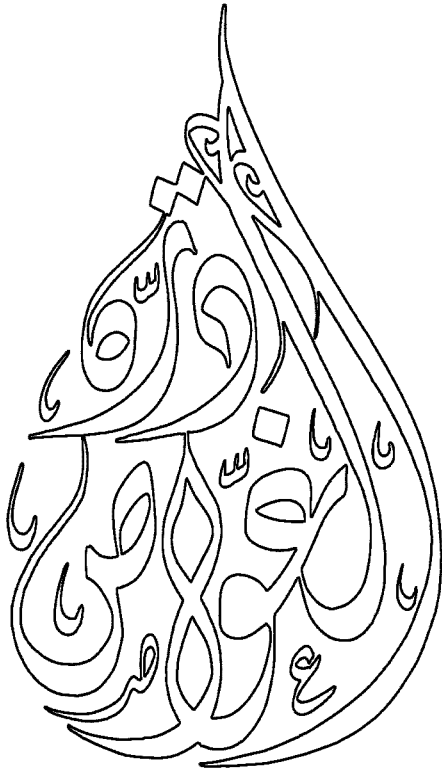
الفصل الخامس

العلاقة بين البلاغة والنقد

عند أبي عبيد الله المرزباني

(296 هـ - 384 هـ)

- المبحث الأول : التعريف بالمرزباني .
- المبحث الثاني : البلاغة عند المرزباني .
- المبحث الثالث : النقد عند المرزباني .



المبحث الأول : التعريف بالمرزباني^(١) :

* نسبه وولادته ومكانته :

هو أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى ، من بيت رئاسة ونفاسة . نسب إلى بعض أجداده المرزبان^(٢) . أصله من خراسان ، وولد ونشأ في بغداد سنة ٢٩٦ هـ ، وقيل : سنة ٢٩٧ هـ .

كان راوية ، أخبارياً ، فاضلاً ، مكثراً ، مصنفاً ، جميل التصانيف ، حسن الترتيب لما يجمعه ، وكان من خيار المعتزلة ، وقد صنف كتاباً كبيراً في أخبارهم^(٣) . وقد اتهم بالشيعة .

قال عنه ياقوت : كان ثقة ، صدوقاً . توفي على الأرجح سنة ٣٨٤ هـ .

* من أبرز شيوخه :

وقد تأثر المرزباني بأفضل علماء عصره فأخذ عنهم العلم . وكان أشياخه

(١) ترجمته في : الفهرست ، ص : ١٤٦ - ١٤٩ ، وتاريخ بغداد ٣/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والأنساب ٥/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، والمنتظم ١٤/ ٣٧٢ ، ومعجم الأدباء ٩/ ٢٦٨ - (دار الفكر) - وإنباه الرواة ٣/ ١٨٠ - ١٨٤ ، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٥٤ - ٣٥٦ ، والعبر ٣/ ٢٩ ، وتاريخ الإسلام (حوادث ٣٨٤ هـ) ، ص : ٨٦ ، وميزان الاعتدال ٦٧٢ - ٦٧٣ ، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٤٧ - ٤٤٨ ، والوافي بالوفيات ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٧ ، والبداية والنهاية ١١/ ٣٣٥ ، وطبقات النحاة لابن قاضي شعبة ، ص : ٢٢٣ ، ولسان الميزان ٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩ ، والنجوم الزاهرة ٤/ ١٦٨ ، وكشف الظنون ٢/ ١٧٣٤ ، وشذرات الذهب ٣/ ١١١ - ١١٢ ، وهديّة العارفين ٢/ ٥٤ ، وأعيان الشيعة ١٠/ ٣٣ ، وتاريخ بروكلمان ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤ ، والأعلام ٦/ ٣١٩ ، ومعجم المؤلفين ٦/ ٩٧ ، ومقدمات تحقيق كتبه .

(٢) المرزبان : الرئيس من الفرس ، وتفسيره بالعربية : حافظ الحد . المعرب ، ص : ٥٨٨ .

(٣) يراجع : إنباه الرواة ٣/ ١٨١ ، والوافي بالوفيات ٤/ ٢٣٦ .

يحضرون عنده في داره فيسمعهم ويسمع منهم. ومن أظهرهم : علي بن سليمان الأحفش الصغير (ت ٣١٥ هـ) ، وأبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي (ت ٣١٧ هـ) ، وأبو بكر محمد ابن دريد الأزدي (ت ٣٢١ هـ) ، وأبو عبد الله أحمد بن سليمان الطوسي (ت ٣٢٢ هـ) ، وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة الشهير بنفطويه (ت ٣٢٣ هـ) ، ومحمد بن أبي الأزهر (ت ٣٢٥ هـ) ، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) ، وأبو بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) ، وأبو عمر الزاهد المعروف بسلام ثعلب (ت ٣٤٤ هـ) ، وعلي ابن هارون المنجم (ت ٣٥٢ هـ).

* من أبرز طلابه :

وارتشف من علمه الغزير وأدبه الوفير العديد من العلماء والأدباء أخذوا عنه ، منهم القاضيان : أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري (ت ٤٣٦ هـ) ، وأبو القاسم علي بن المحسن التنوخي (ت ٤٤٧ هـ) ، وأبو محمد الحسن بن علي الجوهرري (ت ٤٥٤ هـ) ، وغيرهم .

* مؤلفاته :

وقد ترك لنا المرزباني مؤلفات كثيرة ضخمة^(١) أشاد بها كل من ترجم له . قال فيه الفطحي : «له التصانيف المشهورة في فنون الآداب والمعارف»^(٢) وقد طبعت بعض مؤلفاته ، وما يزال كثير منها مخطوطاً أو في حكم المفقود .

ومن آثاره المطبوعة :

١ - أخبار السيد الحميري^(٣) .

(١) يراجع مقدمة تحقيق (أشعار النساء) ، فقد بلغت مؤلفاته تسعة وخمسين كتاباً ، ص : ١١ -

١٧ .

(٢) إنباه الرواة ٣/ ١٨٠ .

(٣) حققه : محمد هادي الأميني - مطبعة النعمان - النجف - ١٩٦٥ .

٢ - أخبار شعراء الشيعة^(١) ، وقد نفى محققا كتاب أشعار النساء نسبة هذا الكتاب له^(٢) .

٣ - أشعار النساء^(٣) ، وهو أبرز كتاب وصل إلينا عن شعر النساء ، ولم يبق منه إلا الجزء الثالث الذي حقق .

٤ - معجم الشعراء^(٤) . «ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم ، وبدأ بمن أول اسمه ألف ، ثم بمن أول اسمه باء . . . إلى آخر الحروف^(٥) . وقد ضاع الجزء الأول منه - كما يقول محققه - والثاني فيه سقط ، فحرف العين ساقط منه ، وكذلك حرفا النون والواو . والكتاب في أصله يحوي ترجمة خمسة آلاف شاعر ، ولكن الجزء المتبقي منه لا يزيد على الألف إلا القليل . لذلك ، ألحق المحقق تكملة لشعراء ذكروا في معجم الشعراء ولا يوجدون في المخطوطة الناقصة ، فكان عددهم خمسين ومئتي شاعر ، ثم نص المحقق على الكتب التي ذكرها بجانب كل ترجمة^(٦) . وقد استفاد أحد الباحثين منها ، فنشر الأسماء الواردة مع الترجمة لها من مظانها وسماها : «مِنَ الضائع من معجم الشعراء»^(٧) .

(١) تحقيق محمد هادي الأميني - مطبعة الحيدرية - النجف - ١٩٦٨ .

(٢) انظر مقدمة تحقيق أشعار النساء ، ص : ١٦ .

(٣) حققه د . سامي مكي العاني وأ . هلال ناجي - عالم الكتب - بيروت - ١٩٩٥ ، ونشر قبل بغداد - ط ١ - ١٩٧٦ .

(٤) حققه د . عبد الستار فراج - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٦٠ . وذكر صاحب كشف الظنون أنه ذيله أبو البركات مبارك بن أبي بكر بن الستار (ت ٦٥٤ هـ) ، وسماه : (تحفة الوزراء المذبل على كتاب معجم الشعراء) . كشف الظنون ١٧٣٤/٢ . وقد صدر حديثاً بتحقيق د . فاروق اسليم ، وهي طبعة متقنة .

(٥) هدية العارفين ٥٤ / ٢ .

(٦) انظر مقدمة تحقيق المعجم ، ص : ج .

(٧) حققه د . إبراهيم السامرائي ، ونشره في مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٤ .

٥ - الموشح فيما أخذه العلماء على الشعراء^(١). وقد صنف فيه ما أنكره العلماء على بعض الشعراء في أشعارهم من الكسر واللحن والسناد والإقواء من عيوب الشعر. وقد سماه ياقوت: «الموشح فيما أنكره العلماء على الشعراء»^(٢)، وسنعول عليه في دراستنا.
ومن كتبه المفقودة:

١ - كتاب الشعر، ويشتمل على ما يتعلق بصناعة الشعر، وهو جامع لفضائله ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وعيوبه ونعت أجناسه ومعانيه^(٣).

٢ - الكتاب المستنير، وفيه أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من الشعراء المحدثين، أولهم بشار بن برد، وآخرهم عبد الله بن المعتز. ذكره ابن النديم^(٤)، وأورده ياقوت باسم: «أخبار الشعراء المشهورين»^(٥)، والقفطي^(٦).

٣ - الكتاب المفصل في البيان والفصاحة، ذكره الثعالبي^(٧) وابن النديم والقفطي باسم «المفضل»^(٨).

(١) تحقيق د. علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٥. وقد نشرته المطبعة السلفية أولاً في القاهرة ١٩٢٤ م.

(٢) معجم الأدباء ٩/٢٦٩.

(٣) الفهرست، ص: ١٤٧، ومعجم الأدباء ٩/٢٧٠، وإنباه الرواة ٣/١٨٢، والوافي بالوفيات ٤/٢٣٦.

(٤) الفهرست، ص: ١٤٦.

(٥) معجم الأدباء ٩/٢٧٠ (دار الفكر).

(٦) إنباه الرواة ٣/١٨٢.

(٧) ثمار القلوب ١/١٠٩.

(٨) الفهرست، ص: ١٤٧، وأعيان الشيعة ١٠/٣٣، وهدية العارفين ٢/٥٤، وإنباه الرواة ٣/١٨٣.

٤ - الكتاب المفيد . قال عنه القفطي : «وهو مفيد كاسمه»^(١) ، فيه أخبار الملقبين من شعراء الجاهلية والإسلام ، ودياناتهم ونحلهم . ذكر ابن النديم أنه نيفٌ وخمسة آلاف ورقة^(٢) .

٥ - كتاب المقتبس^(٣) ، وهو في أخبار النحويين البصريين ، وأول من تكلم في النحو وأخبار القراء والرواة من أهل البصرة والكوفة . قال ياقوت : يقع في نحو عشرين جزءاً^(٤) . وقال السيوطي في (شرح شواهد المغني) إن اسمه : «تاريخ النحويين» . وقد ذكره معظم من ترجم له . قال القفطي : «وهو وإن لم يتخصص بعلمي النحو واللغة ، فقد ألفت في أخبار جامعيها ومصنفيها والمتصدرين لإفادتها كتاباً سماه : (المقتبس)»^(٥) ، كما ذكره الصفدي^(٦) . وهو في حكم المفقود . وقد عني به العلماء ، وله منتخب بعنوان : «الشهاب القبس من كتاب المقتبس» - كما ذكره بروكلمان - انتخبه نجم الدين بشير التبريزي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . ولهذا المنتخب مختصر هو : «نور القبس من المقتبس»^(٧) ، اختصره اليعموري يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ الدمشقي (ت ٦٧٣ هـ) . ويبدو أنه اختصر عنوانه فسماه : (نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والقراء والرواة) . وللمقتبس اختيار ، اختاره الحسن ابن معاوية ، من رجال القرن السابع ، وسماه : (مختار من كتاب المقتبس في أخبار النحويين)^(٨) ، وهو موجود ، بينما «المنتخب» في حكم المفقود .

(١) إنباه الرواة ٣/ ١٨٢ .

(٢) الفهرست ، ص : ١٤٦ .

(٣) انظر مقدمة (نور القبس) ، ص : ١٧ - ١٨ . وكان بعضهم يسميه : (المقتبس الكبير) .

(٤) معجم الأدباء ٩/ ٢٦٩ .

(٥) إنباه الرواة ٣/ ١٨٢ .

(٦) الوافي بالوفيات ٤/ ٢٣٦ .

(٧) حققه رودلف زلهائم - فسادن - ١٩٦٤ .

(٨) بروكلمان ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤ .

المبحث الثاني : البلاغة عند المرزباني :

كتاب (الموشح) في مآخذ العلماء على الشعراء ، يتضح من عنوانه أنه كتاب نقدي وإن اتخذ البلاغة مقياساً من المقاييس التي يعتمد عليها ، فقد ذكر بعض الفنون البلاغية ولم تكن غرضاً بحد ذاتها ، وإنما في معرض كلامه على بعض الشعراء ، إذ أحسن بعضهم تناولها وعرضها العرض الصحيح ، وأساء بعضهم في استخدامه لها ولم يُجد تناولها وعرضها . وذكر رسالة ابن المعتز في مساوىء أبي تمام ، وأكثر النقل والأخذ عن ابن طباطبا في (عيار الشعر) ، وقدامة بن جعفر في (نقد الشعر). وكان يذكر مآخذ العلماء على الشعراء من دون أدنى تعليق أو تعليل ، وكان أحياناً أخرى يعلق على بعض الأمثلة الشعرية التي أوردها ، وما يتعلق بفنون البلاغة كان يأتي أثناء النقد .

ومن أبرز الأمور البلاغية التي عالجهما هو ما يتعلق بفصاحة الكلام ، وعدم اتباع حوشي الشعر ، ورداءة النسخ ، والبعد عن الصواب ، فكان يقول : «من عيوب الشعر حوشي الكلام» ، ويستشهد بأقوال لقدامة بن جعفر في (نقد الشعر)^(١) . كما تعرض لسخافة الألفاظ ورداءة النسخ والبعد عن الصواب من خلال نقده لأبيات البحتري في هجاء المستعين ، منها :

ولو أنا استطعنا لافتدينا قطوع الرقم منه بالبواري
بيد الرأح في يوم الندامى ويفني الزاد في يوم الخمار
قال المرزباني : «وهذه الأبيات من أقبح الهجاء ، وأضعفه لفظاً ، وأسمجه معنىً ، ولاسيما بيت البواري . وهي أيضاً خارجة عن طريقة هجاء الخلفاء والملوك المألوفة ، وهي بهجاء سفلة الناس ورعاعهم أشبه ، مع ما جمعت من سخافة اللفظ ، وهلهلة النسخ ، والبعد عن الصواب»^(٢) .

(١) الموشح ، ص : ٥٤٣ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٥١٤ .

وساق المرزباني أمثلة كثيرة للمعاني المستغلقة ، والألفاظ المستكرهة المستهجنة^(١) .

كما ذكر أمثلة لخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر : كالقلب أو المقلوب - كما مرّ ذكره معنا - فقد ذكر فن القلب عندما أورد بيتاً للمجنون يقول فيه :

يضم إلي الليل أطفال حبكم كما ضم أزرار القميص البنائق
وقال : «وهذا من المقلوب ، أراد : (كما ضمّ أزرار القميص البنائق) .
ومثل هذا كثير ، فجعل المجنون ما يأتيه في ليله مما عذب عنه في نهاره
كالأطفال الناشئة»^(٢) .

وتعرض المرزباني لبعض فنون البيان من تشبيهات للشعراء لم يوفقوا فيها ، وتشبيهات بعيدة . وقد مرّ أكثرها عند دراستنا لكتابي (عيار الشعر) ، و(نقد الشعر) وغيرهما . . .

ومن التشبيهات غير الجيدة التي لم يوفق أصحابها «قول ذي الرمة :

ما بال عينك منها الدمع ينسكب كأنه من كلى مفريّة سَرِبُ
وكيف عارضه الكميت لعدم إتيانه بالتشبيه الجيد . وتفسير ذلك بأن ذا الرمة يشبه شيئاً قد رأته عينه ، والكميت يشبه ما يوصف له ولم يره بعينه»^(٣) .

ثم ذكر المجاز المباعد للحقيقة ، والاستعارة ، وعرض لبعض الاستعارات القبيحة ، وبين سبب قبحها وعدم قبولها ، وساق بعض الأمثلة للاستعارة القبيحة ، وأنهم عابوا على أوس بن حجر قوله :

(١) يراجع : المصدر ذاته ، ص : ١٦١ - ١٦٣ .

(٢) الموشح ، ص : ٣٤ . وقد روي هذا القول عن الصولي ، وروي مرة أخرى مسنداً إلى المرزباني . الموشح ، ص : ١٢٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٣٠٧ .

وذات هدم عارٍ نواشزها تصمت بالماء تولباً جذعاً
 «لأنه أفحش الاستعارة بأن سمى الصبي تولباً». ومثله قول آخر :
 وما رقد الولدان حتى رأيتُه على البكر يمريره بساق وحافرٍ
 فسمى رجل الإنسان حافراً ، وقالوا : وكل ما جرى هذا المجرى من
 الاستعارة قبيح لا عذر فيه»^(١).

كما تعرض لبعض فنون البديع ، فذكر المطابقة غير الحسنة^(٢) ، وفساد
 المقابلات^(٣) . ونقل عن قدامة بن جعفر فساد المقابلات وفساد التقسيم^(٤) .

وذكر المبالغة والإفراط والغلو ، فأورد أمثلة للشعراء بالغوا فيها
 وأفرطوا ، ثم أورد تعقب العلماء لهم ، فأتى برأي الإمام ثعلب فيما عيب على
 قيس بن الخطيم ، قال : «حدثني بعض أصحابنا عن أبي العباس أحمد بن
 يحيى (ثعلب) قال : مما يعاب على قيس بن الخطيم قوله^(٥) :

كأنها عود بانة قَصَفُ

«لأن المرأة إنما تشبه بالعود المثني ، لا بالتقصف»^(٦) . قال المرزباني :

«فأخذه ابن أبي فنن ، فقال في وصف الخادم الصغير :

لا تَمِيلَنَّ فـإِنِّي خَائِفٌ أَنْ تَتَقَصَفُ

قال ابن الرومي في هذا البيت : «إنما أراد أن يميل من لينه ونعومة

أعضائه ، فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف ، وإنما

(١) المصدر ذاته ، ص : ٨٨ ، ٤٧٢ ، ٤٩٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٧١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٢٦ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٢٤ ، ٢٠٥ .

(٥) الأصمعيات ، ص : ١٥٧ . وصدر البيت : «حوراء جيداء يستضاء بها» .

(٦) الموشح ، ص : ١١٧ .

كان ينبغي أن يقول : لو عُقد لانعقد من لينه فضلاً من أن يميل وهو سليم من التقصّف»^(١).

وضرب المرزباني أمثلة للمبالغة والإفراط والإغراق ، مرّ معنا بعضها عندما ذكرنا المبالغة وموقف العلماء منها ، فقد أورد قول الصولي عندما نقل رأي مسلم بن الوليد في أبي نواس وإغراقه في المبالغة فقال إن أبا نواس يُحيل ، ويصف المخلوقين بصفة الخالق عز وجل . فمما يحيل فيه قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق وأورد قول العتابي في أبي نواس كذلك عندما قال : «هو ، والله ، شاعر ظريف ، مليح الألفاظ ، إلا أنه تمادى في حب البديع فأفرط فيه»^(٢) . كما أورد قول المبرد فيه : «قد استظرف الناس قول أبي نواس في قدر الرقاشي ، ولا أراه حلواً لإفراطه ، وهو :

ودهماء ترسيها رقاش إذا شئت مـركنة الآذان أم عيال ويستجيده خلق كثير ، وليس عندي بمحمود لما فيه من الإفراط»^(٣) .

وحشد المرزباني أمثلة كثيرة للمبالغة والغلو والإفراط في التشبيهات البعيدة التي لم يوفق أصحابها ، فنقل أقوال ابن طباطبا وانتقاداته لكثير من الشعراء ، أمثال النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وخفاف بن ندبة وبشر بن أبي خازم . وبعد أن جمع هذه الأمثلة على التشبيهات البعيدة من أقوال أبي هلال في (كتاب الصناعتين) ، وابن طباطبا في (عيار الشعر) ، وقد مرّ معنا بعض هذه الأمثلة^(٤) ، ختمها بقول ساعدة بن جؤية :

(١) المصدر ذاته ، ص : ٥٣١ - ٥٣٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٤٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٤١ - ٤٤٢ .

(٤) يراجع : المصدر ذاته ، ص : ١١٠ - ١١٢ .

كساها رطيب الريش فاعتدلت له قداخ كأعناق الطباء زفازف
«شبه السهام بأعناق الطباء ، ولو وصفها بالدقة كان أولى» .

وكان كثير من العلماء يرون المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الأوسط . وفي هذا يقول : أورد المرزباني قول كثير لعبد الملك في مدحته^(١) :
على ابن أبي العاصي دلاصٌ حصينةٌ أجاد المسدي سردها وأذالها
يؤود ضعيف القوم حملٌ قتيرها ويستضلع القرمُ الأشم احتمالها
فقال له عبد الملك : «قول الأعشى لقيس بن معديكرب أحب إلي من قولك إذ تقول» . فقال : «يا أمير المؤمنين! وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرف والتغير ، ووصفتك بالحزم والعزم» ، فأرضاه .

قال المرزباني : «ورأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثير ، لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الوسط ، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جنة ، على أنه ، وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي وصف الأعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه ، لأن الصواب له ولا لغيره إلا لبس الجنة ، وقول كثير يقصر عن الوصف»^(٢) .

كما ذكر التضمين فقال : «وعابوا على امرئ القيس قوله وهو مضمن :

أبعد الحارث الملك ابن عمرو وبعد المَلِكِ حُجْرٍ ذي القباب
أُرْجِي من صروف العيش لينا ولم تغفل عن الصم الهضاب^(٣)

(١) ديوان كثير ، ص : ٨٥ . يؤود : ينقل . القتير : رؤوس المسامير في الدروع . يستضلع : يجده مضلعاً ، أي : مثقلاً بأضلاعه . القرم : السيد الشجاع . ورويت : [الطرف الأشم] ، والطرف : الحصان .

(٢) الموشح ، ص : ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٣ .

فقال عن التضمين : « . . . وكان عندهم يرادف الاقتضاء » ، وذكر قولاً لأحدهم عن التضمين : « . . . فليس ذا بمعيب عندهم وإن كان مضمناً ، لأن التضمين لم يحلل قافية البيت الأول . وهذا عند نقاد الشعر يسمى الاقتضاء ، أن يكون في الأول اقتضاء للثاني ، وفي الثاني اقتصار إلى الأول »^(١) .

وقد ساق المرزباني كثيراً من الأمثلة ليكشف لنا عن أقوال الشعراء وما أخذ العلماء عليهم ، وهذه الآراء النقدية ، في معظمها ، اعتمدت على مقاييس بلاغية ، واتخذت فنون البلاغة معياراً لها لتحكم على آثار الشعراء .

المبحث الثالث : النقد عند المرزباني :

تبين لنا في المبحث السابق أن كتاب (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) كتاب نقدي وإن جعل بعض فنون البلاغة معياراً من معاييرهِ . وقد ذكر بعضهم أن المرزباني ألف (كتاب الشعر) لبيان محاسن الشعر وأوزانه وأجناسه وضروبه وبيان منحوه ومسروقه ، كما ألف (الموشح) لبيان ما أنكره العلماء على بعض الشعراء من كسر ولحن وعيوب شعر^(٢) . وكذلك نجد آراء المرزباني مبثوثة في كتابه (معجم الشعراء) ، إذ تكلم فيه عن الشعراء الجاهليين مبتدئاً بامرئ القيس ، ثم النابغة الذبياني ، ثم زهير بن أبي سلمى ، ثم الأعشى ، ثم طرفة بن العبد ، ثم بشر بن أبي خازم ، ثم بالشعراء المخضرمين وإن لم يسمهم بهذا الاسم ، كحسان بن ثابت ، ولبيد بن ربيعة رضي الله عنهما . ثم ذكر جماعة من الشعراء القدامى . ثم عرّج على الشعراء الإسلاميين ، أمثال : الفرزدق ، وجري ، والأخطل ، وكثير بن عبد الرحمن . وكان عندما يترجم للشاعر يبدي رأيه ، ويصدر بعض الأحكام النقدية

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٩ .

(٢) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام ، أ . د . محمود الربادوي ، ص : ٣٣١ .

عليه ، فيعرف الشاعر باختصار ، ويختار أنموذجاً له من شعره ، أو يختار مقاطع قصيرة له . وهذه الأمثلة الجيدة التي يختارها كانت تمثل شخصية الشاعر وأبرز أغراضه من جهة ، وتنم عن ذوق المرزباني في اختياره من ناحية أخرى ، فكان يقوم الشعراء أحياناً . وهي لمحات عارضة قليلة تمثل ذوقه النقدي ، وأحياناً أخرى كان يورد أخباراً جزئية أو عامة جداً ، ويشرح بعض الأشعار الواردة ، فيميل إلى النقد التطبيقي بتحليله بعض النصوص ، أو يشير إلى موضوعات شعر الشاعر ، وما يتميز به ، فينتقي أفضل قصائده ، وأجود ما قاله .

وقد تخللت (الموشح) نظرات نقدية كثيرة ، إذ إنه أفرد فصلاً لأبي نواس ، وآخر لأبي تمام ، وذكر رسالة ابن المعتز في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه ، استمد منها كل من نقد أبا تمام ، كالقرطبي (ت ٣١٩ هـ) - مثلاً - في رسالته (أخطاء أبي تمام).

وكان المرزباني يكثر من النقل عن (البديع) لابن المعتز ، وعن (عيار الشعر) وما قاله ابن طباطبا ، و(نقد الشعر) لقدامة بن جعفر ، وأقوال الصولي من (الأوراق) ، ومن (أخبار أبي تمام) ، و(أخبار البحري).
وأبرز القضايا التي تناولها المرزباني : قضية اللفظ والمعنى ، وقضية القدم والحداثة ، وقضية الطبع والصنعة ، وقضية السرقات الشعرية .

وقد ذكر المرزباني عيوب معاني الشعر ، وأورد أقوال قدامة بن جعفر^(١) ، وما عيب على الشعراء في ذلك ، ثم أورد عيوب ائتلاف اللفظ والمعنى^(٢) ، وكذا العيوب العامة للمعاني^(٣) ، والألفاظ المستكرهة الرديئة النسج ، القلقة

(١) يراجع : الموشح ، ص : ٣٦٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٣٦٣ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٣٦٧ .

في قوافيها ، وساق لها أمثلة من (عيار الشعر) وما قاله ابن طباطبا عن ذلك . ونقل عن الشعراء استعمالهم الوحشي الغريب ، وأتى بشواهد لابن المعتز عندما حكم على شعر أبي تمام ضمن رسالته في (محاسن أبي تمام ومساوئه) . وقد مرّ معنا أكثر هذه الآراء في الفصل المخصص لابن المعتز .

وتناول المرزباني قضية القدم والحدائث ، فأفرد الباب الثالث في موشحه للشعراء المحدثين ، أمثال بشار بن برد ، وأبي العتاهية ، وأبي نواس ، ومسلم ابن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، وكلثوم بن عمرو العتابي ، وبكر بن النطاح ، ودعبل الخزاعي ، وأبي تمام ، والبحثري ، وابن الرومي .

وعرض لمآخذ العلماء النقاد على أشعار هؤلاء ، إذ يعيبون عليهم الضعف والركاكة والسوقية ، كأشعار أبي العتاهية ، وما عيب على بعضهم كاستعماله الحوشي قاصداً به الإغراب كما في شعر أبي تمام الطائي ، وكيف كان يكثر من البديع ، وأخذ عليه المبالغة والغلو والإفراط ، وغيره من الشعراء المحدثين الذين أغرقوا في المعاني^(١) . ونقل قول ابن النطاح في المبالغة من كلام المبرد قال : «في المحدثين إسراف وتجاوز وغلو وخروج عن المقدار ، من ذلك قول بكر بن النطاح :

تمشي على الخبز من تنعمها فتشكي رجلها من النَّزْفِ
لومرّ هارون في عساكره ما رفعت طرفها من الشُّجْفِ^(٢)

وأورد رأي ابن الأعرابي فيهم ، قال : «... إنما أشعار هؤلاء المحدثين ، مثل أبي نواس وغيره ، مثل الريحان ، يشم يوماً ويذوي فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيباً»^(٣) . ويُروى

(١) الموشح ، ص : ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٥٦ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٣٨٤ .

عن المبرد أن رجلاً أنشده شعراً لأبي نواس أحسن فيه ، فسكت ، فقال له الرجل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ، ولكن القديم أحب إلي^(١) .

وعندما عرض لقضية الطبع والصنعة ، قال في ترجمة إبراهيم بن المهدي : «... وهو شاعر مطبوع أكثر»^(٢) .

وعندما ذكر الشاعر أبا عيينة قال : «... وأبو عيينة هذا من أطبع الناس ، وأقربهم مأخذاً في الشعر ، وأقلهم تكلفاً»^(٣) .

وحكم على امرئ القيس بأنه حسن الطبع ، جيد القريحة . وكثيراً ما كرر هذه المعاني ، فيعلق على أبيات امرئ القيس في وصف الليل قائلاً : «... وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيت اشتمل الإحسان عليها ، ولاح الحذق فيها ، وبان الطبع بها ، فما فيها مُعاب إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذاق بنقد الشعر وتمييزه»^(٤) . وقد ذكر ذلك مخافة أن يظن بعض الناس أنه أغفله .

وكان يسوق الموازنات ، ويبرز ثقافته الواسعة ، وعلمه بالشعر والشعراء ، وأخبارهم ، ومحاسن شعرهم ، ومآخذ العلماء عليهم ، فيقول مثلاً : «... ومما أنكر على أبي العتاهية من سفاسف شعره ، قوله في عتبة :

دَلَّهْنِي حُبُّهَا وَصَيَّرَنِي مثل جُحَى شَهْرَةَ وَمَخْشَلَبَةَ»^(٥)

ونراه يحكم على ابن حمدويه بأنه مليح الشعر ، حسن

(١) المصدر ذاته ، ص : ٣٨٤ .

(٢) من الضائع من معجم الشعراء ، ص : ١٣ .

(٣) معجم الشعراء ، ص : ١١٠ .

(٤) الموشح ، ص : ٣٤ - ٣٥ ، ١٢٨ .

(٥) الموشح ، ص : ٤٠١ .

التضمين^(١).

وفيما سبق دليل على علم المرزباني بالشعر وفنونه وأغراضه ، واستحضاره ، فعندما مدح ابن الرومي أبا الصقر ، قال أبو الصقر : « والله ، لا أتبيه على هذا الشعر وقد هجاني فيه . فقال المرزباني : وهذا ظلم من أبي الصقر لابن الرومي ، وقلة علم منه بالفرق بين الهجاء والمدح^(٢) .

وعندما روى خبر الصولي ، وهو قوله : « ما أحسن عندي أبو سعد المخزومي في قوله :

أشيب ولم أقض الشباب حقوقه ولم يمض من عهد الشباب قديم
لأنه ذكر الشباب في هذا البيت مرتين ، وكان يجب أن يغير الأول أو الثاني . فقال المرزباني : وللبحتري مثله ، وهو قوله :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس^(٣)

كما كان المرزباني يطلق بعض الأحكام المتعلقة بالشعر والشعراء من حيث الجودة والرداءة والحسن والقبح ، فيقول : « . . . وقد أكثر الشعراء في وصف جيد الشعر على تناول الأيام وغابر الزمان . ومن أحسن ما جاء فيه قول دعبل :

يقولون : إن ذاق الردي مات شعره وهيهات عمر الشعر طالت طوائله
سأقضي بيت يحمد الناس أمره ويكثر من أهل الرواية حامله
يموت رديء الشعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائله^(٤)

(١) من الضائع من معجم الشعراء ، ص : ٢٠ .

(٢) الموشح ، ص : ٥٤٦ .

(٣) الموشح ، ص : ٥٣٠ . الجدا والجدوى : العطية ، وجداه جدواً ، واجتداه : سأله حاجة .
القاموس (مادة : جدو) . والجيس : الجامد الثقيل الروح والجبان . القاموس (مادة : جيس) .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٥٧٦ .

وعندما ترجم لابن الرومي ، أظهر اقتداره ، وجعله في المرتبة التي هو أهل لها. قال عن علي بن العباس الرومي : «أشهر أهل زمانه بعد البحري ، وأكثرهم شعراً ، وأحسنهم أوصافاً ، وأبلغهم هجاء ، وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه ، ويركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره ، ويلزم نفسه ما لا يلزمه ، ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجمل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ...»^(١).

ويذكر المرزباني لابن الرومي إجادته في وصف السيف ، فيقول : «... وله في وصف السيف ، وهو غاية في معناه :

تسيم بروق الموت في صفحاته وفي حده مصداق تلك المخايل»

ونراه مرة أخرى يفاضل بينه وبين الشعراء في ذكر الأوطان ، فيقرر أن ابن الرومي زاد عليهم ، فيقول في ذلك : «... وقد أكثر الشعراء في ذكر الأوطان ومحبتها والشوق إليها ، فجاء ابن الرومي - مع قرب عهده - فذكر الوطن ، ويبيّن عن العلة التي لها يُحب ، فزاد عليهم أجمعين ، وجمع ما فرقوه في أبيات من قصيدة يخاطب بها سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد أراد بيع منزله^(٢) :

ولي وطن آليت ألا أبيعَه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

ونسמע مرة ثالثة يحكم بالحسن على شعر علي بن الجهم ، والإساءة على شعر محمود الوراق ، فقال : «اشترك محمود وعلي بن الجهم في معنى قول علي ، وأحسن فيه :

كم من عليل قد تخطاه الردى فنجا ، ومات طبيبه والعودُ

وقول محمود :

(١) معجم الشعراء ، ص : ١٤٥ .

(٢) معجم الشعراء ، ص : ١٤٦ .

وكم من مريض نعاه الطيب إلى نفسه ، وتولّى كثييراً
فمات الطيب وعاش المريض فأضحى إلى الناس ينعى الطيباً
فأساء فيه ، لأنه إن كان أخذه من علي ، وجاء به في بيتين ، ومضغه
وصيره قصصاً بقوله : (أضحى ينعاه إلى الناس) فقد أخطأ ، وإن كان علي
أخذه منه ، فقد جاء به في بيت واحد وأحسن ، فصار أحق بالمعنى منه ،
فأخذه جميعاً من قول عدي بن زيد :

وصحيح أضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموت ممن يعود^(١)
وهذا يقودنا إلى قضية الأخذ والسرقه ، وضلّاعته بهذا الموضوع . لقد كان
المرزباني على علم واسع بالشعر ، وذا دراية به ، يصحح الروايات ، ويدقق
في نسبة الشعر إلى قائله ، ويذكر سرقات الشعراء . وهذا يدل على سعة
محفوظه ، وتمكّنه من الشعر .

وفي هذا الباب ، يسوق لنا خبراً لأبي الحسن علي بن هارون يقول فيه :
«ابتدأ إسحاق في قصيدته التي امتدح بها الواثق قوله :
ضنّت سعاد غداة البين بالزاد وأخلفتك فما توفي بميعاد
وما أعجب أمر إسحاق في هذا الابتداء واستجازته إياه ، أخذه نقلاً مع
علمه بقبیح ما في السرقة الذي هذه سبيله ! قال الأحوص :

ضنت سعاد غداة البين بالزاد وآثرت حاجة الثاوي على الغادي
قال الشيخ المرزباني - رحمه الله تعالى - : «هكذا قال أبو الحسن ،
والرواية المشهورة الصحيحة في بيت الأحوص : (ضنت عقيلة لما جئت
بالزاد).»^(٢)

(١) الموشح ، ص : ٥٣٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٦١ .

وعندما ذكر ما أخذه العلماء على الشعراء ، رُوي له هذان البيتان :

وإذا الدرُّ زان حسن وجوهٍ كان للدرِّ حسنُ وجهك زينا
وتزيدين طيبَ الطيب طيباً إن تمسيه ، أين مثلك أيننا؟!
فقال : «البيتان لمالك بن أسماء»^(١) . وهذا الحكم يعود إلى كونه عالماً
بالشعر ، حافظاً له ، فتمكن من أن ينسب البيتين إلى قائلهما .

وقد ساق لنا المرزباني كثيراً من سرقات أبي تمام ، وسرقات البحثري من
أبي تمام - وهي نحو خمس مئة بيت شعر - ورأي دعبل الخزاعي في شعر أبي
تمام ، وأن كثيراً من شعره مسروق ، خاصة قصيدته في رثاء محمد بن حميد
الطوسي . ولكنه لم يأت بشيء جديد ، فمعظم هذه الشواهد قد مرّ معنا في
بحثنا عن سرقات أبي تمام في كتب النقد السابقة .

ويبقى الفضل لأبي عبيد الله المرزباني بأنه كان جماعة ، إذ جمع لنا كثيراً
من مآخذ النقاد على الشعراء ، لكن لم نجد شخصيته النقدية واضحة تمام
الوضوح ، وإن سطعت مشيرة إلى كثرة محفوظه ، وسعة اطلاعه وعلمه الغزير
بالشعر وفنونه ومآخذه .

(١) الموشح ، ص : ٣٤٥ .

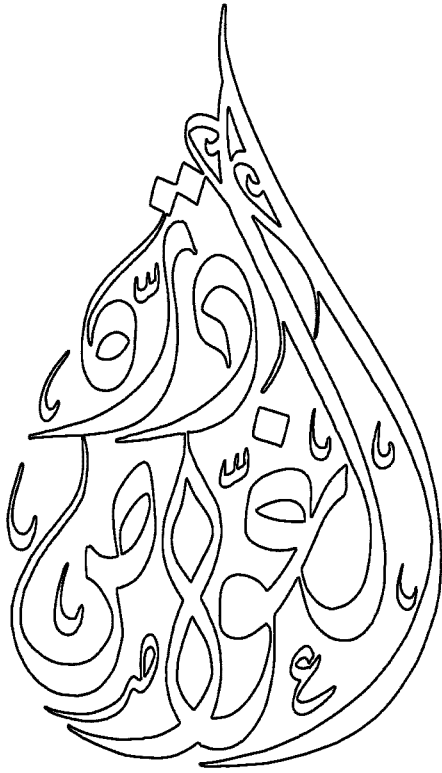
الفصل السادس

العلاقة بين البلاغة والنقد عند

القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني

(ت 392 هـ)

- المبحث الأول : التعريف بالقاضي الجرجاني .
- المبحث الثاني : البلاغة عند القاضي الجرجاني .
- المبحث الثالث : النقد عند القاضي الجرجاني .



المبحث الأول : التعريف بالقاضي الجرجاني^(١) :

* نسبه ومكانته :

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي . كان أديبا ، شاعرا ، مؤرخا ، مفسرا ، خطاطا ، كاتباً . سمع الحديث ، وترقى في العلوم ، وكان قاضي الري أيام صاحب بن عباد . قال عنه الثعالبي : «حسنة جرجان ، وفرد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حدقة العلم ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر . جمع خط ابن مقلة ، ونثر الجاحظ ، ونظم البحترى»^(٢) .

- (١) ترجمته في : تاريخ جرجان ، ص : ٣١٨ ، وبيمة الدهر ٣/٤ - ٢٦ ، والفهرست ، ص : ١٦٧ ، وطبقات العبادي ، ص : ١١١ ، وطبقات الشيرازي ، ص : ١٢٩ - ١٣٠ ، والمتنظم ٣٤/١٥ - ٣٦ ، ومعجم الأدباء ٤/١٥٨ ، ووفيات الأعيان ٣/٢٧٨ - ٢٨١ ، والمختصر في تاريخ البشر ٢/١٣٦ ، وتاريخ الإسلام ، وفيات (٣٨١ - ٤٠٠ هـ) ، ص : ٢٧١ - ٢٧٢ (دار الكتاب العربي) ، وسير أعلام النبلاء ١٧/١٩ - ٢١ ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٩/١٩١ - ١٩٢ ، والوافي بالوفيات ١٢/٩٧ - ٩٨ ، ومراة الجنان ٢/٣٨٦ ، وطبقات السبكي ٣/٤٥٩ - ٤٦٢ ، وطبقات الإسني ١/٣٤٨ - ٣٥١ ، والبداية والنهاية ١١/٣٥٤ ، وطبقات المعتزلة ، ص : ١١٥ ، وطبقات ابن قاضي شهبة ١/١٣٦ والنجوم الزاهرة ٤/٢٠٥ ، وطبقات المفسرين للدواودي ١/٤١٤ ، وكشف الظنون ١/٧٢٨ ، ١٤٧١ ، ٢٠٠٦/٢ - ٢٠٠٧ ، وشذرات الذهب ٤/٣٥٣ - ٣٥٥ ، وهدية العارفين ١/٦٨٤ ، وتاريخ بروكلمان ٢/٢٧٠ - ٢٧١ ، والأعلام ٤/٣٠٠ ، ومعجم المؤلفين ٧/١٢٣ (دار إحياء التراث العربي) ، وتاريخ التراث العربي م ٢/ج ٥١/٢ .
- والدراسات عنه : القاضي الجرجاني ، د. أحمد بدوي ، والقاضي الجرجاني الأديب الناقد ، د. محمود السمرة ، والقاضي الجرجاني والنقد الأدبي ، د. عبده عبد العزيز قلقيلة ، والوساطة في حكومة القاضي الجرجاني ، د. عبد المنعم خفاجي .
- (٢) بيمة الدهر ٣/٤ وما بعدها .

أخذ العلم عن شيوخ نيسابور ، ثم تنقل في البلاد ، وعاش في بغداد ، وعاد إلى الري ، وتوفي فيها . ولم تذكر لنا كتب التراجم أسماء بارزة لشيوخه أو تلاميذه رغم وفرة علمه وتنوع ثقافته واتساع معرفته ، إلا ما ذكره ياقوت عن تلميذه عبد القاهر الجرجاني ، « فعندما كان عبد القاهر يذكر شيخه القاضي في كتبه يتبخخ به ويشمخ بأنفه بالانتماء إليه»^(١) . وقد وهم ياقوت ، فكل من ترجم لعبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) لم يذكر القاضي علياً ضمن شيوخه ، وسرى هذا الوهم إلى كتابنا المعاصرين^(٢) .

* مؤلفاته :

ترك لنا الجرجاني بعض المصنفات في علوم شتى ، من أهمها :

١ - تفسير القرآن المجيد^(٣) .

٢ - تهذيب التاريخ^(٤) .

٣ - ديوان شعر^(٥) . قال فيه فؤاد سزكين إنه كان موجوداً حتى القرن السابع^(٦) ، والواقع أنه كان موجوداً أيضاً في القرن الثامن ، فقد ذكره السبكي عند ترجمته للقاضي وقال : « جمع بين الفقه والشعر ، وله ديوان مشهور»^(٧) .

(١) معجم الأدباء ١٥٩/٤ .

(٢) انظر مقدمة تحقيق ديوانه ، ص : ٢٥ - ٢٧ .

(٣) ذكره ياقوت ١٥٨/٤ ، والذهبي في السير ٢١/١٧ ، والداودي في طبقات المفسرين ٤١٤/١ .

(٤) ذكره الثعالبي في التيممة ، ونقل عنه ، والذهبي في تاريخ الإسلام ، وقال السهيمي في تاريخ جرجان : صنف تاريخاً . وذكر بعضهم أنه اختصار لتاريخ الطبري . وقيل : سماه : صفوة التاريخ .

(٥) ذكره ياقوت ١٥٨/٤ ، والشيرازي في طبقاته ، ص : ١٣٠ ، وابن خلكان . وقال ابن الجوزي في المنتظم : وله أشعار حسان ٣٤/١٥ .

(٦) تاريخ التراث العربي م ٢/٤ ج ٢٥٢ .

(٧) طبقات السبكي ٤٥٩/٣ .

وقد توفي السبكي سنة ٧٧١ هـ. وهذا يعني أنه كان متداولاً معروفاً في القرن الثامن ، بل بقي متداولاً في القرنين التاسع والعاشر ، فقد ذكره الداودي (ت ٩٤٥ هـ) ، وقال فيه : «له ديوان مشهور كبير»^(١). وقد ضاع هذا الديوان ، وبقي قليل منه مذكوراً في يتيمة الدهر ومعجم الأدياء وبعض المصادر . وقد جمع أشعاره المتبقية من مظانها وحققها ودرسها أحد الباحثين المعاصرين^(٢).

٤ - الرؤساء والجلة^(٣) .

٥ - الوكالة . وفيه أربعة آلاف مسألة ، وذكر هذا الكتاب في معظم كتب طبقات الفقهاء التي ترجمت للقاضي^(٤) .

٦ - الوساطة بين المتبني وخصومه . وهو أشهر كتبه ، مطبوع^(٥) . وسنعول عليه في دراستنا لإثبات الصلة بين البلاغة والنقد عنده .

* وفاته :

ذكر معظم من ترجم له ، كابن الجوزي وياقوت ، وفاته سنة ٣٩٢ هـ ، وقال الذهبي : «وهم ابن خلكان وصحح كما قال الحاكم (أي : النيسابوري في تاريخ نيسابور) أنه توفي سنة ٣٦٦ هـ ، وقال : نقل الحاكم أثبت»^(٦) .

-
- (١) طبقات المفسرين ١/٤١٤ .
 - (٢) ديوان القاضي الجرجاني ، جمع وتحقيق ودراسة أ. سميح إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ٢٠٠٣ .
 - (٣) ذكره الثعالبي في لطائف المعارف ، ص : ٢٣٢ ، وفي تحسين القبيح : «الجلة والرؤساء» ، ص : ١٢٠ .
 - (٤) شذرات الذهب ٤/٣٥٤ ، وتاريخ الذهبي ، حوادث (٣٨١ - ٤٠٠ هـ) ، والسير ١٧/٢١ .
 - (٥) طبع مرارا ، منها بتحقيق يحيى الشاذلي ، ثم بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوي ، ونشر في مكتبة البابي الحلبي - ط ١ - ١٩٥١ ، وط ٢ - ١٩٦٦ . وما زالت تتوالى طبعاته في مصر ولبنان .
 - (٦) المنتظم ١٥/٣٦ ، ووفيات الأعيان ٣/٢٨١ ، وسير أعلام النبلاء ١٧/٢١ .

وحقق الزركلي تاريخ وفاته سنة ٣٩٢ هـ ، ومال إليه الدكتور أحمد بدوي مع من رجح ذلك اعتماداً على قول الثعالبي : «وتصرفت به أحوال في حياة صاحب وبعد وفاته ، وقد توفي صاحب سنة ٣٨٥ هـ»^(١) ، كما أن أصحاب الطبقات جعلوه في طبقة الذين توفوا بعد التسعين وثلاثمائة .

المبحث الثاني : البلاغة عند القاضي الجرجاني :

أثار أبو تمام الطائي وأبو الطيب المتنبي ، بما يتسم شعرهما مع الأصالة والجرأة والإبداع الشعري ، مناقشات ومجادلات عنيفة أذكت روح النقد في القرن الرابع الهجري ، وتعلق كل فريق بمن يراه مصيباً فيما ذهب إليه ، وتعصب من تعصب ، فأدى كل ذلك إلى إغناء المكتبة في مجال النقد^(٢) ، فجاء القاضي أبو الحسن الجرجاني ليؤلف كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) . وقد ذكر الثعالبي أن القاضي الجرجاني ألف (الوساطة) رداً على صاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) عندما ألف رسالته في مساوئ المتنبي^(٣) . ويرفض د . السمرة هذا القول قائلاً : «وليس كتاب الوساطة رداً على صاحب

(١) القاضي الجرجاني ، د . بدوي ، ص : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) إذا استعرضنا التاريخ النقدي لرأينا ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في كتابه (الشعر والشعراء) يتجنب الكلام والخوض مطلقاً حول أبي تمام (ت ٢٢٨ هـ) . لكن ، عندما انتشرت ظاهرة الشعر المحدث ، انبرى ابن المعتز وألف عام ٢٧٤ هـ (كتاب البديع) ، كما ألف (طبقات الشعراء المحدثين) ، و(سرقات الشعراء) ، وألف (رسالة في مساوئ أبي تمام) . وجاء بعده قدامة ابن جعفر ، فرد عليه برسالة عنوانها : (الرد على ابن المعتز فيما خطأ به أبا تمام) . وألف معاصرهما الصولي (ت ٣٣٥ هـ) : (أخبار أبي تمام) ، و(أخبار البحري) ، وقد تعصب لأبي تمام . ثم جاء الأمدي (ت ٣٧٠ هـ) ليوازن بين الشاعرين ، وترجح كفة البحري عنده . وتوالت الكتب التي ألفت في سرقات الشعراء ، والأصوات حول شعر المتنبي بين مباح وقادح ، فنشطت الحركة النقدية ، كما اشتدت الحركة النقدية من قبل حول أبي تمام والبحري وأيهما أشعر ؟

(٣) يتيمة الدهر ٤ / ٤ .

ابن عباد كما قال صاحب اليتيمة وجاراه بلاشير ، وإنما هو صدى للحياة النقدية في عصر الجرجاني التي دفعته إلى تأليف كتابه ، ولم يكن الصاحب سوى حافز من حوافز عدة^(١) .

وليس كتاب الوساطة مختصا بشعر المتنبي كما يفهم من عنوانه ، بل إنه عرض للأصول الأدبية التي عرفت في عصره ، وحلل أشعار القدماء والمحدثين ، وأورد كثيرا من محاسنهم وعيوبهم ، وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض وأخذ وسرقة واستعارة حسنة أو رديئة ، ثم عرض للبيئة وأثرها في الشعر ، ثم عرض لخصوم المتنبي وأنصاره^(٢) . كل ذلك سببته في هذا الفصل للكشف عن العلاقة بين البلاغة والنقد عند القاضي الجرجاني .

تحدث القاضي الجرجاني عن فنون بلاغية من خلال نقده وحكمه على أشعار الشعراء^(٣) ، فقد تكلم على بعض الفنون البيانية عندما ذكر التكلف والإفراط في استخدام البديع ، فذكر الفرق بين الاستعارة والتشبيه ، وأولى اهتماماً خاصاً بالاستعارة ، ثم ذكر الإفراط في استخدام الاستعارات ، وضرب

(١) يراجع : القاضي الجرجاني الأديب الناقد للدكتور محمود السمرة ، ص : ١١١ ، والقاضي الجرجاني للدكتور أحمد بدوي . ويلاحظ أن بعضهم غلب أن يكون الجرجاني ألف الوساطة بعد وفاة المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) لأن الذي مدح كتابه الوساطة من النيسابوريين ، خاطبه بالقاضي ، وهو لم يتعين قاضيا إلا بعد سنة ٣٦٦ هـ ، أي في السنة التي عين فيها الصاحب وزيرا . يراجع د . أحمد بدوي في كتابه المذكور ، ص : ٥٠ . ويرجح آخرون أنه ألفها بعد وفاة الصاحب ، لأن القاضي ذكر اسم الصاحب دون أن يقرن اسمه بالوزير . والذي يعنينا من هذا كله إثبات تأخر القاضي في تأليف وساطته والوقوف بجانب من غلب تأخر وفاته إلى عام ٣٩٢ هـ .

(٢) مقدمة تحقيق الوساطة ، ص : د .

(٣) كان القاضي الجرجاني ينوي أن يستوفي الكلام على الفنون البلاغية وتحديد أضربيها في كتاب ، فقال : «... ولنا في استيفاء هذا الكلام وتحديد هذه الأضراب قول سنفرده له كتابا ، ويحتمل استقصاؤه فيه . الوساطة ، ص : ٤٦ .

أمثلة للاستعارة الحسنة والسيئة ، إذ إن كثيرا ممن كان قبله لم يكونوا يستطيعون التمييز الدقيق بين التشبيه البليغ والاستعارة ، فيجعلون أمثال هذا البيت استعارة ، وهو قول أبي نواس :

والحُبُّ ظَهْرٌ أَنْتَ رَاكِبُهُ فَإِذَا صَرَفْتَ عِنَانَهُ انصرفا
يقول القاضي : «ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أي الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل ، أو تشبيه شيء بشيء»^(١). لذلك ، نرى الجرجاني يفسر الاستعارة بقوله : «وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر»^(٢).

وساق الجرجاني أمثلة كثيرة للاستعارات الحسنة كما في قوله : «فإذا جاءتك الاستعارة كقول مسلم :

ولما تلاقينا قضى الليل نجه
وقول البحري :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر
فقد جاءك الحسن والإحسان ، وقد أصبت ما أردت من إحكام الصنعة
وعذوبة اللفظ ، على أن لفظة (تكسر) حضرية مولدة»^(٣).

ثم ساق أمثلة متنوعة للاستعارة من أبيات لأبي تمام وغيره ، وقال :

(١) الوساطة ، ص : ٤١ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ .

«... فإذا سمعت بقول أبي تمام :

إلى ملك في أيقة المجد لم يزل على كبد المعروف في نيله برُد
فاسد مسامعك ، واستغش ثيابك ، وإياك والإصغاء إليه ، واحذر
الالتفات نحوه ، فإنه مما يصدىء القلب ويعميه ، ويطمس البصيرة ، ويكد
القريحة»^(١).

وإن هذه الفنون البيانية لم تكن قد تميزت عن فن البديع ، فقد عدّ ابن
المعتر أن الاستعارة من البديع ، وكذلك القاضي الجرجاني . لذلك ، تحدث
عنها عندما تحدث عن البديع . ولم تبرز الاستعارة فناً مستقلاً من فنون البيان إلا
في القرن الخامس . وفي ذلك ، يقول أبو الحسن : «... فأما الاستعارة ،
فهي أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول في التوسع والتصرف ، وبها يتوصل
إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر . وقد قدمنا عند ذكرنا البديع نبذاً منها
مثلنا بها المستحسن والمستقبّح ، وفصلنا بين المقتصد والمُفرط»^(٢) .
لذلك ، تناول الجرجاني بعض الشعراء الذين أحسنوا واقتصدوا في
استعمالها ، «لكن ، جاء أبو تمام ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التعدي ،
وتبعه أكثر المحدثين بعده فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة والتقصير
والإصابة»^(٣) ، وأورد أبياتاً للمتنبي «أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة ، وخرج
عن حد الاستعمال والعادة ، وهي قوله :

مسرةً في قلوب الطيب مفرقها وحسرةً في قلوب البيض واليلب
وقوله :

تجمعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٠ - ٤١ .

(٢) الوساطة ، ص : ٤٢٨ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٩ .

فقال الجرجاني : «جعل للطيب والبيّض واليَلْبِ قلوباً ، وللزمان فؤاداً ، وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد». ثم قال : «إن إحدى الهمم تشغل الزمان وأهله ولا يتسع لأكثر منها ، ترخص بأن جعل له فؤاداً ، وأعانه على ذلك أن الهممة لا تحل إلا الفؤاد ، وسهله في استعارة الأوصاف . . . وهذه أمور متى حملت على التحقيق ، وطلب منها محض التقويم أخرجت عن طريقة الشعر ، ومتى اتبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة واختلاط الكلام. وإنما القصد في التوسط والاجتزاء بما قُرب وعرف ، والاقتصار على ما ظهر ووضح»^(١). ويعدّ الجرجاني أن الاستعارة «تصح وتحسُن على وجه المناسبة وطرف من الشبه والمقاربة»^(٢). وقد سبقه الآمدي إلى هذه الفكرة ، وهي المناسبة بين المستعار منه والمستعار له. ولكن ، يبقى القاضي الجرجاني من الذين لا يؤيدون الإفراط والغلو في الاستعارة وفي غيرها من الفنون. ونراه يتلمس العذر لبعض الشعراء القدامى في غلوهم ومبالغاتهم ، ويورد أبياتاً للمحدثين في موضوعات وفنون شتى ، ويقرر أن الرواة تسامحوا مع القدامى ، فلا بد أن يسامحوا أبا نواس والعمكوك وأبا الطيب ، وكأنه يتلمس للمتنبّي الأعداء في ذلك فيقول : «... فإن قالوا ألسنا نسامح المتقدمين بالخطأ ولا نحتمل لهم هذا الإغراق الفاحش؟! قلنا : أولستم قد سلمتم لهم الإحسان في غير ذلك ولم تسقطوهم من عداد الشعراء لأجله؟! فأجروا هذا الرجل مجراهم ، وألحقوه في الحكم بهم»^(٣). فهو يتساءل لماذا ساغ الإفراط للمتقدمين ولم يسغ للمتأخرين؟! ، «ومتى سامح الرواة وحملة الشعر سحيماً في قوله :

وما زال بردي طيباً من رداؤها إلى الحول حتى أنهج البردُ باليا

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٩ .

(٣) الوساطة ، ص : ٤٢٦ .

وجمياً في قوله :

ولو أن وافي الموت يدعو جنازتي بمنطقها في الناطقين حييت

لزمهم أن يسامحوا أبا الطيب في قوله :

له رحمةٌ تحيي العظامَ وغضبةٌ بها فضلةٌ للجرم عن صاحب الجرم

وأرهب حتى لو تأمل درعه جرت جزعاً من غير نارو لا فحم

فالقاضي الجرجاني ينعي على بعضهم أنهم مالوا عن أبي الطيب لإفراطه ،

فكيف سوّغوا ذلك للمتقدمين ولم يسوغوه للمتأخرين؟! لكن ، لا يعني هذا

أنه يستحسن هذا الإفراط . ونراه يعرض أمثلة كثيرة له ثم يقول : «وكل هذا عند

أهل العلم معيب مردود ، ومنفي مردول وإن كان أهل الإغراب وأصحاب

البديع من المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضاً

به ولسنا نذهب في هذا الباب مذهب الاحتجاج والتحسين ، ولا نقصد به

قصد العذر والتسويغ ، وإنما نقول : إنه عيب مشترك ، وذنب مقتسم ، فإن

احتمل للكل ، وإن ردّ فعلى الجميع . وإنما حظ أبي الطيب فيه حظ واحد من

عرض الشعراء ، وموقعه منه موقع رجل من المحدثين»^(١) . فالقاضي يقر

بإفراط المحدثين ، وهو لا يحتج لهم . لكن ، إما أن يقبل من الجميع ، وإما

أن يرد ذلك على الجميع .

وقد وقف الناس من المبالغة والإفراط موقفين متباينين : أحدهما

مستحسن قابل له ، وثانيهما مستقبح راد له . وفي ذلك قال أبو الحسن :

«وللإفراط حدود ، وله رسوم ، متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف

حدها جمع بين القصد والاستيفاء ، وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها

اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة . وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٨ .

وشعبة من الإغراق ، والباب واحد لكن له درج ومراتب»^(١).

وقد ضرب القاضي الأمثلة على الغلو والإفراط لبعض الشعراء ، وعلل أن المحدث إذا سمع هذه الأشعار المبالغ فيها جسر على أن يقول :
أَسْرُ إِذَا نَجِلْتُ وَذَابَ جَسْمِي لَعْلَ الرِّيحِ تَسْفِي بِي إِلَيْهِ
واستحسن غيره المبالغات الكثيرة ، وسهل لأبي الطيب مبالغاته .

وكثيرا ما كان الجرجاني يسوق الأدلة والشواهد ثم يقف محامي دفاع عن أبي الطيب ملتصقا له الأعذار في كثير من الأشعار وفي موضوعات مختلفة . . .
وليس للمتنبي وحده ، بل لكثير من الشعراء ممن أخذ عليهم الإفراط في شعرهم . ويعتذر للمحدثين بأنهم «وجدوا هذا سبيلاً مسلوفاً ، وطريقاً موطأً ، فقصدوا وجاروا واقتصدوا وأسرفوا ، وطلب المتأخر الزيادة ، واشتاق إلى الفضل فتجاوز غاية الأول ، ولم يقف عند حد المتقدم ، فاجتذبه الإفراط إلى النقص ، وعدل به الإسراف نحو الذم»^(٢).

ومن الفنون البديعة التي ذكرها القاضي الجرجاني : المطابقة ، أي الطباق . ولم يكن هم القاضي تعريف المصطلح واستقصاء المطابقة ، ولا يريد الحديث عن المطابقة علماً ومصطلحاً ، «لكن ، ربما احتاج الشيء إلى غيره فذكره لأجله . وربما اتصل بما هو أجنبي عنه فاستصحبه»^(٣).

وذكر الجرجاني أشهر أقسام المطابقة ، أي ما سماه البلاغيون «طباق الإيجاب» ، وساق بعض الأمثلة كقول أبي تمام :

وتنظري جنب الركاب ينصها محيي القريض إلى مميت المال

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٠ .

(٢) الوساطة ، ص : ٤٢٣ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٤ - ٤٥ .

ثم انتقل إلى طباق السلب ، فقال : «وقد يجيء منه جنس آخر تكون المطابقة فيه بالنفي ، كقول البحري :

يقيض لي من حيث لا أعلم الهوى ويسري إليّ الشوق من حيث أعلم
وقد استحسّن طباق أبي تمام فقال : «...» ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وجد منه ، قول أبي تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس فنا الخط إلا أن تلك ذوابل
فطابق بهات وتلك ، وأحدهما للحاضر ، والآخر للغائب ، فكانا نقيضين
في المعنى وبمنزلة الضدين»^(١). وقد أخذ على من يخلط بالمطابق ما ليس منه
لقصر علمه وسوء تمييزه ، ويأتي بمثال قول كعب بن سعد الغنوي في رثاء
أخيه :

لقد كان أما حلمه فمُرَوِّحٌ علينا ، وأما جهله فعزيبُ
«لما رأى الحلم والجهل ، ومروحاً وعزيباً ، جعلهما في هذه الجملة .
ولو ألحقنا ذلك بها لوجب أن نلحق أكثر أصناف التقسيم ، ولا تأسع الخرق فيه
حتى يستغرق أكثر الشعر»^(٢).

وكما ذكر القاضي الجرجاني المطابقة ، ذكر الجناس (التجنيس) ،
وأنواعه ، فذكر التجنيس المطلق والمستوفى والناقص والمصحف
(التصحيف). والجناس المطلق هو «ما سماه البلاغيون المتأخرون : جناس
الاشتقاق» ، وهو أشهر أقسامه ، كقول النابغة^(٣) :

وأقطع الخرق بالخرقاء قد جعلت بعد الكلال تشكى الأينَ والسّأما

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٥ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٥ - ٤٦ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤١ .

ثم ذكر الجناس المستوفى - أي الكامل - كقول أبي تمام^(١) :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله
فجناس بين يحيا ويحيى ، وحروف كل واحد منهما مستوفاة في الآخر ،
وإنما عد في هذا الباب لاختلاف المعنيين ، لأن أحدهما فعل ، والآخر اسم ،
لذلك عد من البديع^(٢) . ولو اتفق المعنيان لم يعد تجنيسا .

وذكر القاضي التجنيس غير التام ، وضرب الأمثلة عليه ، «كقول الأحنس
ابن شهاب :

وحامي لواء قد قتلنا وحامل لواء منعنا والسيوف شوارعُ
فجناس بحامي وحامل ، والحروف الأصلية في كل واحد منهما تنقص عن
الآخر»^(٣) .

وذكر نوعاً رابعاً من التجنيس وسماه : التجنيس المضاف ، فلو انفرد
المضاف عن المضاف إليه لم يعد تجنيساً . وقد تكون الإضافة اسماً ظاهراً
ومكناً ، وقد تكون نسباً ، مثل قول البحري^(٤) :

أيا قمرَ التمام أعنت ظلماً عليّ تطاولَ الليلَ التمامِ
وذكر جناس التصحيف (المصحف) ، فقال : «ومن أصناف البديع :
التصحيفُ ، كقول الشاعر :

ولم يكن المغترّ بالله إذ سرى ليُعجزَ ، والمعتزُّ بالله طالبةُ

(١) الوساطة ، ص : ٤٢ . ويحيى المذكور هو ممدوح الشاعر يحيى بن عبد الله ، ويحيا -
الأولى - فعل .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٣ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٤٤ .

وهذا يدخل في بعض الأقسام التي ذكرناها في التجنيس ، لكن ما أمكن فيه التصحيف فله باب على حياله ، وجانب يتميز به عن غيره»^(١) .

ومن الأنواع البديعية التي ذكرها أيضا : التقسيم وجمع الأوصاف .
وضرب مثلا على التقسيم قول زهير :

يطعنهم ما ارتسموا حتى إذا طعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا
«فقسم البيت على أحوال الحرب ومراتب اللقاء ، ثم ألحق بكل قسم ما يليه في المعنى الذي قصده من تفضيل الممدوح ، فصار موصولا به ، مقرونا إليه»^(٢) .

ونراه يذكر الاقتباس عرضا ، فيقول في بيت المتنبي :

وَجُرْمٌ جَرَّهٖ سَفَهَاءُ قَوْمٍ وَحَلٌّ بغير جارمه العذاب
كأنما اقتبسه من قوله تعالى : ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾^(٣) . وقول أبي الطيب^(٤) :

أَقَرَّ جَلْدِي بِهَا عَلَيَّ فَمَا أَقْدَرُ حَتَّى الْمَمَاتِ أَجْحَدَهَا
وأصله من قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا لَئِن جُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾^(٥) ، وهو كثير للمتقدمين ومن بعدهم^(٦) .

وقد ذكر الجرجاني الابتداء أو الاستهلال والتخلص والخاتمة ، وأورد الأمثلة على الابتداءات التي افتتح بها المتنبي قصائده ، ثم ما استقبح من ابتدائه

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٦ - ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٥ .

(٤) الوساطة ، ص : ٢٨٤ .

(٥) سورة فصلت ، الآية : ٢١ .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ٣١٠ .

واستفتاحه ، وطلب من الناقدين التريث قبل إصدار أحكامهم ، فقال : «ومن عاب من ابتدائه مثل قوله :

كُفِّي أراني ويك لومك ألوما هم أقام على فؤاد أنجما
فليغفر ذلك له لقوله :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي
فإنه ابتداء ما سمع مثله ، ومعنى انفراد باختراعه . وكذلك قوله^(١) :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
وساق الشواهد من أشعار المتنبي مدلاً على حسن ابتدائه ، وأنه من سمع
حسن ابتدائه فليغفر له ما سمع من قبيح استفتاحه .

وكما تكلم الجرجاني عن حُسن الابتداء والاستهلال ، تكلم عن حسن الخروج والتخلص ، وأن المتنبي قد أحسن التخلص في شتى الموضوعات التي طرقتها ، منها قوله حين خلص إلى مديح سيف الدولة^(٢) :

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا ، وأنت السيلُ
فيك مرعى جيانا والمطايا وإليها وجيفنا والذميلُ
والمسمون بالأمير كثير والأمير الذي بها المأمولُ

واستفاض القاضي بذكر حسن التخلص عند المتنبي ، فأشار إلى أنه ربما لا يجد السامع له تخلصاً مستكرهاً إلا النادر القليل ، كقوله :

أعز مكانٍ في الدنى سرج سابع وخير جليس في الأنام كتابُ
وبحرّ أبو المسك الخضّم الذي له على كل بحر زخرةً وعبابُ
«فهي وإن لم تكن حسنة مختارة ، فليست من المستهجن

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٥٨ - ١٦٠ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٥٤ .

الساقط»^(١). من هنا ، طلب من النقاد ألا يتسرعوا بالحكم على شعره ، فكثير من شعره الجيد ، وقليل من شعره الرديء المستكره . ويؤكد الجرجاني أن «الشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص ، وبعدهما الخاتمة التي تستعطف أسماع الحضور ، وتستميلهم إلى الإصغاء . ولم تكن الأوائل تخصصها بفضل مراعاة . وقد احتذى البحري على مثالهم إلا في الاستهلال ، فإنه عني به ، فاتفقت له فيه محاسن . فأما أبو تمام والمنتبي ، فقد ذهبوا في التخلص كل مذهب ، واهتما به كل اهتمام ، واتفق للمنتبي فيه خاصة ما بلغ المراد ، وأحسن وزاد»^(٢) .

ولكننا إذا عدنا إلى الأمدي في موازنته - كما مر معنا- لرأيناه قد عاب على كل من أبي تمام والبحتري بعض ابتداءاتهما وبعض تخلصهما . وهنا ، نلاحظ من القاضي الجرجاني إثبات عناية أبي تمام الفائقة ، والاهتمام البالغ في التخلص ، فهو لا يلاحظ له تخلصاً معيباً . والذي أراه أن هذه الأحكام التي أطلقها الجرجاني يعوزها ، في بعض الأحيان ، الدقة ، إذ ما زالت الأحكام تخضع لأمر شخصية كالذوق وغيره .

ويشير الجرجاني إلى أن هناك أنواعاً من البديع كالاتفات وغيره ، لكن لو أقبل على استيعابها وتمييز ضرورها وأصنافها ، لاحتاج إلى إتباع كل ما يقتضيه من الشواهد والأمثلة ، وإنه إن فعل ذلك لبخس المنتبي حقه ، لأنه يكون قد انصرف عنه وانشغل بغيره ، وإنما قدم هذه النبذ توطئة لما يذكره ليكون كالشاهد المقبول قوله .

المبحث الثالث : النقد عند القاضي الجرجاني :

تناول الجرجاني في وساطته القضايا النقدية البارزة ، أهمها : قضية الطبع

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٥٥ .

(٢) الوساطة ، ص : ٤٨ .

والصنعة ، وقضية القدم والحدائث ، وقضية اللفظ والمعنى ، وقضية السرقات الشعرية ، وذلك من خلال حكمه على شعر المتنبي وغيره من الشعراء .

وقد عرف الشعر بقوله : «إن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه . فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته في الإحسان»^(١) . فنص القاضي على قضية الطبع والتكلف وأن ذلك يعود إلى تأثير البيئة في شعره ، وإلى طبيعة الشاعر نفسه ، «فريق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطلق الآخر . وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودمائة الكلام بقدر دمائة الخلقة»^(٢) . ويتبع ذلك الموضوع المتناول ، والشاعر الذي تناوله ، وطبيعة شعره ، وأن ذلك يختلف باختلاف البيئات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (من بدا جفا) ، وإن الحضارة والترف ورقة العيش تؤثر في الشعر فيلين ويسلس ويتعد عن الغريب الوحشي ، أما البداوة ، فتعكس على الشاعر الغلظة ، «فيكون كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب»^(٣) . ويحاول الجرجاني أن يعطينا تفسيراً للأثر البيئي في شعر المحدثين ، فبسبب لين العيش ورقة الحياة استطاعوا أن يكسوا معانيهم ألطف ما سنع من الألفاظ ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول تبين فيها اللين ، فيُظن ضعفاً . فإذا أراد أحدهم الإغراب واحتذاء القدماء ، ظهر التكلف والتصنع في شعره ، «وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة»^(٤) . وقد حاول أبو تمام الاقتداء بالأوائل فأغرب وما أطرب . . . لأنه

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٥ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٧ - ١٨ .

(٣) الوساطة ، ص : ١٨ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٩ .

كد ذهنه ، وأتعب فكره ، فكثرت الكلام حول شعره ، ولم تهش له القلوب والأسماع . ومع ذلك ، فليس هذا غضباً من شأن أبي تمام ، لأن الجرجاني ممن يعترف بشاعريته وفضله ، لكن - كما يقول - أخذ على نفسه تحري الحقائق والعدل في الأحكام . وقد رأى أثر التكلف بادياً على شعر الطائي . وأكد الجرجاني أن الناس انقسموا إلى فريقين في موقفهم من القدماء والمحدثين ، أحدهما يؤثر القديم بكل ما فيه ، فهو لا يرى إلا الشعر الجاهلي ومن سلك به ذلك المنهج ، ومعظمهم من أصحاب اللغة والنحو ، فهو يعم بالنقص كل محدث ، ويستحسن البيت استحسان النادرة . وثانيهما يؤثر الصنعة وأصحابها . وقد كان بعض القدماء «إذا سمعوا بأحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ، ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً ، وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث ، والإقرار بالإحسان لمولد»^(١) . وهذا صادر عن عصبيتهم للقدماء . وفي ذلك ، يقول الجرجاني : «وأحياناً يخلع رداء العصبية ويغلب عليه الإنصاف كما حدث لأبي رياش القيسي وتحامله على البحتري ، ثم أنشد من شعر البحتري فعدل عن رأيه ، وحض الناس على رواية شعره»^(٢) .

ويعلل الجرجاني هذه المواقف من القدماء والمحدثين في بداية وساطته عندما تحدث عن أغاليط الشعراء ، وأنه لا أحد يسلم من المدح والقدح . ولو عدنا إلى قصائد الجاهليين والإسلاميين ، قلما تسلم قصيدة من القدح إما في اللفظ والنظم ، أو الترتيب والتقسيم ، أو الغلط في المعنى . ولكن القدماء نظر إليهم أنهم القدوة فنفت عنهم التهم ، واحتج لهم . ونراه يذكر ما تكلفه النحويون واللغويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن ، «والباعث لهذا كله إعظام المتقدم ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ٥٠ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٥١ - ٥٢ .

والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس»^(١).

ومن القضايا المهمة التي عرض لها الجرجاني : قضية اللفظ والمعنى ، فدعا إلى النمط الأوسط ، وهو ما ارتفع عن السوقي وانحط عن البدوي الوحشي . وكان يدعو إلى تقسيم الألفاظ على رتب المعاني ، وكأنه يقول : «لكل مقام مقال » . يقول الجرجاني : «فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك... فتطّظ إذا تغزلت ، وتفخّم إذا افتخرت ، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلام ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين منهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه»^(٢).

ونرى الجرجاني يدعو إلى السهولة وتجنب التعقيد ، وذلك من خلال حكمه على أشعار للمتنبي ، كما في تعقيبه عليه مرة : «كيف يحتمل له - أي للمتنبي - اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفني شرفه وغرابته بالتعب في استخراجِه؟! كقوله :

وفأؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تُسعدا ، والدمع أشفاه ساجمه
ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة ، والتعقيد المفرط ، يشك أن وراءها كنزا من الحكمة»^(٣). ولكن ، بعد التدقيق والروية ، لا يجد السامع معنى يضيع حلاوة اللفظ من أجله . يقول الجرجاني : «فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع ، ورونق الاستهلال ، ويُشح عليها حتى يهلهل لأجلها النسيج ، ويفسد النظم ، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ، ويعمّي ويعوّص!»^(٤). لذلك ، نرى الجرجاني يشيد

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٠ .

(٢) الوساطة ، ص : ٢٤ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٩٨ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٩٨ .

بالشعر المطبوع المصقول غير المتكلف والخالى من التعقيد ، فيقول : «... لأن ملاك الأمر هو ترك التكلف ، ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد»^(١) . ويضرب أمثلة للشعر المطبوع من أشعار البحري ، فيقول : «ومتى أردت أن تعرف ذلك عياناً ، وتستثبته مواجهة ، فتعرف فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضل ما بين السمع المنقاد والعصي المستكره ، فاعمد إلى شعر البحري ، ودع ما يصدر به الاختيار ، ويعد في أول مراتب الجودة ، ويتبين فيه أثر الاحتفال . وعليك بما قاله عن عفو خاطره وأول فكرته ، كقوله :
الأم على هواك وليس عدلاً إذا أحببت مثلك أن ألاما
أعيدي في نظرة مستثيب توخى الأجر أو كره الأثاما
تري كبداً محرقة وعيناً مؤرقة وقلباً مستهاما
ثم انظر هل تجد معنى مبتدلاً ، ولفظاً مشهراً مستعملاً ، وهل ترى صنعة وإبداعاً أو تعقيداً وإغراباً؟!»^(٢) .

ويرى الجرجاني أن من أسباب تفضيله الشعر المطبوع ، كشعر البحري ، أنه ألصق بنفسه ، وذلك لقرب قائله من عهده ، فهو أشد به أنساً لأنه أقرب به عهداً^(٣) .

والموضوع الرابع الذي تناوله الجرجاني هو السرقات الشعرية ، وذلك من خلال دفاعه عن المتنبي ، فقد ادعى خصومه عليه كثرة السرقة ، وأنه «ما يسلم له بيت ، ولا يخلص له من معانيه معنى ، وما هو إلا ليث مغير ، أو سارق

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٥ .

(٢) الوساطة ، ص : ٢٥ ، ٢٧ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٩ .

مختلس»^(١). وقد أقر الجرجاني بأن للمتنبي معاني اخترعها ، وأخرى سرقتها ، «وإنما تجد له المعنى الذي لم يسبقه الشعراء إليه إذا دقق فخرج عن رسم الشعر ، أي الفلسفة ، مثل قوله^(٢) :

خلفت صفاتك في العيون كلامه كالخط يملأ مسمعي من أبصرا
والجرجاني ناقد بصير ، وعالم خبير ، استطاع أن يميز بدقة بين أنواع السرقات ، وله آراء فيها ، ويقرر أن السرقات «باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله . ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرقة والنصب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه ، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه ، وأحياء السابق فاقتطعه ، فصار المعتدي مختلسا سارقاً ، والمشارك له محتدياً تابعاً»^(٣).

ويرى الجرجاني أن هناك معاني مشتركة لا نستطيع أن نحكم على قائلها بالسرقة ، مثل تشبيه الحسن بالشمس والقمر ، والجود بالغيث والبحر ، والشجاع بالسيف الماضي . . . وهذه أمور عامة . واتفقوا على أن السرقة لا تكون إلا في المعاني الخاصة التي يبتكرها الشاعر ، ولو استفاضت المعاني المخترعة على ألسنة الشعراء حتى صارت كالمعاني المشتركة - كما في تمثيل الطلل بالكتاب والبُرد البالي ، والفتاة بالغزال في جيدها ، والمهابة في حسننها وصفائها - فلا تعدّ من السرقة ، فالسرقة عنده في المختص الذي حازه المبتدئ فملكه ، وأحياء السابق فاقتطعه ، فصار المقتدي مختلسا سارقاً ، والمشارك له محتدياً تابعاً . ورأيه أن السرقات يجب أن ينظر إليها أنها معان

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٧٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٨٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٨٣ .

تستعار كما تستعار الحلبي عند النساء . يقول الجرجاني^(١) :

وإن الشعر مثل الحلبي عندي حلال أن يُعار ويُستعاراً
فالمعاني العامة لا يستطيع أحد أن يدعيها أو يدعي السرقة لها ، وإنما
التفاضل يكون عندما «ينفرد أحدهم بلفظة تستعذب ، أو ترتب يستحسن ، أو
تأكيد يوضع موضعه ، أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيريك المشترك المبتدل
في صورة المبتدع المخترع»^(٢) . ويسوق الجرجاني أبياتاً لشعراء متقدمين يبين
أفضلية أحدهم بميزة اختص بها دون غيره ، كقول أبي سعد المخزومي :
والوردُ فيه كأنما أوراقه نُزِعَتْ ورْدٌ مكانهن خدودُ
«فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ،
فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست في نفسك عنده
هزة ، ووجدت طريقة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها»^(٣) . وكأن
الجرجاني يرصد لنا حال المتلقي ونفسية المستقبل ، فهو الذي يتفاعل مع
الشعر ويستحسن مواطن الجمال فيه . ويرى أن السرقة في هذه المواطن
محمودة ، ثم يقرر أن السرقة تكون باللفظ ، وتكون باللفظ والمعنى . وعلى
الناقد أن يكون محترساً ، فلا يظن أن السرقة «لا تكون إلا باجتماع اللفظ
والمعنى ، ونقل البيت جملة ، والمصراع تاماً»^(٤) . ويشير إلى التفنن في
السراقات ، فقد تكون سرقة وإن اختلفت الموضوعات الشعرية . ولكن ، لا
يدرك هذه السرقة إلا الناقد البصير ، ولا يتقن هذه السرقة إلا الشاعر الحاذق ،
«فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصفه ، وعن
وزنه ونظمه ، وعن رويه وقافيته . فإذا مر بالغبي الغفل وجدهما - أي المعنيين -

(١) الديوان ، ص : ٢٩ و ٧٩ .

(٢) الوساطة ، ص : ١٨٦ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٨٨ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٩٢ .

أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما ، والصلة التي تجمعهما ، كما قال الشاعر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيل
فقال أبو نواس :

ملك تصدر في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
فلم يشك عالم في أن أحدهما من الآخر وإن كان الأول نسيباً والثاني
مديحاً^(١) .

ويشير الجرجاني أنه «من لطيف السرق ما جاء به على وجه القلب ، وقصد به النقض ، كقول المتنبي :

أحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه
إنما نقض قول أبي الشيص^(٢) :

أجد الملامة في هواك لذيدة حبا لذكرك فليلمني اللوم
وأشار الجرجاني إلى الأخذ ، وأنه يكون في الشعر والنثر ، فقد أخذ
المتنبي وصف الخيل من ابن أقيصر الأسدي عندما سئل عن أكرم الخيل ،
فقال : «هو الذي إذا استقبلته أفعى ، وإذا استدبرته جَبِي ، وإذا استعرضته
استوى ، فقال المتنبي^(٣) :

إن أدبرت قلت : لا تليل لها أو أقبلت ، قلت : ما لها كفل
ويرى الجرجاني أن السرقة داء قديم ، وعيب عتيق . وما زال الشعراء

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٠٦ .

(٣) الوساطة ، ص : ٢٨٩ - ٢٩٠ . والتليل : العنق (لسان العرب ، مادة تليل) ، والكفل :

الردف . (لسان العرب ، مادة كفل) . وقول ابن أقيصر في الخيل للأصمعي ٨٥ .

وجبى : انكبَّ على وجهه .

يستمد بعضهم من قرائح الآخرين ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب ، وأحياناً يتزيدون أو يؤكدون ، ويعرضون مراتٍ ويصرحون مراتٍ أخرى . لكن الجرجاني يتلمس العذر في السرقات ، لأن عصره والعصور التي أتت بعده استنفذت فيها المعاني وسبق إليها ، ولأن المتقدم فيها لم يبق للمتأخر إلا بقايا «إما أن تكون تركت رغبةً عنها واستهانةً بها ، أو لبعد مطلبها وتعذر الوصول إليها»^(١) .

وقد عرض الجرجاني لسرقات أبي تمام والبحثري والمتنبي وغيرهم من الشعراء ، وكان أحياناً يدافع عن الشاعر فيقول : «... وقد عد هذا من سرقات أبي تمام ، ولست أراه كذلك» ، أو يقول : «... وهذا معنى مشترك لا يُسرق»^(٢) . ويقول : «إن المتنبي يأخذ المعنى أحياناً فيبالغ فيه . ويعرض لبيت عمران بن حطان يقول فيه :

أنكرت بعدك من قد كنت آلفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
فقال أبو الطيب :

و من أعتاض عنك إذا افترقنا وكلُّ الناس زورٌ ما خلاكا
وله بيت آخر :

إنما الناس حيث أنت ، وما الناس بناس في موضعٍ منك خالٍ
قال الجرجاني : «فتبرد - أي المتنبي - وبالغ»^(٣) .

وكان أحياناً أخرى يوازن بين الشعراء ويحكم لهم على المتنبي ، يقول في شعر لبكر بن النطاح^(٤) :

(١) المصدر ذاته ، ص : ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٦ .

(٤) يراجع المصدر ذاته ، ص : ٢١٦ ، ٢٤٤ . وقد ذكرهما صاحب (الموشح) ونسبهما للنطاح =

ولو لم يجر في العمر قسم لمالك وجاز له الإعطاء من حسناته
لجاد بها من غير شرك بربه وأشركنا في صومه وصلاته
فقال أبو الطيب :

ولو يممتهم في الحشر تجدو لأعطوك الذي صلوا وصاموا
وهذا معنى مليح ، ولفظ ابن النطاح أحسن ، وله زيادة قوله : «من غير
شرك بربه». وفيه نفي التهمة في الاستهانة بالأعمال الصالحة . ولأبي الطيب
فضيلة ذكر الحشر ، لأنه فضل الوقت الذي يظهر فيه الافتقار إلى الحسنات
والضن بها . وأصله لأبي العتاهية^(١) :

فمن لي بهذا ليت أني أصبته فقاسمته مالي من الحسنات
وأحياناً كان يحكم للمتنبى بأنه يحسن المعنى ويزيده بهاء ، كقول
الشاعر :

عجبت لتطويح النوى من أحبه وإدناء من لا يُستلذ له قرب
فنقله أبو الطيب فأحسن وأطاب ، فقال^(٢) :

أما تغلط الأيام فيّ بأن أرى بغيضاً تُنائي أو حبيباً تُقرب
وكان الجرجاني يبرز بلاغة وإتقان أحد الشعراء فينعتة بابتكار المعاني
وسرقة الآخرين لها ، فيقول مادحاً الصاحب^(٣) :

فإن نحن حاولنا اختراع بديعة حصلنا على مسروقها ومعادها
يقول د. ضيف : «هو معنى لطيف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمدّه

= في رسالة ابن المعتز التي ذكر فيها مساويء أبي تمام. الموشح ، ص : ٤٧٠ . ونسباً لغيره .

(١) الوساطة ، ص : ٢٤٤ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٧ .

(٣) الديوان ، ص : ٧٥ .

بالمعاني الغريبة النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها»^(١) .
ونرى الجرجاني في كل هذه المواقف النقدية ينتصب محامياً مدافعاً ، وقاضياً عادلاً ، يدلي بالحجج ، ويبقى متحفظاً في أحكامه على الشعر والشعراء ، إذ لا يستطيع أن يقطع بسرقة أحدهم ، فهو يعتقد أن الشاعر لو تعب وكّد ذهنه وكتب قصيدة وفتش في دواوين الشعراء لوجد معناها أو كاد . لذلك التزم عدم الحكم والقطع بسرقة شاعر إلا إذا وجد في شعر الشاعر معاني كثيرة وجدها لغيره حكم بأخذها ولا يصرح بسرقة معينة . فتظهر لنا شخصية هذا القاضي ، فكما لا يتسرع بالحكم على سرقة الأعيان ، لا يتسرع ويحكم على سرقة الأذهان ، بل كان منصفاً لا يحكم إلا بدليل ، ولا يبني أحكامه على الظن والتوهم وعدم اليقين ، بل بعد تثبت وروية . ونبه على طريقتة في الحكم أنه يقول : «قال فلان : كذا ، وقد سبقه إليه فلان فقال كذا ، فأغتنم به فضيلة الصدق ، وأسلم من اقتحام التهور»^(٢) . فهو قد عاش مع القضاة ، ومارس القضاء ، فكان قاضي الري ، وعاش معاناة الشعراء ، فهو شاعر ، وله ديوان مشهور . وقد أتقن صنعة الشعر ، فكانت أحكامه أحكام قاضٍ شاعر . وكان ناقداً معتدلاً ، حاول بكل وسيلة وبكل ما يملك من موروث ديني وثقافي واجتماعي أن يكون كتابه «وساطة مقبولة» . ومن هنا ، تبدت نظرة الجرجاني إلى السرقة ، فباب السرقة «يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة . وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلي على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة ، متدرباً بالنقد»^(٣) . فالجرجاني يطلب من النقاد الاحتراس ، وعليهم أن لا يحكموا قبل التثبت ، ثم الإنصاف ما أمكن ، وأن يكونوا متمرسين

(١) عصر دول الإمارات ٥ / ٥٨٠ .

(٢) الوساطة ، ص : ٢١٥ .

(٣) الوساطة ، ص : ٢٠٨ .

بالنقد ، مقتدرين عليه ، والموضوعية في أحكامهم ، وعدم التحامل على شاعر دون آخر ، وذلك لميل في الهوى والنفس ، إذ لا يملك النقاد مقاييس موحدة فهم يحكمون على الأثر الفني الذي يخضع لظروف ومؤثرات وملايسات تختلف عن الأثر الفني الآخر^(١) .

وللقاضي الجرجاني آراء في الشعر والشعراء ، يقول في ذلك : «... والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحااجة... وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقرب منها الرونق والحلاوة . وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون حلواً مقبولاً ، ويكون جيداً وثيقاً وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً»^(٢) . لذلك ، كان يطلب من الأدباء النقاد - كما مر معنا - التريث في حكمهم ، والعدل في قضائهم ، وألا يستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة ، وأن يتحلوا بالإنصاف ، وليس من الإنصاف أن ينعى الأديب على شاعر كالمتنبي وينسى فواضله لهفوة أو زلة ، فيقول : «... وليس من شرائط النصفة أن تنعى على أبي الطيب بيتاً شذ ، وكلمة ندرت ، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع ، وروائعه وقد بهرت ! ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المفردة ، ولا تقدمه الفضائل المجتمعة !»^(٣) . لذلك ، يتعجب كيف يسقطونه عن طبقة الفحول لأبيات لم ترق لهم ، ولم يسلموا له قصب السبق لأبيات رائعة قالها ، مثل^(٤) :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا !
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيلاً تقيدا

(١) يراجع : أبو تمام وموازنة الأمدي ، ص : ٥١ .

(٢) الوساطة ، ص : ١٠٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٠١ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١١٨ .

ثم أورد القصيدة التي ذكر فيها المتنبى الحمى ، وقال : «... وهذه القصيدة كلها مختارة ، لا يعلم لأحد في معناها مثلها ، والأبيات التي وصف بها الحمى أفراد ، قد اخترع أكثر معانيها ، وسهل في ألفاظها ، فجاءت مطبوعة مصنوعة ، وهذا القسم من الشعر هو المطعم المؤيس»^(١). ووازن بين المتنبى وابن المعذل فقال فيه : «... فأحسن وأجاد ، وملح واتسع . وأنت إذا قست أبيات أبي الطيب بها - على قصرها - وقابلت اللفظ باللفظ ، والمعنى بالمعنى ، وكنت من أهل البصر ، وكان لك حظ في النقد ، تبينت الفاضل من المفضول...» ، ثم يترك القاضي الجرجاني الحكم ويقول : «أما أنا ، فأكره أن أبت حكماً أو أفضل قضاءً أو أدخل بين هذين الفاضلين ، وكلاهما محسن مصيب»^(٢).

وحكم الجرجاني على بعض الشعراء بأنهم أحسنوا وأجادوا ، وكان يأتي بأبيات حول الموضوع الواحد ، ثم يبرز تفوق المتنبى فيه . وذكر أبياتاً للمتنبى في وصف الأسد ولقاء بدر بن عمار له ، وكيف صرع بدر الأسد ، فقال : «... ولولا أبيات البحري في هذا المعنى ، لعددت هذه من أفراد المتنبى...» لكن البحري وصف الأسد الذي قتله الفتح بن خاقان إذ استوفى المعنى ، وأجاد في الصنعة ، ووصل إلى المراد ، وأما أبو زيد الطائي ، فإنما وصف خلق الأسد وجراته وإقدامه... والفضل له على كل حال»^(٣).

وهذه الأمثلة الكثيرة التي اخترنا مثلاً منها تدل على ثقافة القاضي الجرجاني الواسعة ، وغزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، إذ كان يحاول أن يعيد الفضل لأصحابه ، ويذكر من كان له فضل سبق ، ومن أخذ فزاد وأجاد ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٢١ .

(٢) الوساطة ، ص : ١٢٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٣١ - ١٣٢ .

ويذكرنا بالقاضي الأمدي في موازنته وقدرته على استحضار الشواهد للموازنة .
 وأورد الجرجاني أبياتاً لأبي تمام أبرز فيها تفاوت شعره ، وذكر الجيد منه ^(١) ،
 كما ذكر شعراً رديئاً له ، وقال : « . . . وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من
 أبيات ضعيفة وأخرى غثة ، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص » ^(٢) . وذكر
 أبياتاً له من مستقبح شعره ^(٣) ، وأخذ عليه التفاوت في معظم الموضوعات التي
 طرقها ، ولو لزم طريقة لعذره ، فقال : « . . . لو لزم ذلك واستمر عليه . . .
 لقلنا : بدوي جرى على طبعه ، أو متحضر حنّ إلى أصله . لكنه يعرض عنه
 صفحاً ، ويتناساه جملة » ^(٤) . وذكر كذلك جيد شعر أبي نواس ورديته ^(٥) ،
 وكانت له مآخذ على شعره ، وهو ذلك التفاوت الشاسع . ومع ذلك ، كان
 يشهد له بالجودة أبو عبيدة والأصمعي ، ولم تطمس معاييه محاسنه ، ولم
 يُنقص رديه من قدر جيده ، « ولو تأملت شعر أبي نواس لعظمت من قدر صاحبنا
 ما صغرت ، ولأكبرت من شأنه ما استحققت » ^(٦) . وحكم على شعر ابن
 الرومي ، ونعى على من يفضله ويغلو في تقديمه ، فقال : « . . . ونحن
 نستقرئ القصيدة من شعره - وهي تناهز المائة أو تُربي أو تنيف - فلا نعثر فيها
 إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين . . . وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من
 أبيات تُختار ، ومعان تُستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وإبداع يدل على الفطنة
 والذكاء ، وتصرف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار » ^(٧) . ونسمع أحياناً
 الجرجاني وهو يصوغ شعره - وهو الشاعر المقتدر - يريد أن يحيي طريقة أبي

(١) المصدر ذاته ، ص : ٦٥ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٧٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٧٣ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ٥٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ . . .

(٦) المصدر ذاته ، ص : ٥٥ .

(٧) الوساطة ، ص : ٥٤ .

تمام والبحثري ، فبين رأيه في أبي تمام الذي يعمل عقله وفكره ، والبحثري بدماثة شعره وسلاسته وقبوله ، فقال عن قصيدة له^(١) :

أحييت حبيباً والوليد ففصلاً منها وشائع نسجها تفصيلاً
فأفادها الطائي دقة فكرة والبحثري دماثة وقبولاً
وله آراء في الشعر ، إذ يقول عن قصيدة له يصف الشعر^(٢) :

فجاءت ومعناها ممازج لفظها كما امتزجت بنت الغمامة بالخمير
والبيت عند الجرجاني يؤلف وحدة عضوية قائم بذاته ، فنراه يمتدح شعره
بقوله :

تري كل بيت مستقلاً بنفسه تباهى معانيه بألفاظه الغر
وينتقد من ينظم الشعر بطريقة ساذجة بعيدة عن الجودة ، لا يلتفت إلى
حسن اللفظ والمعنى ، فيقول في ذلك^(٣) :

وفي الناس أتباع القوافي تراهم ييشون في آثارهن المقانبا
إذا لحظوا حرف الروي تبادروا وقد تركوا المعنى مع اللفظ جانبا
وإن منعوا حر الكلام تطرفوا حواشيه ، فاجتاحوا الضعيف المقاربا
ويصف نفسه أنه يأتي بالبدائع والفرائد التي تأخذ بعقول الرجال ، وفي
ذلك يقول د. قلقيلة : « . . . وأما الجرجاني ، فيأتي من الشعر بالفرائد التي
تستأثر بعقول الرجال وتستبد بها . تسير ولم ترحل ، وتضمن لمن يحفظها
المراتب العالية ، والحظوة لدى أصحاب الجاه والسلطان . والناس يتخطفونها
منشدين أو مقتبسين ، فيقول^(٤) :

(١) ديوان القاضي الجرجاني ، ص : ١١٢ .

(٢) ديوان القاضي الجرجاني ، ص : ٨٦ ، عليه كاملاً .

(٣) الديوان ، ص : ٥٠ .

(٤) القاضي الجرجاني ، د . عبده عبد العزيز قلقيلة ، قال : « وهذا قبل أن يجمع شعره في ديوان =

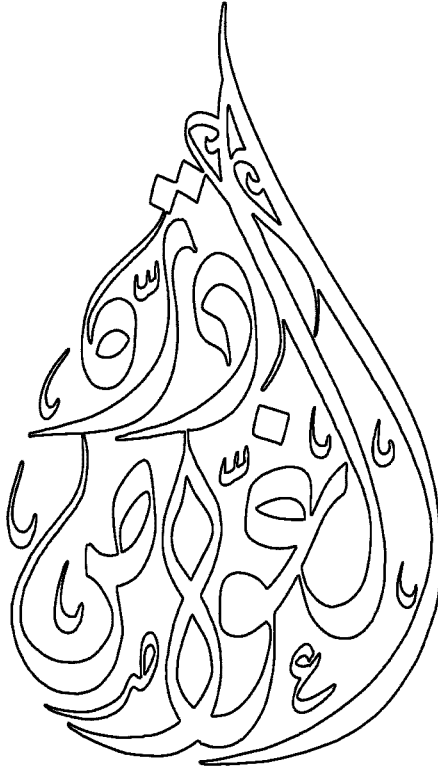
ولكنني أرمي بكل بدیعة یبتن بألباب الرجال لواعبا
تسير ولم ترحل ، وتدنو وقد نأت وتكسب حُفَافَ الرجال المراتبا
تري الناس إما مستهماً بذكرها ولوعاً ، وإما مستعيراً وغاصبا
لكن ، يؤكد د . قلقيلة أن رأي القاضي الجرجاني هذا في شعره خارج
وساطته ، وهذا رأيه في الشعر عامة ، وفي شعره خاصة^(١) .

ومن آرائه النقدية المهمة ، فكرته في فصل الفن عن الأخلاق ، أو الشعر
عن الدين ، أي : نظرية الفن للفن بالمعنى المعاصر لها . وفي ذلك ، يقول
الجرجاني : « . . . فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً
لتأخر الشاعر ، لوجب أن يمحي اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره
إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه
بالكفر ، ولو جب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى وأضرابهما ممن تناول
رسول الله ﷺ وعاب أصحابه بكماء خرساً وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين
متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر^(٢) .

= « ، وزاد : «وربما يتغير الحكم إذا عشر عليه كاملاً» ، ص : ١٤٧ - ١٤٨ .

(١) المرجع ذاته ، ص : ١٤٦ .

(٢) الوساطة ، ص : ٦٤ . وبكاء ، جمع : بكيء ، وبكأ الرجل بكاءة فهو بكيء : من قوم
بكاء ، أي : قل كلامه خلقة . لسان العرب ، مادة «بكاء» .



المبحث الأول : التعريف بأبي هلال العسكري^(١) :

(١) ترجمته في : تاريخ بغداد ١/ ٢٢٩ ، ودمية القصر ١/ ٢٢٥ - ٢٢٩ ، ومعجم الأدباء ٢/ ٥٦٢ - ٥٦٧ ، ومعجم البلدان ٤/ ١٤٠ ، وإنباه الرواة ٤/ ١٨٩ ، والبلاغة ، ص : ٨٧ ، وبغية الوعاة ١/ ٥٠٦ - ٥٠٧ ، وطبقات المفسرين للسيوطي ، ص : ٣٣ ، وطبقات المفسرين للدواودي ١/ ١٣٨ - ١٣٩ ، وكشف الظنون ٢/ ١٠٨٢ ، وخزانة الأدب ١/ ١١٢ ، وطبقات المفسرين للأذنه وي ، ص : ٩٦ ، وهديّة العارفين ١/ ٢٧٣ ، وأعيان الشيعة ٥/ ١٤٨ - ١٥٠ ، وتاريخ بروكلمان ٢/ ٢٥١ - ٢٥٥ ، وملحقه ١/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والأعلام ٢/ ١٩٦ ، ومعجم المؤلفين ٣/ ٢٤٠ ، وتاريخ التراث العربي م ٢/ ج ٤/ ٢١٥ ، ومقدمات كته .

والدراسات المتعلقة به : أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية للدكتور بدوي طبانة ، وأبو هلال العسكري وآثاره في اللغة ، لعلي كاظم مشري - ماجستير كلية الآداب - جامعة بغداد - ١٩٨٤ ، وأبو هلال العسكري ناقداً ، لأمل عطا الله المشايخ - ماجستير ، والبلاغة بين أبي هلال العسكري وضيء الدين بن الأثير ، لأحمد النادي يوسف شعله - دكتوراه ، والبحث البلاغي والنقدي بين قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري - عرض وتحليل وموازنة ، للمحمدي عبد العزيز الحناوي - دكتوراه ، والمصطلح النقدي في كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ، للحبيب الحمدراوي - ماجستير ، والتشبيه والاستعارة بين أبي هلال العسكري وابن الأثير ، لمحمود الحاج أحمد محمد سعيد - ماجستير ، والنقد الأدبي بين القاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري ، لحسن عبد القادر عبد الدايم - دكتوراه ، وأبو هلال العسكري بين البلاغة والنقد ، لعبده عبد العزيز فلقيلة - مجلة الرسالة - القاهرة - ع ٩٩٥ - س ٢٠ - ١٩٥٢ ، وأبو هلال العسكري وكتاب الصناعتين ، لعباس عبد الرحمن - مجلة الفيصل - الرياض - ع ١١٥ - س ١٣ - ١٩٨٩ ، والمستدرك على شعر أبي هلال ، للدكتور حاتم الضامن - مجلة المجمع - دمشق - ع ٦٧ - ج ١ - س ١٩٩٢ ، وديوان المعاني وفهرسة أشعاره ، للدكتور شاكر فحاح - مجلة المجمع - دمشق - ع ٦٦ ، وديوان المعاني ، للدكتور محمود الطناحي - مجلة المجمع - دمشق - ع ٦٩ - ج ١ ، ٢ ، ٣ - س ١٩٩٤ ، وع ٧٠ - ج ١ - س ١٩٩٥ ، وزيادات ديوان العسكري ، للدكتور قنازع - مجلة المجمع - دمشق - ع ٧٠ - ج ٣ - س ١٩٩٥ .

* حياته ونشأته ومكانته :

هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري اللغوي . ولد في عَسْكَر مُكْرَم^(١) ، ونشأ فيها ، ونسب إليها ، ولم يغادر بلدته . وكان يتبرز احترازاً من الطمع والدناءة والتبذل .

أخذ العلم عن خاله أبي أحمد العسكري الأديب الذي يلتقي معه أبو هلال باسمه واسم أبيه ونسبته .

وقد أغفلت المصادر ذكر سنة ولادته وهناك ترجمات كثيرة لأبي هلال ، ومن ترجم له أثنى عليه ووصفه بالعلم والفقه معاً^(٢) ، وجمع إلى ذلك التفسير والنحو واللغة والأمثال والنوادر والبلاغة والنقد ، وكان يغلب عليه الأدب والشعر . وصفه الخطيب بقوله : «له عندي كتاب الفروق في اللغة ، وكتاب ديوان المعاني ، وهما دالان على غزارة علمه»^(٣) . وأثنى عليه القفطي بقوله : «الفاضل الكامل ، صاحب التصانيف الأدبية ، كانت له نفس طاهرة زكية ، وتصانيفه في غاية الجودة»^(٤) .

* من شيوخه^(٥) :

لم تذكر لنا كتب التراجم من أخذ أبو هلال عنهم سوى أستاذه وخاله أبي أحمد العسكري (ت ٣٨٢ هـ) . وحقق بعضهم في عدم صحة نسبة القرابة بينهما . وأبو أحمد هذا كان له باع في البلاغة والنقد ، لكن ضاعت تصانيفه ،

(١) نسبة إلى عسكر مُكْرَم بن معزاء ، الصحابي . وقيل إنها منسوبة إلى مُكْرَم مولى الحجاج الثقفي . معجم البلدان ٤/١٣٩ .

(٢) هذه شهادة أبي المظفر الأبيوردي له في معجم الأدباء ٢/٥٦٢ ، وخزانة الأدب ١/١١٢ .

(٣) تاريخ بغداد ١/٢٢٩ - بيروت - ١٩٩٧ .

(٤) إنباه الرواة ٤/١٨٩ .

(٥) اعتنى بذكرهم محقق ديوان شعره الدكتور جورج قناز ، ص : ١٣ - ١٥ .

منها : (صناعة الشعر) و(ربيع الأبرار)^(١) ، لكن أبا هلال ذكر بعض كتب خاله ضمن مؤلفاته .

وذكر أبو هلال من شيوخه : الحسن بن سعيد - عم والده - وأبا القاسم بن شيران الفقيه ، وأبا القاسم عبد الوهاب بن أحمد الكاغدي .

* من تلاميذه :

لقد أخذ عن أبي هلال أبناء الرؤساء والكتاب ، ذكرهم الباخري وياقوت الحموي ، منهم : أبو سعيد السمان الرازي الحافظ (ت ٤٤٥ هـ) ، وأبو الغنائم بن حماد المقرئ ، وأبو إسحاق إبراهيم بن علي - تلميذ أبي علي الفارسي ، والسيرافي ، وكان نحوياً ولغوياً .

* من مؤلفاته^(٢) :

ألف العسكري في موضوعات شتى ، كالبلاغة والنقد والأمثال واللغة والتفسير والنوادر ، وترك لنا زهاء عشرين مؤلفاً ورسالة ، منها المطبوع والمخطوط وما في حكم المفقود .

من آثاره المطبوعة :

١ - أسماء بقايا الأشياء على نسق حروف المعجم^(٣) ، وطبع كذلك باسم : المعجم في بقية الأشياء^(٤) .

(١) معجم الأدباء ٥٤٨/٢ ، وتاريخ بروكلمان ٢٥١/٢ وما بعدها .

(٢) تراجع مؤلفاته في : معجم الأدباء ٥٦٢/٢ ، وبغية الوعاة ٥٠٦/١ ، وهدية العارفين ٢٧٣/١ ، وبروكلمان ٢٥١/٢ - ٢٥٢ . وقد ذكر د . قناز مؤلفاته في مقدمته لديوان أبي هلال ، ص : ٢٦ - ٣٢ .

(٣) حققه د . ماجد الذهبي . منشورات مركز المخطوطات - ط ١ - الكويت - ١٩٩٣ .

(٤) حققه د . إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، ونشراه في مكتبة الهداية - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٢ .

- ٢ - الأوائيل^(١) . وهو آخر ما ألف سنة ٣٩٥ هـ ، فقد ذكر ضَعْفَهُ فيه ، واختصره السيوطي في الوسائل .
- ٣ - التلخيص في معرفة أسماء الأشياء^(٢) ، أو التلخيص في اللغة .
- ٤ - جمهرة الأمثال^(٣) . وهو من أكبر كتب الأمثال .
- ٥ - الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه^(٤) .
- ٦ - ديوان شعره^(٥) .
- ٧ - ديوان المعاني ، وسمي أيضاً : أعلام المعاني في معاني الشعر ، وقيل : كتاب معاني الأدب^(٦) .

- (١) حقيقه أ. د. وليد قصاب وأ. محمد المصري ، ونشراه في مطبوعات وزارة الثقافة - دمشق - ط ١ - ١٩٧٥ ، ودار العلوم - الرياض - ط ٢ - ١٩٨٠ .
- (٢) حقيقه د. عزة حسن : مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٦٩ .
- (٣) حقيقه د. محمد أبو الفضل إبراهيم ود. عبد المجيد قطامش . المؤسسة العربية - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٤ .
- (٤) حقيقه د. مروان قباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ ، كما حقيقه د. عبد المجيد دياب - دار الفضيلة - مصر - ط ١ - ١٩٩٨ .
- (٥) جمعه د. محسن غياض وطبعه عام ١٩٧٥ ، كما جمعه د. جورج قناز . مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٧٩ - ١٩٨٠ . وقد استدرك الدكتور حاتم الضامن ستة وتسعين بيتاً على النشرتين . مجلة المجمع - ع ٦٧ - ج ١ - س ١٩٩٢ ، ص : ٣٨ - ٤٨ . واستدرك الدكتور قناز خمسة وعشرين بيتاً ، ونشرها في مجلة المجمع - ع ٧٠ - ج ٣ - س ١٩٩٥ ، ص : ٥٦٨ - ٥٨١ .
- (٦) نشرته مكتبة القدسي - القاهرة - ط ١ - ١٩٣٣ ، وحقيقه د. أحمد سليم غانم - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٣ . ويراجع : ديوان المعاني وفهرسة أشعاره للدكتور شاكر الفحام - مجلة المجمع - دمشق - ع ٦٦ ، ص : ٥٦٣ - ٥٦٧ ، وديوان المعاني للدكتور محمود الطناحي ، مجلة المجمع - ع ٦٦ - ج ٣ ، ص : ٤٦٢ - ٤٦٣ ، وع ٦٩ - وع ٧٠ . وطبعت فهرسة لشعره بإعداد : د. محمود الطناحي - مجلة معهد المخطوطات العربية -

- ٨- رسالة ذم الكبر^(١) .
- ٩- رسالة مدح العدل ، وذم الظلم^(٢) .
- ١٠- شرح ديوان أبي محجن الثقفي^(٣) .
- ١١- شرح الفصيح المنسوب إلى أبي هلال العسكري - تحقيق ودراسة - إبراهيم عبد الله الغامدي - دكتوراه .
- ١٢- كتاب الصناعتين^(٤) ، أو صناعتي النظم والنثر . قال عنه حاجي خليفة : مفيد جداً^(٥) ، وذكره إسماعيل البغدادي بعنوان : المختصر في صناعة النظم والنثر^(٦) .
- وقد وهم إسماعيل البغدادي عندما ترجم لخاله وخلط بين مؤلفاته ومؤلفات خاله ، فقال عن أبي أحمد العسكري إنه صنف من الكتب : الحكم والأمثال ، وصناعتي النظم والنثر ، ونوادير اللغة^(٧) .
- وله مختصر لموفق الدين البغدادي^(٨) .

القاهرة - م ٣٧/ج ١ ، ١٩٩٣/٢ ، وم ٣٨/ج ١ ، ١٩٩٤/٢ ، كما نشر في مجلة المجمع بدمشق .

- (١) حققها : يوسف محمد فتحي عبد الوهاب - مجلة كلية الآداب - إيتاي البارود - ٢٠٠١ .
- (٢) حققها : يوسف محمد فتحي عبد الوهاب - مجلة كلية الآداب - إيتاي البارود - ٢٠٠٠ .
- (٣) حققه د . صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد - بيروت - ط ١ - ١٩٧٠ . وتحقيق : يوسف محمد فتحي عبد الوهاب - القاهرة - ١٩٩٥ .
- (٤) حققه محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٢ (و هو الذي اعتمده) ، وت . مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨١ .
- (٥) كشف الظنون ٢/١٠٨٢ .
- (٦) هدية العارفين ١/٢٧٣ .
- (٧) هدية العارفين ١/٢٧٢ وما بعدها .
- (٨) كشف الظنون ٢/١٠٨٢ .

ووهم بعضهم فنسب لأبي هلال : (رسالة في التفضيل بين بلاغة العرب وبلاغة العجم)^(١).

١٣ - الفروق في اللغة ، أو الفروق اللغوية ، وسماه القفطي : كتاب الفروق ، وقال إنه كتاب حسن ، فرق فيه بين المعاني . وذكره الخطيب البغدادي باسم : الفروق في اللغة^(٢) ، ألفه عام ٣٨٥ هـ كما ذكر ذلك في آخر كتاب الأوائل .

١٤ - فضل العطاء على اليسر^(٣) ، ونشر باسم : كتاب الكرماء^(٤) .

١٥ - محاسن النثر والنظم والكتابة والشعر^(٥) .

ومن كتبه المخطوطة :

١- تصحيح الوجوه والنظائر من كتاب الله العزيز .

لا يزال مخطوطاً ، ينظر البحث الذي كتبه عنه أ. د. حاتم صالح الضامن في مجلة العرب السعودية ج ٥ - ٦ ، سنة ٢٠٠٧ م ص ٢٥٧ - ٢٧٨ .

٢- الرسالة الماسة فيما لم يضبط من الحماسة ، أو رسالة في ضبط وتحرير مواضع من ديوان الحماسة لأبي تمام^(٦) . وذكر أن له كتاباً مستقلاً يدعى

(١) نسبها جرجي زيدان لأبي هلال وكذا أحمد سليم غانم ، والحق أنها لأبي أحمد العسكري كما مضى . بروكلمان ٢/٢٥١ ، وطبعت ضمن : التحفة البهية والظرفة الشهية ، بمطبعة الجوائب - القسطنطينية - ١٣٠٢ .

(٢) طبع مراراً محققاً وغير محقق ، وآخر طبعاته بتحقيق : جمال مدغمش - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٢ ، وقبله كان بتحقيق : أحمد سليم الحمصي - بيروت - ١٩٩٤ ، وطبع مختصر له .

(٣) حققه أ. محمود شاكر - المطبعة السلفية - القاهرة - ط ١ - ١٩٣٤ .

(٤) حققه أ. محمود الجبالي بهذا العنوان ، ونشر في القاهرة - ١٩٠٨ .

(٥) ذكره بروكلمان وقال : مطبوع في ١٧٠ صفحة . ٢/٢٥٤ ، وهو كتاب الصنائعيتين .

(٦) يراجع مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ص : ١١ ، وتحرير التحرير ، ص : ٨٨ .

(الحماسة العسكرية) ، وقد جعلها العبيدي من مصادره الأساسية التي اعتمدها في كتابه (التذكرة السعدية في الأشعار العربية) المعروف باسم : حماسة العبيدي^(١).

ذكرها العيني ضمن الكتب التي اعتمدها في مقاصده^(٢).

٣- شرح ديوان الحماسة. وشرحه هذا هو أحد الشروح التي اعتمد عليها التبريزي في شرحه لحماسة أبي تمام. ويمتاز هذا الشرح بعنايته بتصحيح نسبة الأبيات إلى الشعراء ، وتوضيح بعض ما غمض في ذلك ، مع العناية ببيان اشتقاق أسمائهم. وقد ذكره ابن أبي الإصبع وجعله من مصادره.

٤- ما تلحن فيه الخاصة ، أو : لحن الخاصة^(٣).

٥- المحاسن في تفسير القرآن العظيم ، في ٥ مجلدات.

ذكره حاجي خليفة. يقول الأدنه وي : وفي أسامي الكتب (أي كشف الظنون) كان التفسير المذكور قد اشتهر بتفسير العسكري ، ونسبه له أيضاً العاملي^(٤).

= ونُشر أخيراً في مصر ، بتحقيق د . عبد المجيد الإسداوي ، مصر ١٩٩٧ م .

(١) التذكرة السعدية - تحقيق : عبد الله الجبوري - الدار العربية للكتاب - ليبيا/ تونس - ١٩٨١ ،

ص : ١٠ ، ١٧ ، وحماسة العبيدي - كما سماها د . عز الدين إسماعيل - يراجع المصادر

الأدبية واللغوية في التراث العربي ، ص : ١٢٤ - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٥ .

(٢) المقاصد النحوية (على هامش خزائن الأدب) ٥٩٨/٤ .

(٣) إنباه الرواة ١٨٩/٤ .

(٤) طبقات المفسرين للأدنه وي ، ص : ٩٦ . وذكره السيوطي في طبقات المفسرين ، ولم

يسمه ، إنما قال : له تفسير في خمسة مجلدات ، ص : ٣٣ ، والعاملي في أعيان الشيعة

١٤٨/٥ - ١٥٠ .

٦- النواد في العربية . وهي جوابات عن مسائل كثيرة في اللغة والأدب .
وذكره السيوطي باسم : نوادر الواحد والجمع^(١) .

* وفاته :

لم تذكر المصادر سنة وفاته . وقال ياقوت إنه كان حياً عام ٣٩٥ هـ^(٢) ،
وذكر السيوطي أنه توفي بعد ٤٠٠ هـ^(٣) .

المبحث الثاني : البلاغة عند أبي هلال :

رغم أن الصلة مازالت واشجة بين النقد والبلاغة ، واستثمار النقد لفنونها
في حكمه على الآثار الأدبية في القرن الرابع الهجري ، فإن الفرق يبدو جلياً
بينهما عند أبي هلال العسكري .

لقد نضجت معظم المفاهيم والمصطلحات البلاغية في هذا العصر ،
ونلمح ذلك جلياً عند أبي هلال ، إذ اعتمد على الفنون البلاغية للكشف عن
وجوه الإعجاز القرآني ، وهذا ما أكده في مقدمته ، إذ كان الهدف الأول من
تأليف (كتاب الصناعتين) هو إدراك إعجاز القرآن الكريم ، هذا الإدراك الذي
يعتمد على الذوق والنظر والتدقيق ، بالإضافة إلى أهداف أخرى ذكرها أبو
هلال ، كتنمية الملكة عند الإنسان التي يستطيع بها تمييز جيد الكلام من
رديئه ، فتنمو الملكة النقدية عنده .

وفكرة الإعجاز والبحث عن أسبابه قد سيطرت على كثير من علماء البلاغة
والنقد ، فرى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) يؤلف رسالة في إعجاز القرآن (النكت في
إعجاز القرآن) ، وألف الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) رسالته (بيان إعجاز القرآن) ،

(١) بغية الوعاة ١/٥٠٦-٥٠٧ .

(٢) معجم الأدباء ٢/٥٦٥ .

(٣) طبقات المفسرين ، ص : ٣٣ .

والإمام الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) أفرد كتاباً لإعجاز القرآن الكريم ، وغيرهم . ونرى أبا هلال يؤلف (كتاب الصناعتين) بطابعه البلاغي ، وحدد العسكري ذلك في المقدمة ، إذ قال : «إن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله - جل ثناؤه - علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى»^(١) . ثم قال مدلاً على أهمية البلاغة ومعرفة الفصاحة : « . . . وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها»^(٢) . فالإعجاز عند أبي هلال يعود إلى النظم وتأليف الكلام ، ولكنه في الوقت ذاته يرى أن الكشف عن وجوه البديع وصور البيان وسيلة لإدراك حسن النظم والتأليف ، فإذا تعلم المرء البلاغة ، ووقف على أسرارها ، وتذوق حلاوتها ، أسعفه ذلك على إدراك الإعجاز»^(٣) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد رأى أبو هلال العسكري أن كل طالب علم لا غنى له من أن يتعلم البلاغة والفصاحة ، فقال في بداية (كتاب الصناعتين) : «فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع النظم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبيل ، ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة»^(٤) .

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ١ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ١ .

(٣) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص : ٣٩ .

(٤) كتاب الصناعتين ، ص : ٤ - ٥ .

لذلك حاول أبو هلال أن يؤلف كتاباً شاملاً جامعاً لصناعتي الشعر والنثر بعد أن استفاد من معظم المؤلفات البلاغية التي ألقت قبله ، لكن رأى أن بعض هذه الكتب لا يفي بالغرض - كما مرّ معنا - ككتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ، و(البديع) لابن المعتز ، و(عيار الشعر) لابن طباطبا ، و(نقد الشعر) لقدامة بن جعفر ، فأراد أن يجعل كتابه لصناعتي الشعر والنثر ، واستوعب ما قاله البلاغيون والنقاد قبله ، وتمثل كتبهم التي تناولت البلاغة أو النقد أو الاثنين معاً خير تمثيل ، وجعلها مادة كتابه يستقي منها ويزيد عليها ، ولا يروق له في أحيان كثيرة ما ذكر فيها ، فكان يتناوله بالنقد والتحليل ، ويبدى رأيه فيه . وهو في أموره كلها يصدر عن ثقافة عالية رقيقة ، وعلى قدر واسع من الاطلاع ، فضلاً عن تمكنه من ناصية اللغة . وقد مرّ معنا بعض مؤلفاته اللغوية التي تشهد له بطول الباع كالفروق اللغوية ، والمعجم في بقية الأشياء ، وهو أيضاً عالم بالتفسير ، فقد نسب له (المحاسن في تفسير القرآن) . وهو قبل كل ذلك إمام في البلاغة والمعاني ، فهو صاحب كتاب (ديوان المعاني) الذي جمع فيه أحسن ما قيل في كل فن ، وتخيّر أبلغ وأحسن شيء في الشعر والنثر .

ويدل (ديوان المعاني) على قدرة أبي هلال على الحفظ والاستيعاب ، وعلى ذوقه الرفيع في الانتقاء والاصطفاء ، وقدرته الفائقة على الاستحضار الجيد للشواهد .

وقد كان الدافع إلى تأليف أبي هلال هذا الكتاب أمران ، أحدهما : جمع أبلغ ما قيل في كل فن . وفي ذلك قال في مقدمة (ديوان المعاني) : «جمعت في هذا الكتاب أبلغ ما جاء في كل فن ، وأبدع ما روي في كل نوع من أعلام المعاني وأعيانها . . . وتخيرت من ذلك ما كان جيد النظم ، محكم الرصف ، غير مهلهل رخو ، ولا متجعّد فج . وهذا النوع من الكلام لا يزال الأديب يسأل عنه في المجالس الحافلة ، والمشاهد الجامعة إذا أريد الوقوف على مبلغ علمه

ومقدار حفظه»^(١). هذا هو السبب الأول لتأليفه (ديوان المعاني).

وثانيهما : تأليف كتاب مستقل يجمع هذه الفنون نظماً ونثراً. وفي ذلك قال : « . والذي حداني على جمع هذا النوع أيضاً ، أني لم أجد فيه كتاباً مؤلفاً ، ولا كلاماً مصنفاً يجمع فنونه ، ويحوي ضروبه . ورأيت ما تفرق منه في أثناء الكتب وتضاعيف الصحف غير مقنع يشفي الراغب ، ويكفي الطالب ، فجمعته ههنا ، وأضفت إلى كل نوع منه ما يقاربه من أمثاله . ليكون مادة للمناقضة ، وقوة للمفاوضة ، وجعلته نظماً ونثراً ، وخبراً وشعراً لأبعث به نشاط الناظر ، وأجلي به صداء الخاطر»^(٢).

وقد أفرد الفصل الثاني من الباب التاسع في هذا الكتاب - وهو من اثني عشر باباً - لذكر البلاغة ، وشرح معناها عندما ذكر قول بعض الحكماء : «البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه» ، قال : «يعني : قولاً واضح المعنى ، غير مشكل المغزى»^(٣). ثم أورد أقوالاً للصحابة الكرام وغيرهم من فصحاء العرب ، وقول الهندي عندما سئل : «ما البلاغة ؟ فقال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام» ، ثم قول الحسن بن سهل : «البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة»^(٤). ثم أورد جملاً من بلاغات العجم ، وقرر شيئاً هاماً ، وهو أن بلاغة العجم كبلاغة العرب ، فقال : «العجم والعرب في البلاغة سواء ، فمن تكلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى ، أمكنه فيها

(١) ديوان المعاني ١/ ١٠١ .

(٢) ديوان المعاني ١/ ١١٠ .

(٣) المصدر ذاته ٢/ ٨٣٢ .

(٤) المصدر ذاته ٢/ ٨٣٣ .

من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى^(١). وقرر أن الأمر واحد في الخطب والرسائل والأمثال ، بل ربما كانت بعض الأمثال الفارسية أفصح من اللفظ العربي وأحسن. وضرب أبو هلال أمثلة لأدباء نقلوا أموراً بلاغية وأدبية من الفارسية وغيرها إلى العربية ، فكانت بليغة فصيحة ، كعبد الحميد الكاتب وغيره .

وهنا ، لابد من أن نشير إلى أن أبا هلال قد تأثر بأبي أحمد العسكري^(٢) ، فقد ذكرت بعض المصادر بعض الكتب المتشابهة بينه وبين أستاذه . ولأبي أحمد رسالة في صناعة الشعر ضاعت واستشهد بها أبو هلال في (كتاب الصناعتين). ونقل الباقلافي عنها في (إعجاز القرآن)^(٣). وله رسالة في تفضيل بلاغة العرب على العجم قد تأثر بها ونقل منها أبو هلال في (كتاب الصناعتين). ولكن ، يطالعنا أبو هلال في هذا القول في (ديوان المعاني) وقد ساوى بين بلاغة العرب والعجم ، بل قال إن بلاغة العجم أقوى في بعض المواضع من بلاغة العرب .

وأحببت أن أسوق جزءاً من هذه الرسالة التي اختلطت على كثير من الناس فنسبوا - بغير علم - إلى أبي هلال . يقول أبو أحمد العسكري في تعريف البلاغة : «ومن حدّ البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة ، فقد سئل خلف الأحمر ، فقيل له : ما لنا نرى في الكلام القليل عدة معانٍ ؟ فقال : إن

(١) المصدر ذاته ٢/ ٨٣٤ .

(٢) أبو أحمد العسكري ، هو الحسن بن عبد الله بن سعيد . ولد سنة ٢٩٣ ، وتوفي سنة ٣٨٢ هـ . أحد الأئمة في الآداب والحفظ ، وهو صاحب أخبار ونوادر . وله رواية متسعة ، وتصانيف مفيدة ، منها : (كتاب تصحيح المحدثين) الذي جمع فيه فأوعب . ترجمته في : معجم الأدباء ٨/ ٢٣٣ - ٢٥٨ ، ومعجم البلدان ، (مادة : عسكر مكرم) ، وإنباه الرواة ١/ ٣٤٥ - ٣٤٧ ، ووفيات الأعيان ٢/ ٨٣ - ٨٥ ، وبغية الوعاة ١/ ٥٠٨ - البابي الحلبي - ط ١ .

(٣) تراجع : البلاغة تطور وتاريخ ، ص : ١١١ ، ٤١٣ ، وعصر الدول والإمارات ، ص : ٥٤٠ .

كلام العرب أوعية ، والمعاني أمتعة ، وربما جعلت ضروب من الأمتعة في وعاء واحد» ، وزاد أبو أحمد : «... وللبلاغة ثلاثة مذاهب تقصد في استعمالها :

أحدها : المساواة ، وهي أن يكون اللفظ كالقالب للمعنى ، لا ينفصل عنه ، ولا ينقص منه .

والثاني : الإشارة ، وهو أن يكون اللفظ مشاراً به إلى المعنى باللمحة الدالة .
والثالث : التبديل ، وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتأكد عند من فهمه .

ولكل من هذه المذاهب موطن يليق به ، ووقت لا يصلح فيه غيره»^(١) .
ونرى أبا هلال يعرف لنا البلاغة كذلك ، في الفصل الأول من الباب الأول من (كتاب الصناعتين) ، تعريفاً أقرب إلى اللغة منه إلى البلاغة ، إذ قال : «فالبلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري . ومبلغ الشيء : منتهاه . والمبالغة في الشيء : الانتهاء إلى غايته . فسميت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع وفهمه»^(٢) . وفرق بينها وبين الفصاحة من حيث الأصل اللغوي ، «فالفصاحة مأخوذة من قولهم : أفصح فلان عما في نفسه ، إذا أظهره . والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب : أفصح الصبحُ ، إذا أضاء . وأفصح اللبن ، إذا انجلت عنه رغوته فظهر . وأفصح الأعجمي ، إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين . وفصح اللحان ، إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ»^(٣) .

(١) رسالة في تفضيل بلاغة العرب على العجم ، ص : ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ٦ ، وتأثر في هذا التعريف بالرماني وغيره . يراجع : النكت ، ص : ٧٥ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٧ .

فالفصاحة والبلاغة تؤولان لمعنى واحد وإن اختلف أصلهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو لإبانة المعنى وتوضيحه . والفصاحة عنده تمام آلة البيان ، وهي تتعلق باللفظ من دون المعنى ، «والبلاغة إنما هي انتهاء المعنى إلى القلب ، فكأنها مقصورة على المعنى»^(١) .

وقد يجوز أن يكون المعنى بليغاً فصيحاً إذا كان يجمع إلى وضوح المعنى سهولة اللفظ وجودة السبك وكان بعيداً عن التكلف . وكل كلام بليغ هو كلام فصيح ، وليس كل كلام فصيح هو بالضرورة كلام بليغ .

وخلص في الفصل الثاني إلى حدّ البلاغة ، فقال : «البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن . وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة ، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ، ومعرضه خلقاً ، لم يسمّ بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى»^(٢) .

وأورد أبو هلال في الفصل الثالث من الباب الأول أقوال بعض العلماء والحكماء في حدود البلاغة ، وكثير من هذه الأقوال قد وردت من قبل في (البيان والتبيين) ، كبلاغة الرومي والهندي . . . وتلتقي أقواله مع ما ذكره في (ديوان المعاني) ، فقد أورد فيه قول محمد بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - : «البلاغة تيسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ» ، وقول الحسن بن علي : «البلاغة : الإفصاح عن حكمة مستغلقة ، وإبانة علم مشكل»^(٣) .

وختم أبو هلال هذا الباب وقد أبان عن البلاغة والفصاحة وحدودهما ، وأوضح أنه لم يسبقه أحد بالكشف عن وجوههما . ويستطيع القارئ أن يستغني

(١) المصدر ذاته ، ص : ٨ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ١٠ .

(٣) ديوان المعاني ٢/ ٨٣٣ - ٨٣٤ .

عن المؤلفات التي سبقت أبا هلال ، لأنه جمع فأوعب .

وقد تناول بعض مباحث علم المعاني ، كالإيجاز والإطناب والمساواة والتطويل والفصل والوصل ، لكن حدوده ومصطلحاته والتنظير له قد فصل ذلك عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز).

ومن باب خروج الكلام خلاف مقتضى الظاهر ، ذكر أبو هلال الالتفات ، لكن عدّه من أنواع البديع ، وعدّه القزويني من باب خروج الكلام خلاف مقتضى الظاهر ، ولم يعرفه ، وإنما ذكر قسميه ، فقال : «الالتفات على ضربين : فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى ، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به» . وساق أمثلة على الالتفات ، منها قول الصولي يروي الخبر قال : قال الأصمعي : «أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، فما هي ؟ قال :

طرب الحمامُ بذي الأراك فشاقي لازلْتُ في عَلَلٍ وأَيْكٍ ناضِرِ
فالتفت إلى الحمام ، فدعاه»^(١) .

«والضرب الآخر : أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن راداً يرد قوله ، أو سائلاً يسأله عن سببه ، فيرد راجياً إلى ما قدمه ، فإما أن يؤكده ، أو يذكر سببه ، أو يزيل الشك عنه» . ومثّل له بقول عبد الله بن معاوية^(٢) :

وأجملُ إذا ما كنت لابد مانعاً وقد يمنع الشيءَ الفتى وهو مجملُ
وقد أفرد العسكري الفصل الثاني من الباب العاشر لذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل ، فلم يعرفه ، وإنما حشد له الأقوال والأمثلة الكثيرة التي تدل على أن البلاغة هي معرفة الفصل من الوصل ، فذكر قول الفارسي ، وقول

(١) كتاب الصناعيتين ، ص : ٣٩٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٣٩٣ .

الأحنف بن قيس ، وقول المأمون ، وقول أبي العباس السفاح لكتابه : «قف عند مقاطع الكلام وحدوده ، وإياك أن تخلط المرعي بالهمل»^(١) .

ثم أورد قول سيدنا معاوية - رضي الله عنه - : «يا أشدق ، قم عند قروم العرب وجحاجحها ، فسلّ لسانك ، وجل في ميادين البلاغة . وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فإنني شهدت رسول الله ﷺ أملى على علي بن أبي طالب رضي الله عنه كتاباً ، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصريم صريمته»^(٢) . وكان يزيد بن معاوية يقول : «إياكم أن تجعلوا الفصل وصلأ ، فإنه أشد وأعيب من اللحن»^(٣) . وجملة هذه الأقوال والأشعار الدالة على الفصل والوصل لم ينظمها سلك ، وإنما حشد هذه الأمثلة البليغة من دون أن يسوق تعريف البلاغيين لها . والقطع عنده حسن الاختتام . قال أبو هلال : «قلما رأيت بليغاً إلا وهو يقطع كلامه على معنى بديع ، أو لفظ حسن رشيق . فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها ، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها»^(٤) .

وأورد أقوالاً ردها الجاحظ من قبل ، فكانوا يقولون عن فلان بأنه يجيد الحز ، ويصيب المفصل . وهذا ما جعل المأمون - كما يروي العسكري - يعجب . قال المأمون : «ما أعجب بكلام أحد إعجابي بكتاب القاسم بن عيسى»^(٥) ، فإنه يوجز في غير عجز ، ويصيب مفاصل الكلام ، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب ، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب ، يجلي عن مراده في

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ٤٣٨ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ٤٣٩ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٤٠ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٤٤٣ .

(٥) القاسم بن عيسى بن إدريس من بني عجل . قلده الرشيد أعمال الجبل ثم كان من قادة المأمون . توفي ببغداد سنة (٢٢٦هـ) الأعلام : ١٧٩/٥ .

كتبه ، ويصيب المغزى في ألفاظه»^(١) .

وهذا يقودنا إلى موضوع الإيجاز والإطناب عند أبي هلال العسكري .

فقد تحدث عن الإيجاز بنوعيه - إيجاز القصر ، وإيجاز الحذف - وأفرد الباب الخامس من (كتاب الصناعتين) فتحدث في الفصل الأول عن الإيجاز ، وفي الفصل الثاني عن الإطناب .

وبعد أن عرّف إيجاز القصر بقوله إنه «تقليل الألفاظ ، وتكثير المعاني»^(٢) ، أورد أمثلة كثيرة للكلام الموجز ، وساق بعض الأمثلة التي استشهد بها الجاحظ في (البيان والتبيين) ، أو المبرد في كتابه (البلاغة) - كما سبق معنا - وتوسّع كثيراً في هذا الباب ، فكان شاملاً ، استفاد منه من جاء بعده من البلاغيين ، ولم يضيفوا إلى ما قاله أبو هلال شيئاً جديداً يذكر . ثم أتى بشواهد كثيرة على الكلام الموجز كذلك في (ديوان المعاني) عندما ذكر البلاغة ، لأن البلاغة : الإيجاز . وذكر سؤال معاوية عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن أبلغ الناس ؟ قال : من اقتصر على الإيجاز ، وترك الفضول»^(٣) . وأتى بأمثلة من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ يَتَأَرَضُ آبُلْعَى مَاءِكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَعِي ﴾^(٤) ، وقوله جل وعلا : ﴿ يُسْقَى يَمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾^(٥) . كما أورد مجموعة من أحاديث رسول الله ﷺ ، سيد البلغاء ، مثل : «حبك الشيء يعمي ويصم»^(٦) ، وقوله : «إن من البيان لسحراً»^(٧) . كما

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٤٠ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٧٥ .

(٣) ديوان المعاني ٢/ ٨٣٢ .

(٤) سورة هود ، الآية : ٤٤ .

(٥) سورة الرعد ، الآية : ٤ .

(٦) يروى من حديث أبي الدرداء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرجه أحمد في مسنده

١٩٤/٥ ح ٢١٧٤٠ ، ٤٥٠/٦ ح ٢٧٥٨٨ ، وأبو داود في سننه ٤/ ٣٣٤ ح ٥١٣٠ ،

والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٦٨ ح ٤١١ ، وح ٤١٢ .

(٧) يروى من حديث عبد الله بن عمر - مرفوعاً - ، أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٦٣ ح ١٨٣٤٣ ، =

أتى بأقوال الصحابة الكرام والعرب الفصحاء وأقوال بعض الأمم الأخرى .

وقرر أبو هلال العسكري أن لكل مقام مقالاً ، «وليس يصلح الإيجاز في كل مكان ، كما لا تصلح الإطالة في كل أوان ، بل لكل واحد منهما حين يحسن فيه ، ومقام يليق به ، إن أزلته عنه لم توفه حقه ، ولم تسلك به طريقه»^(١) .

وشرح قول محمد الأمين : «عليكم بالإيجاز ، فإن للإيجاز إفهاماً ، وللإطالة استنبهاماً» ، فقال : «أي : عليكم بالإيجاز فيما كان الإيجاز فيه أحسن وأنجع . أما إذا كانت الإطالة أرد وأنفع ، فليس للإيجاز موقع يحمد ، ولا حال تعتمد . والإيجاز بجميع الشعر أليق ، وبجميع الرسائل والخطب . وقد يكون من الرسائل والخطب ما يكون الإيجاز فيه عيباً ، ولا أعرفه إلا بلاغة في جميع الشعر ، لأن سبيل الشعر أن يكون كلامه كالوحي ، ومعانيه كالسحر ، مع قربها من الفهم . والذي لا بد منه حسن المعرض ، ووضوح الغرض»^(٢) .

ونتبين من الأمثلة التي مرت معنا أنها تدور في فلك إيجاز القصر الذي أحسن أبو هلال كل الإحسان في جمع هذا القدر الكبير من الأمثلة له^(٣) .

ثم تناول إيجاز الحذف ، وقد مر معنا ذكره في الفصول السابقة ، لكن استفاض فيه ، وبين حدوده وأنواعه . وفي ذلك قال إن الحذف على وجوه ، منها^(٤) :

= والبخاري في صحيحه ١٩٧٦/٥ ح ٤٨٥١ ، و٢١٧٦/٥ ح ٥٤٣٤ ، وأبو داود في سننه ٣٠٢/٤ ح ٥٠٠٧ .

(١) ديوان المعاني ٨٣٢/٢ .

(٢) المصدر ذاته ٨٣٢/٢ .

(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ١٧٥ ، وقد ذكره الرماني في النكت في إعجاز القرآن ، ص : ٧٦ - دار المعارف - ط ٢ - ١٩٦٨ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٨١-١٨٨ ، ويراجع : النكت ، ص : ٧٦ .

- حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وجعل الفعل له ، كقوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ﴾^(١) ، أي : وقت الحج .
- وقوع الفعل على شيئين ، وهو لأحدهما ، ويضمّر للآخر فعله ، كقوله تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾^(٢) ، معناه : وادعوا شركاءكم .
- مجيء الكلام على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٣) ، أراد : لعذبكم .
- حذف الكلمة والكلمتين ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾^(٤) ، أي : ووصى بالوالدين إحساناً .
- القسم بلا جواب ، كقوله تعالى : ﴿ قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا . . ﴾^(٥) ، معناه - والله أعلم - : (ق . والقرآن المجيد لتبعثن) ، والشاهد ما جاء بعده من ذكر البعث في قوله : ﴿ إِيَّاهُ دَامَتَا وَكُنَّا نُرَابًا ﴾^(٦) .
- إسقاط (لا) من الكلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾^(٧) ، أي : أن لا تضلوا .
- إضمار غير مذكور ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾^(٨) ، يعني : الشمس بدأت في المغيب .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٧١ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٢٠ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٢٣ .

(٥) سورة ق ، الآية : ١ .

(٦) سورة ق ، الآية : ٣ .

(٧) سورة النساء ، الآية : ١٧٦ .

(٨) سورة ص ، الآية : ٣٢ .

وذكر أبو هلال أمثلة للحذف الرديء ، منها قول عروة بن الورد :
عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا
يعني : إذ يقتلون نفوسهم في السلم .

كما تحدث أبو هلال العسكري عن الإطناب ، وفرق بينه وبين التطويل
والإسهاب من دون فائدة ، قال في ذلك : «الإطناب بلاغة ، والتطويل عي ،
لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب ، والإطناب بمنزلة سلوك
طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة»^(١) . ونلاحظ تأثره بأستاذه أبي أحمد
العسكري ، فإنه أخذ هذا التعريف منه^(٢) .

وقد ذكر المواضع التي يمدح فيها الإطناب ، والمواضع التي يمدح فيها
الاقتصاد ، قال : «... وقد أجاد ابن الرومي في قوله : البلاغة حسن
الاقتضاب عند البديهة ، والغزارة يوم الإطالة . فجعل البلاغة في الغزارة ، كما
جعلها غيره في الإيجاز»^(٣) .

وأورد أبو هلال العسكري المواضع التي يستحسن بها الإطالة ، كخطب
الحرب ، والكتب الصادرة عن السلاطين ، وقصص الوعظ ، وخطب
الإرشاد ، وللخاطب ، قال : «... وكانت قريش تستحسن من الخاطب
الإطالة ، ومن المخطوب الإيجاز»^(٤) ، وساق قول عمر بن عبد العزيز - رحمه
الله تعالى - عندما خطب محمد بن الوليد بن عتبة ابنة أخيه ، «قال عمر : الحمد
لله الذي أنطق البلغاء ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خير الأنبياء . أما
بعد : فإن الرغبة منك دعتك إلينا ، والرغبة فيك إجابتك منا . وقد أحسن بك

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ١٩١ - ١٩٢ ، وذكر شيئاً منه الرماني في النكت ، ص : ٩٧ .

(٢) رسالة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ، ص : ٢١٨ (ضمن التحفة البهية) .

(٣) ديوان المعاني ٢ / ٨٤١ .

(٤) ديوان المعاني ٢ / ٨٤١ .

ظناً من أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك . وقد زوجناك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ . فكان هذا من أوجز خطبه ، وأحسنها للمراد^(١) . فلإطناب مواضعه ، وللإيجاز مكانه ، «فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز ، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»^(٢) . واستشهد بقول أحدهم :

فإن هو أطنب في خطبةٍ قضى للمطيل على المقصرِ
وإن هو أوجز في خطبةٍ قضى للمقلِّ على المكثِرِ
ونرى أبا هلال يكرر الأمثلة التي تناولها من قبله الجاحظ حول الإيجاز والإطناب ، ولم يضيف شيئاً ذا بال ، وأعاد الأمثلة في كتابيه (ديوان المعاني) و(كتاب الصناعتين) ، لكنه توسع في موضع الإنباع ، وهو أقرب إلى المباحث اللغوية . لكن ، ليتجنب العرب التكرار ، نراهم يقولون : «حسن بسن ، عطشان نطشان ، شيطان ليطان» ، «كرهوا أن يقولوا : عطشان عطشان ، فأبدلوا من العين نوناً»^(٣) .

ثم ذكر أبو هلال العسكري المساواة ، وعرفها بقوله : «... وهو أن تكون المعاني بقدر الألفاظ ، والألفاظ بقدر المعاني ، لا يزيد بعضها على بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب»^(٤) . وهذا التعريف قريب جداً إلى تعريف الجاحظ . ونرى بصمات الجاحظ واضحة تمام الوضوح في هذه الأبحاث ، وكذلك أقوال الرماني في (النكت) . وكثيراً ما يعيد أبو هلال العسكري التعريف ، ويكرر الأمثلة ذاتها ، وأتى على أمثلة من المساواة

(١) ديوان المعاني ٢/٨٤٢ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ١٩٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٩٢ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ١٧٩ .

في القرآن الكريم ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴾^(١) ، ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً ، والزكاة مغرمًا »^(٢) .

ومن فنون البيان التي ذكرها أبو هلال : التشبيه والاستعارة والتعريض ، والكناية . فذكر في الفصل الأول من الباب السابع التشبيه ، وحده ، وأنواعه ، وأركانه ، وعناصره ، وأجود التشبيهات ، وأغربها . وفائدة التشبيه «هي أنه يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأييداً . ولهذا ، ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه»^(٣) .

وذكر في الفصل الثاني عيوب التشبيه ، والتشبيهات البعيدة ، وعرف التشبيه فقال : «الوصف بأن أحد الموصوفين يقوم مقام الآخر بأداة التشبيه ، ناب منابه أو لم ينب»^(٤) .

وتكلم على أنواعه ، منها : تشبيه الشيء بالشيء جملة ، أي : التشبيه المجمل ، وهو حذف وجه الشبه ، مثل : ﴿ وَكَلَّ الْجَوَارِ الْمُتَشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾^(٥) ، إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها ، لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها ، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو .

وذكر التشبيه البليغ وإن لم يسمه بهذا الاسم ، قال : « . . . وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه » ، ومثل له بقول امرئ القيس^(٦) :

له أيطلا ظبي ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان ، وتقريب تتفل

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٧٢ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ١٧٩ .

(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٤٣ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٢٣٩ .

(٥) سورة الرحمن ، الآية : ٢٤ .

(٦) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٣٩ .

وقال : «هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام ، لأن الفرس لا يكون له أبطلا ظبي ، ولا ساقا نعامة ، ولا غيره . وإنما المعنى له أبطلان كأبطلي ظبي ، وساقان كساقى نعامة»^(١) .

وذكر أبو هلال العسكري أن هناك تشبيهات كثيرة تجتمع في بيت واحد ، مثل^(٢) :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت ورداً وعضت على العُنب بالبرد
ثم تكلم على التشبيه التمثيلي وإن لم يذكره باسمه الاصطلاحي ، قال :
«منها : تشبيه الشيء بالشيء صورة . ومن ذلك قول امرئ القيس^(٣) :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
وعرض أبو هلال لأوجه التشبيه ، فقال : «التشبيه على ثلاثة أوجه ، فواحد منها تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة . . . والآخر تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل ، كتشبيه الجوهر بالجوهر . . . والثالث تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر»^(٤) .

وعرض لأجود التشبيه وأبلغه ، وهو ما يقع على أربعة أوجه كما يأتي^(٥) :

١ - إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما يقع عليه ، وهو قول الله تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾^(٦) .

٢ - إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، كقوله تعالى :

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٤٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٥١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٤٥ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٢٤٠ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ٢٤٠ - ٢٤١ ، وقد نقله عن الرماني في النكت ، ص : ٨٢ - ٨٥ .

(٦) سورة النور ، الآية : ٣٩ .

﴿ وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾^(١) ، والمعنى الجامع بين المشبه والمشبّه به : الانتفاع بالصورة .

٣ - إخراج ما لا يعرف بالبدية إلى ما يعرف بها ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾^(٢) - ، قد أخرج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم بها ، والجامع بين الأمرين : العظم ، والفائدة فيه : التشويق إلى الجنة بحسن الصفة .

٤ - إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة ، كقوله عز وجل : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾^(٣) ، والجامع بين الأمرين : العظم ، والفائدة : البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون بعد الماء .

ونرى أبا هلال العسكري قد تأثر بمن كان قبله من العلماء في ذكر أنواع التشبيه وأقسامه ، فقد عرض له المبرد - كما مرّ معنا - بشيء من التفصيل ، وذكر أقسامه ، وبين أنواعه ، وساق له الشواهد المناسبة ، وحذا حذوه أبو هلال في هذا الباب بشيء من التوسع والتفصيل ، وضرب كثيراً من الأمثلة التي ألفت الضوء ساطعاً على التشبيه ، وما أظن المتأخرين من البلاغيين قد زادوا زيادات أخرى على ما قاله أبو هلال إلا بسوق الأمثلة التي لم يذكرها . وساق لنا أبو هلال شواهد تدل على أجود التشبيه في نظره ، مثل قول الطرماح^(٤) :

يدو وتضمّره البلاد كأنه سيف على شرف يُسَلُّ ويُعْمَدُ
ومن أجود التشبيهات التي رصدها أبو هلال قول أحمد بن صالح يصف جارية كاتبه ، فقال : «كأن خطّها أشكال صورتها ، وكأن مدادها سواد

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

(٣) سورة الرحمن ، الآية : ٢٤ .

(٤) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٥٣ .

شعرها ، وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قلمها بعض أناملها ، وكأن بيانها سحر مقلتها ، وكأن سكينها سيف لحظها ، وكأن مِقْطَها قلب عاشقها»^(١).

وفي مقابلة هذه التشبيهات الرائعة ، هناك بعض التشبيهات الرديئة التي جمعها أبو هلال ، منها قول الشاعر :

ذكرت أخي فعادوني صداع الرأس والوصب
فذكر الرأس مع الصداع فضلٌ ، لأن الصداع لا يكون في الرجل ولا في غيرها من الأعضاء ، وفيه وجه آخر من العيب ، وهو أن الذائر لما قد فات من محبوب يوصف بألم القلب واحتراقه ، لا بالصداع»^(٢).

ومع تمكن أبي هلال من ناصية التشبيه إلا أنه لم تكن عنده الحدود الفاصلة ، إذ عرض لبعض الاستعارات على أنها تشبيهات عنده^(٣) رغم أنه أفرد باباً للاستعارة ، لكن ذكرها مع فنون البديع كما صنع ابن المعتز قبله في كتابه (البديع).

وذكر أبو هلال الاستعارة والمجاز ، وكان يخلط بينهما ويجعلهما لفظين مترادفين ، وقرر أنه لا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة وإن كانت الاستعارة أبلغ منها. فنراه يفرد الفصل الأول من الباب التاسع لذكر الاستعارة والمجاز ، وعدّهما من أقسام البديع - كما أسلفنا - وهنا ، يلتقي مع ابن المعتز في كتابه (البديع) ، حيث يجعل الاستعارة أول أبوابه ، وأحد الفنون الخمسة الأصلية عنده .

وقد عرّف أبو هلال العسكري الاستعارة بقوله : «الاستعارة نقل عبارة عن

(١) ديوان المعاني ٨١٧/٢ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) يراجع : المصدر ذاته ، ص : ٢٥١ وما بعدها ، وما كتبه القاضي الجرجاني في الفصل السابق عن الاستعارة .

موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه . وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة . ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة ، لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً^(١) .

وهذا التعريف قريب من تعريف السابقين للاستعارة وإن كان فيه بعض التوسع ، وهو تحديده الاستعارة بالاستعارة المصيبة .

وقد أورد أبو هلال أمثلة على ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾^(٢) ، يقول : «أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال : (يوم يكشف عن شدة الأمر) وإن كان المعنيان واحداً ، ألا ترى أنك تقول لمن يحتاج إلى الجد في أمر : شمر عن ساقك فيه ، واشدد حيازيمك له !؟ فيكون هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك : (جدّ في أمرك) . وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة»^(٣) .

وصرح أبو هلال أنه لا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة ، وهي «أصل الدلالة على المعنى في اللغة ، ووجود معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه»^(٤) .

وأورد على ذلك كثيراً من الأمثلة من القرآن الكريم ، وصرح أنه جمع أكبر قدر من الشواهد القرآنية لكن لا يستطيع الاستقصاء . . . وساق الشواهد من

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٦٨ .

(٢) سورة القلم ، الآية : ٤٢ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٢٦٩ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٢٧١ ، والقول أخذه من النكت ، ص : ٨٦ .

حديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وأشعار المتقدمين ومن كلام المحدثين .

وكان أبو هلال العسكري يمزج بين المجاز والاستعارة ، فقد أتى بأمثلة من المجاز وعدّها استعارة ، كقول الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
وقول الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعيمم النبت مكتهل
وقوله : هذا شجر واعد ، إذا أقبل بماء ونضرة كأنه يعد بالتمر . وأنشد الفراء^(١) :

إن دهرأ يلف شملي بسلمى لزمان يهم بالإحسان
وتناول الاستعارة كذلك في (ديوان المعاني) ، فذكر الاستعارة الحسنة والمصيبة ، ومثّل لأحسن استعارة في ذكر الخط بقول عبيد الله بن العباس بن الحسن العلوي : «الخط لسان اليد»^(٢) ، وللاستعارة المصيبة في صفة الصبح بقول سالم بن وابصة^(٣) :

على حين أثنى القوم خيراً على السرى وطار بأخرى الليل أجنحة الفجر
وكما خلط أبو هلال بين المجاز والاستعارة ، خلط بين الاستعارة والتشبيه رغم أنه أفرد الباب السابع بفصليه للتشبيه ، لكن لم تكن عنده الحدود واضحة تماماً بين الاستعارة والتشبيه ، لأنها في الأصل تشبيه حذف أحد طرفيه .

ورغم ما جمع أبو هلال من الأمثلة على الاستعارة ، فإنه لم يذكر لها

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) ديوان المعاني ١٦٦/٢ .

(٣) المصدر ذاته ١/٨٦٨ - ٨٦٩ .

الأقسام والحدود والمصطلحات، وظلت الاستعارة كذلك حتى ميزها المتأخرون، وجعلوها في موضعها من علم البيان حين استواء التقاسيم واستقرارها.

ومن فنون البيان التي ذكرها أبو هلال : الكناية والتعريض ، وعرف الكناية بقوله : «وهو أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء»^(١). وذكر الأمثلة الجيدة على الكناية ، لكن لم يفصل في أقسامها ، ولم يصف شيئاً يذكر ، وإنما يعود له الفضل أنه جمع أقوال السابقين عنها ، فذكرها مجتمعة في هذا الفصل . وغالب هذه الأمثلة قد ذكرها في الفصول السابقة .

وقد جعل أبو هلال الكناية والتعريض من جملة فنون البديع الذي احتل عنده ما يقارب نصف الكتاب . وكان يتبع ابن المعتز في عدّ بعض الفنون التي تقاسمتها فيما بعد مباحث علم البيان وعلم المعاني من البديع . وقد وصلت إليه وزاد عليها بعض الفنون ، فبلغت عنده خمسة وثلاثين فناً .

ومن المحسنات المعنوية التي ذكرها : المطابقة ، وعيوب الطباق ، والسلب ، والإيجاب ، والمقابلة ، والاستطراد ، والعكس ، والرجوع ، والجمع ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير والمقابلة ، والغلو والإفراط ، والمذهب الكلامي ، والاستثناء ، وتجاهل العارف ، والتجنيس ، ورد العجز على الصدر ، والسجع وأقسامه ، والفاصلة ، والتشطير ، والترصيع ، وحسن المبادئ ، وحسن الخروج .

وكان العلماء قبله قد ابتكروا بعض المصطلحات البلاغية ، كأبي العباس المبرد ، والإمام ثعلب ، ثم جاء بعده ابن المعتز فذكر ثمانية عشر نوعاً بلاغياً ، ثم زاد عليها قدامة بن جعفر فأصبحت عنده عشرين فناً التقى مع ابن المعتز في سبعة منها .

(١) كتاب الصنائع ، ص : ٣٦٨ .

ومن الجدير بالذكر أن أبا الحسن الرماني - معاصر أبي هلال (ت ٣٨٤ هـ) - كانت فنون البلاغة عنده عشرة أقسام ، وهي : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان^(١) . ولكن الرماني لم يذكر بعض الفنون التي ذكرها البلاغيون قبله ، بينما نجد أبا هلال العسكري قد قرّع في أنواع البديع حتى وصلت إلى خمسة وثلاثين نوعاً ، ابتكر منها سبعة أنواع ، وهي : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والاحتجاج ، والتلطف^(٢) . وسأكتفي بتعريف هذه الأنواع البديعية التي أضافها أبو هلال ، مستشهدة لها ببعض الأمثلة التي توضحها ، أما باقي الفنون البديعية ، فقد ذكرها غيره - كما أسلفنا - ونص عليها أبو هلال ، وسقتها مرتبة كما هي عنده في (كتاب الصناعتين) :

١ - التشطير^(٣) : وهو أن يتوازن المصراعان والجزءان ، وتتعاذل أقسامهما ، مع قيام كل منهما بنفسه ، واستغنائه عن صاحبه . ومن أمثله في النثر : «الجود خير من البخل» ، و«المنع خير من المطل» . ومن شعر المحدثين ، قول البحري :

شوقي إليك تفيض منه الأدمع وجوى إليك تضيق عنه الأضلع
ويذكر أبو هلال أنه ساق كثيراً من أمثله في بحث الازدواج ، وعدّه البلاغيون بعده نوعاً من أنواع السجع ، وذلك عند من لم يخص السجع بالنثر وحده ، ولم يشترط توازن الفقرات .

ولو دققنا النظر في كتاب (قواعد الشعر) للإمام ثعلب ، لوجدنا أبا هلال قد

(١) النكت في إعجاز القرآن ، ص : ٧٦ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ٤١١ - ٤٣٠ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤١١ .

أخذه منه عندما ذكر الآيات المعدلة^(١).

٢ - المجاورة^(٢) : وهي «تردد لفظتين في البيت ، ووقوع كل واحدة منهما بجانب الأخرى ، أو قريباً منها من غير أن تكون إحداهما لغوياً لا يحتاج إليها». وساق أبو هلال الأمثلة الشعرية عليها ، مستشهداً بشعره وشعر غيره ، كقول مسلم^(٣) :

أتك المطايا تهدي بمطية عليها فتى كالنصل يؤنسه النصل

٣ - الاستشهاد والاحتجاج^(٤) ، وهو أن تأتي بمعنى ، ثم تؤكد بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول ، والحجة على صحته ، كقول بشار^(٥) :

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم
وكان حرياً به أن يدخل هذا النوع فيما سماه ابن المعتز بالمذهب
الكلامي ، إذ هو ضرب من البرهنة والتدليل^(٦).

٤ - المضاعفة^(٧) ، وهو أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الَّذِينَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٨) وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا
يُبْصِرُونَ^(٨) ، فالمعنى المصرح به في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدي من
عمي عن الآيات وصم عن الكلم اليبينات ، بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع
بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشار إليه أنه فضل السمع على البصر لأنه جعل

(١) قواعد الشعر ، ص : ٦٣ - تحقيق : خفاجي .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ٤١٣ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤١٥ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٤١٦ .

(٥) المصدر ذاته ، ص : ٤١٧ .

(٦) يراجع : البلاغة تطور وتاريخ ، ص : ١٤٥ .

(٧) كتاب الصناعتين ، ص : ٤٢٣ .

(٨) سورة يونس ، الآيتان : ٤٢ - ٤٣ .

مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط^(١) .

٥ - التطريز^(٢) ، وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن ، فيكون فيها كالطراز في الثوب . وهذا النوع قليل في الشعر . ومثل له بقول أبي تمام :

أعوام وصلٍ كاد ينسي طولها ذكرَ النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أردفت نجوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهم وكأنها أحلام
فالكلمات هي : أيام ، أعوام ، أحلام .

٦ - التلطف^(٣) ، «وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه ، والمعنى الهجين حتى تحسنه» . ومثل عليه بأمثلة كثيرة ، منها «قول الحطيئة في قوم كانوا يلقبون بأنف الناقة فيأنفون ، فقال :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا؟!
فكانوا بعد ذلك يتبجحون بهذا البيت»^(٤) .

ونذكر أن أبا هلال العسكري بعد أن جمع خمسة وثلاثين نوعاً من فنون البديع ، وقرر أن المحسنات الست التي ألقينا عليها الضوء هي من اختراعه ، ذكر أنه وجد نوعاً سابعاً ، فزاده عليها فأصبحت عنده ستة وثلاثين نوعاً ، وسماه : المشتق^(٥) ، وهو على وجهين : فوجه منهما أن تشتق اللفظ من اللفظ ، والآخر أن تشتق المعنى من اللفظ ، فاشتقاق اللفظ من اللفظ مثل قول

(١) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٣ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٥ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٧ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٤٢٨ .

(٥) كتاب الصناعتين ، ص : ٤٢٩ - ٤٣٠ .

الشاعر في رجل اسمه ينخاب :

وكيف ينجح من نصف اسمه خابا

واشتقاق المعنى من اللفظ قول ابن دريد في العالم نبطويه :

لو أوحى النحو إلى نبطويه ما كان هذا النحو يقرأ عليه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراحاً عليه

وقد استخدم أبو هلال العسكري المصطلحات التي كانت سائدة في عصره
أو بعضها التي اختلف العلماء من قبله على تسميتها ، مثل الاستثناء ، أي :
تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فعندما ذكره استفاد من ابن المعتز . وما زال هذا
المصطلح متداولاً عند كثير من المتأخرين^(١) .

وعندما ذكر المبالغة والإفراط ، قال في ذلك : «هو عند بعضهم مذموم ،
وعند آخرين ممدوح» ، وأورد قول النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب
ثم جاء علماء البلاغة ، فأخذوا يفرعون التفريعات ، ويذكرون
المصطلحات مما حجر البلاغة عندما أبعدوها عن جماليات الأسلوب
والصياغة ، وصبوها في قوالب جامدة بعيدة كل البعد عن سحر البلاغة
وجمالها وأصالتها .

المبحث الثالث : النقد عند أبي هلال :

(كتاب الصناعتين) يغلب عليه الطابع البلاغي ، لكننا نجد أبا هلال
يتحدث عن بعض الموضوعات النقدية في مواضع متفرقة منه ، كما أن له آراء
مماثلة في (ديوان المعاني) ، فنراه ينبه على ما يحتاجه الكاتب في مكاتباته ،
فذكر آلة الكتابة وأدواتها ، فمن آلتها معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة

(١) يراجع : المصدر ذاته ، ص : ٤٠٨ .

المعاني ، ومنه مناسبتها للمقام الذي تقال فيه ، فإن لكل مقام مقالاً ، والكتابة للسلطان غير الكتابة للعمال والوكلاء ، والكتابة إلى العجم تختلف عن الكتابة الموجهة إلى العرب الخُلص ، ككتابتة عليه الصلاة والسلام إلى كسرى التي تتسم بوضوح العبارة ، غير كتابته إلى قبيلة عربية متمكنة من ناصية اللغة . لذلك ، نبه بقوله : «... فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك : مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق»^(١) .

وليست كل الأوقات مناسبة للكتابة ، لذلك دعا إلى تخير الأوقات المناسبة لتأليف الشعر ، فراه يردد ما ذكره الجاحظ عن رسالة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) ، وتحين الأوقات المناسبة للكتابة^(٢) .

وأبرز الموضوعات التي تناولها أبو هلال العسكري هي قضية اللفظ والمعنى وما يتصل به ، والطبع والتكلف ، وموضوع السرقات الشعرية .

فأما قضية اللفظ والمعنى ، فإن أبا هلال العسكري من أنصار اللفظ . وقد تبع الجاحظ في ذلك ، وكثير من عباراته كانت قد مرت معنا في بحث الجاحظ ، ورأيه نفسه في إيراد المعاني ، «لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروي والبدوي»^(٣) ، وإنما العبرة للصياغة لعلمه أن المعاني مشتركة بين الناس ، وإنما يتفاضلون بتلك الأثواب اللفظية التي يفصلونها أكسية وأردية لمعانيهم ، «الكلام بحسن سلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه... فنجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطالعه وجودة مقطعه...»^(٤) ، وذلك لأن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، لأن حسن الكلام وإحكام الصنعة وجودة المطلع تدل على فضل القائل . ومعظم

(١) المصدر ذاته ، ص : ١٥٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣١ .

(٣) كتاب الصناعيتين ، ص : ٥٧ - ٥٨ .

(٤) المصدر ذاته ، ص : ٥٥ .

هذه الأوصاف تعود إلى اللفظ أكثر من المعنى . لذلك ، دعا أبو هلال إلى السهولة ، لأن أجود الكلام السهل الممتنع . ولنستمع إليه يعلق على قول أعرابي : «أبلغ الناس أسهلهم لفظاً ، وأحسنهم بديهة . وهذا حسن جداً ، لأن سهولة اللفظ ، وحسن البديهة يدلان على جودة القريحة والبلاغة الغريزية ، ووعورة اللفظ تدل على تكلف وتعسف . ولا شيء أذهب بماء الكلام وطلاوته ورويقه منهما»^(١) . وكان يؤثر اللفظ الجزل البعيد عن الحوشي ، فنراه يورد أشعاراً تتسم بجزالة اللفظ وعذوبته ، منها قول مسلم^(٢) :

بكفّ أبي العباس يستمطر الغنى وتستنزل النعمى ويسترعف النصلُ
ويستعطف الأمر الأبى بحزمه إذا الأمر لم يعطفه نقض ولا قتل
لأن «أجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً لا ينغلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه ، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ، ومتورعاً متقعرأ ، ويكون بريئاً من الغثاثة ، عارياً من الركافة»^(٣) . لذلك ، كانت له بعض الأحكام النقدية على الشعراء ، منها حكمه على ابن طباطبا العلوي الأصفهاني بعد أن أورد له شعراً : «ولست أورد أكثر شعره إلا لإصابة معناه دون لفظه ، لأن أكثر لفظه متكلف ، وجل صنعته فاسدة ، وهذا من العجيب ، لأنه أكثر الناس نقداً لشعر غيره . وقد صنّف كتاب (عيار الشعر) فأجاده ، وهو إذا أراد استعمال ما ذكرناه لم يكمل له ، كالمنس يشخذ ولا يقطع»^(٤) . وأبو هلال ممن يؤثر المعاني الواضحة ، بله الصحيحة ، وهي عنده على ضربين : ضرب بيتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به . . . وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة . . . والآخر ما يحتديه على مثال تقدم ، ورسم فرط^(٥) .

(١) ديوان المعاني ٢/ ٨٣٣ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ص : ٦٥ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ٦٧ .

(٤) ديوان المعاني ١/ ٦٤٨ .

(٥) كتاب الصناعتين ، ص : ٦٩ .

وعرض لصحة المعاني وفسادها ، وأتى بأمثلة عليها .
وكان أبو هلال ممن يؤثر الطبع ويتعد عن التكلف المقيت . وساق قول
أحدهم عندما سئل : «ألا تستعمل الغريب في شعرك؟! فقال : ذاك عي في
زمانني ، وتكلف مني لو قلته ، وقد رزقت طبعاً واتساعاً في الكلام»^(١) . وأورد
كثيراً من الأمثلة للمطبوعين من الشعراء والكتاب ، من القدامى والمحدثين ،
ولم تكن له آراء نقدية بارزة في شعراء الحداثة ، لكنه كان يكثر من الاستشهاد
بشعرهم ، فبعد أن يورد أقوال القدامى ، يسوق أقوالهم ، ويحكم على شعرهم
ومدى إجادتهم . يقول عن البحترى : «... والبحترى أوصف المحدثين
للخيل ، وأكثرهم إجادة في نعتها . قال^(٢) :

جاري الجياد فطار عن أوهامها سبِقاً وكاد يطير عن أوهامه
جدلان تلطمه جوانبُ غرّة جاءت مجيءَ البدر حين تمامه
وكان على معرفة واسعة بالشعر والنثر ، وذا ثقافة رفيعة ، واطلاع كبير ،
فعندما قال الشاعر :

رقيق حواشي الحلم حين تَبُورُهُ يريك الهوينا والأمور تطير
قال أبو هلال : «قوله : [رقيق حواشي الحلم] رديء ، لأن الحلم يوصف
بالرزانة لا بالركة . واستعمل أبو تمام هذا اللفظ ، فعيب عليه . وقوله : [يريك
الهوينا ، والأمور تطير] ، روينا لمنصور النمري»^(٣) .

وهذا يدل على كثرة محفظه ، ودقته في نسبة الأبيات إلى قائلها ،
ومعرفة الأخذ والاتباع فيها . وهذا يقودنا إلى قضية السرقات الشعرية حيث أفرد
أبو هلال الباب السادس من (كتاب الصناعتين) لها ، وقسمها على نوعين ،

(١) المصدر ذاته ، ص : ٦١ .

(٢) ديوان المعاني ٢/ ٨٧٢ .

(٣) المصدر ذاته ٢/ ٨١٩ .

جعل الفصل الأول في السرقات الحسنة - حسن الأخذ^(١) - بينما جعل الفصل الثاني للسرقات الرديئة ، وسماها : قبح الأخذ^(٢) . فتناول سرقة المعاني ، وهو - كما مرّ معنا - من أنصار اللفظ ، فالمعاني عنده متداولة مطروقة ، يقول : «... ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم . ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها . فإن فعلوا ذلك ، فهم أحق بها ممن سبق إليها»^(٣) .

وقد عرض لأسباب السَّرْق ، ومن أخفى سرقة ، ومن نقل المعنى إلى معنى آخر ، أو من نظم إلى شعر ، ومن أخذ المعنى فزاد عليه واستطاع أن يخفي سرقة ، لأن حسن الأخذ هو في إلباس المعنى ثوباً لفظياً جميلاً .

وقد جمع الأمثلة الكثيرة من كلام الجاحظ في (البيان والتبيين) و(الحيوان) ، كما أنه عول على كتاب أستاذه أبي أحمد العسكري (صناعة الشعر)^(٤) . والمتتبع لسرقات أبي تمام والبحثري يجد بكل وضوح تأثيره بالموازنة بين الطائيين للآمدي ، وبالوساطة للقاضي الجرجاني ، فهذه الشواهد الكثيرة المكررة تشهد له بذلك .

وكان أبو هلال في باب الأخذ حاذقاً ماهراً يدرك السرقة ، فضلاً على تأثيره بكتب السابقين التي ذكرناها ، فإنه متمرس بالشعر ، وذو محفوظ غزير ، ومعرفة بالنقد ، وهذا ما ساعده على ذكر وتوضيح بعض المصطلحات كالأخذ ، فكان يذكر السرقة ، ومن سبق إلى هذا المعنى ، فيقول عن الهلال :

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ١٩٦ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٩ .

(٣) المصدر ذاته ، ص : ١٩٦ .

(٤) البلاغة تطور وتاريخ ، ص : ١٤١ .

«ومن غريب ما قيل فيه وعجيبه قول ابن المعتز :

إذا الهلالُ فارقته ليلتُهُ بدا لمن يبصره وينعته
كهامة الأسود شابت لحيته

قد سبق إلى هذا المعنى ولم يأخذه من أحد أعرفه ونقله إلى موضع آخر
فقال^(١) :

قد بدا فوق الهلال كُرَّتُهُ كهامة الأسود شابت لحيته
ويقول في أبيات لذي الرمة في وصف الليل :

وليل كجلباب العروس ادرعته بأربعة ، والشخص في العين واحدٌ
أَحْمٌ عَلافِيٌّ وأبيضُ صارمٌ وأعيْسُ مهريٌّ وأروع ماجدٌ
«فأخذه ابن المعتز إلى ما هو أطرف لفظاً منه ، وهو قوله :

وليل كجلباب الشباب قطعته بفتيان صدق يملكون الأمانيا
جلباب الشباب أطرف من جلباب العروس»^(٢).

وتعرض أبو هلال للسرقات الرديئة القبيحة التي تأتي من رداءة النسيج ،
فبعضهم يسرق اللفظ والمعنى ، وقد يتفق المبتدئ للمعنى والآخر معه في
الإساءة ، وقد يستويان في الإجادة. ونراه يدلل على ذلك بكثرة ما استحضره
من الشواهد.

وكان أبو هلال يطلق أحياناً مصطلح الأخذ والسرقة ، وأحياناً أخرى يطلق
مصطلح الاتباع ، فيقول - مثلاً - : «ممن أحسن الاتباع : أحمد بن
يوسف»^(٣).

(١) ديوان المعاني ١/ ٦٤٠.

(٢) المصدر ذاته ١/ ٦٤٤.

(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ٢١٥.

ويقول أبو هلال - كما قرر العلماء قبله - : «وما يعرف للمتقدم معنى شريف إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه» ، وذكر أبيات عنتره في الذباب وقال : «فإنه ما نوزع في هذا المعنى على جودته ، وقد رامه بعض المجيدين فافتضحوا»^(١) .

ويقول : «إن بعض المعاني قد زاد فيها المتأخرون على المتقدمين فأجادوا ، وحسن معرض شعرهم ، وسهل مطلعهم ، منه قول ابن المعتز^(٢) :
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة إذ قدت من الظفر
وتبع أبا هلال من جاء بعده ، فاحتذوا حذوه ، وزادوا عليه في الأقسام ،
وفرعوا التفريعات»^(٣) .

وقد برزت أهمية (كتاب الصناعتين) ، لأن أبا هلال جمع فيه معظم المصطلحات والمفاهيم البلاغية والنقدية حتى عصره ، أي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، فكانت له ميزة حسن التصنيف والتبويب . ونلاحظ أن كثيراً من المصطلحات البلاغية والنقدية كانت قد نضجت واكتملت ، واستطاع أن يوظفها في كتابه ، لأنه لم يستطع هو في كثير من الأحيان أن يضع الحدود والتعريفات ، بل كان يجمع ما كان منها متداولاً عند غيره من العلماء ، وإنه قد أضاف بعض الأمور البلاغية ، فسدّ الخلل ، ووضع لبنة في البناء البلاغي إضافة إلى جمعه الكثير من الأمثلة والشواهد ، وكان له الفضل في حسن انتقائها واصطفائها ، فكان أديباً ذواقة ، أحسن الاختيار ، إضافة إلى فطنته ، حيث إن المنطق وعلم الكلام قد سيطر على كثير من البلاغيين والنقاد ، وهذا يجافي أسلوب البلاغة العربية الأصيلة . لذلك ، صرح في مطلع (كتاب الصناعتين) أنه

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٢٣ .

(٢) المصدر ذاته ، ص : ٢٢٢ .

(٣) يراجع : المثل السائر ، ص : ١٠٠ .

خالف مذهب المتكلمين ، فقال : « . . . وقصدت فيه صناع الكلام من الشعراء والكتاب»^(١) .

ويبقى أبو هلال معلماً شامخاً لدارسي البلاغة والنقد ، وكان مثلاً للعلماء الذين ازدهرت البلاغة وترعرعت في ظل أدبهم وفنهم ، فكان لكتابه الصناعتين الأثر البارز الذي احتله في مكتبتنا العربية .

وهذا يحدونا - إن شاء الله - إلى دراسة علاقة البلاغة بالنقد عند المتأدبين أمثال ابن رشيق القيرواني ، وابن سنان الخفاجي فيما يستقبل من الزمن لنكمل هذه الحلقة التي بدأناها بعون الله ، وننهيها بإذن الله .

(١) كتاب الصناعتين ، ص : ٩ .

الخاتمة

قمت في هذا البحث بدراسة العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، جعلته في باين ، الأول منهما يعالج العلاقة بينهما في القرن الثالث الهجري ، وكان في خمسة فصول ، ركزت فيها على أبرز الأعلام الذين يشهد لهم التاريخ بالغوص في مجال الأدب واللغة والبلاغة والنقد ، وإبراز جهودهم في هذا المجال ، فكان الفصل الأول منصّباً على إبراز جهود أبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، حيث يعدّ مؤسس البلاغة العربية . وقد حاولت أن أجلي الأمور البلاغية عنده ، وأجمع شتات هذه المادة من ثنايا كتبه ، فالمادة غزيرة عنده ، لكنها مبعثرة في تضاعيف مصنفاة ، واللحمة شديدة بين المادة البلاغية والنقدية عنده . وقد أبرزت أثره وآراءه في قضية اللفظ والمعنى ، حيث تبين لنا أنه كان من أنصار اللفظ . ثم درست تطور هذا المفهوم عند العلماء الذين أتوا بعده ، وأبرزت أهم القضايا النقدية الموجودة على الساحة الأدبية وقتذاك ، كقضية القدم والحداثة ، حيث كانت المعركة دائرة بين القدامى والمحدثين . وقضية الطبع والصنعة ، وقضية السرقات الشعرية .

ثم انتقلت إلى الفصل الثاني ، فدرست فيه جهود عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) في هذا المجال ، إنصافه وانتصاره للشعراء المجيدين ، سواء أكانوا من القدامى أم من المحدثين .

أما الفصل الثالث ، فقد ركزت فيه على نشاط أبي العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) وأبرزت جهوده انطلاقاً من دراستي لرسالة البلاغة عنده ، بالإضافة إلى كتابه (الكامل) ، حيث كانت المادة البلاغية موزعة في أرجائه ، وكان يتكئ عليها في أحكامه النقدية .

وأما الفصل الرابع ، فقد أُلقيت الأضواء فيه على جهود صنوه أبي العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ) ، فتناولت كتابه (قواعد الشعر) الذي ذكر فيه بعض المسائل البلاغية والنقدية .

وختمت الباب الأول بفصل خامس ، أفردته لجهود عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) ، وأظهرت أثره الريادي في تأسيس علم البديع ، وبينت أن المقصود بالبديع عنده هو فنون البلاغة عموماً ، فلم تكن الحدود واضحة المعالم بين فروع البلاغة الثلاثة : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع . وكان كتابه (علم البديع) نبراساً احتدى به كل من جاء بعده . ثم زاد عليه البلاغيون ، وأظهر التقسيمات والتفريعات ، وزاد على الفنون البديعية التي أرسى قواعدها وأسسها ابن المعتز .

وأما الباب الثاني ، فدرست فيه العلاقة بين البلاغة والنقد في القرن الرابع الهجري ، معتمدة في ذلك على أهم الأعلام الذين كانت لهم بصمات واضحة في مجالي البلاغة والنقد في تلك الحقبة .

تعرضت في الفصل الأول لجهود ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ) ، في كتابه (عيار الشعر) ، وذكرت أن هذا الكتاب قد عبد السبل ، وأثار الطريق لمن جاء بعده وترسم خطواته .

وأما في الفصل الثاني ، فلقد انصب اهتمامي على دراسة الآراء البلاغية والنقدية عند أبي العباس الصولي (ت ٣٣٥ هـ) وإن لم تكن له تلك البصمات الواضحة التي كانت لغيره ، لكن لا يخفي أثره في هذا المجال ، وتعرضه لبعض المواقف النقدية عندما كان يترجم للأدباء والشعراء .

وأما الفصل الثالث من هذا الباب فكان منصباً على إبراز أثر الكاتب قدامة ابن جعفر في كتابه الشهير (نقد الشعر) ، وكيف استقى منه العلماء الذين جاؤوا بعده .

وأبرزت في الفصل الرابع جهود الحسن بن بشر الأمدى (ت ٣٧٠ هـ) من خلال موازنته بين الطائيين ، وكيف أنه رجع ميزان البحثري بعد أن كانت الكفة راجحة لفائدة أبي تمام عند الصولي وأضرابه .

وكان الفصل الخامس منصباً على إبراز جهود أبي عبيد الله المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) في موشحه ومعجمه الذي ترجم فيه للشعراء ، واللمحات النقدية والبلاغية التي تخللت المعجم ومواقفه ولفقاته في كتاب (الموشح) في مآخذ العلماء على النقاد ، فقد استطاع أن يجمع لنا الحصيلة الثقافية النقدية من خلال هذه المآخذ ، مدلياً بآرائه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وأما الفصل السادس ، فكان عرضاً لجهود القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) في وساطته ، وأبرزت مكانة (الوساطة) في الساحة البلاغية والنقدية ، وذلك من خلال توسط هذا القاضي بين المتنبى وخصومه ، فأبرزت أهم الجوانب التي ذكرها في وساطته .

وكان الفصل السابع لإبراز نشاط أبي هلال العسكري (توفي بعد ٣٩٥ هـ) ، ومدى قدرته على جمع أكبر قدر ممكن من المعارف والمصطلحات البلاغية والنقدية التي وصلت إليه ، وذلك من خلال مصنفاة ، فجمع لنا جهود السابقين وأمثلتهم وشواهدهم . وبه اكتملت حلقة النقد في القرن الرابع للهجرة .

فهرست المصادر والمراجع

١ - فهرست الكتب :

- حرف الألف -

- الاتجاه النقدي عند ابن طباطبا : د. عبد الله عبد الكريم العبادي - منشأة المعارف - الإسكندرية - ط ١ - ١٩٩٠ .
- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة : د. أحمد مطلوب - وكالة المطبوعات - الكويت - ط ١ - ١٩٧٣ .
- أثر الفكر اليوناني على الناقدین (الجاحظ وقدامة) : محمد عبد الغني المصري - دار عمار - الأردن - ط ١ - ١٩٨٤ .
- أثر القرآن في تطور النقد العربي : محمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٢ .
- أثر النحاة في البحث البلاغي : د. عبد القادر حسين - دار غريب - القاهرة - ١٩٩٨ .
- أخبار البحري : أبو بكر الصولي - ت. د. صالح الأشر - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٥٨ .
- أخبار أبي تمام : أبو بكر الصولي - ت. عساكر وعزام ونظير الإسلام - المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت - د. ت .
- أخبار الرازي بالله والمتقي لله : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي - عني بنشره : ج. هيورث دن - دار المسيرة - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣ .
- أخبار النحويين البصريين : أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي - ت. د. محمد إبراهيم البنا - دار الاعتصام - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٥ .
- أدب الكاتب : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - ت. محمد الدالي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٩ .

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- أدب الكتاب : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي - تح. محمد بهجة الأثري - المكتبة العربية / بغداد - المطبعة السلفية / القاهرة - ١٣٤١ هـ / ١٩٠٤ م. وتح. أ. سميح إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ط١ - ٢٠٠٥ م.
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) : ياقوت الحموي - دار الفكر - بيروت - ط٣ - ١٩٨٠.
- د. إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط٢ - ١٩٩٣.
- دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- أساس البلاغة : جار الله الزمخشري محمود بن عمر - دار صادر - بيروت - ط٣ - ١٩٩٢.
- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني - تعليق : محمود شاكر - مطبعة المدني - القاهرة / جدة - ط١ - ١٩٩١.
- أسس النقد الأدبي عند العرب : د. أحمد أحمد بدوي - نهضة مصر - القاهرة - ط٢.
- الإشارات والتنبيهات : محمد بن علي بن محمد الجرجاني - ت. أ. د. عبد القادر حسين - مكتبة الآداب - القاهرة - ط٢ - ١٩٩٧.
- إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين : عبد الباقي اليماني - ت. عبد المجيد دياب - مركز الملك فيصل للبحوث - الرياض - ط١ - ١٩٨٦.
- الأشربة (كتاب الأشربة) : ابن قتيبة - ت. ياسين محمد السواس - دار الفكر - دمشق - ط١ - ١٩٩٨.
- أشعار آل أبي عيينة وأخبارهم - جمع وتحقيق : د. عبد المجيد الإسداوي - دار الأرقم - الزقازيق - ١٩٩٤.
- أشعار أولاد الخلفاء (من كتاب الأوراق) : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي - نشر : ج. هيورث دن - مطبعة الصاوي - مصر ط١ - من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٦.
- أشعار النساء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني - ت. د. سامي العاني وأ. هلال ناجي - عالم الكتب - بيروت - ط١ - ١٩٩٥.

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- الإصابة في تمييز الصحابة : ابن عبد البر القرطبي ، يوسف بن عبد الله - ت .
علي محمد البجاوي - دار الجيل - ط ١ - ١٤١٢ هـ .
- إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلائي - ت . السيد أحمد صقر - دار المعارف -
القاهرة - ط ١ - ١٩٥٤ .
- الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين
والمستشرقين : خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٢ - ١٩٩٧ .
- أعيان الشيعة : محمد الأمين العاملي - ت . حسن الأمين العاملي - دار التعارف
- بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ .
- أمالي السيد المرتضى ، المسماة : غرر الفوائد ، ودرر القلائد : علي بن
الحسين ، المعروف بالشريف المرتضى - ت . محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الكتاب
العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٦٧ .
- الإمتاع والمؤانسة : علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى - صححه
وضبطه : أ . أحمد أمين وأحمد الزين - المكتبة العصرية (مصورة عن الطبعة
المصرية) - بيروت - د . ت .
- أمراء البيان : محمد كرد علي - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط ١
- ١٩٣٧ .
- الأم : الشافعي ، محمد بن إدريس - دار المعرفة - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٣ هـ .
- إنباه الرواة على أنباه النحاة : جمال الدين علي بن يوسف القفطي - ت . محمد
أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٦ .
- مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - د . ت .
- الأنساب : عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني - تقديم وتعليق :
عبد الله البارودي - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ .
- الأوراق (قسم أخبار الشعراء) : أبو بكر الصولي - مطبعة الصاوي - القاهرة -
ط ١ - ١٩٣٤ .

- الإيضاح في علل النحو : عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجي - ت. أ. د. مازن المبارك - دار النفائس - بيروت - ط ٦ - ١٩٩٦ .
- الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني - ت. أ. د. عبد القادر حسين - مكتبة الآداب - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٦ .
- ت. د. عبد المنعم خفاجي - دار الجيل - بيروت - ط ٣ - د. ت.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون : إسماعيل باشا البغدادي - دار الفكر - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ .

- حرف الباء -

- البخلاء : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - ت. د. يسري عبد الغني البشري - مكتبة ابن سينا - القاهرة - ١٩٨٩ . و: ت. علي الجارم - دار الكتب العلمية .
- البداية والنهاية : عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي - ت. مجموعة من الأساتذة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٧ .
- دار أبي حيان - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٦ .
- البديع : عبد الله بن المعتز - نشر : اغناطيوس كراتشوفسكي - مكتبة المثني - بغداد - ط ٢ - ١٩٧٩ .
- شرح وتحقيق : د. خفاجي - دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩٠ .
- بديع القرآن المجيد : ابن أبي الإصبع المصري - ت. حفني شرف - نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٧ .
- البرصان والعرجان والعميان والحولان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - ت. د. محمد مرسي الخولي - دار الاعتصام - القاهرة / بيروت - ط ١ - ١٩٧٢ .
- البرهان في وجوه البيان : إسحاق بن وهب - ت. د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي - بغداد - ط ١ - ١٩٦٧ .
- البصائر والذخائر : علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي - ت. د.

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- وداد القاضي - دار صادر - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ .
- بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدي - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٩٩٧ .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٤ .
- أبو بكر الصولي : حياته وأدبه : د. أحمد جمال العمري - دار المعارف - مصر - ط ١ - ١٩٨٤ .
- أبو بكر الصولي ناقداً : صبحي ناصر حسين - دار الجاحظ - بغداد - ط ١ - ١٩٧٥ .
- البلاغة : محمد بن يزيد أبو العباس المبرد - ت. د. رمضان عبد التواب - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٥ .
- بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : د. إبراهيم سلامة - مكتبة الأنجلو - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٠ .
- البلاغة : تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ط ٨ - ١٩٩٠ .
- البلغة في تاريخ أئمة اللغة : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - ت. أ. محمد المصري - وزارة الثقافة - دمشق - ط ١ - ١٩٧٢ . - منشورات مركز المخطوطات - الكويت - ط ١ - ١٩٨٧ .
- البيان العربي : د. بدوي طبانة - دار المنارة - جدة - ط ٧ - ١٩٨٨ .
- البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - ت. عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - مصر - ط ٢ - ١٩٦٥ .

- حرف التاء -

- تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان - نقله إلى العربية : عبد الحليم نجار - دار المعارف - مصر - ط ٣ - ١٩٧٤ .
- تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات : د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٠ .

- تاريخ الإسلام : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي - ت. د. عمر عبد السلام التدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ .
- تاريخ بغداد ، أو مدينة السلام : الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٠ .
- تاريخ التراث العربي : فؤاد سزكين - جامعة الإمام - السعودية - ط ١ - ١٩٨٣ .
- تاريخ جرجان : أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي الجرجاني - إشراف : محمد عبد المعين خان - عالم الكتب - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٧ .
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس : حسين بن محمد بن الحسن الدياربركري - مؤسسة شعبان - بيروت - مصورة عن المطبعة الوهبية بمصر ، ١٢٨٣ هـ .
- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين : المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي - ت. د. عبد الفتاح الحلو - جامعة الإمام - السعودية - ط ١ - ١٩٨١ .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٢ .
- دار الشروق - عمان - ط ٢ - ١٩٩٢ .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب : أ. طه أحمد إبراهيم - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط ١ - ١٩٣٧ .
- تاريخ النقد الأدبي والبلاغة : د. محمد زغلول سلام - منشأة المعارف - الإسكندرية - ط ٣ - ١٩٩٦ .
- تأويل مختلف الحديث : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - صححه : محمد زهري النجار - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٦ .
- شرح ومراجعة : محمد سعيد اللحام - دار الهلال - بيروت - ط ١ - ١٩٨٩ .
- تصحيح وتخريج محمد نافع مصطفى . مؤسسة الرسالة / دار البشير / بيروت / عمان / ط ١ / ٢٠٠٤ م .
- تأويل مشكل القرآن : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - عيسى البابي

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٤ .
- ت. أحمد صقر - دار التراث - القاهرة - ط ٢ - ١٩٧٣ .
- ت. عمر محمد سعيد عبد العزيز - مركز الأهرام - مصر - ط ١ - ١٩٨٩ .
- تحرير التحبير : ابن أبي الإصبع - ت. د. حفني محمد شرف - المجلس الأعلى - القاهرة - ط ٢ - ١٩٩٥ .
- التحفة البهية والطرفة الشهية : - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨١ - مصورة عن طبعة الجوانب القسطنطينية - ١٣٠٢ هـ .
- تذكرة الحفاظ : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي - طبعة مصورة ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٧٤ هـ .
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك : القاضي عياض ابن موسى اليحصبي السبتي - ت. محمد بن تاويت الطنجي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - ط ٢ - ١٩٨٣ .
- تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة - ت. أحمد صقر - البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٨ .
- مكتبة دار الهلال - بيروت - ١٩٧٨ (طبعة مصورة) .
- التفكير البلاغي عند العرب : أسسه وتطوره إلى القرن السادس : د. حمادي صمود - منشورات الجامعة التونسية - ط ١ - ١٩٨١ .
- التفكير النقدي عند العرب : د. عيسى علي العاكوب - دار الفكر - دمشق - ط ١ - ١٩٩٧ .
- التلخيص في معرفة أسماء الأشياء : أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري - ت. د. عزة حسن ، دمشق ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً : د. عبد الله حمد محارب - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٢ .
- أبو تمام وموازنة الأمدي : محمد محمد الحسيني - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٧ .

- التنبيه على حدوث التصحيف : حمزة بن الحسن الأصفهاني - ت. محمد
أسعد طلس مطبعة مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٦٨ .

- التنبيهات على أغاليط الرواة : علي بن حمزة البصري اللغوي . تح.
عبد العزيز الميمني ، دار المعارف - ١٩٦٧ .

- تهذيب الأسماء واللغات : الإمام أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف
النووي - دار الكتب العلمية - مصورة عن الطبعة المصرية .

- تهذيب اللغة : أبو منصور الأزهري - ت. عبد السلام هارون - المؤسسة
المصرية للتأليف والنشر - مصر - ط ١ - ١٩٦٤ .

- حرف الثاء -

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الخطابي والرماني والجرجاني) - ت. د.
محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام - دار المعارف - مصر - ط ١ - ١٩٥٤ ، ط ٢
- ١٩٦٨ .

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن
إسماعيل الثعالبي - ت. أ. إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ط ١ - ١٩٩٤ .

- حرف الجيم -

- الجاحظ : حياته وآثاره : د. طه الحاجري - دار المعارف - القاهرة - ط ٢ -
١٩٦٩ .

- الجاحظ عمرو بن بحر : د. وديعة طه النجم - دار الجاحظ - بغداد - ط ١ -
١٩٨٢ .

- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء : شارل بلات - ترجمة : إبراهيم الكيلاني
- دمشق - ط ١ - ١٩٦١ .

- الجاحظ : معلم العقل والأدب : أ. شفيق جبري - دار البشائر - دمشق - ط ٢ -
٢٠٠١ .

- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) : الإمام القرطبي ، أبو عبد الله محمد

- ابن أحمد بن أبي بكر - دار إحياء التراث - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٥ .
- جمهرة أشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي - ت. محمد علي الهاشمي - دار القلم - دمشق - ط ٣ - ١٩٩٧ .
- جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين : محمد أمين بن فضل الله المحببي ، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٤٨ هـ .
- جواهر الألفاظ : قدامة بن جعفر - ت. محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط ١ - ١٩٣٢ .

- حرف الحاء -

- حاشية سيد شريف على المطول - قم - إيران - مصورة - ١٤٠٧ هـ .
- الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : أ. د. محمود الربدواوي - دار الفكر - بيروت - ط ١ - ١٩٦٧ .
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٨ .
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر : أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي - ت. د. جعفر الكتاني - دار الرشيد - بغداد - ط ١ - ١٩٧٨ .
- الحماسة الشجرية : أبو السعادات هبة الله بن علي بن الشجري - ت. عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ط ١ - ١٩٧٠ .
- الحيوان : الجاحظ - ت. عبد السلام هارون - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٣ - ١٩٦٩ .

- حرف الخاء -

- الخراج وصناعة الكتابة (كتاب الخراج) : قدامة بن جعفر - نشر : فؤاد سزكين - منشورات معهد تاريخ العلوم - فرانكفورت - ط ١ - ١٩٨٦ .

- الخراج وصناعة الكتابة: قدامة بن جعفر - شرح وتعليق د. محمد حسين الزبيدي - دار الرشيد. ط ١ ١٩٨١ .
- خزانة الأدب : عبد القادر البغدادي - دار صادر - بيروت - ط ١ - طبعة مصورة .
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني - ت. محمد علي النجار - المكتبة العلمية - بيروت - مصورة عن دار الكتب .
- الخيل : عبد الملك بن قريب الأصمعي . تح. أ. د. حاتم صالح الضامن ، دار البشائر ، دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م .
- حرف اللدال -
- دراسات في نقد الأدب العربي : د. بدوي طبانة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ط ٧ - ١٩٧٥ .
- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني - تعليق : محمود شاکر - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٤ .
- دمية القصر وخريدة العصر : أبو الحسن البخارزي - ت. د. عبد الفتاح الحلو - دار الفكر العربي ، مطبعة المدني - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٨ .
- ديوان أبي تمام ، شرح أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي - ت. محمد عبده عزام - دار المعارف - مصر - ط ٢ - ١٩٦٥ .
- ديوان حميد بن ثور : صنعة : أ. عبد العزيز الميمني - دار الكتب المصرية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٩٦ .
- ديوان القاضي الجرجاني - ت. سميح إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ط ١ - ٢٠٠٣ .
- ديوان كثير عزة - ت. د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ط ١ - ١٩٧١ .
- ديوان لييد بن ربيعة العامري ، شرح وتحقيق : د. إحسان عباس - مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ط ٢ - ١٩٨٤ .

- ديوان المعاني - تحقيق : أحمد سليم غانم - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٣ .

- ديوان أبي هلال العسكري - ت. د. جورج قناز - مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٧٩ .

- حرف الراء -

- الرؤية البيانية عند الجاحظ : إدريس بلمليح - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط ١ - ١٩٨٤ .

- رحلة في الفكر والتراث : د. داود سلوم - جامعة بغداد - العراق - ط ١ - ١٩٨٠

- الرد على المشبهة والمسائل والجوابات في المعرفة - ت. د. حاتم الضيامن - وزارة الثقافة والإعلام - العراق - ط ١ - ١٩٧٩ .

- رسائل الجاحظ - ت. عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - مصر - ط ١ - ١٩٧٩

- رسائل ابن المعتز في النقد والأدب والاجتماع - ت. د. محمد عبد المنعم خفاجي - البابي الحلبي - مصر - ط ١ - ١٩٤٦ .

- رسالة في تفضيل بلاغة العرب على العجم لأبي أحمد العسكري في كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية : مطبعة الجوائب - القسطنطينية - ط ١ - ١٣٠٢ .

- رغبة الآمل من كتاب الكامل : السيد المرصفي - مطبعة النهضة - مصر - ط ١ - ١٩٢٧ .

- رفع الإصر عن قضاة مصر : ابن حجر العسقلاني - ت. د. حامد عبد المجيد ومحمد المهدي - المكتبة الأميرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٧ .

- الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه : تح : أ. د. مازن المبارك - دار الفكر - دمشق - ط ٣ - ١٩٩٥ .

- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات : أبو تراب عبد العلي بن جعفر بن مهدي الخوانساري - ت. أسد الله إسماعيليان - دار المعرفة - بيروت ، عن طبعة قم ١٣٩١ هـ.

- حرف الزاي -

- الزاهر في معاني كلمات الناس : أبو بكر بن الأنباري، تح. أ. د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- زهر الآداب وثمر الألباب : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري - ت. محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط ٣ - ١٩٥٣.
- علي محمد البجاوي - عيسى البابي - القاهرة - ط ٢ - ١٩٦٩.

- حرف السين -

- سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي - ت. عبد المتعال الصعيدي - مطبعة صبيح القاهرة - ط ١ - ١٩٥٣.
- السرقات الأدبية : د. بدوي طبانة - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٦
- السرقات الشعرية بين الأمدي والجرجاني : د. عبد اللطيف الحديدي - جامعة الأزهر - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٥.
- سرقات أبي نواس : مهلهل بن يموت - ت. محمد مصطفى هدارة - دار الفكر العربي - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٧.
- سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني - ت. محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت - د. ت.
- سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة - ت. أحمد محمد شاكر وآخرون - دار إحياء التراث - بيروت - د. ت.
- السنن الكبرى : البيهقي ، أحمد بن الحسين بن علي - ت. محمد عبد القادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ / ١٩٩٤.
- سنن ابن ماجه : ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني - ت. محمد

فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت - د. ت.

- السياسة من كتاب الخراج : قدامة بن جعفر - ت. د. مصطفى الحيارى -
الجامعة الأردنية - عمان - ط ١ - ١٩٨١ .

- سير أعلام النبلاء : الذهبي - ت. شعيب الأرنؤوط وآخرون - مؤسسة الرسالة
- بيروت - ط ١١ - ١٩٩٦ .

- حرف الشين -

- شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي - ت. محيي الدين عبد الحميد - مطبعة
السعادة - القاهرة - ط ٣ - ١٩٥٣ .

- ت. محيي الدين عبد الحميد - دار المسيرة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩ .

- شرح اختيارات المفضل : الخطيب التبريزي، ت. د. فخر الدين قباوة، بيروت
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

- شرح ديوان الحماسة : أبو علي المرزوقي - ت. أحمد أمين وعبد السلام
هارون - دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩١ .

- شرح ديوان زهير : صنعة الإمام أحمد بن يحيى ثعلب - دار الكتب المصرية -
القاهرة - ط ١ - ١٩٩٤ .

- شرح ديوان كعب بن زهير : دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ .

- شرح المعلقات العشر : أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي - ت.
فخر الدين قباوة - دار الفكر - دمشق - ط ١ - ١٩٩٧ .

- شروح التلخيص : سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، وابن يعقوب
المغربي ، وبهاء الدين السبكي - دار الإرشاد الإسلامي - بيروت - د. ت.

- شعب الإيمان : البيهقي - ت. محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب
العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١٠ هـ .

- الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - ت. أحمد محمد شاكر
- دار المعارف - مصر - ط ٢ - ١٩٨٢ .

- البابي الحلبي - مصر - ط ١ - ١٣٦٤ هـ.

- شعر ابن طباطبا : جمع وتحقيق : جابر الخاقاني - منشورات اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين - بغداد - ط ١ - ١٩٧٥ .

- شعر أبي الفتح البيني - جمع وتحقيق : إبراهيم صالح - دار البشائر - دمشق - ط ١ - ٢٠٠٣ .

- حرف الصاد -

- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) - ت. د / مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - اليمامة / بيروت - ط ٢ - ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

- صحيح ابن حبان ، أبو حاتم التميمي البستي - ت. شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٤١٤ / ١٩٩٣ .

- صحيح ابن خزيمة ، أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري - ت. د / محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠ / ١٩٧٠ .

- صحيح مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج القشيري - ت. محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث - بيروت - د. ت .

- الصلة : خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال - نشر وتصحيح : عزت العطار الحسني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٣ - ١٩٩٤ .

- الصناعتين (كتاب الصناعتين) : أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري - ت. محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٢ .

- صور من تطور البيان العربي : د. كامل الخولي - دار الأنوار - مصر - ط ١ - ١٩٦٢ .

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب : د. جابر عصفور - المركز الثقافي العربي - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٢ .

- حرف الطاء -

- ابن طباطبا الناقد : د. محمد عبد الرحمن بن الربيع - النادي الأدبي - الرياض
ط ١ - ١٩٧٩ .
- طبقات الشافعية : أبو محمد جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن بن علي
الإسنوي - ت. عبد الله الجبوري - مطبعة الإرشاد - بغداد - ط ١ - ١٩٧٠ .
- طبقات الشافعية : تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة - اعتنى
بتصحيحه : عبد العليم خان - عالم الكتب - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧ .
- طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب السبكي - ت. محمود الطناجي
وعبد الفتاح الحلو - البابي الحلبي - مصر - ط ١ - ١٩٦٥ .
- طبقات الشعراء : ابن سلام الجمحي - ت. محمود شاكر - دار المعارف -
القاهرة - ط ١ - ١٩٥٢ .
- مطبعة المدني - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٤ .
- طبقات الشعراء المحدثين : عبد الله بن المعتز - ت. عبد الستار فراج - دار
المعارف - القاهرة - ط ١ - ١٩٨١ .
- طبقات الفقهاء : أبو إسحاق الشيرازي - ت. خليل الميس - دار القلم - بيروت
ط ١ - ١٩٩٠ .
- طبقات الفقهاء الشافعية : محمد بن أحمد العبادي - ت. إي. جي. بريل -
ليدن - ط ١ - ١٩٦٤ .
- طبقات المعتزلة : أحمد بن يحيى بن المرتضى - ت. سوسنة ملزر - دار
المنتظر - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٨ .
- طبقات المفسرين : أحمد بن محمد الأذنه وي - ت. د. سليمان الخزي -
مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ط ١ - ١٩٩٧ .
- طبقات المفسرين : الحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي - دار الكتب
العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣ .

- طبقات المفسرين : الحافظ السيوطي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣

- طبقات النحاة واللغويين (المحمدون) : أبو بكر بن أحمد ، المعروف بابن قاضي شهبة - ت. د. محسن عياض - مطبعة النعمان - النجف - ط ١ - ١٩٧٤ .

- طبقات النحويين واللغويين : أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله الزبيدي - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - الخانجي - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٤ .
- دار المعارف - القاهرة - ط ٢ - ١٩٧٣ .

- الطراز : علي بن حمزة اليمني - مكتبة المعارف - الرياض - ط ١ ، مصورة عن طبعة القاهرة ١٩١٤ .
- دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٠ .

- حرف العين -

- أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية : أ. محمد عبد الخالق عزيمة - مكتبة الرشد - الرياض - ط ١ - ١٤٠٥ هـ .

- العبر في ديوان من غبر : الحافظ محمد بن أحمد الذهبي - ت. د. صلاح الدين المنجد - وزارة الإعلام - الكويت - ط ٢ - ١٩٨٤ .

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان : بدر الدين العيني أبو محمد محمود بن أحمد - ت. محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٧ - ١٩٩٢ .

- ت. عبد الرازق الطنطاوي القرموط - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٩ .

- العقد الفريد : أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه - ت. محمد سعيد العريان - دار الفكر - بيروت - طبعة مصورة .

- العلل المتناهية في الأخبار الواهية : ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي - ت. خليل الميس - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤٠٣ هـ .

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : الحسن بن رشيق القيرواني - ت. بدر الدين النعساني - القاهرة - ١٩٠٧ .
- ت. محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٥٥ .
- ت. د. محمد قرقران - مكتبة الكاتب العربي - دمشق - ط ٢ - ١٩٩٤ .
- عمود الشعر العربي في موازنة الأمدي : د. علي علي صبح - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٦ .
- عيار الشعر : ابن طباطبا العلوي - ت. د. طه الحاجري ود. زغلول سلام - المكتبة التجارية - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٦ .
- ت. د. عبد العزيز بن ناصر المانع - دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ط ١ - ١٩٨٥ .
- عيون الأخبار : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - دار الكتاب العربي - بيروت ، مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٢٥ .
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي ، المعروف بابن أبي أصيبعة - فرانكفورت - ألمانيا - ١٩٩٥ .
- حرف الغين -
- غريب الحديث : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - ت. د. عبد الله الجبوري - وزارة الأوقاف العراقية - مطبعة العاني - بغداد - ط ١ - ١٩٧٧ .
- حرف الفاء -
- الفاضل : أبو العباس المبرد - ت. عبد العزيز الميمني - دار الكتب المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .
- الفروق في اللغة : أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري - ت. جمال عبد الغني مدغمش مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٢ .
- فصيح ثعلب والشروح التي عليه - نشر : د. محمد عبد المنعم خفاجي - النموجية - مصر - ط ١ - ١٩٤٩ .

- الفكر النقدي والأدبي في القرن الرابع الهجري : د. محمد عبد المنعم خفاجي - رابطة الأدب الحديث - القاهرة - د. ت.
- فن البديع : أ. د. عبد القدر حسين - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٨ .
- فن البلاغة : أ. د. عبد القادر حسين - عالم الكتب - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٤ .
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ط ١١ - ١٩٨٧ .
- الفهرست : ابن النديم - ت. رضا تجدد - طهران - ط ١ - ١٩٧١ .
- فهرسة ما رواه ابن خبير عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف -- ت. فرانسكروداره زيدان وتلميذه - المكتب التجاري - بيروت ومكتبة المثنى - بغداد ومؤسسة الخانجي - القاهرة - ١٩٨٣ .
- فوات الوفيات : صلاح الدين محمد بن شاکر الكتبي - ت. د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت ط ١ - ١٩٧٣ .
- حرف القاف -
- أبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة : د. محمد علي أبو حمدة - دار العربية - بيروت - ط ١ - ١٩٦٩ .
- القاضي الجرجاني : د. أحمد أحمد بدوي - دار المعارف - القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٠ .
- القاضي الجرجاني الأديب الناقد : د. محمود السمرة - المكتبة التجارية - بيروت - ط ١ - ١٩٦٦ .
- القاضي الجرجاني والنقد الأدبي : د. عبده عبد العزيز قلقيلة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٣ .
- القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزآبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ .
- ابن قتيبة : د. إسحاق موسى الحسيني - ترجمة : د. هاشم ياغي - المؤسسة

- العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ١ - ١٩٨٠ .
- ابن قتيبة العالم الناقد الأديب : د. عبد الحميد سند الجندي - المؤسسة المصرية العامة - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٣ .
- ابن قتيبة اللغوي : منهجه وآراؤه في الدراسات اللغوية : د. عبد الجليل التميمي - منشورات جامعة سبها - ليبيا - ط ١ - ١٩٨٨ .
- ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية : د. محمد رمضان الجربي - المنشأة العامة للنشر - طرابلس - ط ١ - ١٩٨٤ .
- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي : د. بدوي طبانة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ط ٣ - ١٩٦٩ .
- القرآن والصورة الأدبية : أ. د. عبد القادر حسين - دار المنار - القاهر - ط ١ - ١٩٩١ .
- قضايا النقد الأدبي والبلاغة عند اللغويين : حسن عبد الواحد - الهيئة المصرية للكتاب - الإسكندرية - ط ١ .
- قطعة نادرة من كتاب الأوراق للصولي - ت. أ. هلال ناجي - وزارة الثقافة - بغداد - ط ١ - ١٩٩٠ .
- قواعد الشعر : الإمام أبو العباس ثعلب - شرحه : د. محمد عبد المنعم خفاجي - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٦ .
- ت. د. رمضان عبد التواب - دار المعرفة - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٦ .
- حرف الكاف -
- الكامل في التاريخ : عز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري - مراجعة : د. محمد يوسف الدقاق - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧ .
- الكامل في ضعفاء الرجال : عبد الله بن عدي بن عبد الله الجرجاني - ت. يحيى مختار غزاوي - دار الفكر - بيروت - ط ٣ - ١٤٠٩ / ١٩٨٨ .
- الكامل في اللغة والأدب : أبو العباس المبرد - ت. د. محمد أحمد الدالي -

مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٧ .

- كتاب الاختيارين (المفضليات والأصمعيات) : صنعة : الأخفش الأصغر
أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل - ت. د. فخر الدين قباوة - دار الفكر - دمشق -
ط ١ - ١٩٩٩ .

- كتاب الأشربة : ابن قتيبة - ت. ياسين محمد السواس - دار الفكر - دمشق -
ط ١ - ١٩٩٨ .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله ، حاجي خليفة
- دار الفكر - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٠ .
- مكتبة المثنى - بغداد - ط ١ - د . ت .
- الكليات : أبو البقاء الكفوي - ت. د. عدنان درويش وأ. محمد المصري -
مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٣ .

- حرف اللام -

- لسان العرب : أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري - دار
صادر - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٤ .
- لسان الميزان : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني - دار
الفكر - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧ .
- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط ٢ - ١٩٧١ .

- حرف الميم -

- المؤلف والمختلف : الحسن بن بشر الأمدي - ت. د. عبد الستار فراج -
البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٦١ .
- ما اتفق لفظه واختلف معناه : أبو العباس المبرد - ت. أ. د. محمد رضوان
الداية - دار البشائر - دمشق - ط ١ - ١٩٩٢ .
- ما لم ينشر من تراث الجاحظ (و هي رسالته : الرد على المشبهة والمسائل
والجوابات في المعرفة) - ت. أ. د. حاتم الضامن - وزارة الإعلام - بغداد - ط ١ -
١٩٧٩ .

- المبرد : حياته وآثاره : أحمد حسنين القرني وعبد الحفيظ فرغلي علي - الهيئة المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٧١ .
- المبرد : حياته وآثاره ومنهجه من خلال كتابه المقتضب : د. جمعة المبروك عون - معهد الإنماء العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ .
- المبرد ودراسة كتابه الكامل : عبد الله الخطيب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية - ط ١ - ١٩٧٩ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : أبو الفتح نصر الله ضياء الدين بن الأثير - علق عليه : د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة - دار نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٣ .
- المثنى : أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي ، تح. عز الدين التنوخي ، دمشق ١٩٦٠ م .
- مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى - ت. محمد فؤاد سزكين - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٤ .
- مجالس ثعلب : أحمد بن يحيى ثعلب - ت. أ. عبد السلام هارون - دار المعارف - مصر - ط ١ - ١٩٤٨ .
- مجمع الزوائد ، ومنبع الفوائد : علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الريان للتراث - القاهرة / بيروت - ١٤٠٧ هـ .
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء : الراغب الأصبهاني أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - ط ١ - ١٩٦١ .
- المحمدون من الشعراء وأشعارهم : جمال الدين القفطي - ت. أ. رياض مراد - منشورات مجمع اللغة العربية - دمشق - ط ١ - ١٩٧٥ .
- المختار من كتاب الكامل : حسين نصار - الإدارة العامة للثقافة - مصر - ط ١ - ١٩٦٠ .

- المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفدا) : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفدا - دار المعرفة - بيروت - ط ١ - ١٩٧٠ .
- المختصر في تاريخ البلاغة : أ. د. عبد القادر حسين - دار غريب - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان : عبد الله بن أسعد بن علي الياضي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٠ .
- ت. د. عبد الله الجبوري - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٤ .
- مراتب النحويين : عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٥ .
- ط ٢ - ١٩٧٤ .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر : علي بن الحسين المسعودي - دققها : أ. يوسف أسعد داغر - دار الهجرة - قم - ط ١ - ١٩٨٢ .
- قم - ط ٢ - ١٩٨٤ .
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها : السيوطي - شرح : جاد المولى وأبو الفضل إبراهيم والبجاوي - المكتبة العصرية - صيدا - ط ١ - ١٩٩٢ .
- المستدرک علی الصحیحین : الحاكم ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري - ت. مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١١ / ١٩٩٠ .
- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : أحمد بن أيك شهاب الدين الحسامي الدماطي - ت. د. قيصر أبو فرح - دار الكتب العلمية - طبعة مصورة .
- مسند أحمد بن حنبل - مؤسسة قرطبة - مصر .
- مسند البزار ، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق - ت. د / محفوظ الرحمن زين الله - مؤسسة علوم القرآن - بيروت / المدينة - ط ١ - ١٤٠٩ .
- مسند الشاميين : الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد - ت. حمدي بن عبد المجيد السلفي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٤٠٥ - ١٩٨٤ .

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- مسند أبي عوانة ، يعقوب بن إسحاق الإسفرائني - دار المعرفة - بيروت .
- مسند أبي يعلى الموصلي ، أحمد بن علي بن المثنى - ت . حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث - دمشق - ط ١ - ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .
- مشكلة السرقات في النقد العربي : د . محمد مصطفى هدارة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٨ .
- مصطلحات بلاغية : د . أحمد مطلوب - المجمع العلمي العراقي - بغداد - ط ١ - ١٩٧٢ .
- المصطلح النقدي في نقد الشعر : إدريس الناقوري - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - ط ١ - ١٩٨٢ .
- مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين : د . الشاهد البوشيخي - دار القلم - الكويت - ط ٢ - ١٩٩٥ .
- مصنف ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد - ت . كمال يوسف الحوت - مكتبة الرشد - الرياض - ط ١ - ١٤٠٩ .
- مصنف عبد الرزاق ، أبو بكر بن همام الصنعاني - ت . حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٢ - ١٤٠٣ .
- المصون في الأدب : الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري - ت . أ . عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٢ .
- المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية : ابن حجر العسقلاني - ت . التويجري - دار العاصمة - الرياض - د . ت .
- المطول في شرح تلخيص المفتاح : سعد الدين مسعود التفتازاني الهروي (بهامشه : حاشية المير سيد شريف) - قم - إيران - مصورة - ١٤٠٧ هـ .
- المعارف : ابن قتيبة - ت . د . ثروة عكاشة - دار المعارف - مصر - ط ٢ - ١٩٦٩ .
- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء - ت . أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ود . شلبي - دار الكتب المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٥ .

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- المعاني الكبير : ابن قتيبة - صححه : عبد الرحمن اليماني - حيدرآباد - ١٩٤٩ .
- ابن المعتز وآراؤه البلاغية والنقدية : د. عبد الرازق أبو زيد - مكتبة الشباب - مصر - ط١ - ١٩٧٩ .
- ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان : محمد عبد المنعم خفاجي - مكتبة الحسين التجارية - مصر - ط١ - ١٩٤٩ .
- المعجم الأوسط : الطبراني - ت. طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني - دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥ .
- معجم البلدان : ياقوت الحموي - ت. فريد الجندي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٠ .
- معجم الشعراء : محمد بن عمران بن موسى المرزباني - البابي الحلبي - القاهرة - ط١ - ١٩٦٠ .
- ت. عبد الستار فراج - مكتبة النوري - دمشق - د. ت .
- المعجم الكبير : الطبراني - ت. حمدي بن عبد المجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ط٢ - ١٤٠٤ / ١٩٨٣ .
- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة - مطبعة الترقى - دمشق - ١٩٥٩ .
- دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط١ - د. ت .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : د. أحمد مطلوب - مطبعة المجمع العلمي العراقي - بغداد - ط١ - ١٩٨٣ .
- المعرب : أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي - ت. د. ف. عبد الرحيم - دار القلم - بيروت - ط١ - ١٩٩١ .
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب : أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري - ت. أ. د. مازن المبارك وأ. محمد علي حمد الله - دار الفكر - بيروت - ط٦ - ١٩٨٥ .

العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة : عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل ، المعروف بطاش كبري زاده - دار المعارف - حيدرآباد - ط ١ - ١٣٥٦ هـ .
- مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي - تعليق : نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ .
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم : الحسين بن محمد بن المفضل ، الراغب الأصبهاني - ت . صفوان داوودي - دار القلم - دمشق - ط ١ - ١٩٩٢ .
- المقابسات : أبو حيان التوحيدي - ت . السنديوي - دار سعاد الصباح - الكويت - ط ٢ - ١٩٩٢ .
- مقالات في النقد الأدبي : د . محمد مصطفى هدارة - دار القلم - القاهرة - ١٩٦٤ .
- المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين : د . فوزي السيد عبد ربه عبيد - دار الثقافة الدينية - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٣ .
- المقتضب : أبو العباس المبرد - ت . محمد عبد الخالق عضيمة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٤ .
- الملل والنحل : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني - ت . محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٥ .
- من الضائع من معجم الشعراء : د . إبراهيم السامرائي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٤ .
- المنتظم في التاريخ : ابن الجوزي - مراجعة : نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٢ .
- المنزلة الخامسة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة : قدامة بن جعفر - ت . د . طلال رفاعي - مكتبة الطالب الجامعي - مكة المكرمة - ط ١ - ١٩٨٧ .
- المنصف للسارق والمسروق منه : الحسن بن علي بن وكيع التنيسي - ت . محمد يوسف نجم - ضمن السلسلة التراثية - الكويت - ط ١ - ١٩٨٤ .

- مواد البيان : علي بن خلف الكاتب - ت. أ. د. حاتم الضامن - دار البشائر - دمشق - ط ١ - ٢٠٠٣ .

- الموازنة بين الشعراء : الحسن بن بشر الأمدي -

- الجزءان الأول والثاني ، ت. السيد أحمد صقر - دار المعارف - مصر - ط ١ - ١٩٦٥ . وط ٢ - ١٩٧٢ .

- الجزء الثالث ، ت. عبد الله حمد محارب - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٠ .

- الموجز في تاريخ البلاغة : أ. د. مازن المبارك - دار الفكر - دمشق - ط ٢ - ١٩٨١ .

- الموشح : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني -

- ت. علي محمد البجاوي - دار نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٥ .

- ت. محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٦٥ .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي -

- ت. علي محمد البجاوي - البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٣ .

- حرف النون -

- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة : ابن تغري بردي - نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية .

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن

محمد الأنباري - ت. د. إبراهيم السامرائي - مكتبة المنار - الأردن - ط ٣ - ١٩٨٥ .

- نصوص النظرية النقدية : د. جميل سعيد ود. داود سلوم - جامعة بغداد -

العراق - ط ١ - ١٩٧٠ .

- النظريات اللسانية والبلاغية عند الجاحظ : د. محمد الصغير - دار الحدائق -

بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ .

- نظرية الشعر عند قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر : د. غازي يموت - دار الفكر اللبناني - بيروت - ط ١ - ١٩٩٢ .
- النقد : د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ط ٥ - ١٩٨٤ .
- النقد الأدبي الحديث : د. محمد غنيمي هلال - دار الثقافة ودار العودة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٣ .
- النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع : د. محمد علي أبو حمدة - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان - ط ١ - ١٩٦٩ .
- نقد الشعر : قدامة بن جعفر - ت. محمد عبد المنعم خفاجي - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٨ .
- ت. كمال مصطفى - مطبعة الخانجي - القاهرة - ط ٣ - ١٩٧٨ .
- نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي : د. عبد السلام عبد العال - دار الفكر العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٧٨ .
- نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة : د. أمجد الطرابلسي - ترجمة : إدريس بلمليح - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء - ط ١ - ١٩٩٣ .
- نقد كتاب الموازنة بين الطائيين : د. محمد رشاد محمد صالح - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ .
- النقد المنهجي عند العرب : د. محمد مندور - النهضة المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٤٨ .
- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : أبو الحسن علي بن عيسى الرماني - ت. محمد خلف الله ود. زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة ط ١ - ١٩٥٤ ، وط ٢ - ١٩٦٨ .
- نواذر المخطوطات - ت. عبد السلام هارون - البابي الحلبي - القاهرة - ط ٢ - ١٩٧٢ .
- نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء

للمرزباني ، اختصار : يوسف بن أحمد اليعموري - ت. رودلف زلهاميم - دار النشر - فيسبادن - ١٩٦٤ .

- حرف الهاء -

' - هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : إسماعيل البغدادي - دار الفكر - بيروت - ط١ - ١٩٨٢ . نسخة مصورة .

- الهفوات النادرة : أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي - ت. صالح الأشر - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ط١ - ١٩٦٧ .

- أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية : د. بدوي طبانة - مطبعة المخيمر - القاهرة - ط١ - ١٩٥٢ .

- مطبعة الرسالة - مصر - ط٢ - ١٩٦٠ .

- حرف الواو -

- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - اعتناء : س. ديدرينغ - فيسبادن - ط١ - ١٩٧٠ . وط٢ - ١٩٧٤ .

- اعتناء : محمد عدنان البخيت - دار النشر فرانز شتايز شتوكارت - ١٩٩٣ .

- الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني - ت. أبو الفضل إبراهيم والبيجاوي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ط٣ - ١٩٦٦ .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته العيان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان - ت. د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ط١ - ١٩٦٨ - ١٩٧١ .

- حرف الياء -

- يتيمة الدهر : أبو منصور الثعالبي - ت. محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط٢ - ١٩٥٦ .

٢ - فهرست الرسائل الجامعية

- قدامة بن جعفر وتحقيق المنزلة الخامسة : د. مسفر الدميني - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - ١٩٧٧ .
- قدامة بن جعفر وتحقيق المنزلة السابعة : د. محمد عبد الحليم سمارة - رسالة دكتوراه - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - ١٩٧٤ .
- مصطلحات النقد الأدبي والبلاغة : د. احميدة النيفر - باريس - ١٩٧٠ .
- ابن المعتز بين النقد والبلاغة : د. هيثم ضويحي - رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة دمشق - ١٩٨٥ .
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، دراسة في المصادر والمصطلحات والشواهد : سيد محمد عبد الخالق - رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة - ١٩٨٧ .

٣- فهرست المجلات والدوريات

- ١- آفاق الثقافة والتراث - مركز جمعة الماجد للتراث - دبي :
- تأثر قدامة بن جعفر بالنقد اليوناني : د. ناول عبد الهادي - س ٢ - ع ٥ - حزيران - ١٩٩٤ .
- لباب تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح : أحمد بن يوسف اللبلي - ت. أ. د. حاتم صالح الضامن - س ١٠ - ع ٤٠ - كانون الثاني ٢٠٠٣ .
- ٢- البلاغ - العراق :
- رسالة في البلاغة والإيجاز : الجاحظ - ت. أ. د. حاتم صالح الضامن - ع ٩ - ١٩٧٨
- ٣- التراث العربي : مجلة تصدر عن اتحاد كتاب العرب - دمشق :
- الأسس الموضوعية لنشأة المصطلح في النقد العربي القديم : د. عبد الإله نبهان - س ١٥ - ع ٥٤ - ١٩٩٥ .
- ٤ - حوليات الجامعة التونسية :
- المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ : د. عبد السلام المسيري - ع ١٣ - ١٩٧٦ .
- رسالة في تفضيل البطن على الظهر : الجاحظ - ت. شارل بيلا - ع ١٣ - ١٩٧٦ .
- ٥ - حولية كلية الآداب - جامعة الكويت :
- الجاحظ والنقد الأدبي : د. ودیعة طه النجم - الحولية العاشرة - ١٩٨٨ - ١٩٨٩
- ٦- الرسالة - القاهرة :
- أبو هلال العسكري بين البلاغة والنقد : أ. عبد العزيز قلقيلة - س ٢ - ع ٢ - ١٩٥٢ .

٧- فصول - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة :

- أبو تمام وموازنة الأمدى : سوزان بينكتي - ترجمة : أحمد عثمان - م ٦ - ع ٢
- س ١٩٨٦ .

٨- مجلة كلية الآداب - جامعة الإمارات :

- المصطلح البلاغي وتطوره حتى نهاية القرن الرابع : د. أحمد طاهر حسنين -
ع ٦ - ١٩٩٠ .

٩- مجلة كلية الآداب - الجامعة الليبية - بنغازي :

- الأمدى في كتاب الموازنة : د. طه الحاجري - م ١ - ١٩٥٧ / ١٩٥٨ .

١٠- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي :

- البلاغة والنقد بين الاتصال والانفصال . أ. د. مازن المبارك . ع ١٦ / ١٩٩٨ .

- تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب : ابن بري - ت. أ. د. حاتم
صالح الضامن - ع ١٦ - يونيو - ١٩٩٨ .

١١- مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - مكة المكرمة :

- قدامة بن جعفر وجهوده النقدية في نظر الناقد المحدثين : محمود حسن
زيني - س ٤ - ع ٤٠ - ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

١٢- مجلة المجمع الأردني - الأردن :

- رسالة في محاسن أبي تمام ومساوئه - جمع وتحقيق : د. عبد الكريم الحبيب
- س ١٩ - ع ٤٨ - ١٩٩٥ .

١٣- مجلة مجمع اللغة العربية - دمشق :

- البرهان في وجوه البيان : أ. علي حسن عبد القادر - م ٢٤ - كانون الثاني -
١٩٤٩ .

- البلاغة بين اللفظ والمعنى : أ. نعيم الحمصي - م ٢٤ - تشرين الأول -
١٩٤٩ .

- رسائل الجاحظ ، عرض : أ. عبد القادر المغربي - ع ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ -
س ١٩٤٨ .

- رسالة الجد والهزل (ضمن كنز من كنوز الجاحظ) : الجاحظ - ت. أ. عبد
القادر المغربي - م ٢٤ - كانون الثاني - ١٩٤٩ .
- قدامة بن جعفر : أ. محمد كرد علي -

- كتاب الأوراق (أبو بكر الصولي) : أ. محمد كرد علي - م ٦ - شباط - ١٩٢٦ .

- كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة : أ. شفيق جبري - م ٢٦ - نيسان - ١٩٥١ .

- كتاب نقد الشعر لقدامه بن جعفر : أ. شفيق جبري - م ٢٦ - ج ١ - ١٩٥٧ .

- كتاب نقد النثر المنسوب لقدامه بن جعفر : أ. محمد كرد علي - م ١٨ -
١٩٤٣ .

١٤ - مجلة معهد المخطوطات العربية - الكويت :

- رسالة في استخراج المعنى : ابن طباطبا العلوي - ت. د. محمد بن عبد
الرحمن الهدلق - م ٣٢ - ح ١ - ١٩٨٨ .

١٥ - المورد - وزارة الثقافة - العراق (بحث مخصص للجاحظ - م ٧ - ع ٤ -
١٩٧٨) :

- صناعة الكلام : الجاحظ - ت. أ. د. حاتم صالح الضامن .

- فصول مختارة من كتب الجاحظ ، اختارها : عبيد الله بن حسان - ت. د.

يحيى الجبوري ود. نوري القيسي و أ. د. حاتم صالح الضامن .

- كتاب النساء : الجاحظ - ت. نوري حمودي القيسي .

فهرست الموضوعات

- الإهداء ٥
- تقديم الأستاذ الدكتور مازن المبارك ٦
- مقدمة الأستاذ الدكتور عبد القادر حسين ٨
- المقدمة ٩
- الباب الأول : العلاقة بين البلاغة والنقد في القرن الثالث الهجري ١٥
- تمهيد ١٧
- الفصل الأول : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي عثمان الجاحظ
(ت ٢٥٥ هـ) ١٩
- المبحث الأول : التعريف بالجاحظ ٢١
- نسبه ومكانته العلمية ٢١
- من شيوخه ٢٣
- من تلاميذه ٢٣
- من مؤلفاته ٢٣
- وفاته ٢٧
- المبحث الثاني : البلاغة عند الجاحظ ٢٨
- المبحث الثالث : النقد عند الجاحظ ٦٥
- الفصل الثاني : العلاقة بين البلاغة والنقد عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدينوري (٢٠٠ هـ - ٢٧٦ هـ) ٨٣
- المبحث الأول : التعريف بأبن قتيبة ٨٥
- نسبه وولادته ومكانته ٨٥
- من شيوخه ٨٦
- من تلاميذه ٨٦

- مؤلفاته ٨٧
- وفاته ٩٠
- المبحث الثاني : البلاغة عند ابن قتيبة ٩٠
- المبحث الثالث : النقد عند ابن قتيبة ١٢٦
- الفصل الثالث : العلاقة بين البلاغة والنقد عند المبرد
(٢١٠هـ - ٢٨٥هـ ١٤٣)
- المبحث الأول : التعريف بالمبرد ١٤٥
- نسبه ومولده ومكانته ١٤٥
- من شيوخه ١٤٦
- من تلاميذه ١٤٧
- من آثاره ١٤٧
- وفاته ١٥١
- المبحث الثاني : البلاغة عند المبرد ١٥١
- المبحث الثالث : النقد عند المبرد ١٧٧
- الفصل الرابع : العلاقة بين البلاغة والنقد عند الإمام أبي العباس ثعلب
(٢٠٠هـ - ٢٩١هـ ١٩١)
- المبحث الأول : التعريف بالإمام ثعلب ١٩٣
- نسبه وولادته ومكانته ١٩٣
- شيوخه وتلاميذه ١٩٤
- مصنفاته ١٩٥
- المبحث الثاني : البلاغة عند الإمام ثعلب ١٩٨
- المبحث الثالث : النقد عند الإمام ثعلب ٢١٣
- الفصل الخامس : العلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) ٢١٩
- المبحث الأول : التعريف بابن المعتز ٢٢١

- نسبه وولادته وآراء العلماء فيه ٢٢١
- مصنفاته ٢٢٢
- وفاته ٢٢٣
- المبحث الثاني : البلاغة عند ابن المعتز ٢٢٣
- المبحث الثالث : النقد عند ابن المعتز ٢٣٤
- الباب الثاني : العلاقة بين البلاغة والنقد في القرن الرابع الهجري ٢٤٩
- الفصل الأول : العلاقة بين البلاغة والنقد عند ابن طباطبا العلوي
(ت ٣٢٢ هـ) ٢٥١
- المبحث الأول : التعريف بابن طباطبا ٢٥٣
- نسبه ومكانته ٢٥٣
- آثاره ٢٥٤
- المبحث الثاني : البلاغة عند ابن طباطبا ٢٥٦
- المبحث الثالث : النقد عند ابن طباطبا ٢٧٠
- الفصل الثاني : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي بكر الصولي
(ت ٣٣٥ هـ) ٢٩٣
- المبحث الأول : التعريف بأبي بكر الصولي ٢٩٥
- نسبه ومكانته ٢٩٥
- من شيوخه ٢٩٦
- من تلاميذه ٢٩٦
- مؤلفاته ٢٩٦
- وفاته ٢٩٨
- المبحث الثاني : البلاغة عند أبي بكر الصولي ٢٩٨
- المبحث الثالث : النقد عند أبي بكر الصولي ٣٠٢
- الفصل الثالث : العلاقة بين البلاغة والنقد عند قدامة بن جعفر
(ت ٣٣٧ هـ) ٣١٩

- المبحث الأول : التعريف بقدامة بن جعفر ٣٢١
- نسبه ومكانته ٣٢١
- ثقافته ٣٢٢
- مؤلفاته ٣٢٣
- وفاته ٣٢٦
- المبحث الثاني : البلاغة عند قدامة بن جعفر ٣٢٦
- المبحث الثالث : النقد عند قدامة بن جعفر ٣٤٨
- الفصل الرابع : العلاقة بين البلاغة والنقد عند الحسن بن بشر الأمدي
(ت ٣٧٠ هـ) ٣٥٩
- المبحث الأول : التعريف بالحسن بن بشر الأمدي ٣٦١
- نسبه ومكانته ٣٦١
- من شيوخه ٣٦٢
- من تلاميذه ٣٦٢
- مؤلفاته ٣٦٢
- المبحث الثاني : البلاغة عند الأمدي ٣٦٤
- المبحث الثالث : النقد عند الأمدي ٣٨٦
- الفصل الخامس : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي عبيد الله المرزباني
(٢٩٦ هـ - ٣٨٤ هـ) ٤٠١
- المبحث الأول : التعريف بالمرزباني ٤٠٣
- نسبه وولادته ومكانته ٤٠٣
- من أبرز شيوخه ٤٠٣
- من أبرز تلاميذه ٤٠٤
- مؤلفاته ٤٠٤
- المبحث الثاني : البلاغة عند المرزباني ٤٠٨

- ٤١٣ المبحث الثالث : النقد عند المرزباني
- الفصل السادس : العلاقة بين البلاغة والنقد عند القاضي علي بن
- ٤٢١ عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ)
- ٤٢٣ المبحث الأول : التعريف بالقاضي الجرجاني
- ٤٢٣ ● نسبه ومكانته
- ٤٢٤ ● مؤلفاته
- ٤٢٥ ● وفاته
- ٤٢٦ المبحث الثاني : البلاغة عند القاضي الجرجاني
- ٤٣٧ المبحث الثالث : النقد عند القاضي الجرجاني
- الفصل السابع : العلاقة بين البلاغة والنقد عند أبي هلال العسكري
- ٤٥٣ (توفي بعد ٣٩٥ هـ)
- ٤٥٥ المبحث الأول : التعريف بأبي هلال العسكري
- ٤٥٦ ● حياته ونشأته ومكانته
- ٤٥٦ ● من شيوخه
- ٤٥٧ ● من تلاميذه
- ٤٥٧ ● من مؤلفاته
- ٤٦٢ ● وفاته
- ٤٦٢ المبحث الثاني : البلاغة عند أبي هلال العسكري
- ٤٨٦ المبحث الثالث : النقد عند أبي هلال العسكري
- ٤٩٤ الخاتمة
- ٤٩٧ فهرست المصادر والمراجع
- ٤٩٧ فهرست الكتب
- ٥٢٥ فهرست الرسائل الجامعية
- ٥٢٦ فهرست المجلات والدوريات
- ٥٢٩ فهرست الموضوعات



مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خليفة بن زايد آل نهيان

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص. ب. 55156، دبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 00971 4 2624999 / 00971 4 2625999 فاكس: 00971 4 2696950

www.almajidcenter.org - E-mail: info@almajidcenter.org